شخصية المرأة المسلمة

كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة

بقلم
الدكتور محمد علي الهاشمي

دار البشائر الإسلامية

شخصيّة

المرأة المسلمة

ⓒ محمد علي الهاشمي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهاشمي ، محمد علي

شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة ــ ط ٨ ــ الرياض .

٥٠٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

ردمك ٥-٢٧٩-٣٦-٩٩٦٠

١ ــ المرأة في الإسلام ٢ ــ الأخلاق الإسلامية أ ــ العنوان

ديوي ٢١٩,١ ٢٠/١٩٤٦

رقم الإيداع: ٢٠/١٩٤٦

ردمك: ٥-٢٧٩-٣٦-٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثامنة

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قامت بطباعته وإخراجه شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤ وتطلب منها

هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٩٦١١/٧٠٤٩٦٣٠

e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

٢١٠/٤
هـ م ش

شخصية المرأة المسلمة

كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة

بقلم
الدكتور محمد علي الهاشمي

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّالِثَة

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، حمدَ عبدٍ ضارعٍ مُخْبِتٍ أَوّاهٍ مُنيبٍ فقيرٍ إلى هدايته وتوفيقه وعونه على ما تفضّل به وأكرم وأنعم، إذ وفقني إلى تأليف هذا الكتاب الذي لاقى إقبالاً من القرّاء ورَواجاً لم أكن أتوقعهما؛ فقد نفِدت نسخُهُ من الطبعة الأولى والثانية بعد شهور قليلة من صدورهما، وكثر الطلب عليه، فبادرت إلى طباعته طبعة ثالثة بعد أن أضفتُ إليه فصلاً جديداً بعنوان «المرأةُ المسلمةُ مع كَنائنِها وأَصْهارِها»، وزدتُ فيه زيادات مهمة، وعدت عليه بمزيد من التحقيق والتنقيح.

ولم يقتصر رواج هذا الكتاب على قرّاء العربية فحسب، بل تعدّاه إلى قرّاء التركية؛ فقد ترجمته أكثر من دار نشر في تركية، وطبعت منه عشرات الآلاف من النسخ، ووصلتني نسخ من طبعتين من هذه الطبعات باللغة التركية. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على ظمأ الشعوب المسلمة غير العربية إلى النهل من ينابيع الإسلام الصافية، من كتب إسلامية هادفة في عالمنا العربي وبخاصة عن المرأة المسلمة، تتسابق دور النشر إلى ترجمتها إلى لغتها، مقدمةً إلى تلك الشعوب التي استيقظت على هَدْيِ الإسلام الحنيف الزّادَ الفكريَّ والروحيَّ الأصيلَ، وإنه لخير زاد للشعوب المسلمة في نهضتها المعاصرة.

ووردتني عروضٌ من عدد من دور النشر لترجمة هذا الكتاب إلى الإنكليزية والفرنسية، وستتم الترجمة إلى هاتين اللغتين قريباً بإذن الله.

فللّه الحمد والمِنَّة، وله الفضلُ أولاً وآخراً، والحمد لله رب العالمين.

الرياض في ١٥/ ١٠/ ١٤١٦

٤/ ٣/ ١٩٩٦

الدكتور محمد علي الهاشمي

مُقدّمةُ الطّبعةِ الأولى

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أشرف الأنبياء والمرسلين، ومَنْ أرسله الله حياة للعرب ورحمة للعالمين.

أما بعد، فقد كانت أمنيّةً من أحلى الأماني التي داعبت خاطري أن أخرج كتاباً عن المرأة المسلمة منذ وقت طويل. ولم تتيسّر لي الأسباب لتحقيق تلك الأمنيّة؛ إذ كانت تصرفني صوارف الحياة، وتشغلني شواغلها، وأنا معلّق القلب، شديد الرغبة، في إخراج ذلك الكتاب الذي يجلّي شخصية المرأة المسلمة الراشدة المستنيرة بتعاليم دينها، الواعية هَدْيَه الحكيم، المنصاعة لأمره، الواقفة عند حدوده.

وكانت السنون تمر، وأنا في غمرة الشواغل والصوارف، لا أزداد إلاّ تعلُّقاً بهذا الموضوع، واهتماماً بإخراجه إلى حيِّز التنفيذ، لِما كان له من أهمية في نفسي، وما كنت أقدِّره من الوصول فيه إلى نتائج وثمرات، تضيء حياة المرأة المسلمة، وتجلّي شخصيتها كما أراد الله لها أن تكون، وتعرّفها المكانة العالية التي رفعها الله إليها.

ولبثت في ذلك الانشغال عن هذا الكتاب والتصميم عليه سنين، حتى أكرمني الله وأعانني على إخراجه في هذا العام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

وكان مبعث اهتمامي في تجلية شخصية المرأة المسلمة، ما كنت ألاحظه في حياة المرأة المعاصرة من تناقضات ومبالغات، وإفراط في جانب وتفريط في جانب آخر؛ كأن تجد المرأة المسلمة تقية صالحة، تقوم بشعائر دينها، ولكنها تتساهل في أخذها بأسباب النظافة في فمها وجسمها، فلا تأبه للرائحة المنفِّرة تنبعث من فمها أو جسمها. أو تجدها معنيّةً بصحتها ونظافة جسمها، ولكنها مقصِّرةٌ في عبادتها وقيامها بشعائر دينها. أو تجدها منصرفةً إلى العبادة قائمةً بها، ولكنها لا تحمل تصوّراً صحيحاً عن نظرة الإسلام الكلية للكون والحياة والإنسان. أو تجدها من المتدينات، ولكنها لا تمسك لسانها في المجالس عن الغِيبة والنَّميمة. أو تجدها متدينةً واعيةً، ولكنها مخلَّةٌ في تعاملها مع جيرانها وصديقاتها. أو تجدها حسنةَ المعاملة للغريبات، ولكنها مقصّرةٌ في حق والديها وبرهما وإكرامهما. أو تجدها برّةً بوالديها، ولكنها مقصّرةٌ في حق زوجها، متساهلةٌ في حسن تبعُّلها إياه، تأخذ أحسن زينتها في المجتمعات النسائية، وتهمل هيئتها وشكلها أمام زوجها. أو تجدها معنيّةً بزوجها، ولكنها لا تعينه على برّ والديه، ولا تشجِّعه على البرّ والتقوى والعمل الصالح. أو تجدها قائمةً بحق زوجها، ولكنها مقصرةٌ غافلةٌ عن تربية أولادها وتوجيههم وتكوين شخصياتهم ومراعاة نفسياتهم وعقولهم وأسنانهم، وما يحيط بهم من بيئة مؤثِّرة، وجوّ قاسر غلّاب. أو تجدها قائمة بذلك كلّه، ولكنها مقصِّرة في صلة رَحِمها. أو تجدها واصلةَ رَحِمَها، ولكنها مقصِّرةٌ في صِلاتها الاجتماعية، منصرفةٌ إلى شؤونها الخاصة، لا تهتم بأمر المسلمين والمسلمات. أو تجدها مهتمةً

بشؤونها الخاصة والعامة، ولكنها مهملةٌ تعهُّدَ عقلها بالمطالعة المستمرة والازدياد من العلم والمعرفة، . أو تجدها مستغرقةً في المطالعة والازدياد من العلم والمعرفة، ولكنها مهملةٌ شؤونَ بيتها وأولادها وزوجها.

وإن تعجب فعجب أن يقع هذا التناقضُ أو بعضُه ممَّن يُحْسَبْنَ على الجيل الواعي المثقف من المسلمات اللواتي نهلن من معين الثقافة الإسلامية، وتزوّدن منها بزاد غير قليل! إنها الغفلة أو اللامبالاة أحياناً، أو عدمُ الإحاطة بفكرة التوازن التي أقام عليها الإسلامُ نظرتَه الكليةَ للإنسان والحياة والكون، بحيث يُعْطَى لكل شيء في هذه الحياة حقُّه، ولا يُهْدَرُ جانبٌ منه على حساب جانب آخر.

إن مَنْ يستقرىء النصوص الصحيحة التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله، مبيّنةً السلوكَ الأمثلَ الذي ينبغي للمرأة المسلمة أن تأخذ به في علاقتها بربّها، وفي تكوين نفسها، وفي علاقاتها بغيرها من الأقربين والأبعدين، وفي تعاملها الاجتماعي عامة، ليدهش من غزارة تلك النصوص واستيعابها لكل صغيرة وكبيرة في حياة المرأة، تضع لها المعالم والصُّوَى الهاديةَ إلى حياة راشدة متّزنة قويمة، تضمن لصاحبتها السعادةَ والنجاحَ والتفوقَ في الدنيا، والمثوبةَ والفوزَ العظيمَ في الآخرة.

ولقد أذهلني ما رأيت من تخلُّف المرأة المعاصرة المنتسبة للإسلام عن المستوى السامي الوضيء الذي أراد الله لها أن تكون فيه، وليس بينها وبين بلوغ ذلك المستوى العالي إلاَّ أن تعكف على معرفة شخصيتها الأصيلة التي صاغتها نصوص القرآن الكريم والسنَّة المطهرة، وجعلت منها امرأة راقية نبيلة متميِّزة بمشاعرها وأفكارها وتصرفاتها وسلوكها ومعاملاتها، وجعلت ذلك فيها ديناً يجب أن تعضّ عليه بالنواجذ.

وإن بلوغ المرأة ذلك المستوى الرفيعَ لأَمْرٌ بالغ الأهمية في حياة الإنسانية عامة، لِما للمرأة من أثر كبير في تربية الأجيال، وصناعة الأبطال، وغرس الفضائل، وتثبيت القِيَم، وتنضير الحياة بالحب والمودة والرحمة والجمال، وملء البيوت بالأمن والراحة والسكن والرضا والاستقرار.

والمرأة المسلمة هي المرأة الوحيدة المهيّأة لإشاعة ذلك كله في دنيا المرأة المعاصرة المتعبة المكدودة المرهقة من لُغوب الفلسفة المادية، ونَصَب الحياة الجاهلية التي عمَّت المجتمعاتِ الشاردةَ عن هَدْي الله، وذلك بمعرفتها نفسَها، وإقبالِها على مكوِّناتها الذاتية، ومناهلها الفكرية النقيَّة، وصياغةِ شخصيتها الصياغة الأصيلة التي ارتضاها لها الله ورسوله، وميّزها بها على نساء العالمين.

ولتجلية ذلك كلّه رحت أجمع النصوص الصحيحة من كتاب الله وسنَّة رسوله الناطقة بتكوين شخصية المرأة، وأصنفها حسب أبوابها وموضوعاتها، فانتظم لديّ مخطّط متكامل للبحث في شؤون المرأة الخاصة والعامة على الشكل التالي:

١ ــ المرأة المسلمة مع ربها.

٢ ــ المرأة المسلمة مع نفسها.

٣ ــ المرأة المسلمة مع والديها.

٤ ــ المرأة المسلمة مع زوجها.

٥ ــ المرأة المسلمة مع أولادها.

٦ ــ المرأة المسلمة مع كنائنها وأصهارها.

٧ ــ المرأة المسلمة مع أقربائها وذوي رحمها.

٨ ــ المرأة المسلمة مع جيرانها.

٩ ــ المرأة المسلمة مع أخواتها وصديقاتها.

١٠ ــ المرأة المسلمة مع مجتمعها.

ولقد برزت لي من خلال تدبّري هذه النصوص حقيقة كبرى، كثيراً ما نمرُّ بها ونحن عنها غافلون، وهي أن رحمة الله بالمرأة المسلمة كانت كبيرة كبيرة، إذ انتشلها بالإسلام من وهدة الهوان والضعة والذل والوأد والتبعية المطلقة للرجل، ورفعها إلى علياء الأنوثة العزيزة المكرَّمة المصونة المكفية مؤونة لُغوب الكدح ونَصَب الكفاح في سبيل لقمة العيش، ولو كانت غنيَّة، وجعلها مستقلَّة بمالها إن كانت ذات مال، مساوية للرجل في الكرامة الإنسانية والتكاليف الشرعية عامةً، لها حقوق وعليها واجبات، كما للرجل حقوق وعليه واجبات، وهي والرجل سيّان أمام الله عز وجل في ثوابه وعقابه.

ولم يقتصر فضل الإسلام على المرأة بنقلها هذه النقلة الهائلة من وهدة التخلف والذل والضياع إلى علياء التقدم والعزَّة والأمن والكفاية، بل عُنِيَ عناية بالغة أيضاً بتكوين شخصيتها تكويناً كاملاً شاملاً كلَّ جانب من جوانب شخصيتها الفردية والأسرية والاجتماعية، بحيث غدت إنساناً راقياً جديراً بالاستخلاف في الأرض.

فكيف كوَّن الإسلام شخصيتها؟ وكيف بلغ في هذا التكوين الشَّأْو الرفيع الذي لم تبلغه المرأة في تاريخها إلاّ في هذا الدين؟

هذا ما سيجد القارىء الجواب عنه فيما يستقبل من صفحات. واللَّهَ أسأل أن يتقبل عملي هذا، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به،

ويجعله نوراً لي في حياتي، وزاداً بعد مماتي، وشفيعاً لي يوم الحساب، وأن يلهمني فيه الصواب والسَّداد والرَّشاد، ويجنِّبني كبوة الفكر، وضلال القصد، وجُموح القلم، وشَطَط القول، ووهن الحجَّة، وفضول الكلام.

الرياض في ٢٠/٧/١٤١٤
٢/١/١٩٩٤

الدكتور محمد علي الهاشمي

١
المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ مَعَ رَبِّهَا

مُؤْمِنَـةٌ يَقِظَـةٌ:

إن أبرزَ ما يميز المرأة المسلمة إيمانُها العميق بالله، ويقينُها بأن ما يجري في هذا الكون من حوادث، وما يترتب على الناس من مصائر، إنما هو بقضاء مـن الله وقَدَر، وأن مـا أصـاب الإنسانَ لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وما على الإنسان في هذه الحياة إلاَّ أن يسعى في طريق الخير، ويأخذ بأسباب العمل الصالح، في دينه ودنياه، متوكلاً على الله حق التوكّل، مسلّماً أمره لله، موقناً أنه فقير دوماً لعونه وتأييده وتسديده ورضاه.

وقصة هاجر لمّا تركها إبراهيم عليه السلام عند البيت بمكة المكرمة بجانب دوحة فوق زمزم، ولم يكن في مكة يومئذ أحد، وليس فيها ماء، وليس مع هاجر سوى طفلها الرضيع إسماعيل، تضع أمام المرأة المسلمة أروع الأمثلة على عمق الإيمان بالله، وصدق التوكّل عليه؛ إذ قالت هاجر لإبراهيم بكل رصانة وثقة وهدوء وطمأنينة: «آلله أمرك بهذا يا إبراهيم؟» فقال إبراهيم عليه السلام: «نعم»، وكان جوابها المليء بالرضا والاقتناع

والاستبشار والأمن: «إذنْ لا يضيّعنا»[١].

لقد كان موقفاً عصيباً بالغ الصعوبة: رجل يترك امرأته ورضيعها في أرض قفر، لا نبات فيها ولا ماء ولا إنسان، وينقلب متوجهاً إلى بلاد الشام البعيدة، لم يترك لهما إلاَّ جِراباً فيه تمر، وسِقاءً فيه ماء!! ولولا الإيمان العميق الذي ملأ نفس هاجر، ولولا صدق التوكل على الله الذي أترع مشاعرها وأحاسيسها لما استطاعت أن تتحمّل هول الموقف، ولاَنْهارَتْ من أول لحظة فيه، ولما كانت تلك المرأة الخالدة التي يذكرها حجاج بيت الله الحرام والمعتمرون آناء الليل وأطراف النهار، كلما نهلوا من ماء زمزم الطَّهور، وكلما سَعَوْا بين الصفا والمروة، مثلَ سَعْيِها ذاك في ذلك اليوم العصيب.

ولقد أثمرت هذه اليَقَظَةُ الإيمانية ثمرات عجيبة في حياة المسلمين والمسلمات، إذ أيقظت الضمائر، وأرهفت المشاعر، ونبّهت القلوب إلى أن الله تبارك وتعالى شاهد مطّلع على السرائر، وأنه مع الإنسان أينما كان. وليس أدلّ على يقظة الضمير واستحضار خشية الله تعالى في السرّ والعلانية من قصة الفتاة المسلمة التي وردت في صفة الصفوة ووَفيات الأعيان، ونقلها ابن الجوزي في كتابه أحكام النساء[٢]:

قال: «عن عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: بينا أنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يعسّ المدينة، إذ أعيا، فاتكأ على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء: باب يزفّون. انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ط. دار المعرفة ٦/٣٩٦.

(٢) ص ٤٤١، ٤٤٢.

جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت: يا أمتاه وما علمتِ ما كان عَزْمَة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنيّة؟ قالت: إنه أمر منادياً فنادى ألا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنيّة قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك في موضع لا يراك عمر، فقالت الصبيّة لأمها: ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع ذلك، فقال: يا أسلم، اِمْضِ إلى الموضع فانظر مَنِ القائلة، ومَنِ المقول لها، وهل لهم من بعل؟ قال: فأتيتُ الموضع، فنظرت فإذا الجاريةُ أَيِّمٌ[1]، وإذا تلك أمها، وإذا ليس لهم رجل، فأتيتُ عمر فأخبرته، فدعا وُلْدَهُ، فجمعهم، قال: هل فيكم مَنْ يحتاج إلى امرأة أزوّجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن لي زوجة، وقال عاصم: لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوّجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنتُ عمر بن عبد العزيز».

إنها يقظة الضمير التي أصّلها الإسلام في نفس هذه الفتاة المسلمة، فإذا هي تقيّة مستقيمة في سرّها وعلانيتها، وفي خَلْوَتِها وجَلْوَتها، ليقينها أن الله معها دوماً يسمع ويرى، وهذا هو الإيمان الحق، وهذه هي ثمرته النفيسة التي سمت بصاحبتها إلى مرتبة الإحسان، وكان من ثواب الله العاجل لها أن أكرمها بهذا الزواج المبارك الميمون، فكان من نسلها خامس الخلفاء الراشدين، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وعقيدة المرأة المسلمة الواعية نقية صافية، لا تشوبها شائبة من جهل،

---

(١) أي لا زوج لها.

ولا يكدّر صفاءها غَبَش من خرافة، ولا يطفىء تألقها شبح من وهم. إنها العقيدة القائمة على الإيمان بالله الواحد الأحد، العليّ الصمد، القادر على كل شيء، بيده مقاليد الأمور، وإليه يرجع الأمر كلّه: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1].

وهذا الإيمان العميق الواضح النقيّ يزيد شخصية المرأة المسلمة قوة ووعياً ونضجاً، فإذا هي ترى الحياة على حقيقتها، دار ابتلاء واختبار، ستعرض نتائجهما في يوم آتٍ لا ريبَ فيه:

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[3].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[4].

ويومئذ سيُجْزَى الإنسانُ على عمله، إنْ كان خيراً فخيرٌ، وإن كان شرّاً فَشَرٌّ، دون أن تَمَسّهُ أثارةٌ من ظلم: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾[5]. وسيكون ميزان الحساب دقيقاً كلَّ

---

(١) المؤمنون: ٨٨، ٨٩.

(٢) الجاثية: ٢٦.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

(٤) الملك: ١، ٢.

(٥) غافر: ١٧.

الدقة، للإنسان أو عليه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[١].

ولن يَعْزُبَ عن ربّ العزّة والجلال في هذا اليوم مثقالُ حبّة من خردل: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾[٢].

ولا ريبَ أن المرأة المسلمة الواعية الراشدة إذ تَتملّى معاني هذه الآيات البينات، وتتأمل بعين بصيرتها ذلك اليوم العصيب، تقبل على ربّها إقبال الطائعات المنيبات الشاكرات، وتعدّ لآخرتها في هذا اليوم ما تستطيع من الأعمال الصالحات.

عـابِدَةٌ رَبَّهـا:

لا بدع أن تقبل المرأة المسلمة الصادقة على عبادة ربّها بهمة عالية، لأنها تعلم أنها مكلّفة بالأعمال الشرعية التي فرضها الله على كلّ مسلم ومسلمة؛ ومن هنا هي تؤدي فرائض الإسلام وأركانه أداءً حسناً، لا ترخّص فيه ولا تساهل ولا تفريط.

تُقِيمُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس:

فهي تقيم الصلوات الخمس في أوقاتها، لا تلهيها عن إقامتها في مواعيدها شواغل البيت وأعباء الأمومة والزوجية؛ إذ الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين[٣]. وهي أفضل الأعمال

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ١/١٤٧.

وأجلّها، كما بيّن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أفضلُ؟ قال: «الصّلاةُ على وَقْتِها»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «بِرُّ الوالِدَيْنِ»، قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «الجِهادُ في سبيلِ اللَّهِ»(١).

ذلك أن الصلاة هي الصلة بين العبد وربه، وهي النبع الثرّ الذي يمتاح منه الإنسان القوة والثبات والرحمة والرضوان، ويغسل به أدرانه وذنوبه وخطاياه:

فعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهراً بِبابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ(٢) شَيْءٌ؟» قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ، قالَ: «فذلكَ مثلُ الصَّلواتِ الخَمْس، يَمْحو اللَّهُ بِهِنّ الخَطايا»(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الصَّلواتِ الخَمْس كَمَثَلِ نَهْرٍ غَمْرٍ جارٍ على بابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يومٍ خمسَ مَرّاتٍ»(٤).

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة للإمام البغوي ٢/١٧٦، كتاب الصلاة: باب فضل الصلوات الخمس. ط. المكتب الإسلامي.

(٢) أي وسخه.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٢/ ١٧٥، كتاب الصلاة: باب فضل الصلوات الخمس.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي في كتاب المساجد: باب فضل الصلاة المكتوبة في جماعة ٥/ ١٧٠ نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

فالصلاة رحمة من الله إلى عباده، يفيئون إلى ظلالها خمسَ مرات في اليوم، يحمدون فيها ربهم، ويسبّحونه، ويستمدون منه العون، ويطلبون الرحمة والهداية والغفران. ومن هنا كانت الصلاة طَهوراً للمصلّين والمصلّيات، تمحو عنهم الخطايا، وتكفر الذنوب والزّلّات.

فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن امْرِئٍ مُسْلِمٍ تحضُرُهُ صَلاةٌ مَكْتُوبَةٌ فيُحْسِنُ وُضوءَها، وخُشوعَها، ورُكوعَها، إلاَّ كانَتْ كفّارةً لِما قَبْلَها مِنَ الذُّنوبِ، ما لَمْ تُؤْتَ كَبيرةٌ، وذلك الدَّهْرَ كُلَّهُ»(١).

والأحاديث والآثار والأخبار في فضل الصلاة وأهميتها وخيرها وبركتها على المصلّين والمصلّيات كثيرة مستفيضة، وكلها تؤكد الخير الثرّ العميم الذي يجنيه المصلّون والمصلّيات منها كلما وقفوا بين يدي الله قانتين خاشعين.

قد تشهدُ الجَماعةَ في المَسْجِد:

ولقد أعفىٰ الإسلام المرأة من لزوم حضورها صلاة الجماعة في المسجد، ولكنه في الوقت نفسه أباح لها أن تخرج إلى المسجد لحضور الجماعة، وقد خرجت فعلاً وصلّت وراء رسول الله ﷺ.

فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «لَقَدْ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يُصَلّي الفجرَ، فيَشْهدُ مَعَهُ نِساءٌ من المُؤْمِنات مُتَلَفِّعاتٍ في مُروطِهِنَّ(٢)، ثم يَرْجِعْنَ إلى بُيوتِهِنَّ، ما يَعْرِفُهُنَّ

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١١٢ كتاب الطهارة: باب فضل الوضوء والصلاة عقبه.

(٢) أي متلففات بحجابهنّ.

أَحَدٌ»(١).

وعنها أيضاً: «كُنَّ نِساءُ المُؤْمِناتِ يَشْهَدْنَ مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ صَلاةَ الفَجْرِ مُتَلَفِّعاتٍ بِمُروطِهِنَّ، ثمّ يَنْقَلِبْنَ إلى بُيوتِهِنَّ حينَ يَقْضِينَ الصَّلاةَ، لا يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الغَلَسِ»(٢).

وكان رسول الله ﷺ يوجز في صلاته حينما يسمع بكاء طفل، تقديراً منه لانشغال أمه عليه، فيقول في الحديث المتفق على صحته: «إنّي لأَدْخُلُ في الصَّلاةِ، وأنا أُريدُ إطالَتَها، فَأَسْمَعُ بُكاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ في صَلاتي مِمّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكائِهِ»(٣).

ولقد كانت رحمة الله كبيرةً بالمرأة إذ لم يكلّفها لزوم الجماعة في المسجد في الصلوات الخمس المفروضة، ولو كلّفها، لأرهقها من أمرها عسراً، ولناء كاهلها بها، وعجزت عن أدائها في المسجد، كما نرى كثيراً من الرجال يعجزون عن المداومة الدقيقة على الجماعة في المساجد، فيضطرون إلى الصلاة حيث هم، في مقارّ أعمالهم، أو في بيوتهم، في كثير من الأحيان؛ ذلك أن أعباء المرأة المنزلية وشواغلها العديدة في القيام على شؤون بيتها وزوجها وأولادها لا تمكّنها من مغادرة بيتها خمس مرات في اليوم، بل تجعل من المستحيل عليها أن تنهض بهذا كلّه. وبذلك تتضح الحكمة العالية من قَصْرِ لزوم الجماعة في المساجد على الرجال دون النساء، وجَعْلِ صلاة المرأة في بيتها خيراً لها من صلاتها في المسجد، وتَرْكِ حرية

---

(١) فتح الباري ١/ ٤٨٢ كتاب الصلاة: باب في كم تصلي المرأة في الثياب.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٢/ ١٩٥ كتاب الصلاة: باب تعجيل صلاة الفجر.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٣/ ٤١٠ كتاب الصلاة: باب التخفيف لأمر يحدث.

الاختيار لها، إن شاءت صلّت في بيتها، وإن شاءت خرجت للصلاة في المسجد، وليس لزوجها إذا استأذنته للخروج للمسجد أن يمنعها، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ في عديد من الأحاديث، ومنها قوله: «لا تَمْنَعوا نِساءَكُمُ المساجِدَ، وبُيوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»[١].

وقوله: «إذا اسْتَأْذَنَتْ أَحَدَكُمْ امرأَتُهُ إلى المَسْجِدِ فَلا يَمْنَعْها»[٢].

ولقد امتثل الرجال أمرَ رسول الله ﷺ، فسمحوا للنساء بالخروج إلى المسجد، ولو كانَ هذا الخروج خلاف رأيهم ومزاجهم. وليس أدل على ذلك من حديث عبد الله بن عمر، قال: «كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لِمَ تَخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تَمْنَعوا إماءَ اللَّهِ مَساجِدَ اللَّهِ»[٣].

إزاء هذا الهَدْي النبوي بالسماح للمرأة بغشيان المسجد، والنَهي عن منعها منه، كانت المساجد تشهد تردّد المرأة عليها في العهد النبوي وبعده كلما تيسّر لها ذلك، تؤدي الصلاة، وتشهد دعوة الخير، وتسمع الموعظة، وتشارك في حياة المسلمين العامة. وقد كان ذلك منذ شُرِعت صلاة الجماعة في حياة المسلمين، وكان المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس قبل تحوّل

(١) رواه أبو داود ١/٢٢١ في كتاب الصلاة: باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، وأحمد ٢/٧٦ وهو حديث حسن لغيره.

(٢) فتح الباري ٢/٣٥١ كتاب الأذان: باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد، وصحيح مسلم ٤/١٦١ كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد.

(٣) فتح الباري ٢/ ٣٨٢ كتاب الجمعة: باب الإذن للنساء بالخروج إلى المساجد.

قبلتهم إلى الكعبة المشرّفة. ولما نزل أمر الله باستقبال الكعبة، كانت وجوه المصلّين والمصلّيات متجهة إلى بلاد الشام، فاستداروا إلى الكعبة، واقتضت هذه الاستدارة أن يتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء[١].

لقد كان المسجد وما يزال مركز إشعاع وتنوير وهداية للمسلمين والمسلمات؛ ففي رحابه الطَّهور تُؤَدَّى العبادة، ومن على منابره يُبَثّ الوعظ والهَدْي والتوجيه، وكانت للمرأة المسلمة منذ فجر الإسلام فيه مشاركة وحضور.

والنصوص الصحيحة التي تؤكد تلك المشاركة وذلك الحضور كثيرة غزيرة متتابعة، تحكي حضور المرأة صلاة الجمعة، وصلاة الكسوف، وصلاة العيدين، وتلبية دعوة المؤذّن: الصلاة جامعة.

ففي صحيح مسلم أن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: «ما أخذتُ (ق والقرآنِ المَجيدِ) إلاّ عن لسان رسول الله ﷺ، يقرأُها كلَّ جمعة على المنبر إذا خَطَب الناس»[٢].

وفيه أيضاً أن أخت عمرة بنت عبد الرحمن قالت: «أخذتُ (ق والقرآنِ المَجيدِ) مِنْ في رسول الله ﷺ يومَ الجمعة، وهو يقرأُ بها على المنبر في كلّ جمعة»[٣].

---

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١/٥٠٦ كتاب الصلاة: باب ما جاء في القبلة، وصحيح مسلم: ٥/١٠ كتاب الصلاة: باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة.

(٢) صحيح مسلم ٦/١٦٢ كتاب الجمعة: باب تحية المسجد والإمام يخطب.

(٣) صحيح مسلم ٦/١٦٠ كتاب الجمعة: باب خطبة الحاجة.

وجاء الهَدْي النبوي في حسن التهيّؤ لصلاة الجمعة بالحض على النظافة واستحباب الغسل للرجال والنساء:

«مَنْ أَتَى الجُمُعَةَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ فَلْيَغْتَسِلْ»(١).

وتحدثنا هذه النصوص أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما حضرت صلاة الكسوف مع الرسول ﷺ، ولم يتضح لها كلام الرسول، فسألت رجلاً قريباً منها، وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عنها، قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيباً (بعد صلاة الكسوف) فذكر فتنة القبر الذي يفتتن فيه المرء، فلما ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجّة.. حالت بيني وبين أن أفهم آخر كلام رسول الله ﷺ. فلما سكت ضجيجهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله فيك، ماذا قال رسول الله ﷺ في آخر كلامه؟ قال: قد أوحي إليّ أنكم تُفْتَنون في القبور قريباً من فتنة الدّجّال...»(٢).

وللشيخان رواية أخرى عن أسماء قالت فيها: «كُسِفَتِ الشمسُ على عهد النبي ﷺ...... فقضيتُ حاجتي، ثم جئتُ ودخلتُ المسجدَ فرأيتُ رسولَ الله قائماً، فقمتُ معه، فأطالَ القيامَ، حتى رأيتُني أريدُ أن أجلسَ، ثم أَلْتَفِتُ إلى المرأة الضعيفة فأقولُ: هذه أضعفُ مني، فأقومُ. فركعَ فأطالَ الركوعَ، ثم رفع رأسَه، فأطال القيام، حتى لو أن رجلاً جاء خُيِّلَ إليه أنه لم يركع. ثم انصرف وقد انجلت الشمسُ، فخطب الناس، فحمد اللَّهَ وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد...»(٣).

---

(١) حديث لعبد الله بن عمر عند أبي عوانة وابن خزيمة وابن حبان في صحاحهم. وانظر فتح الباري ٢/٣٥٧ كتاب الجمعة: باب فضل الغسل يوم الجمعة.

(٢) انظر فتح الباري ٣/٢٣٦، ٢٣٧ كتاب الجنائز: باب ما جاء في عذاب القبر.

(٣) انظر فتح الباري ٢/٥٢٩ كتاب الكسوف: باب الصدقة في الكسوف، وصحيح =

كانت المرأة المسلمة في عصر النبوة الذهبي واعية أمر دينها، حريصة على فهم ما يدور في ساحة الأحداث من أمور عامة تهمّ المسلمين في دنياهم وآخرتهم، فإذا سمعت المنادي ينادي في الناس: الصلاة جامعة، انطلقت إلى المسجد لتسمع ما يصدر عن منبر رسول الله ﷺ من توجيه؛ فعن فاطمة بنت قيس، إحدى المهاجرات الأُوَل، قالت: «نُودِيَ في الناس أن الصلاة جامعة، فانطلقت فيمن انطلق من الناس إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في الصف المقدم من النساء، وهو يلي المؤخر من الرجال»(١).

وواضح مما تقدم من نصوص صحيحة أن المرأة المسلمة غشيت المسجد في شتى المناسبات، وأصبح هذا الغشيان أمراً مقرَّراً مألوفاً في عهد النبي ﷺ. وقد وقعت حادثة اعتداء على امرأة، وهي في طريقها إلى المسجد، ولكن هذه الحادثة لم تحمل النبي ﷺ على التحفّظ في سماحه للمرأة بالخروج إلى المسجد، وبقي أمره سارياً في السماح لها والنهي عن منعها، لما في حضورها المسجد بين الحين والحين من فوائد جلّى، تعود على روحها وعقلها وشخصيتها عامة بأفضل النتائج والآثار:

فعن وائل الكندي أن امرأة وقع عليها رجل في سواد الصبح، وهي تعمد إلى المسجد، فاستغاثت برجل مر عليها، وفرّ صاحبها. ثم مرّ عليها قوم ذوو عدّة فاستغاثت بهم، فأدركوا الذي استغاثت به، وسبقهم الآخر

= مسلم ٦/ ٢١٢ كتاب الكسوف: باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من الجنة والنار.

(١) انظر صحيح مسلم ١٨/ ٨٤ كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب قضية الجساسة.

فذهب، فجاءوا به يقودونه إليها، فقال: إنما أنا الذي أغثتُكِ وقد ذهب الآخر. فأتوا به رسول الله ﷺ فأُخْبِرَ أنه وقع عليها، وأخبره القوم أنهم أدركوه يشتدّ. فقال: إنما كنت أغيثها على صاحبها فأدركني هؤلاء فأخذوني. قـالت: كذب هو الذي وقع عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا به فارجموه»، فقام رجل من الناس فقال: لا ترجموه، وارجموني أنا الذي فعلتُ الفعـل، فاعترف، فاجتمع ثـلاثة عند رسول الله ﷺ: الذي وقع عليها، والذي أجابها، والمرأة، فقال: أما أنتَ فقد غفر الله لك، وقال للذي أجابها قولاً حسناً. فقال عمر: ارجم الذي اعترف بالزنا. قال رسول الله ﷺ: لا، لأنه قد تاب إلى الله ــ أحسبه قال ــ توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يقدّر ظروف المرأة التي تحضر الجماعة ويرفق بها، فيوجز في صلاته إذا سمع بكاء طفل كيلا تنشغل أمه عليه كما رأينا في حديث سابق[(٢)]. وأَخّر صلاة العشاء مرة، فناداه عمر رضي الله عنه: نام النساء والصبيان، فخرج النبـي ﷺ فقال: «ما ينتظرُها أحدٌ غيرُكمْ مِنْ أهلِ الأرضِ»[(٣)].

ولقد وردت نصوص صحيحة كثيرة تصف تنظيم الرسول ﷺ أمر النساء في صلاة الجماعة، منها قوله في الحديث الذي رواه مسلم: «خيرُ صُفوفِ

---

(١) رواه أحمد، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩٠٠، ٢/ ٦٠١.

(٢) انظر ص ١٨.

(٣) انظر فتح الباري ٢/ ٣٤٧ كتاب الأذان: باب خروج النساء إلى المساجد، وصحيح مسلم ٥/ ١٣٧ كتاب المساجد: باب وقت العشاء وتأخيرها.

الرجالِ أولُها، وشرُّها آخرُها. وخيرُ صفوفِ النساءِ آخرُها، وشرُّها أولُها»[١].

ومنها ما رواه البخاري في إفساح المجال للنساء ليخرجن قبل الرجال من المسجد بعد انتهاء الصلاة؛ فعن هند بنت الحارث أن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرتها أن النساء في عهد رسول الله ﷺ كنّ إذا سَلَّمْنَ من المكتوبة قُمْنَ، وثبت رسول الله ﷺ ومَنْ صلَّى من الرجال ما شاء الله. فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال[٢].

ومنها ما رواه الشيخان حول تنبيه النساء الإمامَ بالتصفيق؛ فعن سهل بن سعد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «مالي رأيتُكمْ أكثرتُمُ التصفيقَ؟ مَنْ نابَهُ شيءٌ في صلاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ، فإِنَّهُ إذا سَبَّحَ التفتُّ إليهِ، وإنما التصفيقُ لِلنِّساءِ»[٣].

وكان عدد النساء اللواتي يغشين المساجد يزداد على مرّ الأيام، حتى إنّهن ليملأن رحبة المسجد في العصر العباسي، فيضطر الرجال إلى الصلاة خلفهن، وهذا ما أفتى به الإمام مالك، كما في المدونة الكبرى: قال ابن القاسم: سألت مالكاً عن قوم أتوا المسجد، فوجدوا الرحبة ـ رحبة المسجد ـ قد امتلأت من النساء، وقد امتلأ المسجد من الرجال، فصلَّى الرجال خلف النساء بصلاة الإمام؟ قال: صلاتهم تامة، ولا يعيدون[٤].

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٥٩ كتاب الصلاة: باب تسوية الصفوف وإقامتها.

(٢) انظر فتح الباري ٢/٣٤٩ كتاب الأذان: باب انتظار الناس قيام الإمام العالم.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٣/٢٧٣ كتاب الصلاة: باب التسبيح إذا نابه شيء في الصلاة.

(٤) المدونة: ١/١٠٦.

على أن خروج المرأة المسلمة إلى الصلاة في المسجد ينبغي ألآ يؤدي إلى إثارة من فتنة، تمشّياً مع هَدْي الإسلام العظيم في نظافة المشاعر والسلوك والشعائر في المجتمع المسلم. فإن خيفت الفتنة بخروج المرأة لسبب من الأسباب، فصلاتها عندئذ في بيتها خيرٌ لها وألزم، وهذا ما ألمع إليه الحديث السابق، الذي رواه ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: «لا تَمْنَعوا نِساءَكُمُ المَساجِدَ، وبُيوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»[١].

ويبدو أن بعض الرجال كان يخشى من دبيب الفتنة وسِرايتها، فيتذرّع بهذه الخشية، فيمنع نساءه من الخروج إلى المساجد. ومن هنا جاء النهي النبوي عن الحيلولة دون النساء من شهود الجماعة في المساجد بين الحين والحين. وهذا ما نصّ عليه صدر الحديث الوارد آنفاً. وجاءت أحاديث أخرى تؤكد حرص الرسول ﷺ على حضور المرأة مشاهد الخير ودعوات المسلمين في المساجد. ومنها قوله ﷺ فيما رواه مجاهد عن ابن عمر: «لا تمنعوا النِّساءَ مِنَ الخُروجِ إلى المَساجِدِ باللَّيْلِ». فقال ابنٌ لعبد الله بن عمر: لا ندعُهنَّ يَخْرُجْنَ فيتّخِذْنَه دَغَلاً[٢]. قال: فَزَبَرَهُ[٣] ابن عمر، وقال: أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقول: لا ندعُهنَّ!![٤].

وقوله ﷺ فيما رواه بلال بن عبد الله بن عمر عن أبيه: «لا تَمْنَعوا النِّساءَ حُظوظَهُنَّ مِنَ المَساجِدِ إذا اسْتَأْذَنَّكُمْ»، فقال بلال: واللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ،

(١) انظر تخريج الحديث ص ١٩.

(٢) أي فساداً وريبة.

(٣) أي نهره.

(٤) انظر صحيح مسلم ٤/١٦١، ١٦٢ كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد.

فقال له عبد الله: أقولُ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وتقولُ أنتَ: لَنَمْنَعُهُنَّ!![١].

وقوله: «لا تَمْنَعوا نِساءَكُمُ المَساجِدَ إذا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْها»[٢].

وقوله: «لا تَمْنَعوا إمَاءَ اللَّهِ مَساجِدَ اللَّهِ»[٣].

وقوله: «إذا اسْتَأْذَنَّكُمْ نِساؤكُمْ إلى المساجِدِ فَأْذَنوا لَهُنَّ»[٤].

إن شهود المرأة المسلمة جماعة المسلمين مباح، وفيه خير، ولكنه مقيّد بشروط، أهمها ألاّ تكون المرأة متطيبة، ولا متبرجة بزينة. فقد حدثت زينب الثقفية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا شَهِدَتْ إحْداكُنَّ العِشاءَ فلا تَطَيَّبْ تلكَ اللَّيْلَةَ»[٥].

وقد تعددت الأحاديث الشريفة التي تنهى المرأة عن التطيّب عند خروجها إلى المسجد. ومنها قوله ﷺ:

«إذا شَهِدَتْ إحْداكُنَّ المسجدَ فلا تَمَسَّ طِيباً»[٦].

وقوله:

«أَيُّما امْرأَةٍ أصابَتْ بَخوراً فَلا تَشْهَدْ مَعَنا العِشاءَ الآخِرَةَ»[٧].

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٦٢، ١٦٣.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٦١.

(٣) فتح الباري ٢/ ٣٨٢ كتاب الجمعة: باب الإذن للنساء بالخروج إلى المساجد، وصحيح مسلم ٤/ ١٦١ كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٦١ كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد.

(٥) المصدر السابق ٤/ ١٦٣.

(٦) المصدر السابق ٤/ ١٦٣.

(٧) المصدر السابق ٤/ ١٦٣.

تَحْضُرُ صَلاةَ العِيدَيْنِ:

لقد كرّم الإسلام المرأة، وجعلها مكلّفة كالرجل في عبادة ربّها، ورغّب في حضورها المشاهد العامة في عيدي الفطر والأضحى أيضاً، تشهد الخير ودعوة المسلمين. نجد ذلك في عديد من الأحاديث في صحيحي البخاري ومسلم، وفيها أن رسول الله ﷺ أمر أن يخرج النساء جميعاً لحضور تلك المشاهد، العَواتِق[١] وذوات الخُدورِ[٢]، والمُخَبَّأَةُ والبِكْرُ، حتى الحُيَّضُ أمرهنَّ بالخروج، يعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين. وبلغ من حرصه على خروجهنّ جميعاً للصلاة في هذين العيدين أنه أمر مَنْ لديها أكثر من جلباب أن تُلْبِسَ أختَها التي لا جلبابَ لها. وفي ذلك حثٌّ على حضور صلاة العيد لكلّ النساء، وعلى المواساة والتكافل والتعاون على البرّ والتقوى.

فعن أمّ عطيّة قالت: «أَمَرَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أن نُخْرِجَ في العِيدَيْنِ العَواتِقَ وذواتِ الخُدورِ، وأَمَرَ الحُيَّضَ أن يَعْتَزِلْنَ مُصلَّى المُسْلِمينَ»[٣].

وعنها أيضاً: «كُنّا نُؤْمَرُ بِالخُروجِ في العِيدَيْنِ والمُخَبَّأَةُ والبِكْرُ. قالَتْ: الحُيَّضُ يَخْرُجْنَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ النّاسِ، يُكَبِّرْنَ مَعَ النّاسِ»[٤].

---

(١) أي الفتيات البالغات أو اللواتي قاربن البلوغ.

(٢) أي المخبّآت.

(٣) المصدر السابق ٦/١٧٨، ١٧٩ كتاب صلاة العيدين: باب إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلَّى.

(٤) المصدر السابق ٦/١٧٩ كتاب صلاة العيدين: باب إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلَّى.

وعنها أيضاً: «أَمَرَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ نُخْرِجُهُنَّ في الفِطْرِ والأضْحَى، العَواتِقَ والحُيَّضَ وذَواتِ الخُدورِ، فأمّا الحُيَّضُ فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلاةَ، ويَشْهَدْنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمينَ، قلتُ: يا رسولَ الله، إحْدانا لا يَكونُ لها جِلْبابٌ، قالَ: لِتُلْبِسْها أُخْتُها مِنْ جِلْبابِها»[1].

وفي صحيح البخاري: حدثنا محمد بن سَلّام، قال: أخبرنا عبد الوهاب عن أيوب عن حفصة بنت سيرين، قالَتْ: «كُنّا نَمْنَعُ عواتِقَنا أنْ يَخْرُجْنَ في العِيدَيْنِ. فَقَدِمَتِ امْرَأةٌ فَنَزَلَتْ قصرَ بني خَلَف، فَحدَّثَتْ عَنْ أُخْتِها، وكانَ زَوْجُ أُخْتِها غزا معَ النبي ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً، وكانَتْ أختُها معَهُ في سِتِّ غَزَواتٍ، فقالت: كُنّا نُداوي الكَلْمَى[2]، ونَقومُ على المَرْضَى، فسألَتْ أُختي النَّبيَّ ﷺ: أَعَلَى إحْدانا بَأْسٌ إذا لَمْ يَكُنْ لها جِلْبابٌ أنْ لا تَخْرُجَ؟ قالَ: «لِتُلْبِسْها صاحِبَتُها مِنْ جِلْبابِها، ولْتَشْهَدِ الْخَيْرَ ودَعْوَةَ المُسْلمينَ». قالَتْ حَفْصَةُ: فلمّا قَدِمَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ أَتَيْتُها فسَأَلْتُها: أَسَمِعْتِ النَّبِيَّ ﷺ؟ قالَتْ: بِأَبِي نَعَمْ ــ وكانَتْ لا تَذْكُرُهُ إلاّ قالَتْ: «بِأَبِي» ــ سَمِعْتُهُ يقولُ: «لِيَخْرُجِ العَواتِقُ ذَواتُ الخُدورِ، أو العَواتِقُ وذَواتُ الخُدورِ، والحُيَّضُ، ولْيَشْهَدْنَ الخيرَ ودَعْوَةَ المُؤْمِنينَ، ويَعْتَزِلُ الحُيَّضُ المُصَلَّى». قالَتْ حَفْصَةُ: فقُلْتُ لها: آلْحُيَّضُ؟ قالَتْ: نَعَمْ، أَلَيْسَتِ الحائِضُ تَشْهَدُ عَرَفاتٍ، وتَشْهَدُ كَذا وتَشْهَدُ كَذا؟»[3].

---

(١) المصدر السابق ٦/ ١٨٠ كتاب صلاة العيدين: باب إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلّى.

(٢) أي الجرحى.

(٣) فتح الباري ٢/ ٤٦٩ كتاب العيدين: باب إذا لم يكن لها جلباب في العيد.

وفي صحيح البخاري أيضاً رواية أخرى عن أم عطيّة، قالت: «كُنّا نُؤْمَرُ أن نَخْرُجَ يومَ العيدِ، حتى نُخْرِجَ البِكْرَ مِنْ خِدْرِها، حتى نُخْرِجَ الحُيَّضَ، فيَكُنَّ خلفَ النّاسِ، فيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، ويَدْعونَ بِدُعائِهِمْ، يَرْجونَ بَرَكةَ ذلكَ اليومِ وطُهْرَتَهُ»(١).

إن في هذه الأحاديث الصحيحة لدليلاً واضحاً على اهتمام الرسول الكريم ﷺ بتوعية المرأة المسلمة الفكرية والشعورية، ولذلك أمر بخروج النساء جميعاً، حتى الحيَّض منهنّ، مع أن الحائض معفاةٌ من الصلاة، ولا يجوز لها أن تغشى المصلّى، ولكنه عَمَّ بدعوته النساء جميعاً، حرصاً منه على أن يشاركن في هذين الموسمين الكبيرين، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين، فيكبّرن مع المكبّرين، ويدعون مع الدّاعين، ويعشْنَ قضايا الأمة الإسلامية التي تُطْرَح من على المنابر بعد صلاة العيد.

لقد كان النبـي ﷺ حفياً بتوعية المرأة وتوجيهها وإشراكها في مسؤولية بناء المجتمع المسلم، فخصَّص لها وقتاً من خطبته، واتجه إلى مكان تجمّع النساء، فوعظهنّ وذكّرهن، وجعل هذا الوعظ والتذكير حقّاً على الإمام. نجد ذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن جريج، قال: أخبرني عطاء عن جابر بن عبد الله قال: سمعته يقول: «إنَّ النبـيَّ ﷺ قامَ يومَ الفِطْرِ فصلّى، فبدأ بالصَّلاة قبلَ الخُطْبة، ثم خَطَبَ الناسَ. فلمّا فَرَغَ نبـيُّ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ، وأَتَى النِّساءَ فَذَكَّرهُنَّ، وهو يَتوكّأُ على يدِ بِلالٍ، وبِلالٌ باسِطٌ ثوبَه، يُلْقي فيه النساءُ الصَّدقَةَ. قلت لِعَطاء: زَكاةَ يومِ الفِطْرِ؟ قالَ: لا، ولكن صَدَقَةً يَتَصَدَّقْنَ بِها حينئذٍ، تُلْقي المرأةُ فَتَخَها(٢)، ويُلْقِينَ. قلتُ: لِعَطاءٍ أَحَقّاً

(١) فتح الباري ٢/ ٤٦١ كتاب العيدين: باب التكبير أيام منى.

(٢) الفَتَخُ: الخواتيم العظام.

على الإمام الآن أنْ يأتي النِّساءَ حينَ يَفْرَغُ، فَيُذَكِّرُهُنَّ؟ قال: إي لَعَمْري، إنَّ ذلك لحقٌّ عليهِمْ، وما لَهمْ لا يَفْعَلونَ ذلك؟»[١].

لقد وعظ الرسول ﷺ في هذا الحديث النساء وذكّرهنّ، وأخذ منهنّ ما جادت به نفوسهنّ من صدقة. وفي حديث آخر رواه الشيخان أيضاً عن ابن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنه زاد على ذلك تذكيره إياهنّ بالبيعة، والتأكد من ثباتهنّ عليها، قال ابن عباس: «شهدت صلاة الفطر مع نبي الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصلّيها قبل الخُطْبَة، ثم يخطب. قال: فنزل نبي الله ﷺ كأني أنظر إليه حين يجلِّسُ الرجال بيده[٢]، ثم أقبل يشقّهم حتى جاء النساء، ومعه بلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فتلا هذه الآية حتى فرغ منها، ثم قال: أنتنّ على ذلك؟ فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرُها منهنّ: نعم يا نبيّ الله ـ لا يدري حينئذ مَنْ هي[٣] ـ قال: فتصدَّقن، فبسط بلال ثوبه، ثم قال: هلمّ فِدىً لَكُنَّ أبي وأمي، فجعلن يلقين الفَتَخ والخواتيمَ في ثوب بلال»[٤].

ولا ريب أن تذكيرَ الرسول ﷺ النساءَ في المصلَّى ووعظَهنَّ وأخذَ الصدقة منهنّ، والتأكّدَ من ثباتهنَّ على البيعة، تكليفٌ لهنّ بالقيام بشعائر هذا

---

(١) فتح الباري ٢/ ٤٦٦ كتاب العيدين: باب موعظة الإمام النساء يوم العيد، وصحيح مسلم ٦/ ١٧٤ كتاب صلاة العيدين.

(٢) أي يأمرهم بالجلوس.

(٣) استظهر ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٦٨ أنها أسماء بنت يزيد بن السكن التي تعرف بخطيبة النساء، وكانت جريئة.

(٤) فتح الباري ٢/ ٤٦٦ كتاب العيدين: باب موعظة الإمام النساء يوم العيد، وصحيح مسلم ٦/ ١٧١ كتاب صلاة العيدين.

الدين، ودفعٌ لهن إلى ساحة العمل الصالح. وقد تمّ هذا كلّه بفضل الدعوة إلى الصلاة الجامعة في العيدين. وفي هذا دليل على أهمية صلاة الجماعة في حياة الفرد والجماعة في المجتمع الإسلامي.

وإذا كان الإسلام لم يلزم المرأة بحضور الجماعة في المساجد، فإنه استحبّ لها إذا اجتمع النساء في مكان أن يصلِّين فرائضهنّ في جماعة، وتقف التي تؤمّهنّ وسطهنّ، ولا تتقدّمهنّ، وليس عليهنّ أذان ولا إقامة. هذا ما فعلته أمُّ المؤمنين أمُّ سَلَمة حين أمّت النساء(١).

تُصَلِّي السُّنَنَ الرَّواتِبَ والنَّوافِلَ:

ولا تقتصر المرأة المسلمة الراشدة على أداء الصلوات الخمس المفروضة، بل تصلّي السنن الرواتب أيضاً، وتصلّي من النوافل ما يتّسع له وقتها وجهدها، كصلاة الضحى، وبعد المغرب، وفي الليل؛ فإن صلاة النَّفْل تقرّب العبد من ربه، وتحبوه محبّة الله ورضوانه، وتجعله من الصالحين الطائعين الفائزين. وليس أدلّ على عِظَم المرتبة التي يبلغها العبد المؤمن بكثرة تقرّبه إلى الله بالنوافل من قوله ﷺ في الحديث القدسي:

«ما زالَ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إليّ بالنّوافِلِ حَتّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الّتي يَمْشي بِها، ولَئِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استعاذَني لأُعِيذَنَّهُ»(٢).

---

(١) انظر أحكام النساء لابن الجوزي: ١٨٦، ٢٠٤ ط. بيروت. والمغني لابن قدامة ٢/ ٢٠٢ ط. الرياض.

(٢) فتح الباري ١١/ ٣٤١ كتاب الرقاق: باب التواضع.

ويترتّب على محبّة الله للعبد أن يحبّه أهل السماء والأرض، مصداق ذلك ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ إذا أَحَبَّ عَبْداً دَعا جِبْريلَ فقالَ: إنّي أُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ، قالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْريلُ، ثمّ يُنادي في السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاناً فأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أهلُ السَّماء، قال: ثمّ يُوضَعُ لَهُ القَبولُ في الأَرْضِ. وإذا أَبْغَضَ عَبْداً دَعا جِبْريلَ فيقولُ: إنّي أُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضْهُ، قالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْريلُ، ثم يُنادي في أهْلِ السَّماءِ: إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضوهُ، قالَ: فيُبْغِضونَهُ، ثمّ تُوضَعُ لهُ البَغْضاءُ في الأَرْضِ»[١].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل حتى تتفطّر قدماه، فتسأله أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنعُ هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فيجيبُها: «أفلا أكونُ عَبْداً شَكوراً؟»[٢].

وكانت أمّ المؤمنين زينب تصلّي النافلة، وتطيل الصلاة، فنَصَبَتْ حبلاً بين ساريتين، فإذا أدركها التعب أو الفتور أمسكت به، لتستردّ نشاطها. ودخل رسول الله ﷺ المسجد، فرأى ذلك الحبل، فقال: «ما هذا؟». قالوا: لزينب، تصلّي، فإذا كَسِلَتْ أو فتَرَتْ أمسكتْ به. فقال: حُلُّوهُ، لِيُصلِّ أحدُكم نشاطَه، فإذا كَسِلَ أو فتَرَ قَعَدَ» أو «فَلْيَقْعُدْ»[٣].

وكانت امرأة من بني أسد، تدعى الحَوْلاء بنت تُوَيْت، تُصلّي الليل

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٨٤ كتاب البر والآداب والصلة: باب إذا أحب الله عبداً.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤/ ٤٥ كتاب الصلاة: باب الاجتهاد في قيام الليل.

(٣) انظر صحيح مسلم ٦/ ٧٢، ٧٣ كتاب صلاة المسافرين: باب فضيلة العمل الدائم.

كلّه، لا تنام. ومرّت يوماً بعائشة أمّ المؤمنين، وعندها رسول الله ﷺ، فقالت له عائشة: هذه الحولاء بنت تُوَيْت، وزعموا أنها لا تنام الليل. فقال رسول الله ﷺ: «لا تَنامُ اللَّيْلَ!! خُذُوا مِنَ العَمَلِ ما تُطِيقونَ، فواللَّهِ لا يَسْأَمُ اللَّهُ حتّى تَسْأَمُوا»(١).

لقد حبّب الهَدْيُ النبوي إلى المسلمين والمسلمات الإقبالَ على النوافل، وحثّ عليها، ولكنه دعا في الوقت نفسه إلى الاعتدال في العبادة، وكره المغالاة فيها، تحقيقاً للتوازن الحكيم في شخصية الإنسان المسلم، وضماناً للاستمرار في الطاعة بيسر ونشاط ورغبة، دون أن تثقل كاهله، وتنقض ظهره، وتقعده عن المضيّ فيها والمداومة عليها؛ ذلك أن من الهَدْي النبويّ أيضاً أن أحب الأعمال إلى الله ما كان مستمرّاً دائماً، وإن كان قليلاً. نجد ذلك في الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الأَعْمالِ إلى اللَّهِ تَعالَى أَدْوَمُها، وإنْ قَلَّ. قالَ: وكانَت عائشةُ إذا عَمِلَتْ العملَ لَزِمَتْهُ»(٢).

ولم تكن هذه الملازمة والمداومة على الأعمال الصالحات من شأن السيدة عائشة وحدها، بل كان شأن أهل بيت رسول الله ﷺ وخواصّه من أزواجه وقرابته وذويه. يشهد لذلك الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة أيضاً، قالت: «كان لرسول الله ﷺ حصيرٌ، وكان يُحَجِّرُهُ من الليل، فيصلّي فيه، فجعل الناسُ يصلّون بصلاته، ويبسطه بالنهار، فثابوا ذات ليلة، فقال: «يا أيُّها النّاسُ عليكمْ مِنَ الأَعْمالِ ما تُطيقونَ، فإنّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حتّى تَمَلُّوا.

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٧٣.

(٢) المصدر السابق ٦/ ٧٢.

وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللَّهِ ما دُووِمَ عليه، وإن قَلَّ». وكان آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إذا عَمِلوا عَمَلاً أَثْبَتوه»(١)(٢).

تُحْسِنُ أَداءَ الصَّلاة:

وتحرص المرأة المسلمة التقية الواعية على أن تكون صلاتها حسنة الأداء، مليئة بحضور القلب وخشوع الجوارح، تستحضر فيها معاني ما تتلو من آيات الكتاب الكريم، وتتمثّل معاني التسبيحات والأدعية التي تنطق بها، فتفيض نفسها بالخشوع لله، ويخفق قلبها بالهداية والشكر والعبودية له، فإذا ما ساورتها في صلاتها خاطرة شيطانية لتصرفها عما هي فيه من حضور قلب وصفاء ذهن، بادرت إلى طردها بتمعّن ما تتلو من كلام الله، وما تلفظ من تسبيح بحمده والثناء عليه.

ولا تنفتل المرأة المسلمة من صلاتها لتنغمس توّاً في أعمال البيت، وتنصرف إلى شواغل الحياة، بل تستغفر الله ثلاثاً كما كان يفعل رسول الله ﷺ، وتقول أيضاً كما كان يقول: «اللّهُمَّ أنتَ السَّلامُ، ومنكَ السَّلامُ، تَبارَكْتَ ياذا الجَلالِ والإكْرام»(٣). ثم تردّد ما جاءت به السنة المطهّرة من تسبيحات وأذكار، كان رسول الله ﷺ يردّدها إذا فرغ من صلاته، وهي كثيرة متنوعة(٤)، ومن أهمها: أن تسبّح الله ثلاثاً وثلاثين مرة، وتحمد

---

(١) أي لازموه وداوموا عليه.

(٢) انظر صحيح مسلم ٦/ ٧٠ ــ ٧٢ كتاب صلاة المسافرين: باب فضيلة العمل الدائم.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٨٩، ٩٠ كتاب المساجد: باب استحباب الذكر بعد الصلاة.

(٤) انظر كتاب رياض الصالحين للإمام النووي: ٦٢١ كتاب الأذكار: باب فضل الذكر والحث عليه، وصحيح مسلم ٥/ ٨٣ ــ ٩٥ كتاب المساجد: باب الذكر بعد الصلاة.

الله ثلاثاً وثلاثين مرة، وتكبِّر الله ثلاثاً وثلاثين مرة، ثم تقول تمام المئة: لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير؛ فقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثلاثاً وثَلاثِينَ، وحَمِدَ اللَّهَ ثَلاثاً وثَلاثِينَ، وكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثاً وثَلاثِينَ، فتلك تِسْعٌ وتِسْعون، وقال تمامَ المِئَة: لا إلّه إلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ، وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير، غُفِرَتْ خَطاياهُ، وإنْ كانَتْ مثلَ زَبَدِ البَحْرِ»[١].

ثم تتوجه إلى الله بدعاء خاشع أن يصلح أمرَها كلَّه، في الدنيا والآخرة، وأن يسبغَ عليها نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً، ويهبَها من أمرها رَشَداً.

بذلك تخرج المرأة المسلمة من الصلاة، وقد زكت نفسها، وخشع قلبها، وصفت روحها، وأُتْرِعَ كيانُها كُلُّه بطاقة روحية، تعينها على مواجهة أعباء الحياة وهموم البيت والأمومة، تمضي في حمى ربّها الآمن، لا تجزع إذا مسّها شرّ، ولا تمنع إذا غمرها خير، وهذا شأن المصلّيات الصادقات الخاشعات: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾[٢].

تُؤَدّي زَكاةَ مالِها:

وتخرج المرأة المسلمة زكاة مالها، إن كانت ذات مال وسَعَة تُوجب عليها الزكاة، فتحصي ما لديها من مال كلّ سنة بتوقيت دقيق محدَّد، وتخرج

---

(١) انظر صحيح مسلم ٥/٩٥ كتاب المساجد: باب الذكر بعد الصلاة.

(٢) المعارج: ١٩ ــ ٢٥.

عنه ما يتوجّب عليها دفعُه من هذه الفريضة بكلّ أمانة ودقة وحرص، إذ الزكاة ركن من أركان الإسلام، ولا يجوز التهاون ولا الترخُّص في إخراجها كلَّ عام، ولو بلغت آلافاً مؤلَّفة، أو ملايين. ولا يدور في خَلَد المرأة المسلمة التقية الواعية أن تتهرّب من بعض ما يتوجّب عليها إخراجه من الزكاة.

ذلك أن الزكاة فريضة مالية تعبّدية محدَّدة، فرضها الله على كلّ مسلم ملك النِّصاب، سواءٌ أكان رجلاً أم امرأة، وعَدَّ حَبْسَها وإنكارَ شرعيتها رِدَّةً نكراءَ، وكفراً بَواحاً، يُقاتَل المَرْءُ عليه، ويُهْدَرُ دمُه، حتى يؤدّيها كاملة كما بيّنتها أحكام الدين، ولا يزال موقف أبـي بكر الصديق رضي الله عنه المشرِّف من أهل الرِّدَّة الذين امتنعوا عن دفع الزكاة وكلماته الخالدة فيهم تتردّد في سمع الزمان: «واللّهِ لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ»(١).

وإنّها لَكَلِماتٌ خالدات تعلن عظمة هذا الدين، بربطه بين الدين والدنيا، وتكشف عن فهم أبـي بكر العميق لطبيعة هذا الدين الكامل المتكامل، وإحكامه الصِّلَةَ بين العقيدة الوجدانية والتنفيذ العملي لمقتضياتها، إذ جاءت آيات الكتاب الكريم متتابعة متلازمة متضافرة، تقرن بين الصلاة والزكاة، في بناء صرح الإيمان في نفوس المؤمنين بهذا الدين:

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾(٢).

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾(٣).

---

(١) انظر صحيح مسلم ٢٠٧/١ كتاب الإيمان: باب وجوب قتال تارك أحد أركان الإسلام.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) البقرة: ٤٣.

﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[١].

ولا يخفى على المرأة المسلمة الواعية التقية أن الإسلام الذي أعطى المرأة حق الاستقلال في مالها، ولم يكلّفها من النفقة شيئاً، بل جعل النفقة على الرجل، هو هو الذي فرض عليها الزكاة فيه، وجعلها حقاً معلوماً للفقير؛ فما تتلكّأ امرأة مسلمة في إخراجها وإنفاقها في مصارفها المشروعة، بذريعة أنها امرأة، وغير مكلّفة بالنفقة أصلاً، إلاّ وفي فهمها للدين قُصورٌ، وفي عقيدتها دَخَلٌ[٢]، وفي شخصيتها خلل. أو امرأة متدينة المظهر، ولكنها غافلة مُغفَّلة، جُبِلَتْ على الحرص وحب المال، فما يخطر إخراج الزكاة لها على بال، مع أنها تصوم وتصلّي وتحجّ، وقد تتصدّق أحياناً بِفُتاتٍ من مالها الكثير. وهذا الصنف من النساء وذاك ليسا من المرأة المسلمة التي أرادها الإسلام في شيء.

تَصومُ شَهْرَ رَمَضانَ وتقومُ لَيْلَهُ:

والمرأة المسلمة التقية تصوم شهر رمضان، ونفسُها معمورةٌ بالإيمان: «أنَّ مَنْ صامَ رَمضانَ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه»[٣]. وتتخلّق بأخلاق الصائمات الحافظات ألسنتهنَّ وأبصارَهنّ وجوارحَهنّ عن كلّ مخالفة تخدش الصوم، أو تقلّل من أجره. فإن تعرضت لفتنة الخصام والشحناء والصَّخَب، عملت بالهَدْي النبوي للصائمين والصائمات:

«إذا كانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإنْ سابَّهُ أَحَدٌ أَوْ

---

(١) البقرة: ٢٧٧.

(٢) أي فساد.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/٢١٧ كتاب الصيام: باب ثواب من صام رمضان.

قاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إنّي صائِمٌ»[١].

«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرابَهُ»[٢].

وتحسّ المرأة المسلمة الواعية في رمضان أنها تستظلّ بشهر لا كالشهور، تُضاعَف فيه الأعمال الصالحات، وتُفَتَّحُ أبواب الخير، ويكون الصوم فيه لله، وهو الذي يجزي به، وجزاء الله الغنيّ المنعم المتفضّل الوهاب أكبر وأشمل وأعم من أن يحيط به وصف، أو يتملّاه خيال:

«كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ يُضاعَفُ، الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سَبْعِمئَةِ ضِعْفٍ. قال اللَّهُ تَعالى: إلاّ الصَّوْمَ، فإنَّهُ لي وأَنا أَجْزي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وطعَامَهُ مِنْ أَجْلي. لِلصّائِمِ فَرْحَتانِ: فَرْحةٌ عندَ فِطْرِهِ، وفَرْحَةٌ عندَ لِقاءِ رَبِّهِ. ولَخُلُوفُ فِيهِ[٣] أَطيبُ عندَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ»[٤].

ومن هنا كان على المرأة المسلمة الحصيفة اليقظة أن توفّق بين أعمالها المنزلية في رمضان، وبين اغتنام أوقاته المباركة في الطاعة والعبادة والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، فلا تلهيها أعمالها المنزلية عن الصلوات المفروضة في أوقاتها، وقراءة القرآن، وصلاة النَّفْل. ولا تلهيها السهرات العائلية عن

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٥٧٠ كتاب الفضائل: باب في أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه عن المخالفات.

(٢) فتح الباري ٤/١١٦ كتاب الصوم: باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.

(٣) أي تغيّر رائحة فمه.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/٢٢١ كتاب الصوم: باب فضل الصيام.

قيام الليل والتهجّد والدعاء، وهي تعلم ما أعدّ الله للقائمين والقائمات في رمضان من ثواب عظيم ومغفرة واسعة:

«مَنْ قامَ رَمضانَ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه»(١).

ولقد كان رسول الله ﷺ يجتهد في رمضان بالإكثار من الأعمال الصالحة ما لا يجتهد في غيره، وخصوصاً في العشر الأواخر منه:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»(٢).

وعنها رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا دَخَلَ العَشْرُ الأَواخِرُ مِنْ رَمضانَ أَحْيا اللَّيْلَ كُلَّهُ، وأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وجَدَّ، وشَدَّ المِئْزَرَ»(٣).

وكان يأمر بتحرِّي ليلة القدر، ويرغّب في قيامها بقوله:

«تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضانَ»(٤).

وقوله:

«مَنْ قامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٥).

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤/١١٦ أبواب النوافل: باب قيام شهر رمضان وفضله.

(٢) صحيح مسلم ٨/٧٠ كتاب الصوم: باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/٣٨٩ كتاب الصيام: باب الاجتهاد في العشر الأواخر.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ٣٨٠ كتاب الصيام: باب ما جاء في ليلة القدر.

(٥) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ٣٧٩ كتاب الصيام: باب ما جاء في ليلة القدر.

إن هذا الشهر الكريم شهر عبادة خالصة، لا يليق بالمرأة المسلمة الجادّة أن تقضي ليله في اللهو والسهر الفارغ الطويل، حتى إذا ما قارب طلوع الفجر، وغشي النعاس أعين أفراد الأسرة، قدّمت لهم لقيمات يأكلونها، ثم يأوون بعدها إلى مضاجعهم، وسرعان ما يغطّون في نوم عميق، وقد لا يصحو منهم أحد لأداء صلاة الفجر.

بل إن المرأة المسلمة الواعية الحريصة على أن تعيش هي وأفراد أسرتها الحياة الإسلامية في رمضان، تعمل على ترتيب الحياة في ليالي رمضان، بحيث يعود جميع أفراد الأسرة من صلاة التراويح، فلا يطيلون السهر، لأنهم سيستيقظون بعد سويعات قليلة لقيام الليل، وتناول طعام السحور؛ فلقد أمر رسول الله ﷺ بالسّحور، لما فيه من خير كثير، فقال: «تَسَحَّروا، فإنَّ في السُّحورِ بَرَكَةً»(١).

إن المرأة المسلمة الراشدة لتساعد أفراد أسرتها جميعاً على الاستيقاظ للسحور، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ، وتحقيقاً لِما في السحور من بركة، ومنها التذكير بقيام الليل، وتنشيط النفوس للانطلاق إلى المساجد لأداء صلاة الفجر في جماعة، يضاف إلى ذلك تقوية الأجسام على الصوم، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ ويروّض عليه أصحابه:

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «تَسَحَّرْنا مَعَ رسول الله ﷺ ثمّ قُمْنا إلى الصَّلاةِ. قِيلَ: كَمْ كانَ بَيْنَهما؟ قال: خَمْسون آيَةً»(٢).

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ٢٥١ كتاب الصيام: باب فضل السحور.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ٢٥٣ كتاب الصيام: باب فضل السحور.

ولا ريب أن المرأة المسلمة التي تكون سبباً في تحقيقِ ذلك الخيرِ كلّه لأسرتها في رمضان سيجزل الله لها المثوبة، ويعظم لها الأجر:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾(١).

تـصـومُ النَّـافِـلَـة:

والمرأة المسلمة التقيّة تصوم النافلة أيضاً في غير رمضان، إن لم يشقّ عليها الصوم، تصوم يوم عرفة، ويوم عاشوراء، واليوم التاسع من المحرم؛ فصيام هذه الأيام وغيرها من الأعمال الصالحات التي تكفّر الخطايا، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ:

فعن أبـي قتادة رضي الله عنهما قال: سُئِلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فقالَ: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الماضِيَةَ والباقِيَةَ»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ صامَ يومَ عاشوراء، وأمرَ بصيامِه»(٣).

وعن أبـي قتادة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سُئِل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الماضِيَةَ»(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَئِنْ بَقِيتُ إلى قابِلٍ(٥) لأَصُومَنَّ التّاسعَ»(٦).

---

(١) الكهف: ٣٠.

(٢) صحيح مسلم ٨/ ٥١ كتاب الصيام: باب استحباب صيام يوم عرفة.

(٣) صحيح مسلم ٨/ ١٢ كتاب الصيام: باب صوم يوم عاشوراء.

(٤) صحيح مسلم ٨/ ٥١ كتاب الصيام: باب استحباب صيام يوم عاشوراء.

(٥) أي عام قابل.

(٦) صحيح مسلم ٨/ ١٣ كتاب الصيام: باب صوم يوم عاشوراء.

وكذلك صوم ستة أيام من شوال. وفي بيان فضل صومها يقول الرسول الكريم:

«مَنْ صامَ رَمضانَ، ثمّ أَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوّالٍ كانَ كَصِيامِ الدَّهْرِ»[١].

ومن الأيام المستحبّ صيامُها ثلاثةُ أيام من كلّ شهر. وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

«أَوْصاني خَليلي ﷺ بِثَلاثٍ: صِيامِ ثَلاثَةِ أيّام مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، ورَكْعَتَيْ الضُّحَى، وأنْ أُوتِرَ قبلَ أنْ أنامَ»[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «أَوْصاني حَبيبي ﷺ بثلاثٍ لَنْ أدَعَهُنَّ ما عِشْتُ: بصيامِ ثلاثةِ أيّامٍ من كلِّ شَهْرٍ، وصَلاةِ الضُّحَى، وبأنْ لا أنامَ حتّى أُوتِرَ»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «صَوْمُ ثَلاثةِ أيّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»[٤].

ووردت نصوص تحدّد هذه الأيام الثلاثة بالثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وتسمّيها الأيام البيض، ووردت نصوص أخرى تفيد أن الرسول الكريم كان يصوم ثلاثة أيام غير محدّدة من كلّ شهر:

فعن مُعاذة العدوية أنها سألت عائشة رضي الله عنها أكان رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ٥٦ كتاب الصيام: باب استحباب صيام ستة أيام من شوال.

(٢) فتح الباري ٤/ ٢٢٦ كتاب الصوم: باب صيام أيام البيض، وصحيح مسلم ٥/ ٢٣٤ كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب صلاة الضحى.

(٣) صحيح مسلم ٥/ ٢٣٥ كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب صلاة الضحى.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ٣٦٢ كتاب الصيام: باب صوم الدهر.

يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، فقلتُ: مِنْ أَيِّ الشَهْرِ كانَ يصومُ؟ قالَتْ: لم يكنْ يُبالي مِنْ أيِّ الشَّهْرِ يَصومُ»(١).

تَحُجُّ بيتَ اللَّهِ الحَرام:

وتضع المرأة المسلمة الواعية هَذْيَ دينها نصب عينيها أن تحجّ بيت اللَّهِ الحرام متى استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فإذا تيسّرت لها أسباب السفر المشروعة إلى الحج، عكفت قبل السفر على دراسة أحكام الحج بتبصّر ووعي وتمثّل، حتى إذا ما أقبلت على أداء مناسك الحج، صدرت في أعمالها عن فهم ووعي وحكمة، وكان حجّها صحيحاً مستكملاً الشروط الشرعية، وقائماً مقام الجهاد عند الرجال، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ:

فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «لكنّ أَحْسَنَ الجِهادِ وأَجْمَلَهُ الحَجُّ، حَجٌّ مَبْرورٌ»، قالت عائشة: فلا أدعُ الحجَّ بعدَ إذْ سمعتُ هذا مِنْ رسولِ الله ﷺ(٢).

تَعْتَمِرُ:

وكما فُرِض الحج على المرأة المسلمة، وجبت عليها العمرة أيضاً عند تيسّر الأسباب، وخصوصاً العمرة في رمضان، فإنها في ثوابها تعدل حَجَّةً مع رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

---

(١) صحيح مسلم ٨/٤٨ كتاب الصيام: باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.
(٢) فتح الباري ٤/٧٢ كتاب جزاء الصيد: باب حج النساء.

لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية: «ما مَنَعَكِ مِنَ الحَجِّ؟» قالت: أبو فلان ــ تعني زوجَها ــ كان له ناضحان[١]، حجّ على أحدهما، والآخر يسقي أرضاً لنا. قال: «فإذا كانَ رمضانُ اعْتَمِري فيه، فإنّ عُمْرَةً في رَمضانَ حَجَّةٌ». وفي رواية أخرى لابن عباس أيضاً: «فإنَّ عُمْرَةً في رَمضانَ تَقْضي حَجَّةً معي»[٢].

مُطِيعَةٌ أَمْرَ رَبِّها:

لا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أنها مكلّفة بالتكاليف الشرعية التي أمر الله بها، شأنها في ذلك شأن الرجل، لا فرقَ بينهما إلاَّ فيما يخصّ المرأة دون الرجل، ويخصّ الرجل دون المرأة من تشريعات. أما فيما عدا ذلك فهي والرجل في المسؤولية أمام الله سواء:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[٤].

---

(١) أي جملان.

(٢) فتح الباري ٤/ ٧٢ كتاب جزاء الصيد: باب حجّ النساء.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

(٤) النحل: ٩٧.

وقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[1].

وحينما يطلق قول: «يا أيها الناس» في القرآن الكريم أو السنَّة المطهّرة، يشمل الرجال والنساء. ومن شواهد ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أمّ سَلَمة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كنتُ أسمعُ الناسَ يذكرون الحوضَ، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ. فلما كان يوماً من ذلك، والجارية تَمْشُطُني، فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أيُّها النّاسُ». فقلتُ للجارية: استأْخِري عنّي. قالَتْ: إنما دعا الرجالَ، ولم يَدْعُ النّساء. فقلتُ: إنّي من النّاس. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّي لكمْ فَرَطٌ على الحَوْضِ[2]، فإيّايَ، لا يَأْتِيَنَّ أحَدُكُمْ، فَيُذَبُّ عنّي كما يُذَبُّ البَعيرُ الضّالُ، فأقولُ: فيمَ هذا؟ فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدْري ما أَحدَثوا بَعْدَكَ، فأقولُ: سُحْقاً»[3]. وفي رواية لمسلم أيضاً: «فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدي»[4].

فالمرأة والرجل سِيّانِ أمام الله عز وجل، في اتباع أمره، واجتناب نهيه. ومن هنا كانت المرأة المسلمة تأتي ما أمر الله به، وتنتهي عما نهى عنه، معتقدةً أنها سَتُسْأَل عما قدَّمتْ في حياتها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) الفَرَط: هو الذي يتقدم الواردين على الحوض ليهيئه لهم.

(٣) صحيح مسلم ١٥/ ٥٦ كتاب الفضائل: باب حوض نبيّنا ﷺ وصفته.

(٤) صحيح مسلم ١٥/ ٥٤ كتاب الفضائل: باب حوض نبيّنا ﷺ وصفته.

فهي وقّافة عند حدود الله، لا تتعدّاها، ولا تقع في الحرام، بل تلتمس دوماً حكم الله ورسوله، وتنزل عنده في كلّ ما يعرض لها في حياتها من شؤون.

وفي تاريخ المرأة المسلمة مواقف ناصعة لنساء، يضعن حكم الله نصب أعينهنّ، لا يَحِدْنَ عنه، ولا يبْغين عنه حِوَلاً.

من تلك المواقف ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، وأورده ابن كثير في مستهل سورة المجادلة، عن خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت.

قالت خولة: فِيَّ واللَّهِ وفي أَوْس بن الصّامت أنزل الله صدر سورة المجادلة. قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلاّ والذي نفسُ خُوَيْلَةَ بيده، لا تخلص إليّ وقد قلتَ ما قلت حتى يحكمَ اللَّهُ ورسولُه فينا بحكمه، قالت: فواثبني فامتنعتُ بما تغلب به المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيتُه عني، قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثياباً، ثم خرجتُ حتى جئتُ إلى رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرتُ له ما لقيتُ منه، وجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خُوَيْلَةُ ابنُ عَمِّكَ شيخٌ كبيرٌ، فاتَّقي اللَّهَ فيه»، قالت: فواللَّهِ ما برحتُ حتى نزل فيَّ قرآن، فتغشَّىٰ رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشّاه، ثم سُرِّيَ عنه، فقال لي: «يا خُوَيْلَةُ قد أنزلَ اللَّهُ فيكِ وفي صاحبكِ قُرْآناً»، ثم قرأ عليّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ

﴿أَلِيمٌ ۝٤﴾[(١)]، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً»، قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله ما عنده ما يعتق، قال: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قالت: فقلتُ: والله إنه لشيخ كبير، ما به من صيام، قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتّينَ مِسْكيناً وَسْقاً[(٢)] مِنْ تَمْرٍ»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنّا سَنُعِينُهُ بِفَرَقٍ[(٣)] مِنْ تَمْرٍ»، قالت: فقلتُ: يا رسول الله وأنا سأعينه بفَرَق آخر، قال: «قَدْ أَصَبْتِ وأَحْسَنْتِ، فَاذْهبي فَتَصَدَّقي بِهِ عَنْهُ، ثمّ اسْتَوْصي بابنِ عَمِّكِ خَيْراً». قالتْ: ففعلتُ[(٤)].

لم تطق خولة بنت ثعلبة أن تعيش ساعة مع زوجها بعد أن تفوّه بما تفوّه به من عبارات الظِّهار الذي كان طلاقاً عند الجاهلية، حتى ترجع إلى رسول الله ﷺ لتعرف حكم الله فيها وفي زوجها، ولم يكن لديها ثوب لائق ترتديه للخروج والمثول بين يدي رسول الله ﷺ، فاستعارت ثياباً من بعض جاراتها، وانطلقت من فورها إلى مجلس رسول الله ﷺ لتسمع حكم الله فيها، لتمتثله.

لا جَرَمَ أن يكون لهذه المرأة العظيمة مكانتها العالية في نفوس الصحابة الذين عاصروها وعرفوا فضلها، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد التقت به يوماً، وهو خارج من المسجد، وبصحبته الجارود العبدي، فسلَّم عليها عمر، وهو أمير المؤمنين، فقالت له: يا عمر، عهدتك

---

(١) المجادلة: ١ ــ ٤.

(٢) الوَسْق: حِمْل النخلة.

(٣) الفَرَق من التمر: وعاء يزن قرابة ستين كيلاً.

(٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٥٩/٣: سورة المجادلة: ١ ــ ٤. ط. دار القرآن الكريم، بيروت.

وأنت تسمى عُمَيْراً في سوق عكاظ، ترعى الضأن بعصاك، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت. فقال الجارود: قد أكثرتِ على أمير المؤمنين أيتها المرأة. فقال عمر: دعها، أما تعرف: هذه خولة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، وعمر أحق والله أن يسمع لها.

وفي تفسير ابن كثير أن رجلاً قال لعمر إذ رأى حفاوته بها وإصغاءه إليها: حبستَ رجال قريش على هذه العجوز، فقال: ويحك، وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفتُ عنها حتى تقضي حاجتها، إلاَّ أن تحضرَ صلاةٌ فأصلّيها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها.

إن المرأة المسلمة الواعية الراشدة لتضع دوماً نصب عينيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

فطاعة الله ورسوله فوق هوى النفس، وفوق تطلّعات الأماني، وفوق متع الحياة، وفوق اختيار الإنسان. ولقد ضربت أمّ المؤمنين زينب بنت جحش أروع الأمثلة على امتثالها أمرَ الله ورسوله، قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ، يومَ طلب منها الموافقة على تزويجها من مولاهُ ومُتَبنّاهُ زيد بن حارثة، لغاية تشريعية ذات شقّين:

الأول: تحقيق المساواة التامة بين الناس، بتزويج الفتاة القرشية

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

الحسناء، سيدة أبناء عبد شمس، وابنة عمة الرسول، من مولى. وكان الموالي أدنى طبقة من السّادة، بل كانت الفروق الطبقية بين الموالي والسادة من العمق والشدّة بحيث لا يحطّمها إلاّ فعلٌ واقعيٌّ من رسول الله ﷺ، يعلنه على الملأ، فتتخذه الجماعة المسلمة أسوة، وتزول تلك الفوارق، ولا يتفاضل الناس إلاّ بالتقوى.

الثاني: إبطال عادة التّبنّي التي كانت منتشرة في الجاهلية؛ وذلك بتزوّج الرسول الكريم زينب التي كانت زوجة لِمُتَبنّاهُ زيد، مقدّماً الدليل العملي على أنه لو كان ابنَهُ حقيقةً لما كان زواجه منها بأمرٍ من الله تعالى في القرآن الكريم.

وقد وقع الاختيار على زينب، ابنة عمة الرسول ﷺ، لإنفاذ هذين التشريعين العمليين في إطار بيت النبوّة، ليتلقّاهما الناس بنفوس راضية مذعنة طائعة لأمر الله ورسوله. ولمّا اختارها الرسول لتكون زوجة لزيد بن حارثة، كرهت هذا الزواج، وقالت: يا رسول الله لست بناكحته، لا أتزوجه أبداً، وأنا سيدة أبناء عبد شمس. وأجابها الرسول ﷺ بهدوء وثقة وإصرار: بل فانكحيه. وبينما هما يتحدّثان أنزل الله هذه الآية على رسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

هنالك، رضيت زينب بأمر الله ورسوله، وقالت: إذنْ لا أعصي اللَّهَ ورسولَه، قد أنكحتُه نفسي.

ثم كان ما كان بينها وبين زيد من خلاف أدّى إلى فراقهما. ولما

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

انقضت عدّتها، نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

وقد تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، وهو يبتسم، ويقول: «مَنْ يذهبُ إلى زَيْنَبَ يُبَشِّرُها أنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَنيها من السَّماءِ!!».

لكأنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى كافأ زينب على طاعتها المطلقة النادرة لله ولرسوله، إذ رَضِيَتْ بقضائهما تزويجَها زيداً، فها هي ذي تُزَفُّ إلى رسول الله ﷺ بأمرٍ من الله، في آيات من كتابه، يتعبّد بتلاوتها المسلمون حتى قيام الساعة. وهذا شرف خصّ الله به زينب دون غيرها من أمّهات المؤمنين، وكانت زينب تعتزّ بهذا الشرف الذي أسبغه الله عليها، وتفخر على أزواج النبـي ﷺ، فتقول: «زَوَّجَكُنَّ أَهالِيكُنَّ، وزَوَّجني اللَّهُ تعالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ»[2].

لا تَخْـلُو بِأَجْنَبِـيٍّ:

وطاعة الله ورسوله لا تكون إلاّ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما. ومن طاعة المرأة المسلمة لله ولرسوله أنها لا تخلو برجل أجنبـي؛ ذلك أن الخلوة برجل أجنبـي حرام باتفاق العلماء، لقول الرسول ﷺ:

«لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بِامْرَأَةٍ إلاّ ومَعَها ذو مَحْرَمٍ، ولا تُسافِرِ المرأةُ إلاّ مع ذي مَحْرَمٍ». فقامَ رجلٌ، فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ: إنَّ امْرَأَتي خرجَتْ حاجَّةً وإنّي

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

(٢) انظر فتح الباري ١٣/ ٤٠٣ كتاب التوحيد: باب وكان عرشه على الماء.

اكْتُتِبْتُ في غَزْوَةِ كذا وكذا. قال: «انْطَلِقْ فَحُجَّ معَ امْرَأَتِكَ»(١).

والمَحْرَم: هو كلّ من حَرُمَ عليه الزواج من المرأة على التأبيد، كالأب والأخ والعم والخال... إلخ.

والأجنبي: كل رجل يحلّ له الزواج منها أصلاً، ولو كان من الأقارب، ولا سيما أخو الزوج ونحوه من أقاربه، فهؤلاء جميعاً تحرم الخلوة بهم لقول الرسول ﷺ: «إيّاكُمْ والدُّخولَ على النِّساء»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ المَوْتُ»(٢).

والحَمْو: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج. وقول الرسول الكريم: الحَمْو الموت معناه أن توقع الشرّ منه أكثر من غيره، لسهولة دخوله على بيت أخيه؛ ولذلك وُصِف بالموت تغليظاً وترهيباً وتخويفاً، وكأنّ الخلوة بالأحماء تؤدي إلى فساد وفتنة وزيغ وهلاك في الدين كهلاك الموت. والمرأة المسلمة الواعية التقيّة لا تقع في مثل هذه المخالفة الشرعية التي يقع فيها كثير من الناس المتساهلين في هذه الأيام.

تَلْتَزِمُ الحِجابَ الشّرعيّ:

وهي تلتزم الحجاب الشرعي عند خروجها من البيت، وهو الزّيّ الإسلامي المتميِّز الذي حددت معالمه النصوص القاطعة من كتاب الله وسنة رسوله، فلا تخرج من بيتها، أو تظهر أمام الرجال غير المحارم متعطِّرةً متبرِّجةً بزينة؛ لأنها تعلم أن ذلك حرام بنص القرآن القاطع:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٧/١٨ كتاب الحج: باب المرأة لا تخرج إلاّ مع محرم.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٩/٢٦ كتاب النكاح: باب النهي عن أن يخلو الرجل بالمرأة الأجنبية.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ[١] الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[٢].

فالمرأة المسلمة الواعية إذنْ ليست من النساء الكاسيات العاريات اللواتي تغصّ بهنّ المجتمعات المعاصرة الشاردة عن هَدْي الله وطاعته، بل إن المرأة المسلمة لترتعد فَرَقاً[٣] من الصورة المخيفة التي رسمها رسول الله ﷺ لأولئك النسوة المتبرّجات الغاويات الضّالّات المفسدات:

«صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النّارِ لَمْ أَرَهما، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِياطٌ كَأَذْنابِ البَقَرِ يَضْرِبونَ بها النّاسَ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ مُميلاتٌ مائِلاتٌ، رُؤوسُهنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ[٤]، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسيرَةِ كذا [كذا]»[٥].

والمرأة المسلمة الراشدة التي نهلت من معين الإسلام الصافي، ونشأت في جوّه الوارف الظليل، لا تلتزم الحجاب الشرعي تقليداً وعادةً

(١) أي الذين لا يشتهون النساء.

(٢) النور: ٣١.

(٣) أي خوفاً.

(٤) أي ضخمة كأسنمة الإبل من الزينة المتصنَّعة.

(٥) صحيح مسلم ١٠٩/١٤ كتاب اللباس والزينة: باب النساء الكاسيات العاريات.

درجت عليها الأمّهات والجدّات، فورثتها عنهنّ، كما يحلو لبعض الفارغين والفارغات أن يصوروا الحجاب، من غير سند من علم، أو حجّة من منطق، أو هَـذْي مـن كتـاب منيـر . بـل تلتـزمـه وقلبهـا مطمئـن بـالإيمـان أنـه أمـر مـن الله عز وجل، ونفسها مفعمة بالاقتناع أنه دين أنزله الله لصيانة المرأة المسلمة وتمييزاً لشخصيتها، وإبعاداً لها عن مزالق الفتنة ومرتكسات الرذيلة ومهاوي الضلال. ومن هنا هي تتقبّله بنفس راضية، وقلب مطمئن، واقتناع راسخ، كما تقبلته نساء المهاجرين والأنصار، يوم أنزل الله فيه حكمه القاطع وأمره الحكيم:

فعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها فيما رواه البخاري عنها، قالَتْ: «يَرْحَمُ اللَّهُ نِساءَ المُهاجِراتِ[١] الأُوَل، لمّا أنزلَ اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ مُروطَهنَّ[٢]، فَاخْتَمَرْنَ بها[٣]. وفي رواية للبخاري أيضاً: «أَخَذْنَ أُزُرَهُنَّ فَشَقَقْنَها مِنْ قِبَلِ الحَواشي فَاخْتَمرْنَ بِها»[٤].

وفي رواية عن صفيّة بنت شَيْبَة، قالت: «بَيْنَا نحن عندَ عائِشَة رضي الله عنها ذكَرْنا نساءَ قريش وفضلَهنَّ، فقالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ لِنساءِ قريشٍ لَفَضْـلاً، وإنّـي واللَّـهِ مـا رأيـتُ أفضـلَ مـن نسـاء الأنصـار، ولا أشـدَّ تصـديقـاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل! لقد أُنزِلَتْ سورةُ النّور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، فانقلبَ رجالُهنّ إليهنّ يتلون عليهنّ ما أنزلَ الله إليهمْ فيها، ويتلو الرجلُ على امرأته وابنته وأخته، وعلى كلّ ذات قرابة، فما منهنّ امرأةٌ إلاّ قامَتْ

(١) أي النساء المهاجرات.

(٢) أي أزرهنّ.

(٣) أي تَقَنَّعْنَ.

(٤) فتح الباري ٨/ ٤٨٩ كتاب التفسير: باب (وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ).

إلى مِرْطها المُرَحَّل[١]، فَاعْتَجَرَتْ بِهِ[٢]، تصديقاً وإيماناً بما أنزلَ اللّهُ من كتابه، فأصبحنَ وراءَ رسول الله ﷺ مُعْتَجِراتٍ، كأنَّ على رؤوسهنَّ الغِرْبان»[٣].

رحم الله نساء المهاجرين والأنصار، ما أقوى إيمانَهنَّ! وما أصدقَ إسلامَهنَّ! وما أجملَ انْصِياعَهنَّ للحقّ حين نزوله! وإن كلَّ مؤمنة بالله ورسوله حقَّ الإيمان، لا يسعها إلاَّ أن تتأسَّى بهؤلاء الفضليات من النساء، فَتُلْزِمَ نفسَها الزِّيَّ الإسلاميَّ المُتَميِّز، غير عابئة بما يحيط بها من عُرْيٍ وتكشّف وتبرّج. وإني لأذكر موقف فتاة جامعية مسلمة متحجِّبة، لا يقلّ روعة عن موقف نساء المهاجرين والأنصار رضي الله عنهنَّ: إذ سألها مراسل صحفي زار جامعة دمشق عن حجابها وعما يصبّرها عليه في حرّ الصيف القائظ، فأجابته: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

بمثل هؤلاء الفتيات المسلمات الواعيات الطاهرات تعمَّر البيوت المسلمة، وتُرَبَّى الأجيال على الفضيلة، ويزخر المجتمع بالرجال الأبطال العاملين البُناة، وإنهنَّ اليومَ لَكَثيراتٌ والحمد لله.

ولم يكن الحجاب الشرعي للمرأة بدعاً في شريعة الإسلام، بل كان في شرائع الله جميعاً قبل الإسلام، يشهد لذلك البقيَّة الباقية من تلك الشرائع في الكتب المحرَّفة، نراها في لباس الراهبات المحتشم عند النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية وفي سائر ديار الغرب، وفي تغطية المرأة الكتابيّة رأسها عند دخولها الكنيسة.

---

(١) هو كساء من صوف نقشت فيه تصاوير الرِّحال.

(٢) أي تلفقت به.

(٣) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/٤٨٩، ٤٩٠ كتاب التفسير: باب (وليضربن بخمرهن على جيوبهنّ).

ذلك أنَّ الإنجيل يطلب من المرأة النصرانية أن تغطي شعرها كما في الإصحاح (الحادي عشر من رسالة بولس إلى أهل كورنتوس)؛ ولذلك ترتدي الراهبات الحجاب. وعندما يستقبل بابا الفاتيكان سيدة، سواء أكانت زوجة لرئيس دولة، أم كانت امرأة مشهورة، فإنها تغطّي شعرها.

وإن التنكّر الصفيق اليوم لفكرة تستّر المرأة واحتشامها إنما هو خروجٌ على الشرائع السماوية قاطبة، من ملّة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام إلى الحنيفية السمحة التي جاء بها الإسلام، وتحلّلٌ من دين الله الواحد الذي أرسله الله للإنسانية على مدى الأزمان، تحمله الرسل جيلاً بعد جيل، لبناء النفس الإنسانية على الحق والفضيلة والخير، بحيث تغدو الإنسانية المهتدية بهَدْي السماء أمّةً واحدةً، منصاعةً لربٍّ مَعْبودٍ واحِدٍ:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[(1)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾[(2)].

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾![(3)]

وإن إصرار كثير من التجمّعات البشرية المعاصرة على تكشّف المرأة وعُرْيها وتبذّلها دليل الانحراف والشُّرود والابتعاد عن هَدْي الله، لا في بلاد

---

(١) يونس: ١٩.

(٢) المؤمنون: ٥١، ٥٢.

(٣) الأنبياء: ٩١، ٩٢.

المسلمين فحسب، بل في بلاد العالم قاطبةً. وإذا كان الغربيون لا يكترثون لهذا الانحراف، ويمضون قُدُماً في ابتكار أساليب العُرْي والغَواية والانحلال، دون أن يجدوا رادعاً من كتبهم المحرَّفة، فإنَّ المسلمين الذين يتعبَّدون بتلاوة كتاب ربهم الثابتِ المُحْكَمِ المحفوظ آناء الليل وأطراف النهار، لا يمكن أن يرضوا بهذا الانحراف، مهما غشيتهم غواشي الغفلة والضعف والتقصير في حق دينهم؛ لأن نصوصه القاطعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تقرع أسماعهم دوماً، محذِّرةً المخالفين عن أمر الله ورسوله، متوعّدةً إياهم بالفتنة في الحياة الدنيا، وبالعذاب الأليم في الآخرة:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾(١).

ومن هنا باءت دعوات المنهزمين والمنهزمات في دعوة المرأة إلى التكشّف ونزع الحجاب بالإخفاق الذريع أمام صمود المؤمنين والمؤمنات من أبناء الصحوة الإسلامية المنتشرين في أنحاء العالم، وعادت المرأة المسلمة الواعية المثقفة الراشدة إلى زيّها الإسلاميّ المتميّز، وحجابها الشرعيّ المَصون، وحشمتها الرصينة المحبَّبة، في كثير من الأقطار الإسلامية التي شهدت دعوات تغريب المرأة المسلمة بنزع حجابها والتخلّي عن تصوّنها وحشمتها وتستّرها، رغم أنف دعاة التغريب والشرّ والفساد، من أمثال أتباع أتاتورك في تركية، ورضا بهلوي في إيران، ومحمد أمان في أفغانستان، وأحمد زوغو وأنور خوجا في ألبانيا، ومرقص فهمي وقاسم أمين وهدى شعراوي في مصر. وتراجع عدد من أنصار تحرير المرأة من حجابها وحشمتها عن آرائهم القديمة في تبذُّل المرأة وتكشُّفها واختلاطها الأهوج بالرجال.

---

(١) النور: ٦٣.

فها هي ذي الدكتورة نوال السعداوي التي وقفت تهاجم الحجاب والمتحجبات زماناً طويلاً، وتدعو إلى نزع الحجاب بشراسة وعنف وإصرار، ها هي ذي تقف اليوم لتنتقد تبذّلَ المرأة في الغرب وعُرْيَها الفاضح، فتقول: «إنني في شوارع لندن. . أرى نساء شبه عاريات، وهؤلاء يعرضنَ أجسادهنَّ كالبضاعة. الملابس لها وظيفة، وهي وقاية الجسم من العوامل الطبيعية، ولا ينبغي أن تقدِّم رسائل إغراء. لو نظرت المرأة لنفسها كإنسانة، وليس كبضاعة، لما احتاجت أن تتعرَّى»[1].

وتبين لنوال السعداوي بعد حين أن رفع الحجاب كان ينبغي أن يكون عن العقل، وخصوصاً عند المثقفين والمثقفات؛ فكم من نساء محجبات متوسطات التعليم يملكن عقولاً نيِّرة متفتِّحة، تزن عشرات من عقول بعض المتعلمات الرقيعات[2] المتبرجات، كاشفات الوجوه والرؤوس والأجساد، محجّبات العقول والفِطَر والأفهام؛ ولذلك فهي تقول عن خطّتها القريبة: «رفع الحجاب عن العقل عند المثقفين والمثقفات»[3]. وتقول أيضاً: «أنا أعرف أستاذات وطبيبات ومهندسات يعانين من أمّية سياسية واجتماعية وثقافية»[4].

وها هو ذا الكاتب الروائي الشهير إحسان عبد القدوس الذي أغرق السوق الأدبية برواياته الداعية إلى خروج المرأة من البيت والاختلاط بالرجال ومراقصتهم في الحفلات والنوادي والسهرات، يقول في مقابلة أجرتها معه جريدة الأنباء الكويتية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٩/١/١٨: «أعتبر أن

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية: العدد ٩٣٢.

(٢) أي الحمقاوات.

(٣) مجلة المجتمع: العدد ٩٣١.

(٤) المصدر السابق.

أساس مسؤولية أي امرأة هو البيت والأولاد. وهذا ينطبق عليّ بالدرجة الأولى، فلولا زوجتي ما كنت أستطيع تحقيق الأسرة والاستقرار والنجاح، لأنها متفرغة للبيت والأولاد...».

ويقول أيضاً في تلك المقابلة: «لم أتمنَّ في حياتي مطلقاً أن أتزوج امرأة تعمل، فأنا معروف عني ذلك، لأنني أدركت من البداية مسؤولية البيت الخطير بالنسبة للمرأة!!».

تَتَجَنَّبُ ٱلاخْتِلاطَ المُطْلَق:

والمرأة المسلمة الراشدة تتجنَّب الاختلاط المطلق بالرجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فلا تسعى إليه، ولا تشجع عليه، متأسِّية بذلك بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأمهات المؤمنين، ونساء السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ وسار على طريقهم الهادي المستقيم.

ولا يخفى على المرأة المسلمة الحصيفة ما للاختلاط المطلق من مضار وخيمة على الجنسين، لمسها الغربيون الذين يمارسونه على أوسع نطاق في تدنّي مستوى التعليم، فعمدوا إلى عزل الفتيات عن الشبان في كثير من الجامعات ومعاهد التعليم. وقد شاهد هذا العزل عدد من كبار رجال التربية المسلمين الذين زاروا أوروبا وأمريكا وروسيا، ومنهم الأستاذ المربّي أحمد مظهر العظمة، فقد أوفدته وزارة التربية السورية إلى بلجيكا في رحلة علمية، زار فيها المدارس البلجيكية. وفي إحدى زياراته لمدرسة ابتدائية للبنات سأل المديرة: لماذا لا تَخْلِطون البنين مع البنات في هذه المرحلة؟ فأجابته: قد لمسنا أضرار اختلاط الأطفال حتى في سنّ المرحلة الابتدائية.

وحملت الأخبار أن روسيا قد وصلت إلى شيء من هذا الاقتناع، فأقامت فروعاً جامعية منفردة، لا يختلط فيها الطلاب بالطالبات.

وفي أمريكا فروع جامعية تزيد على (١٧٠) فرعاً، لا يختلط فيها الطلاب بالطالبات، لما لمسه المربّون والمشرفون على هذه الجامعات من مضارّ الاختلاط في مجتمع تعوّد على الاختلاط في شتّى جوانب الحياة الاجتماعية[١].

والشواهد على مضار الاختلاط المطلق في العالم أكثر من أن تُحصَى، وكلها تقدم الدليل الناصع على حكمة الإسلام في حَدِّهِ من الاختلاط، وتجنيبه المجتمعات الإسلامية المستهدية بهَدْي ربها مضارَّه الوخيمة القاتلة، المُبَدِّدة للطاقات، المزلزلة للقلوب والمشاعر والضمائر.

إنَّ الاختلاط المطلق الأهوج الشائع اليوم في المجتمعات غير المسلمة جعل المرأة تتصل بالرجل من غير تحفُّظ، وتخلو به، وهي في أبهى زينتها وتبرُّجها، وتسافر معه، وتصحبه إلى السينما، وتسهر معه إلى منتصف الليل، وتراقصه على نغمات الموسيقا، وهذا هو الاختلاط المحرَّم في المجتمع الإسلامي.

أما اجتماع الرجال والنساء لقضاء مصلحة راجحة، أو حاجة داعية إليه، كالصلاة في المسجد، أو حضور مجالس العلم، أو المشاركة في هدف نبيل كالجهاد ومتطلباته، أو غير ذلك من الأعمال الصالحة التي تتطلب مشاركة من الجنسين وتعاوناً بينهما، فقد أجازه الإسلام بضوابطه الشرعية المعروفة، بل حضَّ عليه في بعض الأحيان، كما في صلاة العيدين؛ لأن هذا الاجتماع غير الاختلاط المطلق الأهوج السائد في المجتمعات غير المسلمة.

---

(١) وآخر الأخبار عن الاختلاط في أمريكا ما أذاعته قناة الجزيرة يوم ٢٠٠٢/١٠/٢٢ من أن الرئيس الأمريكي بوش أصدر قراراً بفصل البنين عن البنات في مرحلة الإعدادي والثانوي؛ إذ أثبتت الدراسات والإحصاءات جدوى هذا الفصل في رفع المستوى الدراسي للطلاب والطالبات.

لا تُصافِحُ الرِّجالَ من غير المحَارِمِ:

وبدهي أن المرأة المسلمة التي ليس من شأنها الاختلاط بالرجال، ألاَّ تصافح منهم مَنْ كان من غير محارمها، متأسِّية بذلك بقول الرسول ﷺ وفعله، فيما رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبيّ ﷺ يَمْتَحِنُهنَّ بقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ... ﴾ إلى آخر الآية. قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقرّ بالمحنة[1]. فكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهنَّ قال لهن رسول الله ﷺ: «انْطَلِقْنَ فَقَدْ بايَعْتُكُنَّ»، لا واللَّهِ ما مسّت يدُ رسولِ الله ﷺ يدَ امرأةٍ قَطُّ، غير أنه بايعهنَّ بالكلام. والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء إلاَّ بما أمره الله، يقول لهنَّ إذا أخذ عليهنّ: «قَدْ بايَعْتُكُنَّ كَلَاماً»[2].

لا تُسافِرُ إلاَّ ومعَها ذو مَحرَم:

ومن هَدْي الإسلام للمرأة المسلمة ألاّ تسافر إلاّ ومعها رجل مَحْرَم؛ ذلك أن السفر لا يخلو من مشقَّة، بل قد يكون محفوفاً بالمخاطر والمكاره والصعاب، وليس من الخير والصواب أن تواجه المرأة شيئاً من هذا وحدها، وليس معها رجل من محارمها، يحمل عنها الأعباء، ويدرأ عنها الأخطار. ومن هنا جاء هَدْي النبوة بنهيها عن السفر وحدها من غير محرم، متعدِّداً متنوعاً متتالياً:

ففي صحيح البخاري: «لا تُسافِرِ الْمَرْأَةُ ثَلَاثَةَ أَيّامٍ إلاَّ مَعَ ذي مَحْرم»[3].

---

(١) أي فقد بايع البيعة الشرعية.

(٢) فتح الباري ٩/ ٤٢٠ كتاب الطلاق: باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمّيّ أو الحربيّ.

(٣) فتح الباري ٢/ ٥٦٦ كتاب تقصير الصلاة: باب في كم يقصر الصلاة.

وفي صحيح مسلم: «لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ تُسافِرُ مَسِيرَةَ ثَلاثِ لَيالٍ إلاَّ ومعَها ذو مَحْرَمٍ»[١].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، أكتفي منها بما تقدَّم، وكلّها تؤكد شرط المَحْرَم لسفر المرأة، إلاَّ في حالات الضرورة التي بيَّنها العلماء وتعدَّدت فيها آراؤهم[٢]، أو كان سفرها مع نسوة صالحاتٍ، أو كان السفر لمكان قريب، لا يستغرق زمناً طويلاً، وكان هناك من الإجراءات ما يضمن أمنها وسلامتها من المصاعب والأخطار.

هكذا تكون المرأة المسلمة بحقّ مطيعةً ربَّها، ممتَثِلةً أمرَه، مجتَنِبةً نهيَه، راضيةً بحكمه، ملتزِمةً بتعاليم دينها وشعائره وآدابه، تصبر على تكاليف الطاعة لله عز وجلّ، ولو خالفت في كثير منها المفاهيم الاجتماعية السائدة، وكلّها ثقة ويقين أنها الناجية الفائزة الرابحة، كما أكَّد ذلك القرآن الكريم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[٣].

راضِيَةٌ بِقَضاءِ اللَّهِ وقَدَرِهِ:

لا بدع أن تكون المرأة المسلمةُ المطيعةُ أمرَ ربها راضيةً كلّ الرضا بقضائه وقدره؛ ذلك أن الرضا بالقضاء والقدر من أكبر علامات الإيمان والطاعة والتقوى والصلاح في الإنسان. ومن هنا كانت المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها راضية دوماً بما يصيبها في حياتها من خير أو شرّ، لأن لها في هذا الرضا خيراً على كلّ حال، كما بيَّن رسول الله ﷺ بقوله: «عَجَباً لِأَمْرِ المُسْلِمِ! إنَّ أَمْرَهُ

(١) صحيح مسلم ٩/ ١٠٣ كتاب الحج: باب سفر المرأة مع محرم.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم ٩/ ١٠٢ ــ ١٠٩ كتاب الحج: باب سفر المرأة مع محرم.

(٣) سورة العصر.

كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذاكَ لأحدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خَيْراً لَهُ، وإنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خَيْراً لَهُ»(١).

إن المرأة المسلمة لتعتقد في قرارة نفسها أن ما أصابها في هذه الحياة لم يكن ليخطئها، وما أخطأها ما كان ليصيبها، وكلّ شيء بقضاءٍ وقَدَر، ومن ثَمَّ كان أمرُها خيراً كُلُّه، إن أصابتها سرّاءُ لهج لسانها بالشكر للإلَه المنعم الوهّاب، فكانت من الشاكرات الطائعات الغانمات، وإن أصابتها ضرّاءُ صبرَتْ، فكانت من الصابرات الناجيات الفائزات.

بهذا الإيمان الراسخ العميق كانت المرأة المسلمة تتحمَّل الصدمات والفواجع والكوارث، وتتلقَّاها بنفس مطمئنة راضية بقضاء الله وقدره، وتستعين بالصبر والصلاة والاحتساب، فإذا لسانها ينطلق بالشكر على ما قضى الله وقدّر، كما فعلت الخنساء يوم جاءها نعي أولادها الأربعة، إذ قالت: الحمد لله الذي شرَّفني باستشهادهم، وأرجو أن يجمعني الله بهم في مستقرّ رحمته(٢). أو كانت تفزع إلى مصلاّها، تستعين بالصبر والصلاة، كما فعلت أسماء بنت عُمَيْس بعد أن توالت عليها المصائب والفواجع والنكبات، ففقدت زوجها الأول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم فُجِعَت بزوجها الثاني أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم بولدها محمد بن أبي بكر رضي الله عنه.

وأمثال الخنساء وأسماء كثيرات في تاريخ المرأة المسلمة المؤمنة المحتسبة الصابرة، سيوفّيهنّ الله أجورَهنّ بغير حساب:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠ ﴾(٣).

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ٢٥ كتاب الزهد: باب في أحاديث متفرقة.

(٢) الإصابة ٨/ ٦٦، ٦٧.

(٣) الزمر: ١٠.

أَوَّابَـــة :

وقد تغشى نفسَ المرأة المسلمة غاشيةٌ من غفلة، فتزلّ بها القدم، أو يعتريها شيء من قصور وتراخٍ في تنفيذ أمر ربّها، مما لا يليق بالمرأة المسلمة الواعية اليقظة، ولكنها لا تبقى سادرة في غفلتها، بل سرعان ما تتنبَّه وتصحو من غفلتها، وتستغفر من زلّتها أو تقصيرها، وتعود إلى تألُّق إيمانها وجلاء نفسها وحرارة تديّنها، مستغفرة تائبة آيبة إلى حمى ربّها الآمن:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾[1].

فالغفلة لا تَرِينُ على قلب خالطَتْه بشَاشَةُ الإيمان، بل تَرِينُ على القلوب التي صَدِئتْ من الغفلة والتفلُّت والفُسوق والعِصْيان. وقلب المرأة المسلمة التقيَّة اليقظة متفتّح دوماً لتلقّي الهداية والطاعة والإنابة، واسترواح نسمات التوبة والرحمة والغفران.

تَشْعُرُ بِمَسْؤولِيَّتِها عَنْ أَفْرادِ أُسْرَتِها :

لا تقل مسؤولية المرأة المسلمة عن أفراد أسرتها أمام الله عز وجل عن مسؤولية الرجل، بل قد تكون مسؤولية المرأة أكبر من الرجل، لِما تعلم من خفايا حياة أولادها الذين يعيشون معها وقتاً أطول، وقد يُطلِعونها على ما لا يُطْلِعون عليه الأب. والمرأة المسلمة الواعية تشعر بهذه المسؤولية كلّما ترامى إلى سمعها قول الرسول ﷺ:

«كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ ومَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أَهْلِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِها

(١) الأعراف: ٢٠١.

ومَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١).

وشعورها بالمسؤولية يدفعها دوماً إلى تقويم الانحراف، إنْ وُجِد في سيرة بعض أفراد أسرتها، وتلافي التقصير إن لمسته في أحد منهم. ولا تسكت امرأة عن أي انحراف أو ضعف أو تهاون أو تقصير تجده في بيتها وأسرتها، إلاّ وفي دينها رقّة، وفي شخصيتها ضعف، وفي وعيها قصور.

هَمُّها مَرْضاةُ اللَّهِ تَعالَى:

والمسلمة الصادقة تتطلّع دوماً في أعمالها إلى مرضاة الله عزّ وجلّ، وتزنها بهذا الميزان الدقيق، فما رضي الله عنه فعلته، وما لم يرضَ عنه أعرضَتْ عنه واجْتَوَتْهُ(٢).

وحينما يقع التعارض بين ما يرضي الله عز وجل، وما يرضي الناس، فإنها تختار مرضاة الله بلا تردد ولا تلعثم ولا جدال، ولو أسخط الناس.

ذلك أنها تدرك بوعيها الإسلامي العميق وحِسِّها المرهف أن مرضاة الناس غاية لا تُدْرَك، وقد تُودي بمبتغيها إلى سخط الله، مُسْتَهْدِيَةً في هذا كلّه بهَدْي الرسول الحكيم القائل:

«مَنِ الْتَمَسَ رِضاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاس كَفاهُ اللَّهُ مَؤُونَةَ النَّاسِ، ومَنِ الْتَمَسَ رِضاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ»(٣).

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/٦١ كتاب الإمارة والقضاء: باب الراعي مسؤول عن رعيته.

(٢) أي كرهته.

(٣) رواه الترمذي ٤/٣٤ في آخر أبواب الزهد، وهو حديث حسن.

بهـذا الميـزان الـدقيـق» وهـذا المقيـاس المحكَم، تتَّضـح أمـام المـرأة المسلمة معالم الطريق القصد القويم، فتعرف ما تأخذ، وتعرف ما تدع، ومقياسها الدائم الذي لا يخطىء مَرْضاةُ الله عزّ وجلّ. وبذلك تختفي من حياة المرأة المسلمة المتناقضات المُضْحِكة المُخجِلة التي تقع فيها كثيرات من الشاردات عن هَدْي الله.

إن اللّواتـي تراهنّ في مصلاّهـنّ خاشعات، ولكنهـنّ يحتكمن في كثير مـن مـواقفهـنّ لأهـواء نفـوسهـنّ، فَيَجُرْنَ عَـنِ الحقّ، وتنطلـق ألسنتهـنّ في المجالس بالغِيبَة والنَّميمة وتجريح الناس، ويَكِدنَ لمن لا يُحْبِبْنَ كَيْداً، ويَتَأَوَّلْـنَ عليهـنّ تأوّلاً، للإيقـاع بهـنّ وإيذائهنّ، أولئـك يعانيـن خَلَـلاً في دينهنّ، وضعفاً في عقيدتهنّ، وقصوراً في تصوُّرهنّ لحقيقة هذا الدين الكامل المتكامل الذي أنزله الله لصياغة الإنسان صياغة كاملة في شتى جوانب شخصيته، بحيث تبدو تصرُّفاته الخاصة والعامة كلّها مُرْضِيَّةً لله عز وجل، مطابِقـةً هَـدْيَـهُ، مُحَقِّقَـةً السّلـوكَ القـويـم الـذي رسمـه الإسـلام لـلإنسـان في هذه الحياة.

أما اللّواتي يُطِعْنَ اللَّهَ في أمر، ويَعْصِينَه في أمر، ويزنّ تصرفاتهنّ أو بعضهـا بميـزان أهـواء نفـوسهـنّ، فهـؤلاء يبـدون أنصـاف مسلمـات، وهـذه هـي الازدواجيـة التـي ابتُلِيَـت بهـا المـرأة المتخلِّفـة عـن هَـدْي دينهـا وعقيدتها، وهي من أخطر الأمراض السلوكية والخلقية التي ابْتُلِيَ بها الإنسان في هذا العصر.

مُتَمَثِّلَةٌ مَعْنَى العُبُودِيَّةِ لِلَّهِ:

والمرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها تؤمن إيماناً عميقاً بأنَّها خُلِقَت في

هذه الحياة الدنيا لهدف كبير، حَدَّدَهُ رَبُّ العزَّة بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾[١].

فالحياة في نظر المرأة المسلمة الراشدة ليست في قضاء الوقت بالأعمال اليومية المألوفة، والاستمتاع بطيبات الحياة وزينتها، وإنما الحياة رسالة، على كلّ مؤمن أن ينهض بها على الوجه الذي تتحقق فيه عبادته لله. وهذا الوجه هو أن يستحضر النيّة في أعماله كلّها أنه يبتغي بها وجه الله، ويَتَحرَّى مرضاته؛ ذلك أن الأعمال في الإسلام محصورة موقوفة على النيّات، كما أكّد رسول الله ﷺ بقوله:

«إنّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرسولِهِ، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيا يُصيبُها، أو امْرأةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ»[٢].

ومن هنا تستطيع المرأة المسلمة أن تكون في عبادة دائمة، وهي تقوم بأعمالها كلّها، كأنّها في مَعْبَد مُتَحرِّك دائم، ما دامت تستحضر في نيّتها أنها تقوم بأداء رسالتها في الحياة، كما أراد الله لها أن تكون.

إنّها لفي عبادة وهي تبرّ والديها، وتحسن تبعّل زوجها، وتعتني بتربية أولادها، وتقوم بأعبائها المنزلية، وتصل أرحامها... إلخ، ما دامت تفعل ذلك كلّه امتثالاً لأمر الله، وبنِيّة عبادتها إياه.

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/٤٠١ كتاب الطهارة: باب النيّة في الوضوء وغيره من العبادات.

تَعْمَلُ على نُصْرَةِ دينِ اللَّهِ:

وإن أَجَلَّ الأعمال التعبّدية التي تقوم بها المرأة المسلمة، هو نصرة دين الله في واقع الحياة، والعمل على تطبيق منهجه في حياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة.

وإن المرأة المسلمة الصادقة الواعية هَدْي دينها لتحسّ في أعماقها أن عبادتها تبقى ناقصة، إذا هي قصّرت في هذا الجانب الحيويّ من حياتها وحياة المسلمين جميعاً؛ إذ به يتحقق الهدف الكبير الذي خلق الله الجنّ والإنس من أجله، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، الذي به وحده تتحقق عبادة البشر لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1]، وبه وحده يتحقّق معنى: «لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ مُحمَّدٌ رسولُ اللَّهِ» في واقع الحياة.

ولقد أدركت المرأة المسلمة الأولى هذا المعنى إدراكاً عميقاً، تغلغل في مسارب نفسها، فإذا هي لا تقلّ عن الرجال اندفاعاً وتضحية وجرأة في سبيل الله، بل إن بعض النساء من سلف هذه الأمة تفوقن على كثير من الرجال في تلك الميادين.

فهذه أسماء بنت عُمَيْس، زوجة جعفر بن أبي طالب، تسارع إلى الإسلام مع زوجها، في أيام الإسلام الأولى، أيامِ الشدّة والكرب والضيق والابتلاء، وتخفّ إلى الهجرة معه إلى الحبشة، على ما كان يكتنف تلك الهجرة من صعوبات ومشاقّ ومخاطر، محتسبة ذلك كله في سبيل الله ونصرة دينه. ولما قال لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مُفاكِهاً[2]: يا حبشيّة، سبقناكم

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) أي ممازحاً.

بالهجرة، قالَتْ: إي لَعَمْري، لقد صدقتَ! كنتم مع رسول الله ﷺ يُطْعِمُ جائعَكم، ويُعلِّم جاهلَكم، وكنا البُعَداءَ الطُّرَداءَ. أما والله لآتينَّ رسول الله ﷺ فلأذكرنّ ذلك له. فأتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن رجالاً يغمزون علينا، ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأوَّلين. فقال رسول الله ﷺ: بل لكم هجرتان، هاجرتم إلى أرض الحبشة، ونحن مُرْهَنون بمكة، ثم هاجرتم بعد ذلك إليّ(١).

لقد أحسنت أسماء بنت عميس في إقامتها الحجة على فضل المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، وانتزعت مِنْ رسول الله ﷺ تنويهاً بأنَّ لهذه الثّلّة الكريمة فضل الهجرتين. وإنه لشرف عظيم أن يكون لهم ذلك الفضل في المسارعة إلى نصرة الرسول الكريم، ومفارقة الأهل والأوطان في سبيل الله.

وفي بيعة العقبة التي تمت سرّاً تحت جنح الليل، وكان لها الأثر الأكبر في نصرة الرسول ﷺ لم تغب المرأة المسلمة عنها ؛ إذ كان في وفد الأنصار امرأتان من ذوات الرأي والفضل والمكانة، هما نَسِيبَة بنت كعب المازنية، وأمّ مَنِيع أسماء بنت عمرو السُّلَمِيَّة، أم مُعاذ بن جَبَل رضي الله عنه، التي شهدت غزوة خيبر مع رسول الله ﷺ، وكان لها فيها البلاء الحسن والمقام المحمود.

ولما صدع رسول الله ﷺ بدعوته، ودعا إلى التوحيد الخالص ونبذ عبادة الأصنام، ضاق المشركون به ذرعاً، وائتمروا به ليقتلوه ليلاً في كِسْرِ داره. وتكتّم المتآمرون وتعاقدوا وتعاهدوا على أن يبقى ائتمارهم بقتل النبي سرّاً بينهم. ولم يستشفَّ خبرَ هذا التآمرِ إلاّ امرأةٌ مسلمةٌ نافت على المئة، هي رُقَيْقَة بنت صيفيّ. ولم يقعدها الهرم والضعف عن المسارعة لإنقاذ رسول الله ﷺ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨٠ ط. بيروت.

فتحاملت على نفسها، وجاءته فحدّثته حديث القوم، فبادر إلى الهجرة لساعته، مغادراً أحبَّ بلاد الله إليه، تاركاً ابنَ عمه علياً عليه السلام ينام في فراشه، ليوهم المتآمرين المترصِّدين المحيطين بداره أنه فيها، وليصرفهم عن تتبّعه واغتياله في الطريق(١).

فأي خدمة أسدتها هذه المرأة العظيمة للإسلام والمسلمين؟! وأي جهاد قامت به لاستنقاذ حياة رسول الله ﷺ في أحلك الظروف التى واجهته، وأخطر المواقف التي مرّت بها دعوته الغرّاء.

ولما غادر رسول الله ﷺ وصاحبه مكة، وتواريا عن الأنظار في الغار الجاثم على قمة جبل ثور، كانت تحمل إليهما الطعام والماء وأخبار القوم المترصّدين صبيّةٌ ناشئةٌ، هي أسماء بنت أبـي بكر الصديق رضي الله عنهما.

كانت هذه الفتاة المسلمة الفذّة تقطع المسافة الطويلة بين مكة وجبل ثور في جوف الليل، لم يثنِها عن مهمتها وحشة الطريق، ووعورة المسلك، وترصّد الأعداء، لأنها كانت تعلم أن في استنقاذ رسول الله ﷺ وصاحبه، وإنجاح مقصدهما ووصولهما إلى دار الهجرة، نصرةً لدين الله، وإعلاءً لكلمته، وإظهاراً للحق وجنده. ومن هنا كانت تقوم بمهمتها الصعبة هذه كلّ يوم، ماشيةً متخفّيةً حذرةً مترقّبة، فتصعد قمة الجبل، حتى توافي رسول الله ﷺ وصاحبه بما تحمل من زاد وأخبار، ثم تعود أدراجها إلى مكة تحت رداء الليل الأسود البهيم(٢).

ولم تكن هذه المهمة التي يعجز عنها أشدّاء الرجال كل ما أدّته أسماء نحو

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥ والإصابة ٨/ ٨٣.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: الهجرة إلى المدينة.

دينها ونصرة رسوله، بل تعرّضَتْ لمحنة قاسية، ثبتت فيها ثبات الجبال الراسيات، يومَ أحاط بها رجال من المشركين، يسألونها عن أبيها، فأنكرت أمره، وتجاهلت خبره، فأمعنوا في الشدّة عليها، حتى إن أبا جهل لطمها لطمة أطارت قِرْطَها من أذنها، فلم يوهن ذلك من عزيمتها، ولم يفلّ من غرب تصميمها على الاحتفاظ بسرّها المكنون. ومضت تقوم بمهمتها تلك حتى جاء اليوم الموعود لمغادرة الرسول وصاحبه الغارَ إلى المدينة، وقد دُعِيَت بذات النطاقين، لأنها صنعت في بيت أبـي بكر لرسول الله ﷺ وصاحبه طعاماً ليلة خروجهما إلى الغار، ولما أرادت حمله لم تجد شيئاً تربط به إلاَّ نطاقها، فقالت ذلك لأبيها، فقال: شقّيه شطرين، فاربطي بأحدهما سفرة الزاد[١]، وبالآخر السقاء، ففعلَتْ، ولذلك سُمِّيَتْ بذاتِ النِّطَاقَيْن[٢].

لقد كانت نصرة دين الله، والالتحاق بركب دعوته، ديدن المرأة المسلمة في صدر الإسلام؛ إذ كان الإيمان يعمر قلوب المسلمات غَضّاً طَرِيّاً دَفّاقاً، فلا يطقن أن يُقِمْنَ في ديار الكفر بعيداً عن بشاشة الإسلام وسماحته ونورانيته. كنّ يهاجرنَ في رفقة أزواجهنّ، إن كان لهنّ أزواج، وخروجهنّ للهجرة كخروج الرجال التماساً لطاعة الله ونصرةً لدينه.

كانت هناك قضية يؤمنَّ بها كما يؤمن الرجال، ويضحّين في سبيلها كما يضحّي الرجال. وهذا الإيمان بالقضية هو الذي حمل أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبـي مُعَيْط على الهجرة إلى المدينة وحدها في مدة صلح الحديبية، وهي المدة التي كان العهد فيها بين الرسول ﷺ والمشركين أنّ مَنْ جاء منهم مسلماً إلى

---

(١) أي ما يحمل فيه الزاد.

(٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٢٣٣، ٢٤٠ كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبـي وأصحابه إلى المدينة، و ٦/ ١٢٩ كتاب الجهاد: باب حمل الزاد في الغزو.

الرسول ردّه إليهم. وقد أوفى رسول الله ﷺ بعهده وردّ رجلين إليهم. فلما وصلت أم كلثوم إلى المدينة قالت للرسول ﷺ: إني فررت إليك بديني، فامنعني، ولا تردّني لهم، يفتنوني ويعذّبوني، ولا صبرَ لي على العذاب، إنما أنا امرأة، وضعف النساء إلى ما تعرف، وقد رأيتك رددت رجلين، فقال: «إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ نَقَضَ العَهْدَ في النِّساء»[(١)].

لقد علم الله صدق إيمان أم كلثوم بنت عُقْبَة بن أبي مُعَيْط وغيرها من المهاجرات اللواتي لم يخرجهنّ إلاَّ حبُّ الله ورسوله والإسلام، فأنزل فيهنّ قرآناً يُتْلَى، ينقض به العهد الذي كان بين الرسول والمشركين في النساء خاصّة، وينهى عن ردّهنّ إلى المشركين بعد امتحانهنّ، والتأكّد من أنهنّ ما خرجن لزوج ولا مال ولا دنيا، وإنما خرجن حبّاً لله ولرسوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . . . ﴾[(٢)].

ومن النساء الفضليات السابقات إلى نصرة الإسلام ورسوله أم الفضل بنت الحارث، لُبابة، شقيقة ميمونة أم المؤمنين لأمها وأبيها؛ فقد كانت المرأة الثانية في الإسلام، إذ أسلمت بعد خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وكانت سنداً وعوناً وأنساً لرسول الله ﷺ.

كانت زوجاً لعمه العباس بن عبد المطلب، تقف على الطرف النقيض لزوج عمه أبي لهب أم جميل بنت حرب؛ فهذه كانت حَمّالة الحطب، كما وصفها القرآن الكريم، في جيدها حَبْلٌ مِنْ مَسَد، من شدة إيذائها

---

(١) أحكام النساء لابن الجوزي: ٤٣٩.

(٢) الممتحنة: ١٠.

رسولَ الله ﷺ، وتلك كانت من أسرع مناصريه ومؤيديه والمضحّين في سبيل نصرة دينه في أشدّ أيام المحنة والضيق التي مرّ بها المسلمون الأوائل.

كانت هي وزوجها العباس وأبناؤها يكتمون إسلامهم بأمر من رسول الله ﷺ وتخطيط حكيم مدروس، ليتعرفوا على أسرار المشركين، ويوافوا رسول الله ﷺ بها. ولما دارت معركة بدر بين المسلمين والمشركين، وجاءت الأخبار بهزيمة قريش، أوصت أم الفضل بنيها ومولاها أبا رافع أن يكتموا فرحتهم بتلك الهزيمة، اتقاء شرّ المشركين، وخصوصاً أبا لهب الذي كان يَتَنَزَّى حقداً وكراهية وكيداً لمحمد ﷺ وصحبه ودعوته. ولكن مولاها أبا رافع لم يَنْجُ من بطش أبي لهب؛ إذ أبدى فرحته بانتصار المسلمين، فاستشاط أبو لهب غيظاً، وصبّ جام غضبه على المولى المسكين، وضربه على مرأى من سيدته أم الفضل.

هنالك انتفضت أم الفضل كاللّبؤة، وانقضّت على أبي لهب صائحة: استضعفتَه إذ غاب عنه سيّدُه؟! وضَرَبَتْهُ بعمود من أعمدة البيت فشجّت رأسه شجّة عميقة قاتلة، لم يعش بعدها إلاّ سبعَ ليالٍ.

وصبرت أم الفضل على فراق زوجها العباس في سبيل الله ونصرة دينه، يوم أصدر الرسول الكريم أمره ببقاء زوجها في مكة، وهِجْرتها إلى المدينة. وطال هذا الفراق، وكان ممضّاً مؤلماً قاسياً، أمضت أم الفضل أيامه ولياليه صابرةً محتسبةً مستعينةً بالصيام والصلاة، مرتقبةً قدوم زوجها الحبيب إلى المدينة بانتهاء مهمته في مكة. وطال غيابه حتى كان آخر المهاجرين إلى المدينة. وما كان يخفّف من لوعة فراقها زوجَها إلاّ رؤيتُها ولدَها الكبيرَ عبد الله يلازمُ النبي ﷺ، وينهل من معين هَدْيه اللألاء، ويقتبس كلّ يوم قَبَسات من نوره الوضّاء. وما كان يدور في خَلَدِها أن التاريخ كان يعدّها لتدخله من أوسع

أبوابه، فتكونَ الأمَّ العظيمةَ لِحَبْر الأمة الإسلامية وترجمان القرآن: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ومن السابقات إلى الإسلام والمضحّيات المستهينات بما أصابهنّ في سبيله من عذاب وتنكيل وآلام: سُمَيَّة، أم عمّار بن ياسر. كان بنو مخزوم إذا اشتدتّ الظهيرة والتهبت رمال الصحراء، خرجوا بها هي وابنها وزوجها إلى العراء، فأهالوا عليهم الرمال المتّقدة، وألبسوهم الدروع المحماة، ورضخوهم بالحجارة الصلدة، حتى تفادى ابنُها وزوجُها العذابَ الشديد بكلمة توافق المشركين، نطقاها مُكْرَهَيْنِ، وفيهما وفي أمثالهما نزل قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[(١)].

أما سمية، فاعتصمت بالصبر، وأبت أن ترضي المشركين بكلمة، فما كان من النذل أبي جهل إلاَّ أن طعنها بحربة فاضت بها روحها، وسجّلها التاريخ بمداد من نور أولَ شهيد في الإسلام.

وفي تاريخ الإسلام كثيرات غير سمية احتملن فوق ما احتملت من عذاب في سبيل نصرة الإسلام، فما وهنت لهنّ عزيمة، ولا فلّ من غرب صبرهنّ تنكيل، بل تقبّلن ما نزل بهنّ من عذاب صابرات راضيات محتسبات، لا يُعطينَ دَنيّةً في دينهنّ، ولا يتذلّلنَ مستعطفات طالبات الرحمة بهنّ، حتى إن رواة السِّيَر روَوْا أن المستضعفين من الرجال ـ إلاَّ بلالاً رحمه الله ـ اضْطُرُّوا إلى استبقاء أنفسهم من الموت بكلمة ترضي الظَّلَمة الطّغاة، ولم يَرْوُوا عن امرأة من المسلمات المستضعفات الصابرات شيئاً من ذلك.

بل إن هذا النمط الفذّ من النساء المسلمات كن يستعذبن العذاب في

---

(١) النحل: ١٠٦.

سبيل الله وإعزاز دينه، ولا يفتأن يدعون إلى الإسلام، غير آبهات بما يلقين في طريق دعوتهنّ من أشواك وآلام ومحن.

وفي حديث أمّ شَرِيك القرشيّة العامرية الذي رواه ابن عباس الشاهدُ الحيّ على تألّق جذوة الإيمان في نفوسهنّ، والاندفاع في طريق الدعوة إلى الله، والصبر على ما يلقين في هذا الطريق من عذاب ونَصَب ولُغوب.

قال ابن عباس: وقع في قلب أمّ شريك الإسلامُ، وهي بمكة، فأسلَمتْ، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرّاً، فتدعوهنّ وترغبهنّ في الإسلام، حتى ظهر أمرُها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا لها: لولا قومُكِ لفعلنا بكِ وفعلنا، ولكنا سنردّك إليهم. قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيءٌ مُوَطَّأً ولا غيره، ثم تركوني ثلاثاً، لا يطعموني ولا يسقوني. قالت: فما أتت عليّ ثلاث حتى ما في الأرض شيء أسمعه. وكانوا إذا نزلوا أوثقوني في الشمس، واستظلّوا، وحبسوا عني الطعام والشراب حتى يرتحلوا... إلخ.

ولم تكتفِ المرأة المسلمة بهذه المشاركة الصادقة في نصرة الإسلام والتضحية في سبيله، بل إنها تقدمت للغزو مع الرسول ﷺ وصحابته في عديد من المعارك، حينما بدأت المواجهة المسلّحة بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، وقامت بأعمال حميدة مشهودة من إعداد القِرَب، ومَلْئِها بالماء، ونقلها وسقي المجاهدين، وتضميد الجرحى، وحمل القتلى إلى خارج أرض المعركة. ولم تتوانَ في ساعات الشدّة عن حمل السلاح وخوض غمار الحرب إلى جانب رسول الله ﷺ وصحبه.

ولقد وردت أحاديث كثيرة في صحيحي البخاري ومسلم، تجلّي الصورة المشرقة للمرأة المسلمة في خير القرون، يوم كان الإسلام يعيش في قلبها غضّاً

طريّاً ناطقاً بحبّ الله ورسوله وعزّة هذا الدين.

ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام مسلم عن أم عطيّة الأنصارية، قالت: غزوتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ سبعَ غَزَواتٍ، أَخْلُفُهمْ في رِحالِهِمْ، فأصنعُ لهم الطّعامَ، وأُداوي الجَرْحَى، وأقومُ على المَرْضَى»(١).

وعن أنس بن مالك، قال: «كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يَغْزو بأمّ سُلَيْم، ونِسْوَةٌ من الأنْصار معَه إذا غَزا، فيَسْقِينَ الماءَ، ويُداوينَ الجَرْحَى»(٢).

ويروي الإمام البخاري عن الرُّبيِّع بنتِ مُعَوِّذ قولَها: «كُنّا مع النبيّ ﷺ نَسْقي ونُداوي الجَرْحَى، ونَرُدُّ القَتْلَى إلى المَدينة»(٣).

ومما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: «لما كانَ يومُ أُحُدٍ انهزمَ ناسٌ من النّاسِ عن النّبيِّ ﷺ، وأبو طَلْحَةَ بين يدي النبيّ [redacted] مُجَوِّبٌ عليه بِحَجَفَةٍ(٤). قال: وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديدَ النّزع(٥)، وكَسَر يومئذ قوسَيْنِ أو ثلاثاً. قال: فكان الرجلُ يمرُّ معه الجَعْبَةُ من النَّبْل، فيقول: انثُرْها لأبي طلحة. قال: ويُشْرِفُ نبيُّ الله ﷺ ينظرُ إلى القوم، فيقولُ أبو طلحة: يا نبيَّ اللّهِ، بأبي أنتَ وأمّي، لا تُشْرِفْ، لا يُصِبْكَ سَهْمٌ من سهامِ القوم، نَحْري دونَ نَحْرِكَ. قال: ولقد رأيتُ عائشةَ بنتَ أبي بكر وأمَّ سُلَيْم، وإنهما لَمُشَمِّرتانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهما(٦)، تنقُلان القِرَبَ على مُتونهما، ثم

---

(١) انظر صحيح مسلم ١٢/ ١٩٤ كتاب الجهاد والسير: باب النساء الغازيات.

(٢) انظر صحيح مسلم ١٢/ ١٨٨ كتاب الجهاد والسير: باب غزوة النساء.

(٣) انظر فتح الباري ٦/ ٨٠ كتاب الجهاد: باب مداواة النساء الجرحى في الغزو.

(٤) أي متّرس عنه بترس ليقيه سلاح الكفار.

(٥) أي شديد الرمي.

(٦) أي خلاخيلهنّ.

تُفْرغانِه في أَفْواهِ القوم، ثم تَرْجعانِ فتَمْلآنها، ثم تَجيئانِ تُفْرِغانِه في أفواه القوم. ولقد وقعَ السيفُ من يَدَيْ أبـي طلحة إمّا مرتين وإمّا ثلاثاً من النُّعاس»[١].

فأيُّ عمل جليل كانت تقوم به هاتان السيدتان الكريمتان المجاهدتان في إطفاء غُلَّة المجاهدين وإرواء أكبادهم الظَّمْأَى، وهم في ساحة المعركة الضارية الضَّروس، في الجوّ الحارّ اللاهب المعروف في بلاد الحجاز، إذ كانتا تنتقلان في الساحة المحتدمة، غير آبهتين لانهمار النبل ولا لمقارعة السيوف!!

ولهذا فَضَّلَ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمّ سَلِيط الأنصارية على زوجه أم كلثوم بنت علي، في قَسْمِه المُروطَ بين نساء المدينة؛ لأنّ أمّ سَلِيط كانت تَخِيط القِرَب يوم أُحُد، لِما لعملها المهمّ هذا من أثر كبير في إنعاش المجاهدين وتجديد نشاطهم.

يروي البخاري عن ثعلبة بن أبـي مالك: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مُروطاً بين نساء المدينة، فبقي مِرْطٌ جيّد، فقال له بعضُ مَنْ عِندَه: يا أمير المؤمنين، أعطِ هذا ابنةَ رسولِ الله ﷺ التي عندَك ــ يريدون أمَّ كلثوم بنت علي[٢] ــ فقال عمر: أمُّ سَلِيط أحقُّ، وأمُّ سَلِيط من نساء الأنصار ممّن بايَعَ الرسولَ ﷺ. قال عمر: فإنّها كانت تَزْفِرُ لنا القِرَبَ[٣] يومَ أُحُدٍ»[٤].

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٦١ كتاب المغازي: باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) وصحيح مسلم ١٢/ ١٨٩ كتاب الجهاد والسير: باب غزوه النساء مع الرجال.

(٢) أي حفيدة الرسول ﷺ، وهي أصغر بنات فاطمة عليها السلام، ولهذا قالوا لها بنت رسول الله ﷺ.

(٣) أي تَخِيطها.

(٤) فتح الباري ٦/ ٧٩ كتاب الجهاد: باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو، و ٧/ ٣٦٦ كتاب المغازي: باب ذكر أم سليط.

وفي غزوة أُحُد شُجَّ وجهُ الرسول الكريم، وكُسِرَتْ رَباعِيَتُهُ(١)، وجُرِحَتْ وَجْنَتُه وشَفَتُهُ العليا، وكانت ابنتُه فاطمةُ عليها السلام تغسلُ جراحَه، وعليٌّ يسكبُ الماء. ولما رأت فاطمةُ أن الماء لا يزيد الدَّمَ إلاَّ كثرةً، أخذت قطعةً من حَصِير، فأحرقَتْها، وألصقَتْها، فاستمسكَ الدَّمُ(٢).

ومن النساء اللواتي ثبتن وقت الشدّة في غزوة أحد: صَفِيّة بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ، إذ قامت وفي يدها رمحٌ تضرب في وجوه الناس وتقول: انهزمتم عن رسول الله ﷺ! فلما رآها الرسول ﷺ أشار إلى ولدها الزبير بن العوام أن يُرْجِعَها كيلا ترى ما حلّ بشقيقها حمزة رضي الله عنه من تمثيل، فقالت: ولِمَ؟ فقد بلغني أنه مُثِّل بأخي، وذلك في الله عز وجل قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله تعالى.

وشهدت صفية غزوة الخندق، وكان رسول الله ﷺ إذا خرج لقتال عدوّه من المدينة رفع أزواجه ونساءه في حصن حسّان بن ثابت، وكان من أحصن الآكام في المدينة. فمرّ رجل يهودي، فجعل يُطيف بالحصن، فقالت: يا حسّان، إن هذا اليهودي يُطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدلّ علينا مَنْ وراءَنا من يهود، وقد شُغِل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزلْ إليه فاقتُلْه، فقال: يغفرُ الله لكِ يا ابنةَ عبد المطلب، واللَّهِ لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا. فلما سمعتْ صفيةُ كلامه قامت فأخذت عموداً ثم نزلت من الحصن، فضربته بالعمود فقتلته، ثم رجعت إلى الحصن، وقالت: يا حسّان، انزلْ إليه فَاسْلُبْه،

---

(١) الرَّباعِيَة: السنّ التي بين الثنيّة والنّاب.

(٢) انظر فتح الباري ٧/ ٣٧٢ كتاب المغازي: باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد.

فإنه لم يمنعني من سَلْبه إلاَّ أنه رجل، فقال لها حسّان: ما لي بِسَلَبِه من حاجة يا بنت عبد المطلب. ثم شهدتْ صفيةُ غزوةَ خيبر أيضاً.

ومن أبرز النساء المجاهدات يوم أُحُد، بل أبرزهنّ طُرّاً: نَسِيبة بنت كعب المازنية، أمّ عُمارة رضي الله عنها، فقد كانت في أول المعركة تسقي الظِّماء، وتداوي الجرحى كما يصنع غيرها من النساء، إذ كانت كفّة المسلمين هي الراجحة. ولما وقعت مخالفةُ الرماة عن أمر الرسول الكريم التي بدّلت نصرهم هزيمة، فأضحَوْا كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ... ﴾[1] تقدّمت نَسِيبة، فاستلّت سيفها، واحتملت قوسها، وانضمت إلى القلّة الصامدة مع رسول الله ﷺ التي كانت بمثابة جدار بشري يحمي الرسول ﷺ من سهام المشركين. وكلما دنا الخطر من رسول الله ﷺ سارعت إلى الذَّوْد عنه، حتى إنها لفتت نظر رسول الله ﷺ، فقال: «ما التفتُّ يميناً ولا شِمالاً إلاَّ وأنا أراها تقاتل دوني».

ومما حدّث به ابنها عُمارة في هذا الموقف العصيب قوله:

جُرِحْتُ يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى. ضربني رجل كأنه الرَّقْل[2]، ومضى عني، ولم يُعَرِّج عليّ، وجعل الدم لا يرقأ. فقال رسول الله ﷺ: اِعْصِبْ جرحَك. فأقبلت أمي إليّ، ومعها عصائب في حَقْوَيْها[3]، قد أعدَّتْها للجراح، فربطت جرحي، والنبي واقف ينظر إليّ، ثم قالت: انهضْ بُنَيَّ، فضارب القوم. فجعل النبي ﷺ يقول: ومَنْ يُطيقُ ما تُطِيقينَ يا أمَّ عُمارة؟

---

(١) آل عمران: ١٥٣.

(٢) أي النخل العالي.

(٣) الحَقْو: الخصر والإزار.

قالت: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله ﷺ: هذا ضارب ابنك. قالت: فاعترضت له، فضربت ساقه، فبرك، قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه. وقال: استقدتِ يا أمّ عُمارة. ثم أقبلنا نَعُلُّهُ بالسِّلاح[1] حتى أتينا على نفسه، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي ظفّرك وأقرَّ عينَكِ من عدوّكِ، وأراكِ ثأركِ بعينكِ.

في هذا اليوم العصيب أُثخِن جسد نَسِيبة بالجراح، وهي تجالد القوم وتضرب في نحورهم. ويراها رسول الله ﷺ، فينادي ابنها: أُمَّكَ أُمَّكَ، اِعْصِبْ جرحَها، بارك الله عليكم من أهل بيت. مقام أمك خير من مقام فلان وفلان. فلما سمعت أمه قول الرسول ﷺ قالت: اُدْعُ الله أن نرافقك في الجنة، فقال: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة، فقالت: ما أُبالي ما أصابني في الدنيا[2].

ولم يقتصر جهاد أم عمارة الصادق وبلاؤها الحسن على غزوة أحد، بل شهدت عدة مشاهد مع رسول الله ﷺ، فكانت معه في بيعة العقبة والحديبية وخيبر وحنين، وكانت بطولاتها في حنين لا تقل روعة عن بطولاتها في أحد، ثم شهدت معركة اليمامة في عهد الصِّدّيق رضي الله عنه، وجاهدت أروع جهاد، وجُرِحَت أحد عشر جرحاً، وقطعت يدها.

لا جرم أن يبشرها رسول الله ﷺ بالجنة، وأن تكون من بعده موضع تقدير الخليفة الصديق وقائده خالد بن الوليد رضي الله عنهما، وموضع تكريم الخليفة الراشد من بعدُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3].

---

(١) أي نتابع ضربه.

(٢) انظر أخبار غزوة أحد في سيرة ابن هشام وإنسان العيون والآثار المحمدية وطبقات ابن سعد، والإصابة، وأسد الغابة.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨١.

وفي هذه الفترة الوضيئة من تاريخ المرأة المسلمة المجاهدة امرأةٌ لا تقلّ عظمةً عن نَسِيبة بنت كعب، هي أمّ سُلَيم بنت مِلْحان؛ فلقد رأيناها فيما سبق مع أم عُمارة وعائشة أمّ المؤمنين وفاطمة ونسوة أخريات، يسقين الماء، ويداوين الجرحى. وها نحن أولاء نراها في مشهد آخر، والمسلمون يتأهّبون للسير مع الرسول ﷺ لفتح مكة، وفيهم زوجها أبو طلحة. وكانت أم سُلَيم حاملاً في شهورها الأخيرة، ولكن حملها لم يمنعها من الرغبة والتصميم على مرافقة زوجها أبي طلحة لتغنم معه شرف الجهاد في سبيل الله، غير عابئة بوعثاء السفر، ولأواء السير، وحُزُونَة الطريق، وصعوبة المركب، وخشونة العيش. وأشفق عليها زوجها من هذا كلّه، ولم يَرَ بُدّاً من استئذان الرسول الكريم، فأذِنَ له، وقرّت أمّ سُلَيم عيناً بمرافقة زوجها الحبيب، وشهدت معه نصر الله والفتح، في ذلك اليوم الأغرّ الميمون الذي كانت بطاح مكّة تردّد فيه رجعَ صدى هتاف المجاهدين المؤمنين: لا إلَه إلاّ اللّهُ وحدَه، صدق وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحدَه، لا شيءَ قبلَه ولا شيء بعدَه، لا إلَه إلاّ اللّهُ، ولا نعبد إلاّ إيّاه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ورأت معاقلَ الوثنية والشرك في جزيرة العرب تسقط إلى غير رجعة، والأصنامَ تهوي بيد رسول الله ﷺ، وهو يقول: جاء الحقُّ وزهَقَ الباطِلُ، إنَّ الباطِلَ كانَ زَهوقاً.

وقد أفعمت هذه المشاهد نفس أم سُلَيم بالإيمان، وزادتها إقداماً ورغبة في الجهاد في سبيل الله. ولم تمض إلاّ أيام معدودات حتى كان يوم حُنَيْن الذي زُلْزِلَ فيه المسلمون زلزالاً شديداً، وانشمروا مدبرين، لا يلوون على شيء، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلمّوا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. ولم يثبت مع رسول الله ﷺ سوى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وكانت أم سُلَيم من هذا النفر مع زوجها

أبـي طلحة، وقد رآها رسول الله ﷺ حازمة وسطها ببُرْد لها، وإنها لحَاملٌ بعبد الله بن أبـي طلحة، ومعها جَمَلُ أبـي طلحة، وقد خشيت أن يَعُزَّها[١] الجملُ، فَأَدْنَتْ رأسَه منها، فأدخلت يدها في خِزامته[٢] مع الخِطام، ليثبت ولا يلحق بالجمال الفارّة. ويناديها رسول الله ﷺ: أم سُلَيم؟ وتجيب: نعم، بأبـي أنت وأمي يا رسول الله.

وفي صحيح مسلم: «أن أمّ سُلَيْم اتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سُلَيم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذتُه إن دنا مني أحدٌ من المشركين بقَرْتُ به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله، أُقْتُلْ مَنْ بعدنا من الطُّلقاء[٣]، انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: يا أم سُلَيم، إنّ اللَّهَ قد كفى وأحسنَ»[٤].

لقـد ثبتَتْ أم سُلَيم مـع رسـول الله ﷺ وقـت الشدّة والكرب والضيق، إذ حَمِـيَ الـوَطِـيس، واحمـرّت الحَـدَق، وزُلْـزِل الأبطـال مـن الـرجـال، ولم تطق رؤية المنهزمين عن رسول الله ﷺ، فقالت له: أُقْتُلْهُمْ، فقد انهزموا بك.. فلا غَرْوَ أن يبشّرها رسولُ الله ﷺ بالجنّة في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال النبـي ﷺ: «رأيتُني دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فإذا أنا بالرُّمَيْصاءِ[٥] بنت ملحان، امرأةِ

---

(١) أي يغلبها.

(٢) الخِزامة: حلقة من شعر تجعل في أنف البعير.

(٣) أي مَنْ أسلموا يوم فتح مكة.

(٤) صحيح مسلم ١٢/١٨٧، ١٨٨ كتاب الجهاد والسير: باب غزوة النساء مع الرجال.

(٥) الرُّمَيْصاء بالتصغير: صفة لأمّ سُلَيم، لِرَمَصٍ كان بعينها.

أبي طَلْحَة...»[١].

وكان رسول الله ﷺ يزور أمّ سُلَيم، ويزور أختها أمَّ حرام بنت مِلْحان. وكما بشّر أمّ سُلَيم بالجنّة، بشّر أختها أمّ حرام بركوب ثَبَج البحر مع المجاهدين في سبيل الله غازيةً مجاهدةً.

فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دخل رسولُ الله ﷺ على ابنة مِلْحان، فَاتّكأَ عندَها، ثم ضحكَ، فقالت: لِمَ تضحكُ يا رسول الله؟ فقال: ناسٌ من أمتي يركبون البحرَ الأخضرَ في سبيل الله، مَثَلُهُمْ مَثَلُ الملوك على الأَسِرَّة. فقالت: يا رسولَ الله، أُدْعُ اللَّهَ أن يجعلني منهم، فقال: «اللّهُمَّ اجْعَلْها منهمْ». ثم عاد فضحكَ، فقالت له: مِثْلَ ذلك، فقال لها مثلَ ذلك، فقالت: أُدْعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنتِ من الأوّلينَ ولستِ من الآخِرينَ».

وتحققت بُشْرَى رسول الله ﷺ كما يقول أنس رضي الله عنه: فقد تزوجَتْ عبادة بن الصامت، وسارت معه مجاهدة، فركبت البحر مع بنتِ قَرَظَة[٢]. فلما قَفَلَتْ ركبتْ دابّتَها، فوقصَتْ بها، فسقطَت عنها فماتَتْ»[٣].

وبقي قبرها في قبرص إلى اليوم مَنارةً تحكي قصة المرأة المسلمة المجاهدة في سبيل الله، ويقف الناس عنده يقولون: هذا قبر المرأة الصالحة رحمها الله[٤].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٤/ ٨٦ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل عمر بن الخطاب.

(٢) هي زوج معاوية.

(٣) فتح الباري ٦/ ٧٦ كتاب الجهاد: باب غزو المرأة في البحر.

(٤) الحلية ٢/ ٦٢، وصفة الصفوة ٢/ ٧٠.

ومن النساء اللائي شاركن في نصرة الإسلام والجهاد في سبيله، وتقدمن إلى الغزو مع رسول الله ﷺ: أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ؛ فقد شهدت غزوة أحد وخيبر ومؤتة وحنين، وقامت بأعمال مجيدة، تضمّد جراح المكلومين، وتسقي العطاش[١].

ومنهنّ كَبْشَة بنت رافع الأنصارية، أم سعد بن معاذ رضي الله عنهما؛ فقد جاءت في غزوة أحد تعدو نحو رسول الله ﷺ، وهو على فرسه، وسعد بن معاذ رضي الله عنه آخذ بعنانه، فقال له سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بها»، ووقف لها، فدنت منه، فعزّاها بابنها عمرو بن معاذ، وبشّرها وأهلها الشهداء بالجنة، ودعا لهم[٢].

ومنهنّ الفُرَيْعة بنت مالك، وأم هشام بنت حارثة بن النعمان، رضي الله عنهما؛ فقد كانتا من اللواتي بايعن رسول الله ﷺ تحت الشجرة بالحديبية بيعة الرضوان التي دعا إليها رسول الله ﷺ عندما صدّ المشركون المؤمنين عن دخول مكة، وأرسل الرسول ﷺ عثمان بن عفان إلى قريش، وطال احتباسُهم إياه، وظنّ المسلمون أن قريشاً غدرت به وقتلته. وقد أكرم الله رسوله وكلّ من حضر هذه البيعة المباركة، فحباهم مرضاته التي تتقطّع دونها الرقاب، وتقصر عنها معسولات الأماني، وأنزل في ذلك قرآناً خالداً يتلى ما دامت السماوات والأرض:

---

(١) انظر المغازي ١/ ٢٧٨، وأنساب الأشراف ١/ ٣٢٦، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣١١.

(٢) انظر المغازي ٢/ ٣٠١، ٣١٥، ٣١٦، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٢٠١، والسيرة الحلبية ٢/ ٥٤٥، ٥٤٦.

﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾[(١)].

ومنهن أم المنذر سلمى بنت قيس التي شهدت بيعة الرضوان، وشهدت قبلها بيعة المؤمنات، ولذلك سميت مبايعة البيعتين. ولما نهض رسول الله ﷺ والمسلمون إلى حصار بني قريظة خرجت هذه الصحابية الجليلة معهم، وغنمت شرف الجهاد في سبيل الله.

ومنهنّ أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية؛ فقد شاركت الرسول ﷺ في غزوة الخندق، وخرجت معه إلى الحديبية وشهدت بيعة الرضوان، وشاركت في غزوة خيبر، وظلت تقدّم جهدها المشكور للإسلام وقضاياه حتى توفي رسول الله ﷺ، وهو عنها راضٍ. ولم تتوقف بعد وفاته عن نصرة الإسلام، بل خرجت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة إلى بلاد الشام، وشهدت معركة اليرموك، تسقي العطاش، وتضمد الجرحى، وتشجع المجاهدين على الإقدام والصمود. ومعركة اليرموك من أشهر المعارك الإسلامية التي شاركت فيها المرأة المسلمة مشاركة فعلية مع المجاهدين، فقد زُلْزِلَ فيها المجاهدون زلزالاً شديداً، وتراجع بعضهم، فكانت النساء المجاهدات يقاتلن مِنْ ورائِهم، ويُقْبِلْنَ على المنهزمين بالخشب والحجارة محرّضاتٍ إياهم على الإقدام والصمود. وقد نوّه ابن كثير بشجاعة النساء المسلمات ودورهن المشرّف في هذه المعركة، فقال:

«وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم، وكنّ يضربن من انهزم من المسلمين، ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟

---

(١) الفتح: ١٨.

فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال»[١]. وقد كان لموقف المسلمات الحسن وتثبيتهنّ المجاهدين أكبر الأثر في صمودهم وثباتهم حتى كتب الله لهم النصر على الروم.

في هذا اليوم العصيب أبلت البطلة أسماء بنت يزيد بلاءً حسناً، وأظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والإقدام ما لم يبده كثير من الأبطال؛ فقد انغمرت في صفوف القتال، وأردت عدداً من رجال الشرك. وقد نوّه بشجاعتها ابن حجر بقوله:

«أم سَلَمة الأنصارية هي أسماء بنت يزيد بن السَّكَن، شهدت اليرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً»[٢].

ويبدو أن هذه البطلة العظيمة أمضت بقية حياتها في بلاد الشام، حيث دارت معركة اليرموك، إذ انتقلت إليها مع من انتقل من الصحابة الكرام، وامتد بها العمر حتى عهد يزيد بن معاوية. ولما وافاها الأجل عطّرت ثرى دمشق بجثمانها الطاهر الذي ثوى في مقبرة الباب الصغير. وقبرها الماثل هناك إلى اليوم شاهد شامخ على جهاد المرأة المسلمة في سبيل الله[٣].

وبعد، فهذه صفحات مشرقات من تاريخ المرأة المسلمة، سطّرتها أولئك النساء الفضليات بصدق إيمانهنّ، وعميق وعيهنّ، وواسع إدراكهنّ لرسالة المرأة المسلمة في الحياة، وواجبها نحو ربّها ودينها. وإنها لصفحات

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٣، وانظر تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٥ وما بعدها طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) الإصابة ٤/ ٢٢٩، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي حيث أورد هذا الخبر وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وانظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٧.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٧.

معدودات من سجل ضخم ثرّ حافل بالشمائل الرفيعة، والتضحيات النادرة، والمواقف الرائعة، والعزائم الشمّاء، والمواهب الفذّة، والإيمان العميق. ولا ريب أن المرأة المسلمة الواعية اليوم تجد في مثل هذه الصفحات الغراء من سير أولئك الفضليات من النساء المسلمات نموذجاً يُحتَذَى، ونبراساً يستضاء به، ومثالاً حيّاً ناطقاً، تحرص على التأسّي به في تكوين شخصيتها المسلمة المعاصرة.

مُعْتَزَّةٌ بِشَخْصِيَّتِها الإسْلامِيَّةِ ودينِها الحَقّ:

لا غروَ أن تكون المرأةُ المسلمةُ الواعيةُ معتزَّة بشخصيتها الإسلامية، فخورة بالمكانة العالية السامقة التي أوصلها إليها الإسلام في وقت مبكّر شديد التبكير، قبل أن تصل المرأة في الأمم الأخرى إلى شيء منها؛ فمنذ خمسة عشر قرناً أعلن الإسلام حقوق المرأة كاملة لأول مرة في التاريخ، وتمتّعت المرأة المسلمة بحقوق الإنسان، قبل أن تعرف الدنيا منظّمات حقوق الإنسان، ومواثيق حقوق الإنسان، بقرون طويلة.

لقد أعلن الإسلام في ذلك الوقت المبكّر أن النساء شقائق الرجال، كما جاء في الحديث الشريف، الذي رواه أبو داود والترمذي والدارمي وأحمد، وفي ذلك الوقت الذي كانت الأوساط الاجتماعية في العالم النصراني تشك في إنسانية المرأة وطبيعة روحها، أعلن القرآن الكريم:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ...﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

وبايع الرسول ﷺ النساء على الإسلام والسمع والطاعة، كما بايع الرجال. وكانت بيعتهنّ مستقلة عن رجالهنّ، وليست تبعاً لهم. وفي ذلك كلّه تأكيد على استقلال شخصية المرأة المسلمة، وأهليتها لتحمّل المسؤولية في البيعة والعهد وإعطاء الولاء لله ولرسوله. وكان هذا كلّه قبل قرون من اعتراف العالم الحديث للمرأة بحقّها في التعبير عن رأيها المستقلّ عن طريق الاستفتاء والانتخاب. هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الحقوق، كاستقلالها بما لها وملكيّاتها، وإعفائها من النفقة ولو كانت غنية، ومساواتها بالرجل في الكرامة الإنسانية والتربية والتهذيب والتكاليف الشرعية عامة. ولو رحنا نستعرض الحقوق التي أعطاها الإسلام للمرأة، والتكريم الذي أحاطها به لضاق بنا المجال.

ولقد بلغت المرأة المسلمة من التكريم وحيازة الحقوق والأهليّة ما أدهش نساء الغرب. ويحضرني في هذه المناسبة قولُ إحدى السيدات الأمريكيات في محاضرة في الولايات المتحدة، كان يلقيها عالم من علماء سورية، هو الأستاذ الشيخ بهجة البيطار، في بيان حقوق المرأة في الإسلام، لقد وقفت تلك السيدة الأمريكية متعجبةً من هذه الحقوق والمكاسب الشرعية التي حصلت عليها المرأة المسلمة منذ خمسة عشر قرناً، فسألت الشيخ المحاضر: أهذا الذي تقوله عن المرأة المسلمة وحقوقها حقيقة أم دعاية؟ إذا كان حقيقة فخذوني لأعيش عندكم فترة ثم اقتلوني!! والشواهد والأقوال من نساء الغرب المعبرات عن دهشتهنّ وإعجابهن بمكانة المرأة المسلمة وتكريمها كثيرة مستفيضة.

إن المرأة المسلمة الواعية المعاصرة إذ تعلم هذا كلّه، لتمتلىء نفسُها

إعجاباً بدينها الحقّ، وتزداد إيماناً ويقيناً بعظمته وكماله وشمول منهجه الرّبّانيّ لكل ما فيه سعادة الإنسان، ذكراً كان أم أنثى. ويكفي أن تعلم أن ما حقّقه الإسلام في إصلاح وضع المرأة منذ خمسة عشر قرناً دفعةً واحدة، لم يستطع أحد في التاريخ أن يحققه في هذا القرن العشرون.

يكفي أن تعلم أن الثورة الفرنسية حين أعلنت في أواخر القرن الثامن عشر وثيقة حقوق الإنسان أعلنتها بعنوان «حقوق الرجل». فقد جاء في المادة الأولى من هذه الوثيقة: «يولد الرجل حرّاً، ولا يجوز استعباده». ثم جرت محاولات لإضافة كلمة «والمرأة»، غير أن هذه المحاولات رُفِضَتْ، وظلّت المادة الأولى من إعلان الثورة للحرية قاصرة على قولها: «يولد الرجل حرّاً ولا يجوز استعباده». ويأتي بعد قرن العالم الفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فيعلن في كتابه (روح الاجتماع): أن المرأة لم تكن قطّ مساوية للرجل إلاَّ في عهد الانحطاط، وذلك في ردّه على مَنْ يطالب بمساواة المرأة بالرجل في إعطائها حق الانتخاب أسوة بالرجال. وظلّ الأمر كذلك حتى جاء عهد (عصبة الأمم) بعد الحرب العالمية الأولى، ثم عهد (منظمة الأمم المتحدة) بعد الحرب العالمية الثانية، ولم ينجح العاملون لحقوق المرأة في النص على مساواتها بالرجل إلاَّ بعد لأْيٍ[1]؛ لأنهم كانوا يصطدمون بأعراف وتقاليد ذات صفة دينية تقف عقبة في وجوههم، ولم يكن لديهم نصوص قانونية محلّية أو دولية تنصف المرأة، ليتخذوها وسيلة شرعية للتغلب على تلك العقبات في الوصول إلى تحرير المرأة من رواسب ماضيها الكثيفة الثقيلة. في حين جاءت النصوص

---

(١) أي بعد جهد ومشقة.

الإسلامية قاطعةً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منذ خمسة عشر قرناً تسوّي بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب، والمسؤولية والجزاء، والعبادة والكرامة الإنسانية والحقوق الإنسانية جميعاً.

ذلك أن الإسلام الذي سَوَّى بين الرجل والمرأة في التمتّع بالحقوق الإنسانية، سَوَّى بينهما أيضاً في القيام بالواجبات الإنسانية، إذ عهد إليهما معاً بالخلافة في الأرض وعمارتها، وعبادة الله فيها، وجعل لكلّ منهما دوره المتميّز في إقامة المجتمع الإنساني الفاضل الراشد النظيف، وإنهما لَدَوران متكاملان لا متنابذان، ومُلْزِمان لكلّ من الرجل والمرأة، على كلٍّ منهما أن يقوم بما هو مُؤَهَّل له أكثر من الآخر في بناء الإنسان والأسرة والمجتمع، تحقيقاً للتكافل والتآزر والتعاون بين الجنسين، من غير حَجْر على أحد فيما يريد من عمل مشروع خُلِق له، تحكم الرجلَ والمرأةَ على السواء مقتضياتُ المصلحة العامة للإنسان، القائمة على أنّهما مَجْزيّانِ بدقّة عن أعمالهما في هذه الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]، وعلى أنّ كُلّاً من الرجل والمرأة راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّته، كما جاء في الهَدْي النبوي العظيم.

إن المرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها، المدركة المكانةَ السامقةَ التي أوصلها إليها الإسلام منذ خمسة عشر قرناً، لتَعلمُ تمام العلم أنّ وضع المرأة قبل الإسلام كان في أمم العالم طُرّاً، في بلاد الشرائع القديمة وبخاصة الهند وروما، وفي القرون الوسطى في العالم المسيحي، وفي بلاد العرب قبل

(١) النحل: ٩٧.

الإسلام، كان في الدّرك الأسفل من السوء، ومن هنا فهي تزداد اعتزازاً بشخصيتها المسلمة، ودينها الحق، ومكانتها الإنسانية العالية.

أما وضع المرأة في الشرائع القديمة، فقد أجمله الزعيم الهندي (جواهر لال نهرو) في كتابه (اكتشاف الهند)، حيث قال: «أما وضع المرأة القانوني وفقاً لما يقوله (مانو)، فقد كان سيئاً من غير ريب، وكنّ يعتمدن دائماً على الأب والزوج أو الابن»، إذ من المعلوم أن الميراث لديهم كان يذهب كله من موتى الذكور إلى أحيائهم دون الإناث.

وقد عقّب (نهرو) على ذلك، فقال: «وعلى كل حال، فقد كان حال المرأة في الهند القديمة أفضل من حالها في بلاد اليونان القديمة، أو في روما القديمة، أو في عهد النصرانية الأولى».

كان وضع المرأة في شريعة روما القديمة قائماً على عدم الاعتراف بأية أهلية حقوقية للمرأة، وعلى جعلها تحت الوصاية الدائمة، لأنها أنثى، سواءٌ أكانت صغيرة أم بالغة سنّ الرشد، فهي دوماً تحت وصاية الأب أو الزوج، ولا تملك أية حرية في تصرفاتها، وهي في الجملة موروثة لا وارثة.

كانت المرأة في الشريعة الرومانية شيئاً من الأشياء التابعة للرجل، وهي لذلك فاقدة شخصيتَها، ومحرومة من حرية تصرفاتها، وهذا ما بقيت آثاره حتى اليوم في القرن العشرين، وفي معظم الدول الحديثة التي لا تزال متأثرة في قوانينها بالحقوق الرومانية.

وتبعاً لقوانين روما وتأثيرها وصل حال المرأة في عهد النصرانية الأولى إلى السوء الذي أشار إليه الزعيم الهندي (نهرو)، حتى شكّكتْ بعض الندوات الدينية في إنسانية المرأة وطبيعة روحها، وعقدت مؤتمرات في روما

للبحث في المرأة وروحها، وهل هي تتمتع بروح كروح الرجل، أو أن روحها كروح الحيوانات مثل الثعابين والكلاب.. بل إن أحد هذه الاجتماعات في روما قرر: أنه لا روح لها على الإطلاق، وأنها لن تبعث في الحياة الأخرى.

وذكر الأستاذ جاسم محمد المطوّع في كتابه «زوجات النبي ﷺ في واقعنا المعاصر»[1]: «أن البرلمان الاسكتلندي أصدر سنة ١٥٦٧ قراراً، مفاده: أنَّ المرأة لا يجوز أن تُمنَح أي سلطة على أي شيء من الأشياء.

وكان الرجال في بريطانيا يبيعون زوجاتهم إلى أن صدر قانون عام ١٩٣٠ يحرّم ذلك.

وفي عهد هنري الثامن ملك إنكلترا أصدر البرلمان الإنكليزي قراراً يحظّر على المرأة أن تقرأ كتاب العهد الجديد الذي جاء به المسيح عليه السلام».

أما المرأة في جزيرة العرب، فقد كانت في كثير من القبائل موضع امتهان وتقزّز قبيل الإسلام، وكانت عاراً يحرص كثيرون من أوليائها على أن لا يلحق بهم، وذلك بوَأْدِها ساعة ولادتها.

وقد ندّدت دعوة الإسلام بهذا الوضع الأليم المهين للمرأة في غير موضع من كتاب الله، فقال تعالى واصفاً حِطّة الشعور ومَعَرّته نحو المرأة في الجاهلية: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ ﴾[2].

---

(١) ص ٧٤.

(٢) النحل: ٥٨، ٥٩.

وقال تعالى مصوراً فظاعة جريمة دفنها حَيَّةً بريئةً طاهرة، لم ترتكب إثماً، ولم تقترف ذنباً: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾؟(١).

إنه وضع مهين مؤلم مُزْرٍ بالإنسانية، وإنسانية المرأة على وجه الخصوص في بلاد العرب قبل الإسلام، وفي معظم البلاد المتحضّرة حينذاك، وبخاصة دولة الرومان، وفي عهد النصرانية الأولى، ثم في معظم الدول الحديثة التي لا تزال متأثّرة في قوانينها بالحقوق الرومانية، كما هو معروف عند علماء الحقوق(٢).

وإن المرأة المسلمة الواعية لتدرك النعمة الكبْرى التي أسبغها الله عليها يوم أشرقت شمسُه، وغمرت بنورها الوهّاج دنيا العرب: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٣). بل إنّ مما يفعم نفسَ المرأة المسلمة سعادة ورضا وطمأنينة واعتزازاً، ويزيد من قَدْرها ومكانتها جعلَ مقام الأمومة فوق مقام الأبوّة؛ فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسولَ اللّه، مَنْ أَحَقُّ النّاس بِحُسْنِ صَحابَتي؟ فأجابَهُ الرَّسُولُ الكَريمُ: «أُمُّكَ» قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أُمُّكَ». قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أُمُّكَ». قال: ثم مَنْ؟ قالَ: «أَبُوكَ»(٤).

ذلك أنَّ المرأة اختصت بحكم خِلْقَتِها وتكوينها بحمل الجنين، ثم بإرضاعه وحضانته، وإنه لجهد شاق وعمل عظيم، نوّه به القرآن الكريم

---

(١) التكوير: ٨، ٩.

(٢) انظر المرأة في الإسلام للدكتور معروف الدواليبي: ٢٣.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٤ كتاب الاستئذان: باب بر الوالدين.

بقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ[١]، وَفِصَٰلُهُۥ[٢] فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[٣].

وفي مقابل هذا الجهد الشاقّ الذي أُلقِيَ على كاهل المرأة، كان على الرجل أن يحمل عِبْءَ القِوامة على الأسرة، وينهض بواجب الكسب والإنفاق، وهو مع ذلك لم يدرك مقام الأمومة في الإسلام، كما رأينا في توجيه النبي ﷺ للرجل الذي سأله عَمَّنْ أحقّ الناس بحسن صحابته.

وكما رفع الإسلام من قدر المرأة بجعله مقام الأمومة فوق مقام الأبوّة، رفع من قدرها أيضاً بعد اقترانها بالزوج باحتفاظها باسم عائلتها بعد الزواج؛ فالمرأة المسلمة يبقى لها اسم عائلتها ونسبها بعد الزواج، لا يندغم في عائلة الزوج ونسبه ولا يُلْغَى، كما هو الحال في المجتمعات الغربية، إذ تصبح المرأة بعد اقترانها بزوجها (مدام فلان)، ويحذف اسم عائلتها ونسبها من سجلات الأحوال المدنية وتذكرة الهوية. وبذلك احتفظ الإسلام للمرأة بشخصيتها بعد الزواج، وعلى كثرة ما أوصاها به من برّ لزوجها وطاعة وإكرام وتقدير وحسن تبعّل، لم يرد لها الذوبان الكامل في شخصية الرجل.

وإذا أضفنا إلى هذا أيضاً أن الإسلام أعطى المرأة حق التصرّف الكامل في مالها، ولم يكلفها من النفقة شيئاً، إلى جانب الحقوق الإنسانية الكثيرة التي سلف بيانها، أدركنا بجلاء ووضوح المكانة العالية التي

(١) أي ضعفاً على ضعف.

(٢) أي فطامه.

(٣) لقمان: ١٤.

رفع الإسلام إليها المرأة، وتبين لنا مدى حرصه على أن تكون شخصيتها حرّة عزيزة مكرّمة متفتّحة فاعلة قادرة على النهوض برسالتها الضخمة في هذه الحياة.

وَلاؤُها لِلَّهِ وحدَه:

ومن ثمرات اعتزاز المرأة المسلمة بشخصيتها الإسلامية أنّ ولاءها لا يكون أبداً إلاَّ لله، لا لأحد غيره، ولو كان زوجَها أو أباها، وهما أقرب الناس إليها. ونجد قمّة هذا الولاء في صنيع أمّ المؤمنين، أمّ حبيبة رضي الله عنها، رَمْلَة بنت أبي سفيان، زعيم مكة، وقائد المشركين؛ فقد كانت زوجة لابن عمّة الرسول ﷺ عُبَيْد الله بن جحش الأسدي، أخي السيدة زينب أمّ المؤمنين، وقد أسلم زوجها عُبَيْد الله، وأسلمت رَمْلَة معه، وأبوها أبو سفيان كان لا يزال على الكفر. وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة مع المسلمين الأوائل، وتركت أباها في مكة يتميّز من الغيظ والقهر أن أسلمت ابنته وليس له إليها من سبيل.

ولكن الحياة لم تَصْفُ لهذه المرأة المسلمة الصابرة المهاجرة، فقد فُجِعَت بِرِدَّة زوجها عُبَيْد الله عن الإسلام ودخوله النصرانيةَ دينَ الأحباش!! وحاول أن يردّها عن دينها، فأبت، وثبتت على دينها، واعتصمت بالصبر، وكانت قد وضعت ابنتها حَبِيبة التي كُنِيَتْ بها، فصارت تدعى «أمّ حَبِيبَة»، واعتزلت الناس، وكادت تهلك غمّاً وأسىً وحسرة، إذ اصطلحت عليها النوائب، وتتابعت الكوارث، وادلهمّت الهموم؛ فهي وابنتها في دار الهجرة والاغتراب، انْبَتَّ ما بينها وبين زوجها وأبيها، فأبو ابنتها الصغيرة نصراني، وجدّها يومئذٍ مشرك عدوّ للإسلام، يعلن حرباً شعواء على النبي الذي صدّقته، والدين الذي آمنت به.

ولم ينقذها من الحيرة والضياع والغمّ والكرب إلاّ عينُ الرسول الكريم الساهرةُ على المؤمنين المهاجرين، المتفقّدةُ أمورَهم وأحوالَهم؛ فقد أرسل إلى النجاشي أن يزوّجه أمّ حبِيبَة بنت أبـي سفيان، إحدى المهاجرات إلى بلاده، على النحو الذي فصّلته كتب السيرة والتراجم والتاريخ. وباتت أمّ حَبيبَة بنت أبـي سفيان وهي «أمّ المؤمنين»!!

ودارت الأيام، وأزف أجل فتح مكة، ولاحت نُذُر الخطر تتهدّد قريشاً حينما نقضت عهد الحديبية، فتشاور قادتها، وأدركوا أن محمداً ﷺ لن يسكت على ضيم، ولن يرضى أن يُغْدَر به أو يُنْقَض له عهد، واستقرّ رأيهم على أن يوفدوا رسولاً منهم إلى المدينة، يفاوض محمداً ﷺ في تجديد الهدنة ومد أجلها، وكان رسولَهم إلى محمد ﷺ أبو سفيان بن حرب.

وجاء أبو سفيان المدينة، وتهيّب لقاءَ محمد ﷺ، وذكر أنّ له ابنةً في بيته ﷺ، فتسلّل إليها يستعين بها على ما جاء من أجله.

وفوجئت به أم المؤمنين رضي الله عنها يدخل بيتها، ولم تكن رأته مذ هاجرت إلى الحبشة، فوقفت تنظر إليه بادية الدهشة والحيرة، لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول.

وأدرك أبو سفيان ما تعانيه ابنته من مباغتة المفاجأة بقدومه، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدّم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، فما راعه إلاّ أن وثبت «رَمْلَة» فاختطفت الفراش وطوته عنه، فقال: يا بنيّة، ما أدري أرغبتِ بـي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه!

لقد محضت رَمْلَةُ بنت أبـي سفيان ولاءَها لله، فلم تأسَ على زوج

تـافـه، بـاع دينـه بـدنيـاه، فثبتـت علـى دينهـا، وتحملـت لأواء الغـربـة والضيـق والهـم والكـدّ والمعـانـاة فـي ديـار الهجـرة، وهـي فـي أمـسّ الحـاجـة إلى الـرجـل الـزوج الـذي يحميهـا ويـرعـاهـا ويـؤنـس وحـدتهـا ويتعهّد طفلتها، فكافأها الله المنعم المتفضّل الوهّاب بأسمى ما تحلم به امرأة في ذلك الحين، وعوّضها خير عوض بتزوّجِ الرسول ﷺ إياها، ورَفْعِها إلى منازل أمهات المؤمنين.

كذلك لم تُنْسِها مفاجأة لقائها لأبيها بعد غياب طويل ولاءَها لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، إذ طوت عنه فراش رسول الله ﷺ لأنه رجل كافر، لا يجوز أن يُلَوَّث بجلوسه عليه!! وهذا شأن المرأة المسلمة المعتزّة بدينها المعتدّة بعقيـدتهـا، إذ لا مكـان فـي نفسهـا المتـرعـة بـالإيمـان لعصبيّـة أو ولاء أمـام الولاء لله ولرسوله ولدينه.

إن اعتـزار المـرأة بشخصيتهـا المـؤمنـة وهبهـا فـي كـلّ العصـور القـوّة والصمود والثبات في وجه المرغّبات والمرهّبات، ووقاها من السقوط في حمأة الكفر، وصانها من الانجراف في تيّار الباطل مهما كان قوياً منتفشاً متسلّطاً بطّاشاً، وأوقد في أعماق نفسها جمرة الإيمان التي لا تنطفىء، كما نجد في ثبات امرأة فرعون على دينها، متحدّيةً دنيا الفراعنة الحافلة بصنوف اللذائذ والمفاتن والمغريات، مستهينةً بالعذاب الشديد الذي صبّه زوجُها عليها لثباتها على دينها، وهي تردّد: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾[(١)].

فمرضاة الله فوق كلّ مُبْتَغَى، وإعلاء كلمته قبل كلّ هدف، وشرعة الله

---

(١) التحريم: ١١.

أَهْدَى سبيل، والمرأة المسلمة الواعية لا تغيب عنها هذه الحقائق، ولا تزيدها على الأيام إلاَّ اعتزازاً بشخصيتها المسلمة، واسْتِمْساكاً بمنهج دينها الرّبّاني الفريد، وولاءً له.

تَقومُ بِواجِبِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ:

إن المرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها لتقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١ ﴾[1]. الذي أنزله الله منذ خمسة عشر قرناً، فتجد نفسها في قمّة مستويات الفكر الاجتماعي، وفي أعلى المنازل الاجتماعية، التي عرفتها المرأة في شتّى الأمم والأجناس والألوان.

لقد أقرّ الإسلام كامل إنسانية المرأة وكرامتها، وكامل أهليتها الحقوقية واستقلالها، لا فرقَ في ذلك كلّه بينها وبين الرجل في التملّك، وفي البيع، وفي الشراء، وفي الزواج، وهذا ما لم يكن معروفاً من قبل في أمة من الأمم، بل كانت المرأة تابعة للرجل، وتحت وصايته وأمره.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ... ﴾ إلخ، رفعٌ للمرأة إلى مقام الولاية المتبادلة بين الرجل والمرأة، وإشراكٌ لها معه في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكليفٌ لها بالمسؤولية وحملِ الأمانة مع الرجل على حدّ سواء، فيما عُهِدَ به إليهما من عمارة الأرض وعبادة الله تعالى فيها.

بذلك أنقذ الإسلام المرأة من التبعية المطلقة للرجل، ومن وصايته

---

(١) التوبة: ٧١.

الشاملة عليها وصاية كانت في كثير من الأحيان تجعله يتحكّم في حياتها وموتها، ورَفَعَها إلى مقام المساواة الإنسانية الكريمة.

وإذ كلّفها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوّأها مكانة اجتماعية وإنسانية عالية، إذ جعلها لأول مرة في التاريخ آمرة، وما كانت تُعْرَف في غير دنيا الإسلام إلاَّ مأمورة.

وأعلن وحدة الجنسين أمام الله في أهليتهما لشرف عبادته، واستحقاقهما لرحمته. والنصوص في ذلك كثيرة جداً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

بهذا التكوين العالي الشامل لشخصية المرأة المسلمة حفل تاريخنا بنساء خالدات شوامخ في أقوالهنّ وأفعالهنّ ومواقفهنّ، يصدعن بالحق، وهنّ يشعرن أنهنّ مسؤولات عن الجهر به أمام الله عز وجل، لا تأخذهنّ في الله لومةُ لائم.

ومن أمثلة المواقف النسوية الدالّة على قوة شخصية المرأة المسلمة ونضجها وحريتها في النقد وإبداء الرأي ما جرى على لسان امرأة كانت تستمع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ينهى عن المغالاة في المهور، ويدعو إلى تحديدها بمبلغ معيَّن، فانبرت له تلك المرأة قائلة: ليس ذلك لك يا عمر! قال: ولِمَ؟ قالت: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾، فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت، ورجل أخطأ[1].

لقد أنصت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى هذه المرأة، ولمّا تبيّن

---

(١) انظر فتح الباري: كتاب النكاح، وأخبار عمر للشيخ علي الطنطاوي: ٣٩٣.

في قولها الحق اعترف بأنه حق، وأنه هو على خطأ. وبذلك سجّلت المرأة المسلمة أولى المواقف التاريخية في نقد رئيس دولة، وأي رئيس دولة؟ إنه خليفة المسلمين الراشد، أعظم حكّام عصره، والرجل القويّ المهيب، قاهر الفرس والروم. وما كانت تلك المرأة لتجرؤ على معارضته ونقده، لولا وَعْيُها وفِقْهُها في دينها الذي أعطاها حقّ إبداء الرأي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كَثيرَةُ التِّلاوَةِ لِلْقُرآنِ:

ولكي تبلغ المرأة المسلمة هذه الشَّأْوَ[١] العالي من الطاعة والصلاح والتقوى والوعي والنضج، لا بدّ من استرواحها نسمات الهداية المعطَّرة من كتاب الله، تفيء إلى ظلاله الوارفات كلّ يوم، فيكون لها وِرْدٌ قرآني دائم، تقبل فيه على آياته البيّنات، تتلوها بتمعّن وتبصّر وتأمّل وتدبّر، فتنسرب معانيها في مسارب عقلها ومشاعرها، ويتشرّب قلبُها نورانيّتَه الصافية، وتستنير نفسها بهَدْيه اللألاء.

ويكفي المرأةَ المسلمةَ أن تعلم منزلة قارىء القرآن عند الله، كما بيّنها رسول الله ﷺ في عدد من أحاديثه الكريمة، لتقبل على قراءته كلّما سَنَحَتْ لها سانحةٌ من وقت، بل لتملأ بياضَ أيامها وسوادَ لياليها بتلاوته وترتيله وتدبّر معانيه.

يقول الرسول الكريم ﷺ:

«مَثَلُ المُؤْمِنِ الّذي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ[٢]، رِيحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها

(١) أي الغاية والأمد.

(٢) الأُتْرُجَّة: فاكهة ذات رائحة طيبة تشبه الكبّاد.

طَيِّبٌ، ومَثَلُ المُؤْمِنِ الّذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كمَثَلِ التَّمْرَةِ، لا ريحَ لها، وطَعْمُها حُلْوٌ، ومَثَلُ المُنافِقِ الّذي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيحانَةِ، ريحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المُنافِقِ الّذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كمَثَلِ الحَنْظَلَةِ ليسَ لها ريحٌ وطَعْمُها مُرٌّ»[١].

ويقول الرسول ﷺ: «اِقْرَأُوا القُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتي يومَ القِيامَةِ شَفِيعاً لِأَصحابِهِ»[٢].

ويقول أيضاً: «الّذي يَقْرَأُ القُرْآنَ وهُوَ ماهِرٌ به مَعَ السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَةِ، والّذي يَقْرَأُ القُرْآنَ ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهُوَ عليهِ شاقٌّ، لَهُ أَجْرانِ»[٣].

فهل تَتَوانَى المرأةُ المسلمةُ التقيّةُ الواعيةُ بعد هذا عن قراءة القرآن، مهما تراكمت عليها الشواغل، ومهما أثقلت كاهلَها أعباءُ الأمومة والزوجية والبيت؟

وهل تتلكّأ في الإقبال على تلاوته والعيش في أجوائه الربّانيّة المعطّرة، فتحرم نفسها ذلك النعيم المقيم والثواب الجزيل العظيم الذي أعدّه الله لقارئة القرآن؟

وبعد، فهذا شأن المرأة المسلمة مع ربّها: إيمان بالله عميق، وتسليم بقضائه وقدره. وإقبال صادق على عبادته، وطاعة مطلقة لأوامره واجتناب

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤/ ٤٣١ كتاب فضائل القرآن: باب فضل تلاوة القرآن.

(٢) صحيح مسلم ٦/ ٩٠ كتاب صلاة المسافرين: باب فضل قراءة القرآن.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤/٤٢٩، ٤٣٠ كتاب فضائل القرآن: باب فضل تلاوة القرآن.

نـواهيـه، وتمثّـل واعٍ لمعنـى عبـوديتهـا لله، وعمـل دائـب علـى نصـرة دينـه، وتحقيق كلمته، واعتزاز بشخصيتها المسلمة منبعث من قوة إيمانها ونقائه، وحسن تفهّمها للهدف من وجود الإنسان في هذه الحياة الذي حدّده الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) الذاريات: ٥٦.

٢

المرأة المسلمة مع نفسها

تمهيد:

لقد حضّ الإسلام المسلمين على أن يكونوا شامةً في الناس، متميزين في زيّهم وهيئاتهم وتصرّفاتهم وأعمالهم، ليكونوا قدوة حسنة، تجعلهم جديرين بحمل رسالتهم العظمى للناس؛ ففي حديث الصحابي الجليل ابن الحنظلية أن النبي ﷺ قال لأصحابه وكانوا في سفر قادمين على إخوانهم:

«إنَّكُمْ قادِمونَ على إخوانِكمْ، فأَصْلِحوا رِحالَكُمْ، وأَحْسِنوا لِباسَكُمْ، حتَّى تكونوا كَأَنَّكُمْ شامَةٌ في النَّاسِ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ»[١].

والرِّحالُ هنا: ما يوضع على ظهر الجمل عند ركوبه. والفُحْش والتَّفَحّش: كل ما يشتدّ قبحه. فقد عدّ رسولُ الله ﷺ الهيئةَ الرديئة، والحالةَ الزّريّة، وإهمالَ العناية بالمظهر، والتبذّلَ في اللباس أو المرافق المفروشة: فُحْشاً وتَفحّشاً، وهو مما يكرهه الإسلام الحنيف، وينهى عنه.

---

(١) رواه أبو داود ٤/٨٣ في كتاب اللباس: باب ما جاء في إسبال الإزار، وهو صحيح الإسناد.

وإذا كان الإسلام قد حضّ المسلمين بعامة على أن يكونوا شامة في الناس، فقد حضّ المرأة المسلمة بخاصة على أن تكون شامةً بارزة ظاهرة متميّزة في شكلها ومظهرها وهيئتها؛ لأن ذلك ينعكس على حياتها وحياة زوجها وبيتها وأولادها.

ومن هنا لا تهمل المرأة نفسها، ولا تغفُل عن مظهرها الحسن النظيف في غمرة شواغل البيت وأعباء الأمومة، بل تحرص على أن تكون حسنة المظهر من غير سرف ولا مبالغة. وعنايتُها بمظهرها الحسن ينبىء عن فهمها لشخصيتها، ويدل على ذوقها ودقة نظرتها لمهمتها في الحياة، وسلامة تصورها لشخصية المرأة السّويّة التي لا ينفصل مظهرها عن مخبرها؛ إذ الشكلُ النظيف الحسنُ المرتبُ أليق بالمحتوى الجليل والجوهر النبيل، ومنهما معاً تتكوّن شخصية المرأة المسلمة الواعية..

فالمرأة المسلمة الذكية الحصيفة هي التى توازن بين مظهرها ومخبرها، وتدرك أنها مكوّنة من جسم وعقل وروح، فتعطي لكلٍّ حقَّه، ولا تغالي في جانب من هذه الجوانب على حساب جانب، مستهديةً في هذا التوازن بهَدْي الإسلام الحنيف الذي حضّ على هذا التوازن ورغّب فيه.

فكيف تُحَقّق المرأةُ المسلمةُ هذا التوازنَ بين جسمها وعقلها وروحها؟

١ ـ جسمها

مُعْتَدِلَةٌ في طَعامِها وشَرابِها:

تحرص المرأة كل الحرص على أن تكون صحيحة البدن، قويّة البِنْية، نشيطة، غيرَ مترهّلة ولا ثقيلة الوزن، ولذا لا تقبل على الطعام بشَرَهٍ ونَهَمٍ

وإسراف، بل تصيب منه ما تقيم به صلبها، ويحفظ عليها صحتها ونشاطها وقوتها ولياقة جسمها، مستهديةً بقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[1]. وبقول رسول الله ﷺ وهَدْيه في الاعتدال بالطعام والشراب:

«ما مَلأَ آدميٌّ وِعاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِه، فإذا كانَ لا مَحالَةَ فاعِلاً، فَثُلُثٌ لِطعامِهِ، وثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وثُلُثٌ لِنَفَسِه»[2].

وبقول عمر رضي الله عنه:

«إيّاكمْ والبِطْنَةَ في الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنّها مُفْسِدَةٌ لِلْجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ، مُكْسِلَةٌ عَنِ الصَّلاةِ. وعليكُمْ بالقَصْد فيهما، فإنّه أَصْلَحُ لِلْجَسَدِ، وأَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ. وإنّ الله تَعالى لَيُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمينَ، وإنَّ الرّجلَ لنْ يَهْلِكَ حتّى يُؤْثِرَ شَهْوتَه على دِينِه»[3].

ولا ريب أن المرأة المسلمة بعيدة كل البعد عن المخدّرات والمنبهات، بَلْهَ المحرمات منها، من الآفات التي ارتكست فيها المرأة في كثير من الأقطار الشاردة عن هَدْي الله ورسوله، ومن العادات الدخيلة على مجتمع الإسلام والمسلمين، كالسهر الطويل الفارغ في اللهو والعبث وقتل

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) حديث حسن صحيح رواه أحمد ٤/ ١٣٢، والترمذي ٤/ ١٨ في كتاب الزهد: باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل.

(٣) كنز العمال ١٥/ ٤٣٣. وانظر المقال القيّم في مضار الشبع المفرط على الجسم والعقل والنفس للدكتور الطبيب محمد ناظم نسيمي في مجلة حضارة الإسلام، العددين: ٥، ٦ من السنة: ١٥.

الوقت؛ فهي تنام مبكّرة وتستيقظ مبكّرة، لتزاول نشاطها اليومي، وتقوم بواجباتها في حيوية وفعالية وانشراح، لا يطفىء شعلة نشاطها سهر طويل، ولا تضعف قواها عادة سيئة، فهي دوماً نشيطة منجزة فعّالة، لا تؤودها أعمال البيت؛ لأنها أخذت نفسها بنظام صحي طبيعي، يمدّها دوماً بالحيوية والقوة والنشاط.

وهي تدرك أيضاً أن المؤمن القوي أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، كما جاء في هَدْي الرسول ﷺ، ولذلك فهي تحرص دوماً على تقوية جسمها باتباع هذا النظام الصحي الطبيعي في حياتها.

تُزاوِلُ الرِّياضَةَ البَدَنِيّةَ:

لا يغيب عن بال المرأة المسلمة الحصيفة أن احتفاظها بلياقتها البدنية ونشاطها الجسمي وصحتها العامة من الأمور التي حضّ عليها الإسلام ورغّب فيها، ولذا فهي لا تكتفي في سبيل تحقيق ذلك باتباع النظام الصحي الطبيعي الذي ألمعتُ إليها آنفاً، بل تزاول من الرياضة البدنية ما يناسب جسمها ووزنها وسنّها وبيئتها الاجتماعية، في أوقات محدّدة، ومواعيد ثابتة لا تتخلّف، لتهب هذه التمارين الرياضيةُ جسمَها الرشاقة والمرونة والجمال، وتمنح صحتها القوة والمناعة من العلل والأمراض، وتجعلها أقدرَ على القيام بواجباتها، وأكثرَ لياقة في أداء رسالتها في الحياة، سواءٌ أكانت زوجة أم أمّاً، صبيّة ناشئة أم امرأةً نَصَفاً سلخت من عمرها سنين.

نَظيفَةُ الجِسْمِ والثِّيابِ:

والمرأةُ المسلمةُ الواعيةُ المتدبّرةُ هَدْي دينها نظيفةٌ جداً في جسمها وثيابها، تستحمّ في فترات متقاربة، وتحرص على نظافة بدنها وثيابها،

مستجيبة في ذلك لهَدْي النبي ﷺ الذي حثّ على الاستحمام والتطيّب، وبخاصة في يوم الجمعة:

«اِغْتَسِلُوا يومَ الجُمُعَةِ، واغْسِلوا رُؤوسَكُمْ، وإنْ لم تكونوا جُنُباً، وأَصِيبُوا مِنَ الطِّيب»[١].

«مَنْ أَتَى الجُمُعَةَ مِنَ الرجَالِ وَالنّساءِ فَلْيَغْتَسِلْ»[٢].

وبلغ من شدَّة حضّه على النظافة بالاستحمام أن بعض الأئمة ذهب إلى أن الاغتسال واجب لصلاة الجمعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «حَقٌّ على كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَغْتَسِلَ في كُلِّ سَبْعَةِ أَيّامٍ يَوْماً، يَغْسِلُ فيهِ رَأْسَهُ وجَسَدَهُ»[٣].

ذلك أن النظافة من ألزم صفات الإنسان، وبخاصة المرأة، وأكثرها دلالة على شخصيتها السّويّة الذكية المحبَّبة، وهي لا تجعلها قريبة محبَّبة إلى نفس زوجها فحسب، بل إلى نفوس كلّ مَنْ عرفها من النساء، وذوي رَحِمها من الرجال.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن جابر رضي الله عنه أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ زائراً، فرأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: «ما كان يَجِدُ هذا ما يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ!».

لقد أنكر الرسول الكريم أن يظهر الإنسان على الملأ بثياب وسخة ما

(١) فتح الباري ٢/ ٣٧٠ كتاب الجمعة: باب الدهن للجمعة.

(٢) حديث لعبد الله بن عمر عند أبي عوانة وابن خزيمة وابن حبّان في صحاحهم، وانظر فتح الباري ٢/ ٣٥٦ كتاب الجمعة: باب فضل الغسل يوم الجمعة.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٢/ ١٦٦ كتاب الحيض: باب غسل الجمعة.

دام قادراً على غسلها وتنظيفها، إشعاراً منه، صلوات الله عليه، للمسلم بأن يكون دوماً نظيف الثياب، حسن المظهر، محبَّب المنظَر.

وإذا كان هذا الهَدْي النبوي موجّهاً إلى الرجل، فإنه بالأحرى موجّه إلى المرأة، لأنها مظنّة النظافة، وموضع الأنس، ومصدر البهجة والمتعة والسَّكَن في البيت، ولا ريب أن إحساس المرأة العميق الواعي بالنظافة يرتدّ على بيتها وزوجها وأولادها، فإذا هم جميعاً بفضل عنايتها واهتمامها بالنظافة، نظيفون مرتَّبون متجمّلون، تضوع ثيابهم بالطِّيب، وتفوح من أجسامهم الروائح النظيفة العطرة الزكية.

ومما يلفت نظر الباحثين ويسترعي انتباههم في كل زمان ومكان، أن هذا الهَدْي النبوي العالي بالحضّ على النظافة والاستحمام جاء منذ خمسة عشر قرناً، يومَ لم تكن الدنيا تعرف الحمامات ولا الاستحمام. بل إن دنيا غير المسلمين لم تصل بعدَ ألف سنة إلى مستوى هذا الهَدْي في النظافة عند المسلمين.

تقول الباحثة التركية سامحة آي ويردي في كتابها (من الرقّ إلى السيادة):

«لا حاجة بنا أن نعود إلى أيام الحملات الصليبية حتى نعرف ما كانت عليه أوروبا في ذلك العهد من مستوى حضاري. يكفينا أن نرجع إلى الوراء بضعَ مئات من السنين، إلى أيام الدولة العثمانية، ونقارن ما كان عليه الأوروبيون، وما كانت عليه الحضارة العثمانية من مستوى.

في عام ١٦٢٤ كتب أمير براندبو Brandeboug في بطاقة دعوة أرسلها إلى الأمراء والنبلاء لوليمة أقامها.. كتب ما يلي: «المرجو من الضيوف أن لا يمدّوا أيديهم حتى المرافق في الأطباق، وأن لا يرموا بالطعام إلى

الخلـف، وأن لا يلعقـوا أصـابعهـم، وأن لا يبصقـوا فـي الصحـون، وأن لا يمسحوا أنوفهم بأطراف أغطية الموائد».

وتقول المؤلفة:

«هذه العبارات تدل بوضوح على مستوى الأوروبيين من حضارة وثقافة ومعرفة بآداب اللياقة. وفي نفس الوقت، وفي مكان آخر من أوروبا لم يكن الوضع يختلف عن هذا بكثير. ففي قصر الملك جاك الأول ملك إنكلترا كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الملك وأمرائه وأميراته تطغى على كل مظاهر الرفاهية التي تتراءى من الملابس المخملية والدانتيلا الفرنسية. هذا ما كان يحدث في أوروبا. أما في استانبول دار الخلافة، فإنه من المعروف أن السفراء الأوروبيين المعتمدين لدى الدولة العثمانية كانوا يزجّ بهم إلى الحمام قبل أن يدخلوا على السلطان. وفي حوالي عام ١٧٣٠، وفي عهد السلطان أحمد الثالث، حين كانت الدولة العثمانية قد أصابها الضعف من الناحية العسكرية والسياسية، كتبت السيدة زوجة السفير الإنكليزي لدى الآستانة الليدي مونتغو Montague رسائل عديدة نشرت فيما بعد، تكشف فيها الستار عن درجة النظافة عند المسلمين، وحسن أدبهم، ورفعة خلقهم، وتذكر فيها طرفاً من ذكرياتها، فتقول: إن الأميرة العثمانية حفيظة أهدتها (بشكيراً) مطرّزاً باليد، بلغ من درجة إعجابها به أنها أشفقت عليه تمسح فيه فمها. وكان من الأشياء المحيِّرة للأوروبيين أن يروا المسلمين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على المائدة وبعد الطعام. ويكفي المرءَ أن يقرأ ما كتبته الممرضة الإنكليزية الشهيرة فلورانس نيتنغل (Florance Nightingale) عن المستشفيات الإنكليزية في حوالي منتصف القرن التاسع عشر، حين ذكرت كيف كانت هذه المستشفيات مرتعاً للقاذورات والإهمال والانحلال الخلقي، وكيف كانت

أجنحة هذه المستشفيات تغصّ بمئات المرضى الذين كانوا لا يملكون إلاَّ أن يقضوا حوائجهم الطبيعية على الأسرّة»(١).

فيا لَلْبَوْنِ الشّاسعِ بين حضارة الإسلام الرّبّانية الشاملة وغيرِها من حضارات البشر القاصرة المحدودة!!!

تَعْتَنِي بِفَمِها وأَسْنانِها:

وتتعهّد المرأة المسلمة الذكية فمها، فلا يشمّ أحد منه رائحة مؤذية، وذلك بتنظيف أسنانها بعد كلّ وجبة طعام بالسّواك والفرشاة والمطهّرات والمنّظفات، وتتفقّد أسنانها، فتعرضُها على طبيب الأسنان مرة كلّ سنة على الأقل، ولو لم تشعر بألم، لتحفظ لأسنانها صحتها ونظافتها وبريقها، وتستشيرُ طبيب الحنجرة والبلعوم، إن احتاج الأمر إلى ذلك، بحيث تغدو أنفاسها زكية معطَّرة، وهذا بلا ريب أليق بالمرأة وأجدر وأجمل.

وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها شديدة العناية بأسنانها، لا تتوانى عن تنظيفها بالسّواك، جاءت بذلك الروايات الصحيحة في البخاري ومسلم عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

ففي صحيح البخاري عن مجاهد عن عروة رضي الله عنه: «وسَمِعْنا اسْتِنانَ عائِشَةَ أُمّ المُؤْمِنينَ في الحُجْرَةِ...»(٢).

وفي صحيح مسلم عن عطاء عن عروة رضي الله عنه: «وإنّا لَنَسْمَعُ ضَرْبَها بالسّواك تَسْتَنُّ...»(٣).

---

(١) انظر كتاب من الرق إلى السيادة تأليف سامحة آي ويردي. نشر DAMLA YAYINEVI NU ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) فتح الباري ٣/ ٥٩٩ كتاب العمرة: باب كم اعتمر النبي ﷺ.

(٣) صحيح مسلم ٨/ ٢٣٦ كتاب الحج: باب عدد عمر النبي ﷺ وزمانهنّ.

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان لا يَرْقُدُ لَيْلاً ولا نَهاراً، فَيَسْتَيقِظُ إلاَّ تَسَوَّكَ قبلَ أنْ يَتَوَضَّأَ»[١].

وتبلغ عناية الرسول الكريم بنظافة الفم حدّاً يجعله يقول: «لَوْلا أنْ أَشُقَّ على أُمَّتي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّواكِ عندَ كُلِّ صَلاةٍ»[٢].

وسئلت السيدة عائشة عن أي شيء يبدأ به الرسول الكريم إذا دخل بيته، فقالت: «بالسِّواك»[٣].

إنه لمن المستغرب جداً، أن نرى بعض النساء المسلمات يهملن هذه الجوانب، وهي من ألزم مستلزمات شخصية المرأة، وهي فضلاً عن ذلك من لبّ الإسلام وصميمه.

هي من ألزم مستلزمات شخصيتها الرقيقة المؤنسة المحبَّبة الموحية بالأنس والأناقة والجمال الأنثوي. وهي من لبّ الإسلام وصميمه؛ لأن الرسول ﷺ حضّ على النظافة غير مرة في عديد من النصوص، ونفّر من الروائح المؤذية والهيئات المتّسخة الزّريّة، فقال: «مَنْ أَكَلَ البَصَلَ والثُّومَ والكُرّاثَ فلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنا، فإنّ الملائكةَ تَتَأَذَّى مِمّا يَتَأَذَّى منهُ بَنو آدَمَ»[٤].

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد ٦/١٦٠، وأبو داود ١/٤٦ في كتاب الطهارة: باب السواك.

(٢) فتح الباري ٢/٣٧٤ كتاب الجمعة: باب السواك يوم الجمعة، وصحيح مسلم ٣/١٤٣ كتاب الطهارة: باب السواك.

(٣) صحيح مسلم ٣/١٤٣ كتاب الطهارة: باب السواك.

(٤) صحيح مسلم ٥/٥٠ كتاب المساجد: باب نهي آكل الثوم والبصل عن حضور المسجد.

لقد حظّر الرسول الكريم ﷺ على مَنْ أكل بعضَ البقولِ ذاتِ الرائحة المنفِّرة الاقترابَ من المسجد، لئلا تتأذّى الملائكةُ والناسُ من أنفاسهم المشبعة بتلك الرائحة، ولعمري إنها لأهون شأناً وأخف وقعاً على النفس من كثير من روائح الملابس والجوارب المتّسخة، والأبدان القذرة المنتنة، والأفواه البُخْر(١)، التي تفوح من بعض الأفراد المتساهلين أو الغافلين عن النظافة، فيتأذّى الناس منها في مجتمعاتهم.

تَهْتَمُّ بِتَحْسينِ شَعْرِها:

ولقد كان من هَدْي هذا الرسول العظيم أمرُه ﷺ برعاية الشعر وإصلاحه وتجميله التجميلَ المشروع في الإسلام، وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»(٢).

وإكرام الشعر في الذوق الإسلامي يكون بتنظيفه وتمشيطه وتطييبه وتحسين شكله وهيئته.

وقد كره النبي ﷺ أن يدع الإنسان شعره مرسَلاً مهمَلاً شعِثاً منفوشاً، بحيث يبدو للأعين كأنه الغول الهائج، وشبّهه لقبح منظره بالشيطان، وذلك في الحديث الذي رواه الإمام مالك في الموطّأ مرسَلاً عن عطاء بن يسار، قال: «كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللّحية، فأشار إليه الرسول بيده، كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته، ففعل ثم رجع، فقال النبي ﷺ: «أليسَ هذا خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أحدُكمْ ثائرَ الرَّأْسِ كأنّه

---

(١) أي ذات الروائح الكريهة.

(٢) رواه أبو داود ١٠٧/٤ في كتاب الترجّل: باب في إصلاح الشعر، وإسناده حسن.

شَيْطانٌ؟!»[١].

وواضح أن في تشبيه الرسول الكريم الرجلَ المنتفشَ الشعر بالشيطان تعبيراً عن شدّة عناية الإسلام بحسن المنظر وجمال الهيئة، وإنكاره التبذُّلَ وقبحَ المظهر.

ولقد كان الرسول الكريم دائم التنبيه إلى هذه الملاحظ الجمالية في هيئة الإنسان، ما رأى رجلاً زريّ الهيئة، مهملاً ترجيلَ شعره إلاّ أنكر عليه إهماله وتقصيره وزرايته بنفسه.

روى الإمام أحمد والنسائي عن جابر رضي الله عنه، قال: «أتانا رسول الله ﷺ زائراً، فرأى رجلاً شعثاً قد تفرّق شعره، فقال: «ما كانَ يَجِدُ هذا ما يُسَكِّنُ بِهِ رَأْسَهُ؟!»[٢].

وإذا كان هذا هَدْيهُ صلوات الله عليه للرجال، فكيف يكون هَدْيُه للنساء، وهنّ كما سلفت الإشارة موضع الزينة والتألّق والجمال، وهنّ اللواتي يسكن إليهنّ الرجال، فيجدون في مجالستهنّ والعيش معهنّ السَّكَن والمتعة والأنس والسرور والانشراح؟. ولا يخفى على المرأة المسلمة الحصيفة أن جمال شعر المرأة من أهم مقوّمات جمالها، وتحسينه من أبرز عوامل الجاذبية فيها.

حَسَـنَةُ الهَيْئَـةِ:

لا بدع أن تكون المرأة المسلمة الواعية معنية بلباسها ومظهرها، حسنة

---

(١) الموطأ ٢/٩٤٩ كتاب الشعر: باب إصلاح الشعر.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد ٣/٣٥٧، والنسائي ٨/١٨٣ في كتاب الزينة: باب تسكين الشعر.

الهيئة، أنيقة المظهر، من غير تبرّج ولا مغالاة ولا سرف، ترتاحُ لمرآها عينا زوجها وأولادها ومحارمها وغيرهِم من النساء المسلمات، وتأنسُ بها النفوس، فهي لا تغدو على الناس الذين يحل لهم رؤيتها في هيئة مزرية قميئة مهلهلة، بل تتفقّد نفسها، وتصلح من شأنها، عملاً بهَدْي الإسلام الحنيف الداعي إلى حسن المظهر والزينة الحلال.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾: «روى مكحول عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار ركْوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء، ويسوّي لحيته وشعره. قالت عائشة: فقلت له: يا رسول الله، وأنتَ تفعلُ هذا؟ قال: نَعَمْ، إذا خَرَجَ الرَّجلُ إلى إخوانِه، فَلْيُهَيِّىءْ مِنْ نَفْسِهِ، فإنَّ اللَّهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[1].

والمسلم يفعل هذا كلّه وفق نظرية الإسلام الوسط في الأمور كلها، وهي نظرية الاعتدال التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وتتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾[2].

لقد أراد الإسلام لأبنائه وبناته، ودعاته على وجه الخصوص، أن يغشوا المجتمعات، وهم شامات مشتهاة، لا مناظرُ مؤذيةٌ تقتحمها الأعين وتصدّ عنها النفوس؛ فليس من الإسلام في شيء أن يسفَّ الإنسان في مظهره، رجلاً كان أو امرأة، إلى درجة الإهمال المزري بصاحبه، بدعوى أن ذلك من الزهد والتواضع؛ فرسول الله ﷺ، وهو سيد المتواضعين، كان

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٧/ ١٩٧ الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

(٢) الفرقان: ٦٧.

يلبس اللّباس الحسن، ويتجمّل لأهله وأصحابه، ويرى في هذا التجمّل وحسن الهندام إظهاراً لنعمة الله عليه:

«إنَّ اللَّهَ يُحبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ»[١].

وفي طبقات ابن سعد[٢]: عن جندب بن مَكِيث رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا قَدِمَ الوفدُ لبسَ أحسنَ ثيابِه وأمرَ عِلْيَةَ أصْحابِه بذلك، فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومَ قَدِمَ وفدُ كِنْدَةَ، وعليه حُلَّةٌ يَمانِيَةٌ، وعلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثلُ ذلك».

وأخرج ابن المبارك والطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عمر رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ دعا بثيابٍ جُدُدٍ، فلبسَها، فلمّا بلغَتْ تَرَاقِيَهُ قال: الحمدُ للَّهِ الذي كَساني ما أُواري بهِ عَوْرَتي وأتجمّلُ بهِ في حَياتي»[٣].

وما دام التجمّل لا يبلغ حدّ التأنّق المفرط، فهو من الزينة الطيبة التي أباحها الله لعباده وحضّ عليها: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢ ﴾[٤].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) حديث حسن رواه الترمذي ٤/٢٠٦ كتاب الاستئذان: باب أثر النعمة على العبد.

(٢) ٤/٣٤٦.

(٣) انظر الترغيب والترهيب ٣/ ٩٣ كتاب اللباس والزينة.

(٤) الأعراف: ٣١، ٣٢.

«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فقال رجلٌ: إنَّ الرّجلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثَوْبُهُ حَسَناً ونَعْلُهُ حَسَنَةً. يعني: أَيُعَدُّ هذا مِنَ الكِبْرِ؟ قالَ النبيُّ ﷺ: «إنّ اللَّهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[١]، وغَمْطُ النّاسِ[٢]»[٣].

وهذا ما فهمه الصحابة الكرام ومَنْ تبعهم بإحسان وساروا عليه. ومن هنا كان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه حسنَ الهيئة والثياب، طيّبَ الريح، حريصاً على دوام التجمّل في الملبس، بلغ من حرصه على إصلاح الشأن وتحسين الثياب والهندام أنه كان يحثّ الناس على ذلك، ولقد رأى ذات يوم أحد جلسائه في ثياب رثّة، فانفرد به وقدّم إليه ألف درهم ليصلح بها هيئته، فقال الرجل: إني موسر، وفي نعمة، ولا أحتاج إليها، فقال له أبو حنيفة معاتباً: أما بلغك الحديث: «إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ؟»[٤] فينبغي لك أن تغيّر حالك، حتى لا يغتمّ بك صديقك.

وبدهي أن الدعاة إلى الله من الرجال والنساء ينبغي أن يكونوا أحسن هيئة، وأجمل مظهراً، وأتمّ أناقة، وأكثر جاذبية من غيرهم، ليكونوا أقدر على التغلغل في مسارب القلوب، والوصول بدعوتهم إلى دخائل النفوس.

بل إنهم لمطالبون دون غيرهم بأن يكونوا كذلك، وإن لم يظهروا على الناس؛ فالدعاة إلى الله ينبغي أن يعنوا بهيئاتهم ونظافة أبدانهم وثيابهم

---

(١) أي أن يتكبّر الإنسان على الحق فلا يقبله.

(٢) أي احتقارهم والاستهانة بهم.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٩ كتاب الإيمان: باب تحريم الكبر.

(٤) انظر تخريج الحديث ص ١١٤.

وأظافرهم وشعورهم، ولو كانوا في خلوة مع أنفسهم، مستجيبين بذلك لنداء الفطرة السليمة التى أخبر بها وبمستلزماتها الرسول الكريم في قوله:

«خَمسٌ مِنَ الفِطْرَة: الخِتانُ، والاستحداد (أي حَلْقُ العانَةِ)، ونَتْفُ الإبْطِ، وتَقْليمُ الأَظافِرِ، وقَصُّ الشارِبِ»[١].

فرعاية جمال الفطرة الإنسانية مما حبّب به هذا الدينُ، ورغّب فيه كُلَّ ذي طبعٍ راقٍ وذوق سليم.

لا تَتَزَلَقُ إلى التَّبَرُّجِ والإفراطِ في الزِّينَةِ:

على أن هذه العناية بالمظهر لا تنزلق بالمرأة المسلمة الصادقة إلى التبرّج وإبداء زينتها إلى غير زوجها ومحارمها، ولا تميل بها إلى المبالغة والإفراط بحيث تخرجها عن حد التوازن الذي أقام الإسلام عليه تشريعاته جميعاً، فالمسلمة الواعية الصادقة يقظة متنبّهة دوماً إلى الاعتدال والتوازن في كلّ شيء، بحيث لا يطغى في حياتها جانب على جانب.

ولا يغيب عن بالها أن الإسلام الذي حضّ على الزينة الحلال ورغّب فيها، هو هو الذي حذّر من الإفراط والمبالغة فيها، بحيث تستعبد المرأة في هذه الحياة، وتغدو شغلَها الشاغل وهمَّها الدائمَ الكبيرَ، وذلك في الحديث الشريف القائل:

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ والقَطِيفَةِ[٢] والخَمِيصَةِ[٣]، إنْ أُعْطِيَ

(١) فتح الباري ١٠/ ٣٣٤ كتاب اللباس: باب قص الشارب، ومسلم ٣/ ١٤٦ كتاب الطهارة: باب خصال الفطرة.

(٢) القطيفة: الثوب الذي له خمل.

(٣) الخميصة: الكساء المربّع من خزّ أو صوف.

رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[١].

إن نساءنا اليوم اللواتي خضعت كثيرات منهنّ لأَسْرِ وتأثير بيوتِ الأزياء وتجارِها العالميين، حتى غدت المرأةُ المُوسِرةُ منهنّ لا تلبس الثوبَ الثمينَ الغالي أكثرَ من مرة واحدة، قد وقعن في العبودية التي حذّر منها الرسول الكريم، وارتكسن في حَمْأَة التعاسة المَقِيتة البشعة التي ترتّبت على الوقوع في تلك العبودية البلهاء للملابس الفاخرة وما يتبعها من زينة وبهارج زادت عن حدّ الاعتدال القويم، وصرفت صاحبتَها عن الغاية التي خُلِقَ الإنسانُ من أجلها في هذه الحياة.

ومن الطّامّات التي وقع فيها كثير من المسلمات في هذا العصر التفاخرُ والتكاثرُ بالملابس والأزياء الفاخرة الغالية الثمن في ليالي الزفاف، فإذا حفلةُ الزفاف تستحيل إلى عرض أزياء، تشتدّ فيها المنافسة والتسابق إلى حدّ السَّرف والخيلاء والمباهاة الجوفاء بعيداً عن أي أثر للتعقّل والتماسك والاعتدال. وتبدو هذه الظاهرة في أوضح صورها حيث تقوم العروس في ليلة الزِّفاف بارتداء بدلاتها جميعاً، وقد يبلغ عددها عشر بدلات، ترتديهنّ واحدة إثر واحدة، وكلما ارتدت بدلة جاءت وعرضتها على الحاضرات، كما تفعل عارضات الأزياء تماماً في بلاد الغرب. ولم يدر في خَلَد السيدات اللواتي تفشّت بينهنّ هذه العادة، أنه قد يكون بين الحاضرات مَنْ لا تسعفها قدرتها المالية على شراء بعض هذه البدلات، فتمتلىء نفسها حسرة وألماً وغمّاً، وقد تدبّ في نفسها عقارب الغيرة والحسد والضغينة والحقد نحو العروس وأهلها، ومَنْ شابههم من ذوي اليسار والنعمة. وما كان شيء من

---

(١) فيض الباري ٦/ ٨١ كتاب الجهاد: باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

هذا ليكون لو التزمت العروس بالاعتدال، فارتدت بدلة أو بدلتين في ليلة زفافها. هذا فضلاً عما في هذه الظاهرة من مخالفة لروح الإسلام القائم على اليسر والسماحة والاعتدال والتوسط، الناهي عن المبالغة والإسراف والخيلاء والمباهاة.

ولا ريب أن المرأةَ المسلمةَ الواعية هَدْي دينها في منجاة من هذا المنزلق وعصمة، بما أحاطت به نفسها من هَدْي هذا الدين العظيم، ويأخذها بنظرية الاعتدال والوسط التي جاءت بها تشريعاته السمحة الغراء.

ب ـ عقلها

تَتَعَهَّدُ عَقْلَها بِالعِلْمِ:

لا يغيب عن المرأةَ المسلمةَ الحصيفة أن تتعهد عقلها بالعناية كما تعهدت جسمها؛ ذلك أن العناية بالعقل لا تقل أهمية عن العناية بالجسم. وقديماً قال الشاعر زهير بن أبي سلمى[١]:

لِسانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ صورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه، كما يُقال، أي بعقله وتفكيره ومنطقه. ومن هنا تبرز أهمية تثقيف العقل وتزويده بالمعارف النافعة، وتنميته بالاطلاع على العلوم المتنوعة.

والمرأة المسلمة مكلّفة كالرجل، وعليها طلب العلم الذي ينفعها في دينها ودنياها، وهي إذ تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[٢]، وتسمع

(١) انظر جمهرة أشعار العرب بتحقيق المؤلف ١/ ٣٠٠ ط دار القلم ١٤٠٦.

(٢) طه: ١١٤.

قول الرسول الكريم ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ»[١]، تدرك أن هَدْي القرآن والسنة يشمل الرجل والمرأة على حدّ سواء، وأنها تساوي الرجل في علوم فرض العين وعلوم فرض الكفاية منذ وُجِدَ العلم في المجتمع الإسلامي.

ولقد أدركت المرأة المسلمة في ذلك المجتمع الرّبّاني قيمة العلم منذ الأيام الأولى للإسلام، فقالت نساء الأنصار للرسول الكريم صلوات الله عليه: «اجْعَلْ لنا يوماً من نَفْسِكَ نتعلّمُ فيهِ، فَقَدْ غَلَبَنا عنكَ الرِّجالُ. فقالَ لهنَّ: مَوْعِدُكنّ دارُ فُلانَةٍ. فأتاهُنَّ فيها فَوَعَظَهُنَّ وذَكَّرَهُنَّ وعَلّمَهنَّ»[٢].

كانت المرأة المسلمة مقبلة على طلب العلم، لا تَسْتَحْيي من السؤال عن أحكام دينها، لأنها تسأل عن الحق، واللَّهُ لا يَسْتَحْيي من الحق. وقد وردت نصوص كثيرة تصوّر جرأةَ المرأة المسلمة ونضجَ شخصيتها، ورجاحةَ عقلها فيما وجَّهَتْ من أسئلة إلى الرسول المعلِّم العظيم، تبتغي بها التفقّه في الدّين:

فعن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية[٣] سألت النبي [redacted] عن غسل المحيض، فقال: «تأخذُ إحداكنَّ ماءَها وسِدْرَتها[٤] فَتَطَهَّرُ، فتحسنُ الطُّهور، ثم تَصُبُّ عليها الماءَ، ثم تأخذُ فِرْصَةً

---

(١) حديث حسن رواه ابن ماجه ٨١/١ في المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(٢) فتح الباري ١٩٥/١ كتاب العلم: باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم.

(٣) هي من أعلام النساء المسلمات، كانت خطيبة مجاهدة، بايعت النبي ﷺ، وشهدت اليرموك، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها.

(٤) السّدرة: النبق، وهو نبات طيب الرائحة، يُتَطَهّر به.

مُمَسَّكَةً[١] فَتَطَهَّرُ بها. قالت أسماء رضي الله عنها: وكيف تَطَهَّرُ بها؟ فقال: سبحان الله، تَطَهّرينَ بها. فقالت عائشة رضي الله عنها كأنها تخفي ذلك[٢]: تَتَبّعين أثر الدم».

وسألته عن غُسل الجنابة، فقال: «تأخذين ماءَكِ فتطَهَّرين، فتحسنين الطُّهورَ، وأبلغي الطُّهورَ، ثم تَصُبُّ على رأسها، فَتَدْلُكُهُ، حتى تبلغَ شؤونَ رأسِها، ثم تُفيضُ عليها الماء»[٣]. فقالت عائشة رضي الله عنها: «نعمَ النساءُ نساءُ الأَنْصار! لم يكن يمنعهنّ الحياءُ أن يتفقّهنَ في الدين»[٤].

وجاءت أمّ سُلَيْم بنت مِلْحان، والدة أنس بن مالك إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يَسْتَحِي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلَمتْ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا رأت الماء». فغطَّت أمّ سَلَمة وجهها حياءً، وقالت: يا رسول الله، وتَحْتَلِمُ المرأةُ؟ قال: «نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُها وَلَدُها؟»[٥].

---

(١) الفرصة بكسر الفاء: قطعة من صوف أو قطن أو خرقة. والممسَّكة: المطَيَّبة بالمسك، ويُتتبَّع بها أثر الدم فيتحصّل منه الطِّيب والتنشيف.

(٢) أي قالت لها كلاماً خفياً لا تكاد تسمعه ولا يسمعه الحاضرون.

(٣) فتح الباري ١/٤١٤ كتاب الحيض: باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض، وصحيح مسلم ٤/١٥، ١٦ كتاب الحيض: باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض المسك.

(٤) انظر فتح الباري ١/٢٢٨ كتاب العلم: باب الحياء في العلم، وصحيح مسلم ٤/١٦ كتاب الحيض: باب غسل المستحاضة وصلاتها.

(٥) فتح الباري ١/٢٢٨ كتاب العلم: باب الحياء في العلم، وصحيح مسلم ٣/٢٢٣، ٢٢٤ كتاب الحيض: باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها.

وفي رواية لمسلم أن أمّ سُلَيْم جاءت إلى النبي ﷺ، وعنده عائشة رضي الله عنها، ولما سألته أمُّ سُلَيْم قالت عائشة: يا أمَّ سُلَيْم، فَضَحْتِ النِّساءَ، تَرِبَت يَمينُكِ، فقال النبي ﷺ لعائشة: «بَلْ أنتِ، فَتَرِبَتْ يَمينُكِ، فَلْتَغْتَسِلْ يا أمَّ سُلَيْم إذا رأتْ ذلك»[١].

ولم تكن المرأة في جيل الصحابة الفريد تتردّد في استيضاح الحكم الشرعي من النبي المشرِّع ﷺ، مُباشِرةً السؤالَ بنفسها عما ينزل بها، إن ارتابت في فتوى أحد من الناس، أو لم تقتنع في صحة فتواه، فكانت تتحرّى الدّقة في فهم المسألة حتى تصل إلى اليقين، وهذا شأن المرأة الذكية الواعية الفَطِنَة الحصيفة. وقد تجلّى هذا كلّه في صنيع الصحابية سُبَيْعَة بنت الحارث الأسلمية، إذ كانت تحت سعد بن خَوْلَة، وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع، وهي حامل، فلم تَنْشَب[٢] أن وضعت حملها بعد وفاته. فلما تعلّت من نفاسها[٣] تجمّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السَّنابِل بن بَعْكَك (رجل من بني عبد الدار) فقال لها: مالي أراكِ تجمّلتِ للخُطّاب، تُرَجّين النكاح؟ فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سُبَيْعَة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالزواج إن بدا لي[٤].

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ٢٢٠ كتاب الحيض: باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها.

(٢) أي لم تلبث.

(٣) أي طهرت.

(٤) انظر فتح الباري ٧/ ٣١٠ كتاب المغازي: باب استفتاء سبيعة بنت الحارث =

ولقد كان لدقة سُبَيْعَة في استيضاح الحكم الشرعي، وتحرّي اليقين فيه، فضلٌ وخيرٌ وبركةٌ وفائدةٌ، لا لسُبَيْعَة نفسها فحسب، بل للمسلمين قاطبة إلى يوم الدين؛ إذ أخذ بحديثها جماهير العلماء من السلف والخلف، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، فقالوا: عدّة المتوفى عنها زوجها: بوضع الحمل، حتى لو وضعت بعد موت زوجها بلحظة قبل غسله انقضت عدّتها، وحلّت في الحال للأزواج[1].

فما أعظم ما قدمت سُبَيْعَة لعلماء الأمة الإسلامية من حجة ودليل، بحرصها على استيضاح الحكم الشرعي، وتحرّيها الدقة في فهمه، ووصولها إلى اليقين فيه!!!

لقد أوجب الإسلام على المرأة طلب العلم كما أوجبه على الرجل، إذ قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسْلِم»[2]، أي على كلّ إنسان مسلم نطق بالشهادتين، سواءٌ أكان رجلاً أم امرأة، فلا غروَ أن نجد المرأة المسلمة توّاقةً إلى العلم، مقبلةً عليه، مهتمةً بتفهّم مسائله. والمرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها في كل زمان ومكان تدركُ أهميةَ تحلّيها بالعلم النافع، وأثَرَهُ في شخصيتها وأولادها وأسرتها ومجتمعها؛ فتقبلُ عليه بنفس راغبة مطمئنة متعطّشة إلى الحصول على ما ينفعها منه في دينها ودنياها.

= الأسلمية، وصحيح مسلم ١٠/ ١١٠ كتاب الطلاق: باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها.

(١) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٠/ ١٠٩ كتاب الطلاق: باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل.

(٢) حديث حسن، رواه ابن ماجه ١/ ٨١ في المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

ما يَنْبغي لِلْمَرْأَةِ المُسْلِمَةِ تَعَلُّمُهُ وإتقانُهُ:

وأولُ ما ينبغي للمرأة المسلمة الواعية أن تتقنه كتابُ الله تعالى: تلاوةً، وتجويداً، وتفسيراً، ثم تلمّ بعلوم الحديث، والسيرة، وأخبار الصحابيات والتابعيات من أعلام النساء، وتطّلع على ما يلزمها من أبحاث الفقه، لإقامة عباداتها ومعاملاتها، ومعرفة أحكام دينها على أساس قويم.

ثم تلتفت بعد ذلك إلى اختصاصها الأول في الحياة، وهو التعهد القويم لبيتها وزوجها وأسرتها وأولادها؛ فهي المخلوق الذي خصّصه الله ليهب بيت الزوجية والأمومة الأنس والسكينة والبهجة والبشاشة والسعادة والنعيم، وهي التي ألقى عليها الإسلام مسؤولية كبرى في تربية الأجيال، وصناعة الأبطال، وتنشئة العبقريات. ومن هنا كثرت الأقوال في هذا العصر مجسِّدةً أثر المرأة في نجاح الزوج والأولاد في حياتهم العملية، ومن هذه الأقوال: (فتِّش عن المرأة) و (وراء كل عظيم امرأة) و (إن التي تهزّ المهد بيمينها تهزّ العالم بشمالِها)... إلخ. ولا تستطيع المرأة أن تقدّم هذا كلّه إلاّ إذا كانت متفتّحة العقل، مستنيرة الذهن، قوية الشخصية، زكيّة النفس، رفيعة الخلق. ومن هنا كانت بحاجة إلى مزيد من التربية والتعليم والتسديد والتوجيه في تكوين شخصيتها المسلمة المتميّزة.

وليس من الحكمة أن يكون تعليمها وثقافتها كتعليم الرجل وثقافته في كل شيء، بل هناك أمور تختصّ بها المرأة، ولا يستطيع الرجل أن ينهض بها، وأمور يختصّ بها الرجل، ولا تستطيع المرأة أن تنهض بها، أو هناك أمور خُلِقَتْ لها المرأة، وأمور خُلِقَ لها الرجل، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، كما جاء في الهَدْي النبوي الحكيم. والمرأة المسلمة حين تتّجه إلى التعلّم

والاختصاص تضع نصب عينيها هَدْي الإسلام العظيم في تكوينها العقلي والنفسي والاجتماعي، بحيث يؤهّلها تعلّمها للقيام بالمهمّة الأساس التي خُلِقَتْ من أجلها، وبحيث تغدو شخصية واعية منتجة بنّاءة في أسرتها ومجتمعها وأمّتها، لا نسخة مماثلة للرجل، تزاحمه في عمله، وتحتلّ مكانه في أوساط الرجال، كما نرى في المجتمعات التي لا تفرّق في مناهج التعليم وقوانين التوظيف بين الرجل والمرأة.

وأيّاً كان تخصّص المرأة العلمي، فهي تحرص على إتقانه والتمكن منه، وتأديته على الوجه الأكمل، عملاً بهَدْي الرسول الكريم:

«إنَّ الله يحبُّ إذا عَمِلَ أحدُكم عملاً أنْ يُتْقِنَهُ»(١).

نُبوغُ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ في العِلْمِ:

على أن أبواب العلم مفتَّحة أمام المرأة المسلمة، تلج ما تشاء منها، وتتحلّى بِحِلْيَة العلم الثمينة، ما دام ذلك لا يخلّ بأنوثتها وطبيعتها، بل يزيد عقلَها تنوّراً ومشاعرَها إرهافاً، وشخصيتَها تألّقاً ونموّاً. وإنها لواجدة في تاريخ الأعلام من النساء المسلمات نماذج نادرةً في الإقبال على العلم، والعبّ من كنوزه، والتضلّع فيه.

فقد كانت أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها المرجعَ الأولَ في الحديث والسنة المطهّرة، والفقيهةَ الأولى في الإسلام، وهي في ميعة الصبا وريعان الشباب، لم تخطُ إلى التاسعةَ عَشْرَةَ.

قال الإمام الزهري: «لو جُمِعَ علمُ عائشة إلى علمِ جميع أزواج

(١) حديث حسن رواه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٣٣٤ عن عائشة رضي الله عنها.

النبـي ﷺ وعلمِ جميع النساء، لكان علْم عائشةَ أفضل»[١].

وكم من مرة فزع كبار الصحابة إليها، ليسمعوا منها القول الفصل في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين.

ولم يكن نفاذُ رأيها ورجاحةُ عقلها في قضايا الدين فحسب، بل كان ذلك شأنَها في رواية الشعر والأدب والتاريخ والطبّ، وغير ذلك من العلوم المعروفة في عصرها، يشهد لذلك قولُ فقيهِ المسلمين عروةَ بن الزبير، إذ روى ابنه هشام قوله: «ما رأيت أحداً أعلمَ بِفِقْهٍ ولا بِطِبٍّ ولا بِشِعْرٍ من عائشَةَ»[٢].

وفي صحيح مسلم أنها سمعت لحناً من ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبـي بكر الصديق رضي الله عنه، إذ دار بينه وبين ابن عمه حديثٌ أمامها، فأنكرت عليه ذلك اللحن، وفي ذلك يقول الإمام مسلم: «عن ابن عتيق قال: تحدثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله عنها حديثاً، وكان القاسم لحّانةً، وكان لأمّ ولد، فقالت له عائشة: مالك لا تُحدِّث كما يتحدّث ابنُ أخي هذا؟ أما إني قد علمت من أين أُتيتَ. هذا أدّبته أمُّه، وأنت أدَّبتكَ أمُّك...»[٣].

ومن الأحاديث التي طارت بها كتب الأدب عن علم عائشة الواسع أن عائشة بنت طلحة كانت في مجلس هشام بن عبد الملك، وفيه مشايخ بني أمية، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلاَّ أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلاَّ سمّته. فقال لها هشام: أما الأول، فلا

---

(١) الاستيعاب ٤/ ١٨٨٣، والإصابة ٨/ ١٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: حوادث سنة ٥٨، والسمط الثمين: ٨٢، والاستيعاب ٤/ ١٨٨٥.

(٣) صحيح مسلم ٥/ ٤٦ كتاب المساجد: باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام.

أنكره. وأما النجوم، فمن أينَ لكِ؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة[١].

كانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها طُلَعَةً وُلَعَةً، لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلاَّ سألت عنه وراجعت فيه حتى تعرفه، وقد أدّى وجودها بقرب الرسول ﷺ إلى أن تكون وعاءً من العلم.

روى الإمام البخاري في كتاب العلم عن أبي مُلَيْكَة: أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلاَّ راجعت فيه حتى تعرفَه، وأن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ». قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى: «فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً». قالت: فقال: «إنما ذلك العرضُ، ولكنْ مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يَهْلِكْ»[٢].

وكانت عائشة رضي الله عنها إلى جانب هذا العلم كلّه فصيحةَ اللسان، بليغةَ المقال. إذا تحدثت ملكت على الناس مسامعهم، وأخذت بمجامع قلوبهم. وهذا ما دعا الأحنف بن قيس إلى القول: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاءِ من بعدهم، فما سمعتُ الكلامَ من فم مخلوق أفخمَ ولا أحسنَ منه من في عائشة.

وقال موسى بن طلحة: «ما رأيت أحداً أفصحَ من عائشة»[٣].

ومن أعلام النساء اللواتي نبغنَ في العلم ابنةُ سعيد بن المسيَّب، عالمِ عصره، الذي أبى أن يزوّج ابنته لابن أمير المؤمنين، عبد الملك بن مروان،

---

(١) الأغاني ١٠/٥٧.

(٢) فتح الباري ١/١٩٦ كتاب العلم: باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٣٦٤ في كتاب المناقب: باب من فضل عائشة، وقال: حسن صحيح غريب.

وزوّجها أحد تلامذته الصلحاء الذين يتلقون عنه العلم، وهو عبد الله بن وداعة، فقد دخل عبد الله هذا على زوجته، فإذا هي أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وبحقوق الزوجية. ولما أسفر الصبح نهض عبد الله يريد الخروج، فقالت زوجته: إلى أين؟ قال: إلى مجلس أبيكِ سعيد بن المسيَّب.. أتعلم العلم، فقالت: اجلسْ أعلّمْك علمَ سعيد. فمكث عبد الله شهراً لا يحضر حَلْقَةَ العلم مستغنياً بعلم هذه الصبيّة الحسناء عن سماع أبيها.

ومن هؤلاء العالمات النابغات فاطمة بنت علاء الدين السَّمَرْقَنْدِيّ، مؤلف تحفة الفقهاء، المتوفى سنة ٥٣٩. فقد كانت ابنته فاطمة فقيهة علاّمة، تفقّهت على أبيها وحفظت تحفته. وقد زوّجها والدُها تلميذه علاء الدين الكاساني الذي برع في علمي الأصول والفروع، وصنّف كتابه العظيم (بدائع الصنائع)، وهو شرح تحفة الفقهاء، وعرضه على شيخه، ففرح به كثيراً، وجعله مهراً لابنته، التي طلبها جماعة من ملوك بلاد الروم، فامتنع والدها، وآثر تلميذه هذا عليهم، وقال الفقهاء في عصره: «شَرَحَ تُحْفَتَهُ وزوَّجَهُ ابْنَتَهُ». وكانت قبل زواجها تشارك والدَها الفتوى، فتخرج وعليها خَطُّها وخَطُّ أبيها. فلما تزوجت صاحبَ البدائع كانت الفتوى تخرج وعليها خطُّها وخطُّ أبيها وخطُّ زوجها، وكان زوجها يخطىء، فتردّه إلى الصواب[1].

ولم تكن السيدة عائشة وأمهات المؤمنين وابنة سعيد بن المسيَّب وفاطمة السمرقندي وغيرُهنّ من أعلام النساء المشهورات بدعاً من النساء المسلمات، بل كان هناك عدد لا يحصى من النساء المتعلمات، أخذن من

---

(١) تحفة الفقهاء ١/١٢.

كلّ علم بطَرَف، ونبغن في عديد من العلوم. فقد عقد ابن سعد جزءاً من كتابه الطبقات لراويات الحديث من النساء، أتى فيه على ذكر أكثر من سبعمئة امرأة روين الحديث عن رسول الله ﷺ، أو عن الثقات من أصحابه، وروى عنهنّ جمع من أعلام الدين وأئمة المسلمين.

وهذا الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمئة، وهو من أوثق رواة الحديث وأصدقهم، حتى إنه لُقِّبَ بحافظ الأمة، كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء[١]. وإذا علمنا أن هذا الرجل العالم لم يجاوز الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية، إذ لم يرتحل إلى مصر ولا بلاد المغرب ولا الأندلس، وهي بلاد أحفل ما تكون بذوات العلم والمعرفة من النساء، بدا لنا أن اللواتي لم يلقهنّ من العالمات المسلمات قد يزيد على عدد مَنْ لقيهنّ وأخذ عنهنّ.

ومن العبارات التي فاه بها علماؤنا في كتب الحديث: حدثتني الشيخة المسنِدة الصالحة فلانة بنت فلان. ومن أسماء راويات صحيح البخاري اللامعة: ست الوزراء وزيرة بنت محمد بن عمر بن أسعد بن المُنَجَّى التنوخية، وكريمة بنت أحمد المروزية، وقد ذكرهما ابن حجر العسقلاني في مقدمة كتابه فتح الباري[٢].

ومما يزيد صفحة المرأة المسلمة تألّقاً ونضارةً ونقاءً، أنها كانت صادقة أمينة في روايتها لحديث رسول الله ﷺ، بعيدة عن مزالق التهم ومساقط الظّنون إلى حدّ لم يوفّق إلى الوصول إليه كثير من الرجال، يشهد لذلك ما

---

(١) طبقات الشافعية ٤/ ٢٧٣.

(٢) فتح الباري ١/ ٧.

قاله الإمام الحافظ الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال في نقد رجال الحديث، إذ خرّج فيه أربعة آلاف متَّهم من الرواة الرجال، ثم أتبع ذلك بقوله: «وما علمت من النساء من اتُّهِمَتْ ولا مَنْ تركوها»(١).

إن المرأة المسلمة المعاصرة، إذ تقف أمام هذا التراث المشرِّف للمرأة المسلمة في تاريخها، لتزداد حبّاً في العلم وإقبالاً عليه؛ فما خلد ذكر أعلام النساء إلاّ بالعلم، وما تبوّأن تلك المكانة الرفيعة في التاريخ إلاّ بالعلم، وما نمّى عقولهنّ وزوّدهن بسدادِ الرأي وبُعْدِ النظر، وقوةِ الشخصية ورجاحةِ العقل إلاّ العلمُ النافعُ والتوجيهُ السَّديدُ.

بَعيدَةٌ عن الخُرافاتِ:

والمرأة المسلمة المقبلة على العلم بعيدة كل البعد من لُوثة الخرافات والأساطير والخزعبلات التي تعشش عادة في أذهان الأمّيات الجاهلات من النساء، بل إن المرأة الواعية هَدْي دينها لتعتقد أن الركون إلى أهل البدع والخرافات والأساطير والكهانة والسحر من الكبائر التي تحبط عمل المؤمن، وتهدّد آخرته؛ فقد روى مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَتَى عَرّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لهُ صلاةٌ أربعينَ ليلةً»(٢).

وروى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَتَى كاهِناً فَصَدَّقَهُ بما يقولُ، فَقَدْ بَرِيءَ مِمَّا أُنْزِلَ على مُحَمّدٍ»(٣).

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٣٩٥.

(٢) انظر صحيح مسلم ١٤/ ٢٢٧ كتاب السلام: باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان.

(٣) حديث حسن أخرجه أبو داود ٤/ ٢١ في كتاب الطب: باب في الكاهن.

لا تَنْقَطِعُ عن المُطالَعَة :

لا تصرف شواغلُ البيت وأعباءُ الأمومة المرأةَ المسلمةَ عن المطالعة؛ ذلك أن المرأة المسلمة الواعية تدرك أن المطالعة هي المورد الذي يرفد العقل بالمعرفة، ويمدّه بالغذاء الذي يهبه التفتّح والنضج والنمو والتألّق.

والمرأة المسلمة التي وَعَتْ من هَدْي دينها أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وراحت تتعهد عقلها بالعلم والمعرفة الدائمة، لا يمكن أن تنقطع عن المطالعة النافعة، مهما تراكمت عليها شواغل البيت، ومهما أثقلتها أعباء الأمومة. إنها لتختلس أويقاتٍ قليلةً بين الحين والحين، تُخْلِدُ فيها إلى كتاب نافع، أو مجلة علمية مفيدة، تثري فكرها بالجديد مما أبدعته قرائح العلماء والأدباء والمفكرين من بحوث فكرية واجتماعية وأدبية وعلمية، توسّعُ آفاق ذهنها، وتنمّي ملكاتها العقلية، وتزدادُ بها علماً.

ج ــ روحهـا

لا يفوت المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها أن تصقل روحها بالعبادة والذكر وتلاوة القرآن، في أوقات محدّدة دائمة لا تتخلف، فكما عُنِيت بجسمها وعقلها تُعنَى أيضاً بروحها، وتدرك أن الإنسان مكوّن من جسم وعقل وروح، وأن كلاً من هذه المكوّنات الثلاثة له حقه على المرء. وبراعة الإنسان تبدو في إحكام التوازن بين الجسم والعقل والروح، بحيث لا يطغى جانب على جانب؛ ففي إحكام التوازن بين هذه الجوانب ضمان لنشوء الشخصية السّويّة المعتدلة الناضجة المتفتّحة.

تَلْزَمُ العِبادَةَ وتَزْكِيَةَ النَّفْسِ :

تعطي المرأةُ المسلمةُ الراشدةُ نفسَها حقَّها من صقل الروح بالعبادة، فتقبل على عبادتها بنفس صافية هادئة مطمئنة مهيَّأة لتغلغل المعاني الروحية في أعماقها، بعيداً عن الضّجّة والضوضاء والشواغل، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. فإذا صلّتْ أدّتْ صلاتها في هَدْأة من النفس، وفي صفاء من الفكر، بحيث تتشرّب نفسها معاني ما تلفّظتْ به في صلاتها من قرآن وذكر وتسبيحات، ثم تخلو إلى نفسها قليلاً، فتسبّح ربّها، وتتلو آيات من كتابه، وتتأمل وتتدبّر معاني ما يجري على لسانها من ذكر، وما يدور في جنانها من فكر، وتستعرض بين حين وآخر حالها، وما يصدر عنها من تصرّفات وأفعال وأقوال، محاسبةً نفسَها إن ندّت عنها مخالفة، أو بدا منها في حق الله تقصير، فبذلك تؤتي العبادة ثمرتها المرجوّة في تزكية النفس وتصفية الوجدان من أدران المخالفة والمعصية، وتحبط حبائل الشيطان في وسوسته المستمرة المُرْدِية للإنسان، فالمرأة المسلمة التقيّة الصادقة، قد تخطىء، وقد تقصّر، وقد تزلّ بها القدم، ولكنها سرعان ما تنخلع من زلّتها، وتستغفر الله من خطئها، وتتبرّأ من تقصيرها، وتتوب من ذنبها، وهذا شأن المسلمات التقيّات الصالحات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1].

ولهذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «جَدِّدوا إيمانَكُمْ». قيل: «يا رسول الله، وكيف نجدّد إيماننا؟ قال: «أَكْثِروا مِنْ قولِ لا إلّه إلاّ اللّهُ»[2].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) رواه أحمد بسند جيد ٢/٣٥٩.

والمرأة المسلمة التقيّة تستعين دوماً على تقوية روحها وتزكية نفسها بدوام العبادة والذكر والمحاسبة واستحضار خشية الله ومراقبته في أعمالها كلها، فما أرضاه فعلته، وما أسخطه أقلعت عنه. وبذلك تبقى مستقيمة على الجادة، لا تجور، ولا تنحرف، ولا تظلم، ولا تبتعد عن سواء السبيل.

تَخْتارُ الرَّفِيقَةَ الصّالِحَةَ وتَلْزَمُ مَجالِسَ الإيمانِ:

وفي سبيل بلوغها هذا المرتقى العالي تختار الرفيقة التقيّة النقيّة الصالحة، التي تخلص لها الودّ، وتمحضها النصح، ولا تغشّها في معاملة أو حديث. فللرفيقة الصالحة أثر كبير في استقامة أمر الفتاة المسلمة، وتحلّيها بالعادات الحسنة والشمائل الرفيعة؛ فالرفيقة القرينة ــ في الغالب ــ صورة مماثلة لها في أخلاقها وسجاياها[١]:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ   فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقارَنِ يَقْتَدي

وعشرة كرام الناس دليل على كرم المحتِد ونبل النفس[٢]:

بِعِشْرَتِكَ الكِرامَ تُعَدُّ مِنهُمْ   فَلا تُرَيَنْ لِغَيْرِهِمُ أَلُوفا

ومن هنا وجبت مصاحبة الأخيار، كما وجبت مجانبة الأشرار[٣]:

إذا كنتَ في قَوْمٍ فصاحِبْ خِيارَهُمْ   ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدي

وتحرص المرأة المسلمة على حضور المجالس التي تدور فيها الأحاديث عن الإسلام وعظمته في بناء الفرد والأسرة والمجتمع، وتتملّى

---

(١) انظر عدي بن زيد العبادي للمؤلف: ١٧٢.

(٢) لم أقف على قائل هذا البيت.

(٣) انظر عدي بن زيد العبادي للمؤلف: ١٧١

فيها الحاضرات قدرةَ الله العظيم، ونعمَه السابغاتِ على المخلوقات، ويتعاهدن على الالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه، والإقبال على طاعته والإخبات له؛ فبمثل هذه المجالس ترقّ النفس، وتزكو الروح، وتخشع الجوارح، ويسمو الإنسان، وتخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان.

ولهذا كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «تَعالَ نُؤْمِنْ بِربِّنا ساعَةً» ويبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فيقول: «يَرْحَمُ اللَّهُ ابنَ رَواحَةَ، إنَّه يُحِبُّ المَجالِسَ التي تَتَباهى بها الملائِكَةُ»(١).

وكان الخليفة الراشد سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه ينتزع نفسه من شواغل الخلافة وأعباء الحكم، ويأخذ بيد الرجل والرجلين، فيقول: «قُمْ بِنا نَزْدادُ إيماناً»، فيذكرون الله عز وجل(٢).

لقد كان عمر رضي الله عنه وهو مَنْ هو تُقىً وصلاحاً وحسن عبادة، يحسّ الحاجة إلى جلاء النفس بين الحين والحين، فيختلس هذه الساعة من أوهاق الدنيا وضرورات الحياة، ليفرغ فيها إلى ترويح قلبه، وجلاء نفسه، وتصفية روحه.

وكذلك كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لأصحابه، وهم يمشون: «اِجْلِسوا بِنا نُؤْمِنْ ساعَةً»(٣).

إن المسلم مسؤول عن تقوية روحه وتزكية نفسه، ودفعِها، دوماً إلى أعلى، وحمايتها أبداً من الارتكاس إلى أدنى:

---

(١) رواه أحمد بإسناد حسن ٣/ ٢٦٥.

(٢) حياة الصحابة ٣/ ٣٢٩.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[١].

ومن هنا كانت المرأة المسلمة مطالبة بحسن اختيار الصديقات والبيئات والمجالس التي لا تزيدها إلاَّ سموّاً في روحها، وتقوى في أعمالها، وصفاءً في نفسها: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝ ﴾[٢].

تُكْثِرُ مِنْ تَرْدِيدِ الصِّيَغِ والأَدْعِيَةِ المَأْثُورَةِ:

ومما يعين المرأة المسلمة على تقوية روحها وربط قلبها بالله عز وجل: حفظُها بعض الأدعية والصيغ المأثورة عن النبي ﷺ في كل عمل من الأعمال التي ثبت أن للرسول فيها دعاءً؛ فلقد أُثِرَ عنه صلوات الله عليه صيغ رائعات من الدعاء في كل عمل كان يقوم به، فللخروج من البيت دعاء، وللدخول فيه دعاء، وللشروع في الطعام دعاء، وللانتهاء منه دعاء، وللبس الثوب الجديد دعاء، وللاضطجاع في الفراش دعاء، وللاستيقاظ من النوم دعاء، ولوداع المسافر دعاء، ولاستقباله دعاء... وهكذا لم يكد رسول الله ﷺ يقوم بعمل من الأعمال إلاَّ وكان له فيه دعاء، يتوجه به إلى الله أن يباركَ له في مسعاه، ويجنبَه الزلل، ويلهمَه الصواب، ويكتبَ له الخير، ويقيَه من الشر، مما هو مبسوط في كتب الحديث، وثبتت روايته عن رسول الله ﷺ[٣]. وكان

---

(١) الشمس: ٧ ــ ١٠.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) انظر كتاب الأذكار للنووي، والمأثورات لحسن البنا.

صلوات الله عليه يعلّم الصحابة هذه الصيغ الرائعة من الأدعية والأذكار، ويحضّهم على تردادها في أوقاتها.

والمرأة المسلمة التقية الحريصة على جلاء روحها تقبل على تعلّم طائفة صالحة من هذه الصيغ المأثورة، تأسّياً بالرسول ﷺ وصحبه الأبرار، وتواظب على تردادها في أوقاتها ومناسباتها، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وبذلك يبقى قلبها موصولاً بالله عز وجل، وتزكو روحها، وترهف أحاسيسها، ويزداد إيمانها.

وإن المرأة المسلمة المعاصرة اليوم لفي أمس الحاجة إلى هذا الزاد الروحي، تزوّد به روحها، وتصقل نفسها، وتنأى بها عن فتن العصر وموبقاته وآفاته ومرتكساته التي أطاحت بالمرأة في كثير من المجتمعات الشاردة عن هَدْي الله، وساقت جموع النساء إلى النار، كما أشار إلى ذلك الرسول الكريم بقوله: «اطَّلَعْتُ في النّارِ فرأيتُ أكثرَ أَهْلِها النّساءَ»[1]. والمرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها تتبصّر طريقها، وتكثر من الأعمال الصالحات، لتنجو من هذا المصير المخيف الذي يسعى شياطين الإنس والجن، في كل زمان ومكان، لإيقاع النساء فيه.

❑ ❑ ❑

---

(١) صحيح مسلم ١٧/٥٣ كتاب الرقاق: باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء.

٣

المرأة المسلمة مع والديها

بَـرَّةٌ بِـهِـمَـا :

من أبرز ما تتميَّز به المرأة المسلمة الراشدة برّها بوالديها والإحسان إليهما؛ ذلك أن الإسلام حضّ على برّ الوالدين في عديد من النصوص القاطعة من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ. وكلّ مسلمة تطالع هذه النصوص، لا يسعها إلاَّ الالتزام بهَدْيها، والمسارعة إلى بر الوالدين، مهما تكن الظروف والأحوال، ومهما تكن العلاقة بين الفتاة ووالديها.

عارِفَةٌ قَدْرَهُما وما يَجِبُ عَلَيْها نَحْوَهُما :

تدرك المرأة المسلمة من تلاوتها لكتاب الله عز وجل المرتبةَ العاليةَ التي رفع الله الوالدين إليها، وإنها لمرتبة ما عرفها البشر إلاَّ في هذا الدين، إذ جعلها تلي مرتبة الإيمان بالله والعبودية له.

فقد تتابعت آيات الكتاب الكريم واضعة مرضاة الوالدين بعد مرضاة الله عز وجل، وجاعلة الإحسان إليهما رأس الفضائل بعد الإيمان بالله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[1].

---

(١) النساء: ٣٦.

ومن هنا كانت الفتاة المسلمة الواعية هَدْي دينها أبرّ بوالديها من أي فتاة في الوجود؛ إذ لا يتوقف برّها لوالديها عند انتقالها إلى عشّ الزوجية ومحضن الأولاد، حيث يكون لها عالمها الخاص المستقل الشاغل اللاهي، بل يستمرّ برّها لوالديها ما تنفّس بها العمر وامتدت بها الأيام، عملاً بهَدْي القرآن الكريم الموصي بالوالدين حتى آخر الحياة، وبخاصة عندما يدلفان إلى الشيخوخة، ويصلان إلى مرحلة العجز والضعف والهرم، ويحتاجان إلى الخلق الراقي، والبسمة الحانية، والكلمة الودود:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[١].

والمرأة المسلمة التقية الواعية التي استنارت بصيرتها بنور القرآن الكريم، تتلقّى دوماً مثل هذا الإيقاع الربّاني الجميل، كلما تلت الآيات الموصية بالوالدين، فتزداد برّاً بهما، وإحساناً إليهما، وإقبالاً على خدمتهما، وتفانياً في التماس رضاهما، ولو كان لها زوج وبيت وأولاد ومسؤوليات:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[٢].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[٣].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾[٤].

---

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢) النساء: ٣٦.

(٣) العنكبوت: ٨.

(٤) لقمان: ١٤.

والباحث المتأمل في النصوص الواردة في برّ الوالدين، يجد الأحاديث الشريفة تترى مواكبة الآيات الكريمة، مؤكدة فضل برّ الوالدين، محذِّرة من عقوقهما أو الإساءة إليهما مهما تكن الأسباب:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله؟ قالَ: «الصَّلاةُ على وَقْتِها»، قلتُ: ثمّ أيّ؟ قال: «بِرُّ الوالِدَيْنِ»، قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله»[١].

لقد جعل الرسولُ المربي العظيم برَّ الوالدين بين أعظم عملين في الإسلام: الصلاة على وقتها، والجهاد في سبيل الله. والصلاة عماد الدين، والجهاد ذروة سنام الإسلام. فأيّ مقام كريم جليل أحلّ الرسول الوالدين؟!

ويأتي الرسولَ الكريمَ رجلٌ يبايعه على الهجرة والجهاد، يبتغي الأجر من الله تعالى، فيتريّث في قبوله، ويسأله: «فَهَلْ مِنْ والِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟»، فيقول الرجل: نعمْ، بل كلاهما، فيقول الرسول الكريم: «فَتَبْتَغِي الأَجْرَ من اللّه تعَالى؟»، فيجيبه الرجل: نعم، فيقول الرسولُ البَرُّ الرَّحيمُ: «فَارْجِعْ إلى والِدَيْكَ، فأَحْسِنْ صُحْبَتَهُما»[٢].

وفي رواية للشيخين: جاء رجل فاستأذن الرسول ﷺ في الجهاد، فقال «أَحَيٌّ والِداكَ؟» قال: نعمْ، قال: «ففيهما فَجاهِدْ»[٣].

لم يفت الرسول القائد، وهو يعبّىء كتائب الجيش للجهاد، أن يذكر بقلبه الإنساني الرقيق ضعف الوالدين وحاجتهما لابنهما، فيصرف هذا

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٢/١٧٦ كتاب الصلاة: باب فضل الصلوات الخمس.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٩١ باب بر الوالدين.

(٣) رواه الشيخان. انظر رياض الصالحين: ١٩١ باب بر الوالدين.

المتطوّع للجهاد عن التطوّع، ويلفته برفق إلى العناية بوالديه، وإنه لفي حاجة إلى كل ساعد يضرب بالسيف آنذاك، تقديراً منه صلوات الله عليه لخطورة البِرّ بالوالدين وحسن القيام على شؤونهما في منهج الإسلام الكامل المتوازن الفريد الذي رسمه الله لسعادة الإنسان.

ولما أنكرت أمُّ سعد بن أبـي وقّاص عليه إسلامَه، وقالت له: إما أن ترجع عن إسلامك وإما أن أضرب عن الطعام حتى أموت، فتكسب معرَّة العرب، إذ سيقولون: قاتل أمه، أجابها سعد: تعلّمين والله لو كان لك مئة نفس، وخَرَجَتْ نفساً نفساً ما رجعتُ عن إسلامي، وصبرت أمّه يوماً فيومين، وفي اليوم الثالث أجهدها الجوع فطَعِمَتْ، وأنزل الله تعالى قرآناً تلاه الرسول على المسلمين، فيه عتاب لسعد على شدَّته مع أمه في جوابه لها:

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾(١).

وفي قصة جُرَيْج العابد عبرةٌ بالغة في أهمية برّ الوالدين والمسارعة في طاعتهما، إذ نادته أمه وهو يصلي، فقال: اللهم أمي وصلاتي. واختار صلاته. ونادته ثانية، فلم يجبها واستمر في صلاته، ونادته ثالثة، فلما لم يجبها دعت عليه ألا يميته الله حتى يريه وجوه المُومِسات. وزنت مُومِسٌ براعٍ فحملت منه. فلما خشيت انفضاح أمرها قال لها الراعي: إن سُئِلْتِ عن أبـي المولود فقولي: جُرَيْج العابد، فقالت. وهبّ الناس يخرِّبون صومعة جُرَيْج، واقتاده الحاكم للساحة، فبينما هو في الطريق تذكَّر دعاء أمه فتبسَّم. ولما قُدِّم للعقاب استمهل حتى يصلّي ركعتين، ثم طلب الغلام وهمس

(١) لقمان: ١٥.

بأذنه: مَنْ أبوكَ؟ فقال: أبي فلان الراعي[١]، فهلّل الناس وكبّروا وقالوا: نعيد بناء صومعتك فضة وذهباً، فقال: لا، بل أعيدوها كما كانت من تراب وطين.

يقول النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه البخاري: «لو كانَ جُرَيْجٌ عالماً لَعَلِمَ أنَّ إجابته أُمَّهُ أَوْلَى مِنْ عِبادَةِ رَبِّهِ»[٢]. ومن هنا رأى الفقهاء أن المرء إذا كان في صلاة النفل، وناداه أحد والديه فعليه أن يقطع صلاته ويجيبه.

ولقد وَقَرَ في أخلاد المسلمين والمسلمات وجوب برّ الوالدين، فسارع الأبناء والبنات إلى برّهما في حياتهما وبعد مماتهما. والأخبار والأحاديث في ذلك كثيرة، منها: «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تَحُجَّ فلم تَحُجَّ حتى ماتت، أَفَأَحُجُّ عنها؟ قال: نعم، حُجِّي عنها، أرأيت لو كان على أُمّكِ دَيْنٌ، أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ اُقْضُوا اللَّهَ، فاللَّهُ أحقُّ بالوَفاءِ»[٣].

وفي رواية لمسلم: «قالتْ: إنه كان عليها صومُ شَهْرٍ، أَفَأَصومُ عنها؟ قال: صُومي عنها. قالَتْ: إنها لم تحجَّ قطّ، أفأحجُّ عنها؟ قال: حجّي عنها»[٤].

---

(١) هذا الغلام أحد الثلاثة الذين نطقوا في المهد، والآخران: عيسى بن مريم، والغلام الذي كان مع أمه في أهل الأخدود.

(٢) انظر فتح الباري ٣/٧٨ كتاب العمل في الصلاة: باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة، و ٥/١٣٦ كتاب المظالم: باب إذا هدم حائطاً فَلْيَبْنِ غيرَه.

(٣) انظر فتح الباري ٤/ ٦٤ كتاب جزاء الصيد: باب الحج والنذور.

(٤) صحيح مسلم ٨/ ٢٥ كتاب الصيام: باب قضاء الصوم عن الميت.

تبَرُّ والِدَيْها ولَوْ كَانَا غَيْرَ مُسْلِمَيْنِ:

ويسمو نبيّ الإسلام العظيم بتوجيهاته الكريمة إلى ذروة الإنسانية، إذ يوصي ببرّ الوالدين والإحسان إليهما، ولو كانا على غير دين الإسلام، وذلك فيما حدثتنا به أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ عليّ أمّي، وهي مشركةٌ في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ قلتُ: قَدِمَتْ عليّ أمّي، وهي رَاغبةٌ[١]، أَفَأَصِلُ أمّي؟ قال: «نعم، صِلِي أُمَّكِ»[٢].

إن المرأة المسلمة الواعية هَذي التوجيهات القرآنية العالية، واللفتات النبوية السامقة، لا يسعها إلاّ أن تكون من أبرّ خلق الله بوالديها، وأحسنهم عشرة لهما، في كل حال وفي كلّ آن، وهذا ما كان عليه الصحابة ومَنْ تبعهم بإحسان؛ فقد سأل رجل سعيد بن المسيَّب رضي الله عنه قائلاً: لقد فهمت آية برّ الوالدين كلها إلاّ قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، فكيف يكون القول الكريم؟ فأجابه سعيد: يعني خاطبهما كما يخاطب العبدُ سَيِّدَهُ. وكان ابن سيرين رضي الله عنه يكلِّم والدته بصوت ضعيف، كأنه صوت مريض إجلالاً لها واحتراماً.

شَديدَةُ الخَوْفِ مِنْ عُقوقِهِما:

وبقدر مسارعة برّ المرأة المسلمة بوالديها تخشى من الوقوع في جريمة عقوقهما؛ ذلك أنها تدرك فداحة هذه الجريمة التي تعدّ من الكبائر، وتعرف الصورة السوداء المعتمة الكالحة التي رسمتها النصوص الصحيحة لكل عاقّة

---

(١) أي راغبة فيما عندي.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/١٣ كتاب البر والصلة: باب صلة الوالد المشرك.

لوالديها، تقرع قلبها القاسي الصلد، وتهزّ ضميرها الغافي المخدَّر، وتثير مشاعرها الجامدة النائمة.

إنها الصورة التي تجبه كلّ عاقّة لوالديها باقتران العقوق بالإشراك بالله، كما اقترن البرّ بهما هناك بالإيمان بالله، فإذا العقوق جريمة سوداء بشعة قاتمة، ينهلع لها لبّ المسلمة الصادقة، ويطير لها صوابها. إنها أكبر الكبائر، وأفدح الخطايا والذنوب:

عن أبـي بَكْرَةَ نُفَيْع بنِ الحارث، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبائِرِ؟» ثلاثاً. قلنا: بَلَى يا رسولَ اللَّهِ قال: «الإشْراكُ باللَّهِ، وعقوقُ الوالِدَيْنِ»[١].

تبرُّ أُمَّها ثُمَّ أَباهَا:

لقد جاءت توجيهات الإسلام تحضّ على برّ الوالدين، وخصّ بعضُها كلاًّ من الأمّ والأب على انفراد، وأوصت في مجموعها بوجوب التوازن عند الأبناء والبنات في برّ والديهم، وألاّ يكون برّ أحدهما على حساب الآخر، وأكّدت بعض النصوص وجوب تقديم برّ الأم على الأب.

فهذا رسول الله ﷺ يسأل الرجل الذي جاءه مبايعاً على الجهاد كما رأينا آنفاً: «فَهَلْ مِنْ والِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟»، وهذا تقرير من الرسول الكريم بوجوب البِرّ لكلا الوالدين على السَّواء.

ورأينا أيضاً في حديث أسماء أنه أمرها بصلة أمها المشركة. وجاءه رجلٌ فسأله: يا رسولَ الله، مَنْ أحقُّ الناسِ بحُسْنِ صَحابتي؟ فأجابَه الرسولُ

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/١٥ كتاب البر والصلة: باب تحريم العقوق.

الكريمُ: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أُمُّكَ». قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أَبوكَ»[١].

ففي هذا الحديث تأكيد من الرسول الكريم على أن برّ الأمّ مقدّم على برّ الأب. وكان الصحابة الكرام يؤكدون للمسلمين هذا المعنى بعد رسول الله ﷺ، حتى إن ابن عباس رضي الله عنه، حَبْرَ الأمة وفقيهَها، جعل برَّ الوالدة أقربَ الأعمال إلى الله؛ فقد جاءه رجل، فقال: إني خطبتُ امرأةً فأَبَتْ أن تَنْكِحَني، وخطبها غيري فأحبّتْ أن تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عليها، فقتلتُها، فهل لي من توبة؟ قال: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قال: لا. قال: تُبْ إلى الله عز وجلّ، وتقرَّبْ إليه ما استطعتَ. قال عطاء بن يسار، راوي هذا الحديث عن ابن عباس: فذهبتُ، فسألتُ ابنَ عباس: لم سألتَه عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقربَ إلى الله عز وجلّ من بِرّ الوالدة[٢].

ولهذا رأينا الإمام البخاري في كتابه (الأدب المفرد) الذي صدَّره بباب برّ الوالدين يقدّم باب برّ الأم على باب برّ الأب، محقِّقاً بذلك التناسق والانسجام بين تبويبه هذا وما تضمن من هَدْي نبوي كريم.

ولقد استثار القرآن مشاعر البرّ والعرفان في نفوس الأبناء، فوصّى بالوالدين، ونوّه بفضل الأم في الحمل والرضاعة، وما تكابد من مشاقّ ومتاعب في هاتين المرحلتين من مراحل الحياة في صورة لطيفة حانية، توحي بالبذل النبيل، والحنوّ المطلق، والانعطاف الرقيق:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٤ كتاب البر والصلة: باب بر الوالدين.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٥ باب بر الأم.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ[١] وَفِصَـٰلُهُۥ[٢] فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[٣].

فيا لَلتَّربيةِ العليا! ويا لَلتَّوجيهِ الإنساني الرحيم! ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ﴾. فشكر الوالدين على ما أسْديا للولد من خير يلي شكر الله عزّ وجل، رأس الفضائل والأعمال الصالحات. ويا لَلمنزلة الكريمة العليا التي أحلّها هذا الدينُ الوالدين!

وهذا ابن عمر يشهد رجلاً يمانياً يطوف بالبيت الحرام، يحمل أمّه ويقول: إني لها بَعيرُها المُذَلَّلُ، وقد حملتها أكثر مما حملتني، أتُراني جزيتُها يا ابن عمر؟ فأجابه لا، ولا بزفرة واحدة[٤]!!

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل أمداد[٥] أهل اليمن كلما رآهم، أَفيكمْ أُوَيْس بن عامر؟ حتى أتى على أُوَيْس، فقال: أنت أُوَيْس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مُراد ثم من قَرَنٍ؟ قال: نعم، فكان بك بَرَصٌ فَبَرَأْتَ منه إلاّ موضعَ درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيْس بن عامر مع أَمْداد أهل اليمن من مُرادٍ ثم من قَرَنٍ، كان به بَرَصٌ فَبَرَأَ منه إلاّ موضعَ درهم، له والدةٌ، هو برٌّ بها، لو أقسمَ على اللّهِ لأَبَرَّهُ. فإن استطعتَ أن يستغفرَ لكَ فافعلْ»

---

(١) أي ضعفاً على ضعف.

(٢) أي فطامه.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٦٢ باب جزاء الوالدين.

(٥) أي الغزاة الذين يمدّون جيوش الإسلام.

فَاسْتَغفِرْ لي. فاستَغْفَرَ له، فقال له عمر: أين تريدُ؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتبُ لكَ إلى عامِلها؟ قال: أكونُ في غَبْراءِ الناس أحبُّ إليّ[1].

فأيُّ مقامٍ بَلَغَهُ أُوَيْسٌ القَرَنيّ ببرِّ والدته، حتى إن رسول الله ﷺ أوصى صحابته أن يلتمسوا دعاءَه!

كل ذلك يدل على المقام الأرفع الذي رفع الإسلام إليه الأمومة، وجعلها مقدمة على مقام الأبوَّة، على حفاوته بالمقامين، وتقديره لكلّ منهما، وحضّه على البرّ بهما.

وقد تبتسم الدنيا للفتاة، وتتقلّب في بيت الزوجية في أعطاف النعيم، وتنصرف إلى الزوج، وتلتفت إلى الذرية الناشئة، فَتَشْغَل عن الوالدين، ويقلّ اهتمامها بهما والإحسان إليهما وتفقّد أحوالهما.

ولكن المرأة المسلمة الواعية الراشدة في نجوة من هذه الغفلة وعصمة، إذ تطالع توصيات القرآن الكريم والحديث الشريف بالوالدين، فإذا هي مقبلة عليهما، تتفقّد دوماً أحوالهما، وتسارع إلى بِرّهما والإحسان إليهما، ما أسعفها جهدها ووقتها وظروفها، وما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

تُحْسِنُ أسْلوبَ بِرِّهِما:

إن المرأة المسلمة الواعية التي تفتَّحت نفسها على هَدْي الإسلام، واعتنقت مثله وقِيمَه الرفيعة، بارّة بوالديها، محسنة في برّها لهما، تختار أمثل الطرق وأرقى الأساليب في مخاطبتهما، ومعاملتهما. فهي تخاطبهما بكل احترام وتقدير وتأدُّب، وتحيطهما بكل أسباب الرعاية والتكريم

---

(١) انظر صحيح مسلم ١٦/ ٩٥ كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أويس القرني.

والإجلال، تخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة، كما أمر ربّ العزّة في كتابه الكريم، ولا تندّ عنها كلمة تضجُّر أو تأفُّف أو ضيق منهما، مهما كانت الظروف والأحوال، مستهدية دوماً بقوله تعالى:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وقد يكون الوالدان أو أحدهما في انحراف عن جادة الحق والصواب، فواجب الفتاة المسلمة البارّة في مثل هذه الحالة أن تحسن التأتّي إلى نفسيهما، وتسلك معهما مسلك الرفق والتُّؤَدة والتلطّف والإقناع، لا تقسو، ولا تجور، ولا تخرج عن دائرة الأدب والتهذيب، بل تحاول إقناعهما بالسبل التي تراها مجدية معهما، وسلاحها في سبيل الوصول إلى هدفها الصبر، والكلمة الطيبة، والبسمة الودود، والحجة القوية، والمنطق السليم، والأسلوب المهذَّب الحكيم.

إن الفتاة المسلمة مطالبة بهذا الإحسان كله نحو والديها، حتى لو كانا مشركين، ولا يخفى عليها أنها مكلّفة بحسن عشرتهما على شركهما، وإنها لَتعلمُ أن الشرك أكبر الكبائر، ومع ذلك لم يحل دون برّ الوالدين في شِرْعة الإسلام السمحة الفريدة الغرّاء.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

---

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾[1] .

إن بِرَّ الوالدين في الإسلام لأَمْرٌ عظيمٌ؛ لأنه نابع من أوثق الروابط وأمتن الوشائج الإنسانية، من رابطة البنوّة بالأبوّة والأمومة. ولكن هذه الرابطة على جلالة قدرها، تأتي بعد رابطة العقيدة، فإن كان الوالدان مشركين، وأمرا ابنهما أو ابنتهما بالشرك، فلا طاعة لهما عليهما؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإذ لا تعلو على رابطة العقيدة رابطة، ولا تسمو على وشيجتها وشيجة. ومع ذلك يبقى الأولاد ملزمين ببرّ والديهم ورعايتهم والإحسان إليهم.

ومن هنا كانت المرأة المسلمة برّة بوالديها في الأحوال كلها، لا تدّخر وسعاً في إسعادهما وإدخال السرور على قلبيهما ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وفيما يرضي الله عز وجل، من تفقّد لأحوالهما بين الحين والحين، وتقديم الخدمات التي تبهج نفسيهما، والإكثار من زيارتهما والإقبال عليهما بالبسمة البهيجة، والثغر المفترّ، والنفس المحبّة المنشرحة، والهديّة الجميلة المفرحة، والكلمة الطيبة الودود.

هذا في حياتهما. وبعد مماتهما يمتدّ برّ المرأة المسلمة لوالديها بالدعاء لهما، والتصدق عنهما، وقضاء ما عليهما من ذمّة إن كانا مدينين للّه أو للناس.

إن برّ الوالدين والإحسان إليهما لَخليقةٌ أصيلةٌ من أخلاق المسلمين والمسلمات، وينبغي لهذه الخليقة الأصيلة النبيلة أن تستمر في حياتهم، مهما تعقدت الحياة، وارتفعت تكاليف المعيشة، وكثرت الأعباء والشواغل والمسؤوليات.

---

(١) لقمان: ١٤، ١٥.

ذلك أن هذه الخليقةَ دليلٌ على الريّ العاطفي الذي لا يزال موجوداً في بلاد المسلمين والحمد لله، وبرهانٌ على الوفاء الذي يتحلى به المسلمون والمسلمات تجاه الجيل الكبير المنفق المضحّي، المتجه إلى نهاية الحياة، وإنه لفي أمسّ الحاجة إلى الكلمة المواسية، والعبارة المؤنسة، واليد الحانية، والقلب المحبّ، والبسمة المنعشة للآمال.

وإن هذه الخليقة لتقي الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، من تحجّر القلب، وجفاف العاطفة، ومعرّة الجحود والكفران، وهي بعدُ تفتّح له أبواب الجنان.

❑ ❑ ❑

٤
المرأة المسلمة مع زوجها

الزَّواجُ في الإسْلامِ:

الزواج في الإسلام عقد مبارك بين الرجل والمرأة، يحلّ به كلٌّ منهما للآخر، ويبدآن به رحلة الحياة الطويلة، متحابَّيْنِ متعاونَيْنِ متآلفَيْنِ متسامِحَيْن، يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر، فيجد في صحبته السكينة والأنس والأمن والطمأنينة ولذّة العيش. وقد صوّر القرآن الكريم هذه العلاقة الشرعية السامية بين الرجل والمرأة تصويراً رائقاً شفيفاً، يشيع فيه ندى المحبة والألفة والثقة والتفاهم والرحمة، ويفوح منه عبير الودّ والسعادة والبهجة والنعيم:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[١].

إنها الصلة الربانية في أوثق وشائجها، يعقدها ربّ العزة بين نفسَيْ الزوجين المسلمين، فإذا هما يلتقيان على الحب والتفاهم والتعاون والتناصح، فيؤسّسان الأسرة المسلمة التي تدرج فيها الطفولة، وتتفتّح أكمام العقول، وتصاغ النفوس على هَدْي من مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام

---

(١) الروم: ٢١.

الحنيف، فإذا الأسرة المسلمة لَبِنَة صُلْبة في بناء المجتمع المسلم الراشد، وإذا أفرادها أعضاء متنجون بنّاءون، متعاونون على البرّ والتقوى، متسابقون متنافسون في الصالحات من الأعمال.

والمرأة الصالحة عماد الأسرة المسلمة، وركنها الرّكين، وأساسها المتين، وهي متعة الحياة الأولى في حياة الرجل، بل هي خير متاع له في الحياة، كما قال الرسول الكريم: «الدُّنْيا مَتاعٌ، وخيرُ متاع الدنيا المرأةُ الصّالحةُ»(١).

إنها نعمة الله الكبرى على الرجل، إذ يسكن إليها من لأْواء العيش ولُغوب الكدح والنَّصَبِ، فيجد عندها الراحة والسلوى والسكينة والمتاع الذي لا يدانيه في حياة الإنسان متاع.

فكيف تكون المرأة خير متاع في الحياة، زوجةً ناجحةً، في علياء أنوثتها، مُحَبَّبَةً مُعَزَّزةً مُكَرَّمةً؟ هذا ما ستُبينُ عنه الصفحات التالية:

تُحْسِنُ اخْتِيارَ الزَّوْجِ:

لقد كان من تكريم الإسلام للمرأة أن أعطاها حق اختيار الزوج، فليس للوالدين أن يكرها ابنتهما على زواج لا تريده. والمرأة المسلمة الراشدة تعرف هذا الحق، ولكنها لا تستغني عن نصح وترشيد والديها إلى ما فيه مصلحتها عندما يتقدّم إليها خاطب، لأنهما أوسع منها خبرة بالحياة والناس، وفي الوقت ذاته لا ترضى أن يُسْلَب منها هذا الحق لهوى قد يعصف بالأب، فإذا هو يكره ابنته على تزويجها من رجل لا تريده.

---

(١) صحيح مسلم ١٠/٥٦ كتاب الرضاع: باب استحباب نكاح البكر.

والنصوص التي تقف إلى جانب المرأة المسلمة في هذه المسألة لحسّاسة كثيرة، منها ما رواه الإمام البخاري عن الخنساء بنت خِدام:

«إن أبـي زوّجني من ابن أخيه، وأنا لذلك كارهة، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لي: «أَجيزي ما صَنَعَ أبوكِ»، فقلت: ما لي رغبة فيما صنع أبـي، فقال: «اذْهَبـي، فلا نكاحَ لهُ، اِنْكَحي مَنْ شِئْتِ». فقلتُ: قد أجزتُ ما صنع أبـي، ولكنني أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء»[١].

لقد وجّهها رسول الله ﷺ في أول الأمر لتنفيذ أمر أبيها، وهذا هو الأصل، لما هو معروف من حرص الآباء على سعادة بناتهم. ولكنه لمّا رأى أباها يريد إكراهها على زواج تكرهه، أعطاها حرية الاختيار، وأنقذها من تعسّف الأب الظالم لابنته في إكراهها على زواج لا ترتاح نفسها إليه.

ذلك أن الإسلام لا يُعْنِتُ المرأةَ[٢]، ولا يرضى لها أن تعيش في صحبة رجل تكرهه، لأنه يريد للزواج أن يكون ناجحاً مبنيّاً على أسس متينة من الكفاءة بين الزوجين في المظهر والمخبر، والتقارب في الأمزجة والعادات والميول والأهداف. فإذا حدث خلل في بناء صرح الزوجية، ولم يطب العيش بين الزوجين، وأحسّت المرأة أنها لا يمكن أن تمحض زوجها الحب والإخلاص والوفاء، وخشيت على نفسها من الوقوع في إثم العقوق ومخالفة الزوج الذي لا تحبه، فلها أن تطلب الطلاق، وهذا ما أقرّه الرسول ﷺ، إذ

---

١) انظر فتح الباري ٩/ ١٩٤ كتاب النكاح: باب إكراه البنت على الزواج، وابن ماجه ١/ ٦٠٢ كتاب النكاح: باب من زوج ابنته وهي كارهة، والمبسوط ٥/ ٢.

٢) أي لا يحمّلها مشقة.

جاءته امرأة ثابت بن قيس بن شمّاس، جميلة أخت عبد الله بن أبيّ، فقالت: يا رسول الله. ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكنّي أكره الكفر في الإسلام[١]. فقال ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عليهِ حَديقتَهُ؟» ــ وكان مهرها حديقة ــ قالت: نعم. فأرسل رسول الله ﷺ إليه: «اِقْبَلِ الحَديقَةَ وطَلِّقْها تَطْلِيقَةً»[٢]. وفي رواية للبخاري عن ابن عبّاس، قالت: «إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أُطيقُه».

لقد صان الإسلام إنسانية المرأة، وحفظ كرامتها، واحترم إرادتها في اختيار الرجل الذي ستقضي معه حياتها، ولم يرضَ لأحد كائناً مَنْ كان أن يكرهها على الزواج من رجل لا تريده. وليس أدلّ على ذلك من قصة بَرِيرةَ، الجارية الحبشية التي ملكها عتبة بن أبي لهب، وأكرهها على الزواج من عبد، اسمه مغيث، ما كانت لترضاه زوجاً لها، لو كان أمرها بيدها. فأشفقت عليها أم المؤمنين السيدة عائشة، فاشترتها وأعتقتها.

هنالك، أحست هذه الجارية أنها ملكت نفسها، ولها أن تقرر مصير حياتها الزوجية، فطلبت الطلاق من زوجها. وكان زوجها يمشي خلفها ويبكي، وهي تأباه. ولنستمع إلى حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه يعرض صورة المرأة الحرّة المصرّة على فسخ زواجها ممّن لا تحب، وتعليق الرسول العظيم ذي القلب الكبير على تلك الحالة المؤثّرة، وشفاعته فيها:

عن ابن عباس: «أن زوجَ بَريرةَ كان عبداً، يقال له مُغيث، كأنّي أنظر

(١) أي أكره إن أقمت عنده أن أقع فيما يقتضي الكفر.

(٢) فتح الباري ٩/ ٣٩٥ كتاب الطلاق: باب الخُلع.

ليه، يطوف خلفها ويبكي، ودموعُه تسيلُ على لحيته؛ فقال النبي ﷺ عبّاس: «يا عبّاسُ، ألا تعجبُ مِنْ حُبِّ مُغيثٍ بَريرَةَ، ومِنْ بُغْضِ بَريرَةَ مُغيثاً؟!». فقال النبيّ ﷺ: «لو راجعتِهِ». قالت: يا رسولَ اللّهِ، تأمرني؟ قال: «إنّما أنا أَشْفَعُ». قالت: لا حاجة لي فيه[١].

لقد تأثر الرسول الكريم من هذا المشهد الإنساني العاطفي: حُبٌّ جارفٌ عميقٌ من جانب الزوج، ونُفورٌ مستحكِمٌ من جانب المرأة. فما كان له إلاّ أن يذكّر المرأة قائلاً: لَوْ راجعتِهِ، فإنّه زوجُكِ وأبو وَلَدِكِ. وهنا تستفهم المرأة المؤمنة: أَتَأْمُرُني؟ أي أتريد بهذا القولِ الأمرَ، فيجب عليّ؟ ويأتي جواب الرسول الإنسان المعلّم المشرِّع العظيم: «إنّما أنا أَشْفَعُ»، أي أقول ذلك على سبيل الشفاعة، لا على سبيل الأمر والحتم والإلزام والإكراه!

ألا فَلْيسمع الآباءُ المُتَعَنِّتون الظالمون القساةُ على بناتهم هذا الهَدْيَ النبويَّ العظيم!.

وللمرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها مقاييسُها المسدَّدة الصائبة الحكيمة في اختيار الزوج، فهي لا تكتفي بجمال الهيئة، وأناقة المظهر، ورفعة المنصب، ومظاهر الثراء، وما إلى ذلك من صفات تستهوي عادةً النساء، وإنما تقف عند دينه وخلقه، فهما عماد بيت الزوجية الناجح، وأثمن حلية تحلى بها الزوج. وقد نصّ هَدْي الإسلام الحنيف على لزوم هاتين الصفتين في الخاطب، فإذا ما توافرتا فيه وجب تزويجه، وإلاّ عمّتْ الفتنة المجتمع، وساد فيه الفساد:

---

١) فتح الباري ٩/٤٠٨ كتاب الطلاق: باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة.

«إذا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَأَنْكِحوهُ، إلاَّ تَفْعلوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ وفَسادٌ عَرِيضٌ»(١).

فكما أن الشاب المسلم الحق لا تستهويه خضراء الدِّمَنِ، وهي الفتاة الجميلة في منابت السوء، كذلك الفتاة المسلمة الواعية الراشدة لا يستهويها الشاب اللاهي المائع الأرعن، ولو حسُن مظهره وراقت هيئته، وإنما يعجبها الشاب المؤمن الجادّ، الواعي المتفتِّح الذهن، النقيّ السريرة، الطاهر الذيل، الحسن الدين والخلق والسيرة؛ فالفتاة المؤمنة الطيبة لا يليق بها إلاَّ الشاب المؤمن الطيب، والفتاة الخبيثة الضالة لا يليق بها إلاَّ الشاب الخبيث الضال، وصدق الله العظيم:

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾(٢).

وليس معنى هذا أن تهدر المرأة المسلمة جمال الشكل وحسن الهيئة، وترضى بالقبح والدمامة وقماءة المظهر، فمن حقها ـ كما تقدم ـ أن تظفر بالرجل الذي يملأ نفسها، ويرضي أحاسيسها ومشاعرها، في شكله ومضمونه على السواء، فلا يُهدَر الشكل على حساب المضمون، ولا المضمون على حساب الشكل، ومِلاك الأمر في هذه القضية أن تختار المرأة المسلمة الرجل الذي تملأ شخصيتُه بكاملها نفسَها، وتستحوذ على إعجابها وتقديرها، والمرأة المسلمة الواعية الراشدة لا تعشي بصرَها أضواءُ المظهر، ولا تصرفها عن رؤية الحقيقة والجوهر.

---

(١) حديث حسن رواه الترمذي ٢/ ٢٧٤ أبواب النكاح: ٣، وابن ماجه ١/ ٦٣٣ كتاب النكاح: باب الأكفاء.

(٢) النور: ٢٦.

ذلك أن المرأة المسلمة تعلم أن للرجل حق القِوامة على المرأة بنصّ القرآن الكريم: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[١]. ولذا فهي تريد أن تزفّ إلى رجل تعتزّ بِقِوامته عليها، وتفرح باقترانها به، ولا تساورها ندامةٌ على زواجها منه. إنها تريد رجلاً تضع يدها في يده، لينطلقا يؤدّيان رسالتهما في الحياة، في بناء الأسرة المسلمة، وتنشئة الأجيال الطاهرة، وتربية العقول والقلوب والمشاعر المتفتّحة، في تفاهم وتوادّ وانسجام، لا يعرقل مسيرتهما تنافر في الخلق، ولا تباين في الأمزجة، ولا اختلاف في الطبائع، ولا تضارب في الدين؛ ذلك أن موكبَيْ المؤمنين والمؤمنات يسيران جنباً إلى جنب في رحلة الحياة المؤمنة الجادة، لأداء الرسالة الكبرى التي ناطها الله بالإنسان وجعلها أمانة في أعناق الرجال والنساء، على هذا النحو الذي يرسمه القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[٢].

ولا بد لسلامة المسيرة وبلوغ ذلك الهدف الكبير من متانة العلاقة الزوجية، وتوطيد دعائم الأسرة، وبنائها على أساس سليم من حسن الاختيار.

ومن النساء المسلمات العظيمات اللواتي اتصفن بقوة الشخصية،

---

١) النساء: ٣٤.

٢) الأحزاب: ٣٥.

وسمو الهدف، وبعد النظر في اختيار الزوج أم سُلَيْم بنت مِلْحان، تلك المرأة التي كانت من أسرع نساء الأنصار إلى الإسلام. وكانت متزوجة من مالك بن النضر، وأنجبت منه ابنها أنساً، فلما أسلمت امتعض زوجُها مالك من إسلامها، وتركها مغاضِباً، وأصرّت هي على إسلامها. وجاءها بعد ذلك نَعْيُهُ، وهي في مَيْعَة الصبا وريعان الشباب. واحتسبت ذلك كله في سبيل الله، وانصرفت إلى ولدها أنس، ابن العاشرة من عمره، وسعت إلى رسول الله ﷺ ليكون في خدمته.

وتقدّم إليها شاب من خيرة شباب المدينة فتوّةً وثَراءً وقوّة، وهو أبو طلحة، قبل أن يسلم، وكان مهوى أفئدة فتيات يثرب بماله وشبابه وقوته. وحَسِبَ أن أم سُلَيْم ستطير فرحاً به. ولكنه فوجيء بها تقول له: يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلّهك الذي تعبد، إنما هو شجرة تنبت من الأرض، وإنما نَجَرها حبشيّ بني فلان؟ قال: بلى. قالت: أما تستحي أن تسجد لخشبة تنبت من الأرض، نَجَرها حبشي بني فلان؟ وكابر أبو طلحة، ولوّح لها بالمَهْر الغالي والعيش الرّغد. ولكنها أصرّت على موقفها، وصارحته قائلة، والله يا أبا طلحة، ما مثلك يُرَدّ، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تُسْلِمْ فذاك مَهْري، وما أسألك غيره[1].

وعاد في اليوم الثاني يمنّيها بمَهْر أكبر وعطاء أغزر. وثبتت أم سُلَيْم، وكان ثباتها يزيدها في عينيه جمالاً وجاذبية ورصانة وحصافة، وراحت تقول له: أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار؟ وأنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت؟ وكانت كلماتها بمثابة صدمة اهتزّت لها

(١) أخرجه النسائي بإسناد صحيح ٦/ ١١٤ كتاب النكاح: باب التزويج على الإسلام.

ـاسيس أبـي طلحة، فإذا هو يسأل نفسه: هل يحترق الرب؟ وينطلق لسانه دّداً: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

هنالك، قالت أم سُلَيْم لابنها أنس، والفرحة تغمر كيانها كلّه: قم أنس، فزوّج أبا طلحة. وأحضر أنس الشهود، وتمّ الزواج.

وكان من فرحة أبـي طلحة أنه عزم على نثر ثروته كلها بين يدي سُلَيْم، ولكنها وقفت في شموخ المؤمنات الصادقات العزيزات العفيفات ول له: يا أبا طلحة، إني تزوجتك لله، ولن آخذ صَداقاً غيره، وإنها لتعلم ـا بإسلام أبـي طلحة لم تظفر بالزوج الكريم الكفء فحسب، بل ظفرت ـراب من الله عز وجل، يفوق ما في الدنيا من امتلاك حمر النعم، كما ـمعت من الرسول الكريم ﷺ:

«لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رجلاً خيرٌ مِنْ أنْ يكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(١).

بمثل هذا المرأة العظيمة تَأْتَسي المرأةُ المسلمة، وعن مثلها تأخذ نقاء ـيمان، وقوة الشخصية، وسلامة الاعتقاد، وحسن الاختيار.

ـطيعةٌ زوجَها بارّةٌ به:

والمرأة المسلمة الراشدة مطيعة زوجها دوماً في غير معصية، بارّة به، ـريصة على إرضائه وإدخال السرور على نفسه، ولو كان فقيراً معسراً، تتذمر من ضيق ذات اليد، ولا تضيق ذرعاً بأعمال البيت، وتذكر أن عدداً ـن فضليات النساء في التاريخ الإسلامي كنّ مثالاً في الصبر والإحسان ـالمروءة والمعروف في خدمة أزواجهنّ وبيوتهنّ، على ما كنّ فيه من قلّة ـناقة وضنك عيش. وفي مقدمة هؤلاء الزوجات المثاليات السيدة فاطمة

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٧٦ كتاب المغازي: باب غزوة خيبر.

الزهراء، ابنة محمد سيد المرسلين صلوات الله عليه وسلامه، وزوجة علي بن أبـي طالب رضي الله عنه؛ فقد كانت تشكو ما تلقى في يدها من الرَّحَى، فقال لها زوجها علي بن أبـي طالب يوماً: لقد جاء أبوكِ بسبـي، فاذهبـي إليه فالتمسي واحدة تخدمكِ. وذهبت إلى أبيها، ولكن الحياء منعها أن تسأله ما جاءت من أجله. وذهب علي فسأله خادماً لابنته الحبيبة إلى قلب أبيها. ولكن الرسول العظيم لم يستطع أن يستجيب لأحب الناس إليه، ويمنع فقراء المسلمين، وجاء إلى ابنته وزوجها، فقال:

«ألا أُعَلِّمُكُما خيراً مِمَّا سَأَلْتُماني؟ إذا أَخَذْتُما مَضاجِعَكُما، فَسَبِّحا اللَّهَ ثلاثاً وثلاثين، واحْمَدا ثلاثاً وثلاثين، وكبِّرا أربعاً وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادِمٍ»، ثم ودعهما ومضى، بعد أن ألقى في أسماعهما وفي أغوار نفسيهما هذا المدد الرّبّاني الذي ينسي المتاعب ويهزم الصِّعاب.

وطفق علي رضي الله عنه يردّد كلمات الرسول ﷺ، ويقول: فوالله ما تركتهنّ منذ علّمنيهنّ. وسأله رجل من أصحابه: ولا ليلةَ صِفّين؟ فقال: ولا ليلةَ صِفّين[١].

وهذه أسماء بنت أبـي بكر الصديق تقوم بخدمة زوجها الزبير، وبيتها، وكان لزوجها فرسٌ، تَسوسُه، وتحتَشّ له، وتعلِفُه، وتخرِز الدّلو[٢]، وتعجِن، وتنقل النَّوىَ على رأسها من مكان بعيد. وَلْنَدَعْها تحدثنا بهذا كله، كما رواه عنها الشيخان:

---

(١) انظر فتح الباري ٧/٧١ كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب علي بن أبـي طالب، وصحيح مسلم ١٧/٤٥ كتاب الذكر والدعاء: باب التسبيح أول النهار وعند النوم.

(٢) أي تجعله صالحاً للاستعمال.

قالت: «تزوجني الزبير، وماله في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غيرَ فرسه. قالت: فكنت أعلِفُ فرسَهُ، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدقُّ النّوى لِناضِحِهِ[١]، وأعلِفُه، وأستقي الماء، وأَخْرِزُ غَرْبَهُ[٢]، وأعجِنُ، ولم أكن أحسن أَخْبِزُ، وكان يَخْبِزُ لي جاراتٌ لي من الأنصار، وكنَّ نِسْوَةَ صدقٍ. قالت: وكنت أنقل النّوى من أرض الزبير التي أقطعه رسولُ الله ﷺ على رأسي، وهي على ثُلُثَيْ فرسخ. قالت: فجئت يوماً، والنَّوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ، ومعه نفرٌ من أصحابه، فدعاني، ثم قال: إخْ إخْ[٣]، ليحملني خلفَه. قالت: فاستَحْيَيْتُ، وعرفتُ غيرتَكَ[٤]، فقال: والله لَحَمْلُكِ النّوى على رأسك أشدُّ من ركوبك معه. قالت: حتى أرسل إليّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أَعْتَقَتْني»[٥].

إن المرأة المسلمة الصادقة لَتُقْبِلُ على خدمة بيتها وزوجها، وهي تعلم حق زوجها عليها، وإنه لحق كبير كبير، أكّده رسول الله ﷺ أبلغ تأكيد في قوله: «لا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أنْ يَسْجُدَ لِبَشرٍ، ولو صَلُحَ لبشرٍ أن يسجدَ لبشرٍ لأَمَرْتُ المرأةَ أن تسجدَ لِزوجِها، لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْها»[٦].

---

(١) أي جمله.

(٢) أي أصلح دَلْوَه.

(٣) هي كلمة للبعير ليبرك.

(٤) أي غيرة زوجها الزبير.

(٥) انظر فتح الباري ٩/٣١٩ كتاب النكاح: باب الغيرة.

(٦) رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٩/٤ باب حق الزوج على المرأة.

وقوله:

«لَـوْ كنـتُ آمِـراً أَحَـداً أَنْ يَسْجُـدَ لِأَحَـدٍ لأَمَـرْتُ المـرأةَ أنْ تسجـدَ لزوجِها»(١).

وسألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ: أيُّ الناسِ أعظمُ حَقّاً على المرأةِ؟ قالَ: «زَوْجُها». قالَتْ: فأيُّ الناسِ أعظمُ حقّاً على الرجل؟ قال: «أُمُّهُ»(٢).

وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ لحاجة، فلما فرغ من حاجتها، قال: «أذاتُ زَوْجٍ أنتِ؟» قالتْ: نعمْ. قالَ: «فكيف أنتِ لَهُ؟» قالتْ: ما آلُوهُ(٣) إلاَّ ما أعجِزُ عنهُ. قال: «انْظُري أينَ أنتِ منهُ، فإنّهُ جَنّتُكِ ونارُكِ»(٤).

فهل تستطيع المرأة المسلمة، وهي تسمع هذا الهَدْي النبوي الكريم أن تتأفّف من خدمة بيتها وزوجها؟ إنها لتنهض بمسؤوليات بيتها، وترعى حق زوجها عليها، ونفسها ممتلئة بالبِشْر، إذ تحسّ أنها لا تؤدّي واجباً ثقيلاً تنفر منه النفس وتستثقله، وإنما تقوم بعمل في بيتها تدرك به ثواب الله عز وجل.

ولقد فقه الصحابة رضوان الله عليهم، ومن سار على نهجهم هذا الأدب الإسلامي، وتناقلوه عن رسول الله ﷺ، فكانوا إذا زفّوا امرأة إلى زوجها أمروها بخدمته ورعاية حقه، ومن هنا كانت المرأة المسلمة تعرف

---

(١) حديث حسن صحيح، رواه الترمذي ٢/ ٣١٤ في أبواب الرضاع: ١٠.

(٢) رواه البزّار بإسناد حسن. انظر مجمع الزوائد ٤/ ٣٠٨ باب حق الزوج على المرأة.

(٣) أي ما أقصّر في حقه.

(٤) رواه أحمد والنسائي بإسنادين جيدين، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٢ كتاب النكاح.

واجبها نحو زوجها، وأصبحت رعاية الزوج وحسن تبعّله خلقاً من أخلاقها وسجية من سجاياها على مدى العصور، ومن أمثلة ذلك ما أورده الفقيه الحنبلي ابن الجوزي في كتابه أحكام النساء[١] من أن رجلاً صالحاً صوّاماً قوّاماً من رجال القرن الثاني الهجري، يدعى شُعَيْبَ بنَ حَرْب، أراد أن يتزوج امرأة، فقال لها متواضعاً: إني سيء الخلق، فقالت له بلباقة وفطنة وحسن تأتٍّ: أسوأُ منكَ خلقاً مَنْ أحوجك أن تكون سيء الخلق، فأدرك أنه أمام امرأة راشدة ناضجة ذكية، فقال من فورهِ: إذاً أنتِ امرأتي.

إنها النظرة الذكية الحصيفة لحسن التبعّل، أدركتها هذه المرأة، فأكدت للرجل المتقدم لخطبتها أن المرأة إذا تفهمت نفسية زوجها، وعرفت عاداته، وتبيَّنَتْ ما يرضيه وما يسخطه، قادرة على كسب قلبه والحوز على إعجابه وتقديره، ووَصْد كل منفذ قد تهبّ منه ريح الخلاف، فتعكر صفاء الحياة الزوجية. والمرأة التي لا تدرك هذه الحقائق غير جديرة بأن تكون زوجة ناجحة، وقد تجرّ زوجها بجهلها وتقصيرها وحماقتها إلى سوء الخلق، فتكون أسوأ منه خلقاً، لأنها أحوجته إلى سوء الخلق.

والمرأة المسلمة اللّبقة الراشدة لا تكون كذلك، بل تكون معينة زوجها على حسن الخلق، بما تبديه من ضروب الذكاء والفطنة والألمعية في معاملتها الحسنة التي تنفتح لها مغاليق القلوب، وتهشّ لها النفوس، منطلقة من أن حسن تبعّل الزوج ليس خلقاً اجتماعياً تزهو به بين أقرانها فحسب، وإنما هو دين، يحاسبها الله عليه، فيثيبها إن أحسنت، ويؤاخذها على التقصير فيه.

---

(١) ص ٣٣١.

ومن أبرز وجوه طاعة المرأة المسلمة لزوجها وبرّها به استجابتها لرغباته الخاصة المشروعة التي فيها الاستمتاع بالحياة الزوجية على أكمل وجه وأتم صورة في المعاشرة والزيارات والمأكل والملبس والحديث وما إلى ذلك من وجوه الحياة اليومية. وكلما كثرت استجابتها له في مثل هذه الأمور ازدادت حياتهما سعادةً وصفاءً وهناءةً، وكانت أقرب إلى روح الإسلام وهَدْيه.

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أن طاعتها لزوجها مما يدخل الجنة، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ: «إذا صَلّتِ المرأةُ خمسَها، وصامَتْ شهرَها، وأطاعَتْ زوجَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، قيل لها: ادخُلي الجنّةَ من أيِّ الأبْوابِ شِئْتِ»[١].

وعن أمّ سَلَمة رضي الله عنها قالَتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أيُّما امرأةٍ ماتَتْ وزوجُها عنها راضٍ دخلَتْ الجنّةَ»[٢].

ويرسم الرسول الكريم صورة وضيئة مشرقة مُحَبَّبَة للزوجة الصالحة الودود السمحة الحسنة الخلق، السعيدة في الدنيا والآخرة، فيقول:

«ألا أُخبِرُكُمْ بنسائِكُمْ في الجنّةِ؟ قُلْنا: بَلَى يا رسول الله. قالَ: وَلُودٌ وَدُودٌ، إذا غَضِبَتْ، أو أُسِيءَ إليْها، أو غَضِبَ زوجُها، قالَتْ: هذه يدي في يدِكَ، لا أَكْتَحِلُ بِغَمْضٍ حتّى تَرْضَى»[٣].

---

(١) رواه أحمد والطبراني، ورواته ثقات. انظر مجمع الزوائد ٤/٣٠٦ باب حق الزوج على المرأة.

(٢) رواه ابن ماجه ١/٥٩٥ كتاب النكاح: باب حق الزوج على المرأة، والحاكم ٤/١٧٣ كتاب البر والصلة، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه الطبراني، ورواته محتج بهم في الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٤/٣١٢.

وإنَّ المرأة المسلمة الراشدة لتعلم أن الإسلام الذي أجزل لها المثوبة بطاعتها زوجَها، وأدخلها الجنة، هو هو الذي توعّد كل امرأة تنكّبتْ سبيل طاعة الزوج، وأعرضت عنه، ولم تبال به، توعّدها بالإثم والسخط ولعنات الملائكة:

ففي الصحيحين عن أبـي هريرة أيضاً أن النبـي ﷺ قال: «إذا دعا الرجلُ امرأتَهُ إلى فِراشِهِ فَلَمْ تأْتِهِ، فبَاتَ غضبانَ عليها لَعَنَتْها المَلائِكَةُ حتّى تُصْبِحَ»[(١)].

وفي صحيح مسلم عن أبـي هريرة أن النبـي ﷺ قال: «والذي نَفْسي بِيَدِهِ ما مِنْ رجلٍ يَدْعو امْرَأَتَهُ إلى فراشِهِ، فَتَأْبـى عليهِ، إلاَّ كانَ الذي في السَّماءِ ساخِطاً عليها، حتَّى يَرْضَى عَنْها»[(٢)].

لقد حلّت اللعنة على كل امرأة نافرة ناشزة شرسة، ولم تنجُ منها المتثاقلاتُ المتباطئاتُ عن أزواجهنّ المُسَوِّفاتُ:

«لَعَنَ اللَّهُ المُسَوِّفاتِ التي يَدْعوها زَوْجُها إلى فِراشِهِ، فتقولُ: سَوْفَ، حتّى تَغْلِبَهُ عَيْناهُ»[(٣)].

لقد كان الزواج في الإسلام لإحصان الرجل والمرأة على السواء، ومن هنا كان على المرأة أن تستجيب لرغبة زوجها إذا سألها نفسها، ولا تتذرّع

(١) فتح الباري ٩/٢٩٤ كتاب النكاح: باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، وصحيح مسلم ١٠/٨ كتاب النكاح: باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها.

(٢) صحيح مسلم ١٠/٧ كتاب النكاح: باب تحريم امتناع المرأة عن فراش زوجها.

(٣) حديث صحيح رواه الطبراني في الأوسط والكبير. انظر مجمع الزوائد ٤/٢٩٦ باب فيمن يدعوها زوجها فتعتلّ.

بعلل واهية، متهربة منه؛ ولهذا وردت أحاديث تحضّ على هذه الاستجابة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، مهما تكن الشواغل والعوائق، إلاّ إذا كان هناك عذر قاهر مانع لا سبيل إلى دفعه.

ومن تلك الأحاديث قولُه ﷺ:

«إذا دَعَا الرَّجلُ امرأتَهُ إلى فراشِهِ فَلْتُجِبْ وإنْ كانَتْ على ظهرِ قَتَبٍ»(١).

وقوله:

«إذا دعا الرّجلُ زوجتَه لِحاجتِهِ، فَلْتَأْتِهِ، وإنْ كانَتْ على التَّنُّورِ»(٢).

ذلك أن قضية إحصان الرجل وإبعاده عن الفتنة أهم من كل عمل تقوم به المرأة؛ لأن الإسلام يريد للرجل والمرأة على السواء أن يعيشا في جو، كلّه نقاء وصفاء وطهر وبعد عن أي أثارة من آثار الفتنة والتطلع إلى اللذة الحرام. ولا يطفىء سعار الشهوة، ويطرد خاطرة الجنوح إلى الحرام، إلاّ تفريغ الطاقة الطبيعية في مصرفها الحلال الطبيعي المشروع. وهذا ما أرشد إليه الرسول الكريم بقوله في الحديث الذي رواه مسلم عن جابر في باب النكاح:

«إذا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ المرأةُ، فَوَقَعَتْ في قَلْبِهِ، فَلْيَعْمَدْ إلى امْرَأَتِهِ، فَلْيُواقِعْها، فإنّ ذلكَ يَرُدُّ ما في نَفْسِهِ»(٣).

---

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٤/ ٣١٢.

(٢) حديث حسن صحيح رواه الترمذي ٢/ ٣١٤ أبواب الرضاع: ١٠، وابن حبان في صحيحه ٩/ ٤٧٣ كتاب النكاح.

(٣) صحيح مسلم ٩/ ١٧٨ كتاب النكاح: باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى =

ويزداد وعيد المرأة الساخط عليها زوجها، حتى يبلغ حداً، ينهلع له قلب كل زوجة تقيّة، ترجو الله واليوم الآخر، إذ لا تُقْبَلُ لها صلاةٌ، ولا ترتفع لها إلى السماء حسنة، حتى يرضى عنها زوجها، وذلك في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله، قال:

«قالَ رسولُ الله ﷺ: ثَلاثةٌ لا تُقْبَلُ لهمْ صلاةٌ، ولا تصعدُ لهمْ إلى السّماءِ حسنةٌ: العبدُ الآبِقُ حتى يرجعَ إلى مواليه، فيضعَ يدَه في أيديهم، والمرأةُ السّاخِطُ عليها زوجُها حتى يَرْضَى، والسكرانُ حتى يَصْحو»(١).

والمقصود بسخط الزوج على زوجته، حين يكون الزوج على حق، وهي على خلافه. أما حين تنعكس الآية، ويكون الزوج هو الظالم، فسخطه لا يضرّها بشيء، بل إن الله تعالى يثيبها على صبرها، وتبقى الزوجة مطالبة بمحاسنة زوجها وطاعته في غير معصية، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق في شرعة الإسلام، وفي ذلك يقول الرسول الكريم: «لا يَحِلُّ لِامْرأَةٍ تُؤْمِنُ باللّهِ أنْ تَأْذَنَ في بيتِ زوجِها وهو كارِهٌ، ولا تخرجَ وهو كارِهٌ، ولا تطيعُ فيه أحداً، ولا تعزلَ فِراشَهُ، ولا تَضْرِبَهُ. فإنْ كانَ هو أَظْلَمَ، فَلْتَأْتِهِ حتى تُرْضِيَهُ، فإنْ قَبِلَ منها فبِها ونِعْمَتْ، وقَبِلَ اللّهُ عُذْرَها، وأَفْلَجَ حُجَّتَها(٢)، ولا إِثْمَ عليها، وإنْ هوَ لم يَرْضَ، فقَدْ أَبْلَغَتْ عندَ اللّهِ عُذْرَها»(٣).

= أن يأتي امرأته.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ١٢/١٧٨ كتاب الأشربة: ٢ فصل في الأشربة.

(٢) أي أظهرها وقوّاها.

(٣) رواه الحاكم ٢/ ١٩٠ كتاب النكاح، وقال: صحيح الإسناد.

ومن طاعة الزوج وبرّه: ألاّ تصومَ زوجتُه في غير رمضان إلاّ بإذنه، ولا تأذنَ لأحد بدخول بيته إلاّ بإذنه ورضاه، ولا تنفق من كسبه إلاّ بإذنه. فإن أنفقت من غير أمره، فإن نصف أجر النفقة له، والمرأة المسلمة الواعية التقية تتقيّد بهذا الحكم الشرعي الذي قرره الرسول الكريم بقوله: «لا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أنْ تصومَ وزَوْجُها شاهِدٌ إلاّ بِإذْنِهِ، ولا تأذَنَ في بيتِهِ إلاّ بإذْنِهِ، وما أَنْفَقَتْ مِنْ نَفَقَةٍ عَنْ غيرِ أَمْرِهِ، فإنّه يُؤَدَّى إليه شَطْرُه»[١].

وفي رواية لمسلم: «لا تَصُم المرأةُ وبَعْلُها شاهِدٌ إلاّ بإذنِه، ولا تأْذَنْ في بيتِهِ وهو شاهدٌ إلاّ بإذْنِهِ. وما أَنفَقَتْ مِنْ كَسْبِهِ مِنْ غيرِ أَمْرِهِ، فإنَّ نصفَ أجْرِهِ لَهُ»[٢].

والمعوَّل في هذا كله على إذن الزوج ورضاه، فإن أنفقَتْ من ماله على سبيل الصدقة والتطوّع بغير إذنه ورضاه، فلا يكون لها أجرٌ، بل عليها وِزْرٌ. وإذا ما أرادت أن تنفق من ماله في غيابه، وعلمت أنه إذا اطلع على نفقتها أذن بها ورضي، جاز لها، وإلاّ فلا يجوز.

ذلك أن التفاهم والانسجام بين الزوجين لا يتحققان إلاّ في التنسيق بينهما في مثل هذه الأمور، بحيث لا يَلْحَقُ أحدَ الطرفين ضررٌ أو إزعاجٌ أو مضايقةٌ، مما يفسد صفاء الحياة الزوجية التي بناها الإسلام على المودة والرحمة، وأراد لها دوام الصفاء والرعاية والانسجام.

---

(١) فتح الباري ٩/٢٩٥ كتاب النكاح: باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلاّ بإذنه.

(٢) صحيح مسلم ٧/١١٥ كتاب الزكاة: باب أجر الخازن والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها.

أما إذا كان الزوج بخيلاً، يُقَتِّرُ عليها وعلى أولادها في النفقة، فلها أن تنفق من ماله على نفسها وعيالها بالمعروف ما يكفيهم بغير علمه. وقد صرَّح بذلك رسولُ الله ﷺ لهند بنت عتبة زوجة أبـي سفيان، إذ جاءته فقالت له: يا رسولَ الله، إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، وليس يُعْطيني ما يَكْفيني وولدي، إلاّ ما أخذتُ منه، وهو لا يعلمُ. فقال: «خُذي ما يَكْفيكِ وولدَكِ بالمَعْروف»[١]. وبذلك جعلها الإسلام مسؤولة عن حسن تصرفها في إدارة شؤون البيت بالمعروف.

والمرأة المسلمة الحصيفة تدرك مسؤوليتها التي كلّفها بها الإسلام في رعاية بيت زوجها وولده، إذ جعلها راعية على بيت زوجها وولده، وخصّها بالذكر في المسؤولية، تقديراً منه لها في تحمّلها هذه المسؤولية، وذلك في الحديث المتفق عليه الذي جعل الرسولُ فيه كلَّ فرد في المجتمع الإسلامي مسؤولاً عما في حوزته وتحت إدارته، بحيث لا يفلت من قبضة المسؤولية أحدٌ، سواءٌ أكان رجلاً أم امرأة:

«كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، الإمامُ راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرجلُ راعٍ في أهلِهِ ومَسْؤولٌ عن رَعِيّتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ في بَيْتِ زوْجِها ومَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ راعٍ ومُسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[٢].

والمرأة المسلمة الصادقة تتصف دوماً بالحنو على أولادها، وبالرعاية

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٩/ ٣٢٧ كتاب العدّة: باب نفقة الأولاد والأقارب.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/ ٦١ كتاب الإمارة والقضاء: باب الراعي مسؤول عن رعيته.

لزوجها، وهما صفتان جميلتان من أجمل ما تتجمّل به المرأة في كلّ زمان ومكان، وقد أشاد بهما الرسول الكريم مجسَّدتين في نساء قريش، اللواتي يمثلن ذؤابة نساء العرب في الحنو على الأولاد، ومراعاة حق الزوج في ماله وحفظه والأمانة فيه وحسن تدبيره في النفقة، وصيانته من الضياع:

«خيرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإبِلَ نِساءُ قُرَيْشٍ، أَحْناهُ على وَلَدٍ في صِغَرِه، وأَرْعاهُ على زَوْجٍ في ذاتِ يَدِهِ»(١).

إنها لشهادة ثمينة من الرسول الكريم تطوِّق أعناق نساء قريش بقِلادة من الفضائل النفيسة التي تزيدهنّ جمالاً وفضلاً وتألّقاً، وفي هذه الشهادة دعوةٌ لكل امرأة مسلمة أن تكون مثلهنّ في حنوّها على أولادها، وفي رعايتها لزوجها. فبهاتين الصفتين العظيمتين ينجح الزواج، ويسعد الفرد، وتنعم الأسرة، ويتقدم المجتمع.

وإنه لشرف للمرأة كبير أن تحفّ زوجها وتهتمّ بشؤونه وترعاه، في مصبحه وممساه، وفي متقلّبه ومثواه، وتعطيه من ذوقها ورقّتها وأنسها ما يملأ حياته بِشْراً وسعادة وطمأنينة وأمناً. وللمرأة المسلمة في السيدة عائشة أم المؤمنين أسوة حسنة، إذ كانت ترافق الرسول ﷺ في حجّه، وتحيطه بعنايتها ورعايتها، فتطيّبُه قبل إحرامه، وبعد إحلاله قبل أن يطوف طواف الإفاضة، تُطَيِّبُه بيدها، وتتخيَّرُ له أطيب ما تجد من الطيب. وقد صرّحَتْ بذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة، رواها البخاري ومسلم، ومنها قولها:

---

(١) انظر صحيح مسلم ١٦/ ٨١ كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل نساء قريش.

«طَيَّبْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ بِيَدي لِحُرْمِهِ حينَ أَحْرَمَ، ولِحِلّه حينَ أَحَلَّ قبلَ أنْ يطوفَ بالبَيْتِ»(١).

وقولها:

«طَيَّبْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ بِيَدَيَّ هاتَيْنِ حينَ أَحْرَمَ، ولِحِلِّهِ حينَ أَحَلَّ قبلَ أنْ يطوفَ، وبَسَطَتْ يَدَيْها»(٢).

وعن عُرْوَةَ قالَ: سألتُ عائشةَ رضي الله عنها: بأيِّ شَيْءٍ طَيَّبْتِ رسولَ الله ﷺ عندَ حُرْمِهِ، قالتْ: «بِأَطْيَبِ الطِّيبِ»(٣).

وفي رواية لمسلم عنها أيضاً: «طَيَّبْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ لِحُرْمِهِ حين أَحْرَمَ، ولِحِلِّهِ قبلَ أنْ يُفيضَ بأطيبِ ما وَجَدْتُ»(٤).

وكان الرسول ﷺ إذا اعتكف أدنى رأسَه، فترجّله السيدة عائشة، وتغسله. حكت ذلك الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها، ومنها قولُها:

«كانَ النبيُّ ﷺ إذا اعْتَكَفَ يُدْنِي إليَّ رَأْسَهُ فَأُرَجِّلُهُ، وكانَ لا يَدْخُلُ البيتَ إلاَّ لِحاجَةِ الإنْسانِ»(٥).

وقولُها:

(١) صحيح مسلم ٨/ ٩٩ كتاب الحج: باب استحباب الطيب قبل الإحرام.
(٢) فتح الباري ٣/ ٥٨٥ كتاب الحج: باب الطيب.
(٣) صحيح مسلم ٨/ ١٠٠ كتاب الحج: باب استحباب الطيب قبل الإحرام.
(٤) صحيح مسلم ٨/ ١٠٠ كتاب الحج: باب استحباب الطيب قبل الإحرام.
(٥) صحيح مسلم ٣/ ٢٠٨ كتاب الحيض: باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله.

«كُنْتُ أَغْسِلُ رَأْسَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وأَنا حائِضٌ»[١].

وتشتدّ السيدة عائشة في توصية النساء بأزواجهن، وبمعرفتهن حقوق أزواجهنّ عليهنّ، حتى إنها لترى هذه الحقوق من الضخامة والخطورة والأهمية ما يسوّغ للمرأة أن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحرّ وجهها، وذلك في حديثها الذي تقول فيه: «يا مَعْشَرَ النِّساءِ، لَوْ تَعْلَمْنَ بِحَقِّ أَزْواجِكُنَّ عليكنَّ، لَجَعَلَتِ المَرْأةُ منكنَّ تَمْسَحُ الغُبارَ عَنْ قَدَمَيْ زَوْجِها بِحُرِّ وَجْهِها»[٢].

إنه لتصوير معبِّر عن أهمية حق الزوج على المرأة، أرادت أم المؤمنين أن تقرِّب فيه إلى أذهان النساء مكانة حق الزوج على زوجته، وأن تستلّ من نفوس بعض النساء المستكبرات المستعليات على أزواجهنّ ذلك الشعور الجافي الغليظ النّشاز الذي كثيراً ما يودي بصرح الحياة الزوجية، أو يقلبها إلى جحيم لا يطاق.

إن برّ الزوج وإكرامه والحفاوة به خلق أصيل في أمتنا، وهو من مكارم الأخلاق التي كانت سائدة في الجاهلية وأقرّها الإسلام، وتوارثتها الأجيال العربية المسلمة. وقد وعى تراثنا العربـي نصوصاً بليغة في توصية الأمهات بناتهنّ برعاية الزوج وبرّه وإكرامه، تعدّ وثائق اجتماعية ثمينة راقية.

ومن أبرزها وأجملها ما رواه عبد الملك بن عمير القرشي، وهو من رجال القرن الثاني الهجري، وكان من أوعية المعرفة والعلم، عن أُمامَة بنت

---

(١) فتح الباري ١/٤٠٣ كتاب الحيض: باب مباشرة الحائض، وصحيح مسلم ٣/٢٠٩ كتاب الحيض: باب جواز غسل الحائض رأس زوجها.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، والبزار بإسناد جيد، رواته ثقات مشهورون. انظر أحكام النساء لابن الجوزي ص ٣١١.

الحارث، وهي من ربّات الفصاحة والبلاغة والرأي والعقل. فقد روى وصيتها لابنتها وهي على أبواب الزواج، بهذه الصيغة الرائعة، الجديرة بأن تكتب بمداد من ذهب.

قال: لما زوّج عوف بن محلِّم الشيباني، وكان سيّداً مُطاعاً من أشراف العرب في الجاهلية، ابنته أمّ إياس من الحارث بن عمرو الكندي، فَجُهِّزَتْ وحُضِّرَتْ لِتُحمَلَ إليه، دخلت عليها أمُّها أُمامةُ لتوصيها، فقالت:

يا بُنَيّة، إنّ الوصية لو تُرِكَتْ لفضلٍ في الأدب، أو مَكْرُمَةٍ في الحَسَب، لَتُرِكَتْ لذلك منكِ، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

أي بُنَيّة، لو استَغْنَتِ المرأةُ عن زوجها بِغِنَى أبيها وشدّة حاجتها إليه، لكنتِ أغنى الناس عنه، ولكنّ النساء خُلِقْنَ للرجال، كما لهنّ خُلِقَ الرجال.

أي بُنَيّة، إنكِ قد فارقتِ الجوَّ الذي منه خرجتِ، والعُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لم تعرفيه، وقَرِينٍ لم تألفيه، فأصبح بِمَلْكِهِ عليكِ مليكاً، فكوني له أَمَةً يكنْ لكِ عبداً.

اِحْملي عني خصالاً عشراً، تكنْ لكِ ذخراً وذكراً:

أما الأولى والثانية: فالصحبة له بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة؛ فإنّ في القناعة راحةَ القلب، وفي حسن السمع والطاعة رضا الربّ.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقّد لموضع أنفه، والتعهد لموضع عينه، فلا تقع عينُه منكِ على شيء قبيح، ولا يَشَمُّ أنفُه منكِ إلاّ أطيبَ ريح. وإنّ الكحلَ أحسنُ الحسن الموجود، والماءَ أطيبُ الطِّيب المفقود.

وأما الخامسة والسادسة: فالتعهّد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبَةٌ، وتنغيصَ النومِ مَغْضَبَةٌ.

وأما السابعة والثامنة: فالإرعاء على حشمه وعياله، والاحتفاظ بماله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على الحشم والعيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشي له سرّاً، ولا تعصي له أمراً؛ فإنكِ إنْ أَفْشَيْتِ سِرَّه، لم تأمني غدرَه، وإنْ عَصَيْتِ أمرَه، أَوْغَرْتِ صدرَه.

ثم اتّقي يا بنيّة الفرح لديه إذا كان تَرِحاً، والاكتئاب إذا كان فَرِحاً؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.

وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظاماً، يكن أشدَّ ما يكون لكِ إكراماً، وأشدَّ ما تكونين له موافَقَة، يكن أطولَ ما تكونين له مرافَقَة.

واعلمي يا بنيّة أنكِ لن تصلي إلى ما تحبين منه حتى تؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ، فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يَخيرُ لك ويحفظكِ[1].

وحُمِلَتْ إليه، فعظم موقعها عنده، وولدت له الملوك الذين ملكوا بعده.

وواضح أن هذه الوصية جامعة شاملة كل ما يخطر على البال، مما تحتاج إليه الفتاة في حياتها الزوجية من مكارم الأخلاق، وحسن العشرة، وذكاء التصرف والتعامل، ومن هنا صلحت أن تكون دستوراً لكل فتاة مقبلة على الزواج.

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ١٤٥.

والمرأة المسلمة التقيّة الواعية، إن كانت غنيّة لا تعشي بصرها فتنة المال والغنى والاستقلال الاقتصادي الذي تتمتّع به، بل تبقى راعيةً حقوقَ زوجها، محسنةً عشرتَه، مهما درّت عليها أخلاف الرزق، ومهما بلغت من السعة والغنى، وتعرف واجب الشكر عليها لله عز وجل على ما أعطاها من جزيل نعمه، وتكثر من الصدقة تبتغي بها وجه الله عز وجل، وأولُ مَنْ تخصُّ بعطائها السَّجْحِ المُغْدِقِ زوجُها، إن كان معسراً، فيكون لها بذلك أجران، أجر القرابة وأَجر الصدقة، كما قرّر رسول الله ﷺ في الحديث الذي روته زينب الثقفيّة، امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قالت:

«قال رسول الله ﷺ: تصدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النّساءِ، ولَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ». قالَتْ: فرجعتُ إلى عبد الله بن مسعود، فقلتُ: إنكَ رجلٌ خفيفُ ذاتِ اليَدِ، وإنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَنا بِالصَّدقَةِ، فَائْتِهِ، فَاسْأَلْهُ، فإنْ كانَ ذلك يُجْزِيءُ عنّي، وإلاَّ صرفتُها إلى غيرِكمْ. فقالَ عبدُ الله: بَلِ ائْتِهِ أَنْتِ. فَانْطَلَقْتُ، فإذا امرأةٌ من الأنصار ببابِ رسولِ الله ﷺ مثلُ حاجتِها حاجتي، وكانَ رسولُ الله ﷺ قد أُلْقِيَتْ عليه المَهابَةُ، فَخَرَجَ علينا بلالٌ رضي الله عنه، فقُلْنا له: ائْتِ رسولَ الله ﷺ، فأَخْبِرْهُ أنّ امرأَتَيْنِ بالباب يَسْألانِكَ: أَتُجْزِىءُ الصَّدَقَةُ عنهما على أزواجهما وعلى أيتامٍ في حُجورِهما؟ ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نحنُ. قالَتْ: فدخلَ بلالٌ على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: مَنْ هُما؟ فقالَ: امرأةٌ من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّ الزَّيانِب؟» قال: امرأةُ عبدِ الله بن مسعود، فقال رسول الله ﷺ: «لهما أَجْرانِ: أَجْرُ القَرابَةِ، وأَجْرُ الصَّدَقَةِ»[1].

(١) فتح الباري ٣/٣٢٨ كتاب الزكاة: باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر، وصحيح مسلم ٧/٨٦ كتاب الزكاة: باب الزكاة على الأقارب.

وفي رواية للبخاري: «زوجُكِ وَوَلَدُكِ أحقُّ مَنْ تصدّقتِ بهِ عليهمْ»(١).

إن المرأة المسلمة الواعية تتنبّه دوماً للشكر على النعمة إن غمرتها السّرّاء، ولا يخونها الصبر إن مسَّتْها الضّرّاء، ولا يغيب عنها تحذير الرسول ﷺ للنساء عامة، إذ رأى أكثر أهل النار من النساء، فتستعيذ بالله أن تكون منهنّ، وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يا مَعْشَرَ النِّساءِ، تَصَدَّقْنَ، فإني رأيتكنَّ أَكْثَرَ أهْلِ النّارِ. فقلن: وبِمَ ذلك يا رسول الله؟ قالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتَكْفُرْنَ العَشِيرِ»(٢).

وفي رواية للبخاري أيضاً: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحسانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ، ثمّ رَأَتْ منكَ شيئاً، قالت: ما رأيتُ منكَ خيراً قطُّ»(٣).

وفي رواية لأحمد: «قالَ رجلٌ: يا رسولَ الله، أَوَلَسْنَ أُمّهاتِنا وأَخَواتِنا وأَزْواجَنا؟ قالَ: بلى، ولكنهنَّ إذا أُعْطِينَ لَمْ يَشْكُرْنَ وإذا ابْتُلِينَ لَمْ يَصْبِرْن»(٤).

والمرأة المسلمة الراشدة التقيّة، إذ تتأمل هذه الأحاديث الصحاح التي تقرر مصير معظم النساء في الآخرة، تبقى في حذر دائم من الوقوع في إثم كفران العشير، وكثرة اللعن، وجحود الإحسان، ونسيان الشكر في السّرّاء،

---

(١) فتح الباري ٣/ ٣٢٥ كتاب الزكاة: باب الزكاة على الأقارب.

(٢) فتح الباري ٣/ ٣٢٥ كتاب الزكاة: باب الزكاة على الأقارب، وصحيح مسلم ٢/ ٦٥ كتاب الإيمان: باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات. والعشير: الزوج.

(٣) فتح الباري ١/ ٨٣ كتاب الإيمان: باب كفران العشير.

(٤) رواه أحمد ٣/ ٤٢٨، ورجاله رجال الصحيح.

وفقدان الصبر في الضَّرَّاء، وتسارع في كل حين إلى الصدقة التي حضَّ الرسول ﷺ النساءَ كافة عليها، رجاء إنقاذهنّ من ذلك المصير المخيف الذي تتهاوى إليه معظم النساء الشاردات اللاهيات عن ذكر الله واليوم الآخر، والمُتَّصِفات بتلك الصفات الذميمة التي أودت بهنّ في النار. بل إن المرأة المسلمة الراشدة تضرب المثل الأعلى في تقدير الزوج، والتنويه بفضائله، وذكر شمائله، ونشر محاسنه. وهذا هو الوفاء الخليق بالمرأة المسلمة الوفيّة التي تحترم الحقوق، ولا تنسى الفضل لصاحبه.

وفي تاريخ المرأة المسلمة مواقفُ خالدة تنضح بالوفاء والاعتراف بالفضل وذكر الشمائل الرفيعة للزوج. ومنها ما وعاه التاريخ عن أسماء بنت عُمَيْس، وهي إحدى عظيمات النساء في الإسلام، من السابقات المهاجرات النجيبات، وكانت لجعفر بن أبـي طالب، ثم لأبـي بكر الصديق من بعده، ثم خلفهما علي، رضي الله عنهم أجمعين، فتفاخر مرة ولداها محمد بن جعفر، ومحمد بن أبـي بكر، كلٌّ يقول: أنا أكرم منك، وأبـي خيرٌ من أبيك، فقال لها علي: اقضي بينهما يا أسماء، فقالت: ما رأيتُ شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيتُ كهلاً خيراً من أبـي بكر. فقال علي: ما تركتِ لنا شيئاً، ولو قلتِ غير الذي قلتِ لَمَقَتُّكِ! فقالت أسماء: إن ثلاثةً أنتَ أقلُّهم لَخِيار»[١].

فيا لَرجاحَةِ العَقْلِ! ويا لَفِطْنَةِ الإجابة! ويا لَلَّبَاقَةِ في التعبير! لقد أعطت كُلاًّ من أزواجها ما يستحق من التقدير، وأرضت علياً، وإن كان أقلَّهم، إذ أدخلتهم جميعاً في زمرة الخيار.

---

(١) الطبقات الكبرى ٧/٢٠٨ ــ ٢٠٩.

تَبَرُّ أُمَّهُ وتُكْرِمُ أَهْلَهُ:

ومـن بـرّ الزوجة المسلمة الحصيفة وحسن معاشرتها زوجَها: إكرامُ أمّه واحترامُها وتقـديرُها؛ ذلك أن المرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها تدرك أن أعظم الناس حقـاً على الرجل أمُّه، كما رأينا في حديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنهـا السالف الذكر، فهي تعينُه على إكرام أمّه وبرّها، بإكرامها هي أيضاً لأمـه وبرّها، وبذلك تكون محسنةً لنفسها، ومحسنةً لزوجها، ومعينةً على البرّ والتقوى والعمل الصالح الذي أمر به القرآن الكـريم، وتكـون في الـوقت نفسه امـرأةً حبيبةً إلى قلب زوجها، الذي يقدّر إكرامها وبرّها لأهله عامة، ولأمه خاصة، إذ ما من شيء أثلج لقلب الرجـل البرّ الكريم الشهم من أن يـرى أواصـر الـودّ والاحـترام والتقدير والتواصل معقودةً بين زوجه وأهله، ومـا من شيء أبغض لقلب الرجل الكريم من أن يرى تفكّك تلك الأواصر وتقطّعها، واستحكام الشرّ والبغض والحقـد والضغيـنة والكيـد بـين زوجه وأهله. والأسرة المسلمة التي استروحت عبير الإيمان بالله، واستضاءت عقـول أفـرادها وقـلوبهم بهَدْي الإسلام الحنيف، بعيدة كلّ البعد عن الارتكاس في حمأة هـذه الخلائق الجاهلية التي تُعَشِّش عادةً في البيئات البعيدة عن هَدْي الله وتعاليم دينه الحق القويم.

وقد تُبْتَلَى الزوجة المسلمة بِحَماةٍ[١] أو بأحماء ليسوا على خلق حسن، فواجبها في مثل هذه الحالة أن تحسن التعامل معهم بشيء غير قليل من اللباقة والكِياسة والمجاملة والتلطّف والدفع بالتي هي أحسن، بحيث تحفظ

---

(١) هي أم الزوج، والأحماء: أهل الزوج عامة.

التوازن في صِلاتها بأحمائها وزوجها، وتجنّب نفسَها وحياتها الزوجية أيّ أثر قد ينعكس عليهما من اختلال ذلك التوازن.

ولا تحسبنّ المرأة المسلمة أنها هي المطالبة وحدها في برّ الزوج ورعايته وحسن معاشرته، وأن لا شيء من هذا على الزوج، ولا تثريبَ عليه إن هو أساء العشرة أو قصّر في القيام بواجبات الزوجية.

إن الإسلام العظيم الذي نظّم العلاقة الزوجية جعل لكلٍّ من الزوج والزوجة حقوقاً، وجعل عليهما واجبات. وواجبات الزوجة نحو زوجها وإكرامه ورعايته تقابلها حقوقُها على زوجها، وإنها لحقوق تصون كرامتها، وتحفظ شخصيتها من كل عبث أو إهمال أو امتهان أو ظلم. وحقوقها هذه واجبات على الزوج نحو زوجته، عليه أن يحترمها ويتقيد بها ويقوم بتطبيقها وتنفيذها على الوجه الأكمل.

فمن واجب الزوج المسلم أن يحسن القِوامة على زوجته، ولا يتحقّق له هذا الإحسان إلاّ إذا كان رجلاً ناجحاً في قيادته لبيته وأسرته، بما اتصف به من صفات رجولية محبَّبة للمرأة، كقوّة في الشخصية من غير عنف، ولينٍ في الجانب من غير ضعف، وخلقٍ عالٍ نبيل، وسماحةٍ، وإغضاءٍ عن الهفوات، وقيادةٍ بارعة حكيمة لَبِقَة لدفّة الحياة الزوجية، وبذلٍ وسخاء في غير سرف ولا تبذير، واحترامٍ لمشاعر الزوجة وإشعارها بالمسؤولية معه في تدبير شؤون البيت، وتربيةِ الأطفال، والتعاونِ على بناء الأسرة المسلمة الراقية، كما أراد لها الإسلام أن تكون.

تَتَوَدَّدُ لِزَوْجِها وتَحْرِصُ على رِضاهُ:

والمرأة المسلمة التقية الحصيفة تتودّد دوماً لزوجها، وتحرص على أن

يكون سعيداً راضياً، لا ينغّص عيشه منغِّص، ولا يكدِّر سعادته مكدِّر، فتسمعه الكلام الطيب المفرح، وتمسك عن الكلام الجارح المؤذي المكدِّر، وتزجي إليه الأنباء السارّة، وتزوي عنه الأخبار المحزنة، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، أو تؤجلها إلى وقت مناسب يخف فيه وقعُها عليه. وإذا لم تجد مناصاً من إخباره بما يزعجه ويكدِّر نفسه من أنباء، فإنها تتلمّس السبل والأساليب المناسبة للدخول بها إلى نفسه، والتمهيد لها، كيلا يكون وقعها على نفسه شديداً. وهذا من حسن التأتّي ورجاحة العقل وذكاء التصرّف الذي تتحلّى به المرأة النابهة الرشيدة، وإنه لَمرتقىً صعبٌ، لا تدركه إلاّ القلّة النادرة من فضليات النساء.

وقد بلغت قمة هذا المرتقى المرأةُ المسلمة العظيمة أم سُلَيْم بنت مِلْحان، زوجة أبي طلحة الأنصاري. فقد فُجِعَت بابنها، وكان أبو طلحة مسافراً، فكان لها هذا الموقف الفريد لولا ثبوتُه في صحيح مسلم لعددناه من الأساطير. وَلْنَسْتَمِـعْ إلى ابنها أنس بن مالك يحكي قصة أمه العجيبة وموقفها الفريد، قال:

«مات ابنٌ لأبي طلحة من أم سُلَيْم، فقالَتْ لأهلها: لا تُحدِّثوا أبا طلحة بابْنِه حتى أكونَ أنا أحدِّثُه. قال: فجاء فقرّبتْ إليه عَشاءً، فأكل وشرب. قال: ثم تصنَّعتْ له أحسن ما كانَ تَصَنَّعُ قبلَ ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع، وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريَتَهُمْ أهلَ بيت، فطلبوا عارِيَتهم، أَلَهُمْ أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحْتَسِبْ ابنَكَ. قال: فغضبَ، وقال: تركتني حتى تلطَّختُ، ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك اللَّهُ لكما في غابِرِ لَيْلَتِكُما». قال: فحملَتْ، قال:

فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يَطْرُقُها طُروقاً، فَدَنَوْا من المدينة، فضربها المخاضُ، فاحتبس أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ. قال: يقول أبو طلحة: إنك تعلم يا ربِّ أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخلَ معه إذا دخل. وقد احتَبَسْتُ بما ترى. قال: تقول أم سُلَيْم: يا أبا طلحة، ما أَجِدُ الذي كنتُ أَجِدُ. انطلقْ، فانطلقنا. قال: وضربَها المخاضُ حين قَدِما، فولدَتْ غلاماً، فقالت لي أمي: يا أنس، لا يُرْضِعْهُ أحدٌ حتى تَغْدُوَ به على رسول الله ﷺ، فلما أصبح احتملْتُه، فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادَفْتُه ومعه مِيسَمٌ، فلما رآني قال: «لعلَّ أمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ» قلتُ: نعم، فوضع المِيسَم. قال: وجئتُ به، فوضعتُه في حَجْرِهِ، ودعا رسول الله ﷺ بِعَجْوَةٍ من عَجْوَةِ المدينة، فلاكها في فِيهِ حتى ذابَتْ، ثم قذفها في في الصبـيِّ، فجعل الصبـيُّ يتلمّظُها. قال: فقال رسول الله ﷺ: «انْظُروا إلى حُبِّ الأَنْصارِ التمرَ». قال: فمسح وجهه، وسمّاه عبد الله»(١).

لِلَّهِ أنتِ يا أمَّ سَلَيْم! ما أعظمَ إيمانَكِ! وما أروعَ صَبرَكِ! وما أكبرَ فضلَكِ! وما أحسنَ تَجَمُّلَكِ لزوجكِ وتَوَدُّدَكِ له! كيف استطعتِ أن تبتلعي مرارةَ حزنكِ على فِلْذة كبِدكِ؟ وكيف تماسكَتْ نفسُكِ الثَّكْلَىٰ الوَلْهَىٰ المُلَوَّعةُ على الفقيد الحبيب، وأنتِ تقضين تلك اللحظات مع زوجكِ صابرةً محتسبةً، تبتغين بصبركِ واحتسابكِ وحسنِ تَبَعُّلِكِ زوجَكِ مرضاةَ الله عز وجلّ؟! إنه الإيمان الحق الصادق العميق.

واستجاب الله دعاء الرسول لكِ ولزوجكِ، فحملتِ من ليلتكِ تلك،

---

(١) صحيح مسلم ١١/١٦ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أم سليم.

ولما أثقلك الحمل رأيتِ زوجكِ أبا طلحة يتجهّز لغزوة جديدة مع رسول الله ﷺ، فأبيتِ إلاَّ أن يكون لكِ معه شرف الجهاد في صحبة رسول الله ﷺ، وأنتِ حامل في شهوركِ الأخيرة، وأشفق عليكِ زوجكِ من حزونة الطريق، ووعثاء السفر، ولأواء المسير، وصعوبة المركب، ولهب الرمضاء، فاستأذن الرسول ﷺ في خروجكِ معه، فأذِن لكِ لما كان يعلم من قوّة شكيمتكِ وحبكِ للجهاد.

وشهدتِ عرس الإسلام بفتح مكة، ثم محنة المسلمين في حنين، وثبتِّ كالطود الأشمّ مع زوجكِ وثلّة من المؤمنين حول رسول الله ﷺ، وأنت حامل، في الوقت العصيب الذي وَلَّى فيه كثير من الأبطال مدبرين! حتى تنزّل الله بنصره على رسوله والمؤمنين.

وآب الجيش المجاهد إلى المدينة، حتى إذا اقترب منها ضَرَبَكِ المخاضُ، وأَحْسَسْتِ بآلام شديدة، فاحتبسْتِ وزوجك قليلاً، ولكن زوجك ناجى ربه في هَدْأة الليل أنه يحب الخروج مع رسول الله ﷺ والدخول معه، فإذا بآلام المخاض تزول عنكِ، وتخبرين زوجكِ بذلك، وتنطلقان في إثر الجيش المتقدم، وتدركانه، وبعد الوصول إلى المدينة يضربك المخاض ثانية، وتضعين غلاماً، يحمله أخوه لأمه أنس إلى رسول الله ﷺ، فيُحنِّكُهُ، ويسميه عبد الله، وتتحقق بركة دعوة رسول الله ﷺ في هذا المولود، إذ جاء من نسله عشرة رجال علماء أخيار.

لا جرمَ أن الله علم صدق إيمانكِ، فجاءتك البشرى على لسان رسوله ﷺ بالجنة:

«دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فقلتُ مَنْ هذا؟ قالوا: هذه الغُمَيْصاءُ

بنتُ مِلْحان، أمُّ أَنَسِ بنِ مالِكٍ»[١].

ومن المواقف الذكية المحبَّبة في تودّد المرأة المسلمة لزوجها: ما قالته أمّ المؤمنين السيدة عائشة للنبي ﷺ حين عودته إلى نسائه بعد أن اعتزلهن شهراً، وكان قد قال: «ما أنا بداخل عليهنّ شهراً» من شدة موجدته عليهنّ. فلما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة، فبدأ بها، فقالت له عائشة: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنا أصبحنا بتسع وعشرين ليلةً، أعدّها عدّاً. فقال النبي ﷺ: «الشهر تسع وعشرون»، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين[٢].

ففي قول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: إنا أصبحنا بتسع وعشرين ليلةً، أعدّها عدّاً، تعبيرٌ موحٍ بتعلق قلب الزوجة المحبّة الودود بزوجها، وترقّب عودته إليها ليلةً ليلةً، وساعةً ساعةً، وفيه توددٌ وتحبّبٌ واستمالةٌ لقلب الزوج المحب المشتاق، إذ بدأ بها قبل غيرها من نسائه.

والمرأة المسلمة الحصيفة الودود تتعرّف على ميول زوجها ورغباته وعاداته، وتعمل على مراعاتها، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ابتغاء التفاهم والانسجام في مسيرة الحياة الزوجية، ودفعاً للسّأم والتذمر من رتابتها، وهذا ما تفعله كل امرأة ذكية واعية نابهة؛ فقد رُوِيَ عن شُرَيْح القاضي الفقيه أنه تزوج امرأة من بني حنظلة، وفي ليلة الزفاف صَلَّى كلٌّ من الزوجين ركعتين،

---

(١) انظر صحيح مسلم١٦/ ١١ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أم سليم.

(٢) من حديث طويل في البخاري ومسلم. انظر فتح الباري ٥/ ١١٦ كتاب المظالم: باب الغرفة والعلّية المشرفة، وصحيح مسلم ٧/ ١٩٥ كتاب الصيام: باب بيان أن الشهر يكون تسعاً وعشرين.

وسألا الله لهما الخير، ثم أقبلت الزوجة على شُرَيْح قائلة: إني امرأة غريبة، لا علم لي بأخلاقِكَ، فبيِّنْ لي ما تحبّ فآتيه، وما تكره فأبتعد عنه... ويقول شُرَيْح: مكثَتْ معي عشرين سنة، لم أعتب عليها في شيء، إلاَّ مرة واحدة كنت لها ظالماً.

هذه هي الزوجة البَرَّة الودود التي يريدها الإسلام، راعيةً لبيتها، وفيّة لزوجها، حريصةً على دوام العشرة بينهما. وإذا ما هبّت على حياتهما الزوجية رياح مكدِّرة سارعت إلى تنقية الجو بالتودّد الصادق والتفاهم الحكيم، ولا تسمع إلى وسوسات الشيطان ونزغات النفس الأمّارة بالسوء، فتسارع إلى طلب الطلاق من زوجها؛ ذلك أن عقدة الزوجية أجل وأكبر من أن تنفصم عُراها لخلاف عارض أو سوء تفاهم ناشز، ولذلك توعّد الرسول ﷺ المرأة الخفيفة الطائشة الحمقاء المُسارِعة إلى طلب الطلاق من زوجها لغير ما سبب شرعي قاهر بحرمانها من رائحة الجنة، إذ قال:

«أيُّما امْرأَةٍ سَأَلَتْ زوجَها طَلاقَها مِنْ غيرِ بَأْسٍ[1] فحرامٌ عليها رائِحةُ الجَنَّةِ»[2].

لا تُفْشي له سِرّاً:

والمرأة المسلمة التقيّة الحَصان لا تنشر سرّ زوجها، ولا تتحدث إلى أحد بما يكون بينه وبينها من أعمال وأسرار؛ ذلك أن المرأة المسلمة الواعية الجادّة أكبر وأرفع من التدنّي إلى مستوى الاستهتار والمجون والخوض في

---

(١) أي عذر شرعي أو سبب قوي.

(٢) حديث حسن صحيح، رواه الترمذي ٣٢٩/٢ أبواب الطلاق: ١١، وابن حبان ٤٩٠/٩ كتاب النكاح: باب معاشرة الزوجين.

الأحاديث الرخيصة التافهة التي تكون في البيئات المتدنّية، وإن وقتها لأثْمَنُ من أن يضيع في مثل هذه الأعمال الوضيعة التي لا تصدر إلاَّ عن الفارغين والفارغات والتافهين والتافهات. ومن هنا هي تربأ بنفسها أن تكون من هذا النمط من الناس الذين وصفهم رسول الله ﷺ بشرّ الناس في قوله:

«إنَّ مِنْ شَرِّ النّاسِ عندَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يومَ القِيامَةِ الرّجلَ يُفْضي إلى امرأتِه وتُفْضي إليه، ثم يَنْشُرُ أَحدُهما سِرَّ صاحِبِه»(١).

إن التحدّث بما يكون بين الرجل والمرأة من أبشع إفشاء الأسرار، ولا يرتكبه إلاَّ الأشرار من الناس. وهناك أسرار ليس إفشاؤها في هذه الدرجة من القبح والاستهجان، ولكنه إفشاء مكروه مستنكَر على كل حال؛ لأن حفظ السرّ في حد ذاته من الفضائل والكمالات، وإفشاءه من المثالب والأخطاء والعيوب التي لم يسلم منها بشر إلاَّ المعصوم ﷺ. ولقد أدّى إفشاء الحديث الذي أسرّه النبـي ﷺ إلى حفصة، فنقلته إلى عائشة، وما تبع ذلك من تآمر ومكايدات في بيت الرسول ﷺ إلى اعتزال النبـي ﷺ نساءَه شهراً من شدة مَوْجدَتِهِ عليهنّ(٢). وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾(٣).

---

(١) صحيح مسلم ١٠/٨ كتاب النكاح: باب تحريم إفشاء سر المرأة، والترغيب والترهيب ٣/ ٨٦ كتاب النكاح: باب الترهيب من إفشاء السر بين الزوجين.

(٢) روى حديث اعتزال النبـي ﷺ نساءه البخاري ومسلم وغيرهما. انظر فتح الباري ٥/ ١١٦ كتاب المظالم: باب الغرفة والعلّية المشرفة و ٨/ ٦٥٦ كتاب التفسير: سورة التحريم، وصحيح مسلم ٧/ ١٩٥ كتاب الصيام: باب بيان أن الشهر يكون تسعاً وعشرين.

(٣) التحريم: ٣.

ثم يواجه المرأتين بخطئهما، ويدعوهما إلى التوبة، لتعود قلوبهما إلى الله، بعد أن بعدت عنه بما كان منهما، وإلاَّ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة:

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾(١).

ثم يشنّ عليهنّ حملة شعواء وتهديداً رعيباً مخيفاً بفقدانهنّ شرف الاقتران برسول الله ﷺ، إن أصْرَرْنَ على أَخْطائِهنَّ:

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾(٢).

إن في هذا الحادث لَتوجيهاً بليغاً للمرأة المسلمة بقيمة حفظ المرأة سرّ زوجها، وأثر هذا الحفظ في استقرار النفوس والضمائر والبيوت. ولقد كان من نعمة الله الكبرى على المسلمين بخاصة، وعلى البشرية بعامة، أن جعل حياة الرسول ﷺ الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمته وللبشرية كلها، تقرأ فيه قِيمَ هذه العقيدة، وترى تطبيقاتها العملية في واقع الحياة. ومن هنا لم يكن فيها سرٌّ مخبوءٌ، ولا سِترٌ مطويٌّ، بل تُعْرَضُ في القرآن والسنة الحوادثُ والأحوال التي يطويها الناسُ عادةً في حياتهم العادية، ويحرصون على كتمانها، حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر، تعرضها نصوص الإسلام للناس، ليتعلموا منها الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والرشد من الغيّ.

---

(١) التحريم: ٤.

(٢) التحريم: ٥.

ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أن حياة الرسول ﷺ كلها لله لدعوته، فعلامَ يطوون جانباً من حياته أو يكتمونه؟ وأن الوقائع المرويّة عنه ي حياته وبيته وأزواجه هي التطبيق العملي لما يأمرهم به بلسانه، ولذلك نلوا للناس ـــ جزاهم الله خيراً ـــ أدقَّ تفصيلات حياته ﷺ، فلم يغادروا سغيرةً ولا كبيرةً في حياته اليومية العادية إلاَّ سجلوها ونقلوها، وكان هذا لرفاً من قَدَرِ الله في تسجيل حياة هذا الرسول المصطفى، أو تسجيل دقائق مقيدة الإسلام مطبّقةً في حياته ﷺ، وكان هذا إلى جانب ما حكاه القرآن لكريم من حياة الرسول ﷺ السجلَّ الباقي للبشرية ما دامت السموات رالأرض.

تقِفُ إلى جانبِهِ وتُشارِكُهُ الرَّأْيَ:

لقد كان من سنن الله في هذه الحياة أن يقوم الرجل والمرأة معاً بعمارة هذا الكون وتصريف شؤون الحياة فيه، لا غنى للرجل عن المرأة، ولا غنى للمرأة عن الرجل. ومن هنا جاءت تشريعات الإسلام وتوجيهاته بالتعاون بينهما في كل شيء؛ فقد حضّ الإسلام الرجل على معاونة زوجه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان رسول الله ﷺ، وهو قدوة المسلمين طُرّاً، في مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة، كما تقول أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها[١].

وكما كان الرجل في الإسلام يجاذب المرأة أمر العمل وتدبير المنزل، كذلك كانت المرأة تجاذبه شؤون العالم وجدّ الحياة بالقول والرأي والعمل.

---

(١) انظر فتح الباري ٢/ ١٦٢ كتاب الأذان: باب من كان في حاجة أهله.

فقد حدثنا التاريخ عن المرأة المسلمة من النساء المجاهدات، أنها سارت مع الرجل جنباً إلى جنب في الغزوات والمعارك، تروي العِطاش، وتأسو الجراح، وتجبر الكسر، وترقأ الدم، وتثير الحمية، وتهيج الحفيظة، وربما غشيت غمار الحرب، واصطلت بنارها، وصالت وجالت بين السيوف والقنا، وثبتت حين فرّ بعض الأبطال، وكان لها مواقف صادقات أثنى عليها رسول الله ﷺ، مما تقدم بيانه في الفصول السابقة من هذا الكتاب[١].

ولم تقتصر مساهمة المرأة المسلمة في الحياة العامة على مساندة الرجل في الحرب، بل وقفت إلى جانبه أيضاً في السِّلْم، تمدّه بالرأي السَّديد، وتثبّت جنانه وقت الشدّة، وتشدّ عضده في الموقف العصيب.

ولقد وعى التاريخ أسماء عديد من الرجال العظماء في الإسلام، كانوا يستمعون إلى مشورة زوجاتهم، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، إذ كان يصدر أحياناً عن رأي خديجة وأم سَلَمة وعائشة وغيرهنّ من أزواجه، وكان عبد الله بن الزبير يصدر عن رأي أمه أسماء، ويصدر الوليد بن عبد الملك عن رأي زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، والرشيد يصدر عن رأي زوجه زبيدة، وغيرهم في تاريخ الإسلام كثير.

ذلك أن المرأة المسلمة الواعية الراشدة تدرك ضخامة المسؤولية التي ألقاها الإسلام على عاتقها، إذ كلّفها بحسن تبعّل زوجها، وإحاطته بكلّ ما يرضي بشريته، ويغذّي قلبه، ويمتع وجدانه، ويجدّد نشاطه، ويجعله قادراً على أداء رسالته في الحياة. ومن هنا كانت لا تضنّ عليه برأي حين تراه

---

(١) انظر ص ٦٦ ــ ٨٦.

بحاجة إلى هذا الرأي، ولا تتوانى عن الوقوف إلى جانبه، تشجّعه، وتثبّته، وتواسيه، وتشير عليه.

ولقد كانت المرأة المسلمة الأولى أم المؤمنين خديجة بنت خُوَيْلِد المثال الأمثل للمرأة المؤثّرة في حياة زوجها؛ إذ جاءها الرسول الكريم يوم نزل عليه الوحي فزعاً مضطرباً، ترجف بوادِرُه[١]، وترتعد أوصاله، وهو يقول: زَمّلوني زمّلوني، فهبَّتْ من فورها لمساندته والوقوف إلى جانبه بالرأي والعمل والتدبير والتشجيع. ولْنَستمِعْ إلى أم المؤمنين السيدة عائشة، تحكي لنا قصة بدء نزول الوحي على الرسول ﷺ، وصنيع خديجة الرائع، وموقفها الأمثل من الرسول الكريم، كما رواها البخاري ومسلم، قالت:

«كانَ أولَ ما بُدِىءَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقةُ في النَّوْمِ، فكان لا يرى رُؤْيا إلاَّ جاءَتْ مثلَ فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكانَ يخلو بغار حِراءٍ يتحنَّثُ فيه، وهو التعبُّدُ، اللّياليَ أُولاتِ العدد قبل أن يرجعَ إلى أهله، ويتزوّدُ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجةَ، فيتزوّدُ لمثلها، حتى فَجِئَهُ الحقُّ، وهو في غار حِراء، فجاءه المَلَكُ، فقال: اِقْرَأْ، قال: ما أنا بقارىءٍ، قالَ: فأَخَذَني فغطّني[٢] حتى بلغ منّي الجَهْدَ، ثم أرسلني، فقال: اِقْرَأْ، قال: قلتُ: ما أنا بقارىءٍ، قال: فأخذني فغطّني الثانيةَ حتى بلغ منّي الجَهْدَ، ثم أرسلني فقال: اِقْرَأْ، فقلتُ: ما أنا بقارىءٍ، فأخذني فغطّني الثالثةَ حتى بلغ منّي الجَهْدَ، ثم أرسلني فقال: «اِقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ، اِقْرَأْ، ورَبُّكَ الأكْرَمُ الذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ».

---

(١) البَوادِر: جمع بادِرَة، وهي اللحمة بين المنكب والعنق.

(٢) أي عصرني وضمّني.

فرجع بها رسول الله ﷺ، ترجُفُ بوادِرُهُ[١]، حتى دخل على خديجة، فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني[٢]، فَزَمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، ثم قالَ لخديجةَ: أَيْ خديجةُ مالي؟ وأخبرَها الخبرَ، قالَ: لقد خشيتُ على نَفْسي. قالَتْ خديجةُ: كلاّ، أَبْشِرْ، فوالله لا يُخْزيكَ اللَّهُ أَبَداً، واللَّهِ إنّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ[٣] وتَكْسِبُ المعدومَ[٤]، وتَقْري الضَّيفَ، وتُعينُ على نَوائبِ الحَقِّ. فانطلقَتْ به خديجةُ حتى أَتَتْ به ورقةَ بنَ نوفلِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى، وهو ابنُ عمِّ خديجةَ، أخي أبيها، وكان امرءاً تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العربيَّ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجةُ: أَيْ عمِّ اسْمَعْ من ابن أخيك. قال ورقةُ بنُ نَوْفَلٍ: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه، فقال له ورقةُ: هذا الناموسُ[٥] الذي أُنْزِلَ على موسى عليه السلام، يا ليتني فيها جَذَعاً[٦]، يا ليتني أكونُ حيّاً حين يُخْرِجُكَ قومُكَ. قال رسول الله ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُكَ أَنْصُرْكَ نصراً مُؤَزَّراً»[٧].

---

(١) أي يضطرب جسمه.

(٢) أي غطّوني بالثياب ولفّوني بها.

(٣) أي تحمل ثقل الإنفاق على المحتاجين.

(٤) أي الرجل المحتاج.

(٥) الناموس في اللغة: صاحب سرّ الخير. والمراد به هنا. جبريل عليه السلام.

(٦) أي شاباً قوياً.

(٧) فتح الباري ١/٢٣ كتاب بدء الوحي: باب حديث عائشة أول ما بدىء به الوحي، وصحيح مسلم ٢/١٩٧ كتاب الإيمان: باب بدء الوحي.

إن في هذا النصّ لدليلاً عظيماً وحجةً بالغةً على كمال الزوجة العظيمة خديجة رضي الله عنها، وعلى جزالة رأيها، وقوة شخصيتها، وثبات قلبها، وعِظَم فقهها، وبُعْدِ نظرِها؛ فقد رأت في الرسول الكريم من مكارم الأخلاق، وعظيم الشمائل، ونظافة الطّوية والمسلك، ما جعلها توقن أن رجلاً مثل محمد صلوات الله عليه لا يخزيه الله أبداً، ولا تحلّ به مصارع السوء، وأدركت بفِطْنتها أن وراء هذه الحالة الجديدة التي غَشِيَتْ رسولَ الله ﷺ أمراً عظيماً، أعدّ اللّهُ له رسولَه، فانطلق صوتُها العذبُ الحنونُ يزجي إليه البُشْرَى، ويبثّ في قلبه الثقة والأمن والهدوء واليقين: «أَبْشِرْ يا ابن عَمّ، واثْبُتْ، فَوالّذي نفسُ خَدِيجَةَ بِيَدِهِ إنّي لأَرْجو أن تكون نَبِيَّ هذه الأُمّةِ»[١]. ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي عنده علمٌ من التوراة والإنجيل، فأخبره بحقيقة ما رأى الرسول الكريم.

لقد كانت أم المؤمنين الأولى خديجة رضي الله عنها للرسول الكريم وزيرَ صدق على الإسلام. وحسبها شرفاً ورفعةً وخلوداً أنها كانت أول مَنْ آمن بالله ورسوله، ووقفت إلى جانب زوجها الرسول ﷺ، تنصره، وتشدّ أَزْرَه، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد التي لاقاها في فجر دعوته، وتحتمل معه ما لاقى من عَنَتٍ وقَرْحٍ ونَصَبٍ ولُغوبٍ.

يقول ابن هشام في السيرة: «وآمَنَتْ خديجةُ بنت خويلد، وصدّقتْ بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدّق بما جاء به، فخفّف الله بذلك عن نبيه ﷺ. لا يسمع شيئاً مما يكرهه مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيبٍ له، فيحزنه ذلك، إلاّ فرّج الله عنه بها إذا رجَعَ إليها، تُثَبّتُهُ،

---

(١) السيرة ١/ ٢٥٤.

وتُخَفِّفُ عنه، وتُصدِّقُه، وتهوِّنُ عليه أمر الناس. رحمها الله تعالى»[١].

إنها صِدّيقَةُ النساء، وقامت بأعباء الصِّدِّيقيَّةِ بحقّ، فلا غروَ أن تستحقّ من الله تعالى التكريم والرضوان والتقدير، فيرسل إليها بالسلام منه مع رسولَيْه جبريل ومحمد ﷺ، ويبشّرها ببيت في الجنة، كما في الحديث المتفق عليه الذي رواه أبو هريرة، قال:

«أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، هذه خَديجةُ قد أتتْكَ، معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتْكَ فاقْرَأْ عليها السلامَ من ربّها ومنّي، وبَشِّرْها ببيتٍ في الجنة من قَصَب، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب»[٢].

إن المرأة المسلمة الراشدة لَتُعْمِلُ عقلَها، وتقدح زِنادَ فكرها، وتشير على زوجها في أوقات ومواقف، قد يكون فيها في أمسّ الحاجة إلى من يشير عليه، وبذلك تسدي إلى زوجها معروفاً كبيراً، وتحسن إليه إحساناً جميلاً.

ومن هذه المواقف الخالدة التي برزت فيها مشورة المرأة الصائبة: موقف المسلمين من صلح الحديبية، وما أبدته أم المؤمنين أمّ سَلَمة رضي الله عنها من بصر نافذ، وحكمة عالية، ورأي سديد.

فقد كانت أم سَلَمة في صحبة الرسول في العام السادس للهجرة، في رحلته إلى مكة معتمراً، وهي الرحلة التي صدّت فيها قريشٌ الرسولَ وصحبَه عن دخول البيت الحرام، وتمّ فيها عهدُ الحديبية بين الرسول ﷺ وقريش، وهو عهد نصّت شروط الصلح فيه على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهنّ الناسُ، ويكفّ بعضهم عن بعض، وعلى أن من أتى محمداً من

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٥٧.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٤/ ١٥٥ كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب خديجة.

قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردّوه عليه، وعلى أن يرجع المسلمون عامَهمْ هذا فلا يدخلون مكة. . . إلخ.

وكان الرسول ﷺ يدرك بثاقب بصيرته المستنيرة بهداية الله أن هذا العهد الذي بدا في ظاهره صلحاً مجحفاً بحق المسلمين، هو الخير المحض والنصر المؤزَّر للإسلام والمسلمين.

أما الصحابة، فقد دخل عليهم أمر عظيم حين بلغهم نص العهد، ورأوا فيه إجحافاً وبخساً لحقوقهم، وهم المنتصرون الغالبون، وقد عبّر عن مشاعر الصحابة الغَضْبَى عمر بن الخطاب، إذ أتى أبا بكر، فسأله:

أليس برسول الله؟ قال: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى.

قال: فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا؟

فحذّره أبو بكر قائلاً: يا عمر، اِلْزَمْ غَرْزَهُ[1]، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم مضى عمر، فأتى رسول الله ﷺ فسأله مثل ما سأل أبا بكر، حتى إذا بلغ قوله: «فعلامَ نعطي الدنيّةَ في ديننا؟» أجابه الرسول ﷺ: أنا عَبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ، لَنْ أُخالِفَ أَمْرَهُ، ولَنْ يُضَيِّعَني»[2].

---

(١) أي اِلْزَمْ أمرَهُ.

(٢) السيرة ٣/ ٣٣١، وانظر فتح الباري ٦/ ٢٨١ كتاب الجزية والموادعة: باب حديث سهل بن حنيف، وصحيح مسلم ١٢/ ١٤١ كتاب الجهاد والسير: باب صلح الحديبية.

هنالك، أدرك عمر خطأ اندفاعه في المعارضة، فكان يقول: ما زلت أتصدّق وأصوم وأصلّي وأُعْتِق من الذي صنعتُ يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلمتُ به، حتى رجوتُ أن يكون خيراً[١].

ولما فرغ رسولُ الله ﷺ من إبرام عهد الصلح أمر أصحابه أن يقوموا، فينحروا، ثم يحلقوا، فما قام منهم رجل، فعل ذلك ثلاث مرات، وما منهم من مجيب. فدخل على زوجه أمّ سَلَمة، فذكر لها ما لقي من الناس. وهنا تجلّت فِطْنَةُ أم سَلَمة، وتَبَدَّىٰ ذكاؤُها، إذ قالت: يا رسول الله، أُخْرُجْ لا تُكَلِّمْ أَحَداً منهمْ، حتّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وتَحْلِق.

وأخذ رسولُ الله ﷺ بمشورتها، وفعلَ ما أشارَتْ به. فلما رأى الصحابة ذلك قاموا مسرعين متدافعين، فَنَحروا، وجعل بعضُهم يحلق رؤوس بعض، حتى كاد بعضُهم يقتلُ بَعْضاً غَمّاً وندماً[٢].

وثاب المسلمون بعد ذلك إلى رشدهم، وأدركوا عمق نظرة الرسول الكريم ﷺ في عقد هذا الصلح الذي كان فتحاً عظيماً؛ إذ دخل في دين الله بعد صلح الحديبية أكثر ممن دخلوا قبله. وفي صحيح مسلم أنه نزل قولُه تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»، وكان الفتح هو صلح الحديبية، فأرسل الرسول الكريم إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أَوَفَتْحٌ هو؟ قال: نعم، فطابت نفسُه ورجع[٣].

---

(١) السيرة ٣/ ٣٣١.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٩٥، والطبري ٢/ ١٢٤.

(٣) صحيح مسلم ١٢/ ١٤١ كتاب الجهاد والسير: باب صلح الحديبية.

تُشَجِّعُهُ على الإنْفاقِ في سَبيلِ اللَّهِ:

ومن وقوف المرأة المسلمة الراشدة إلى جانب زوجها: تشجيعُها إياه على البذل والصدقة والإحسان في سبيل الله، لا على التبذير والإسراف وبعثرة المال في وجوه الترف والسفاهة والخُيَلاء، كما نرى عند كثيرات من النساء الجاهلات التافهات الشاردات عن هَدْي الله.

ذلك أن المرأة المسلمة الواعية التقية تحب لزوجها دوماً البرَّ والخيرَ والفلاح، وتَحَضُّه على الصالحات من الأعمال، وتشجّعه على الإكثار منها، إيماناً منها بأن دفع زوجها إلى الأعمال الصالحات يزيدها شرفاً في الدنيا، وثواباً جزيلاً في الآخرة.

ومن جميل ما يروى في تشجيع المرأة زوجَها على النفقة في سبيل الله: موقفُ أمّ الدّحداح حينما جاء زوجها يعلنها أنه تصدق بالبستان الذي تسكنه هي وعيالها طمعاً في عِذْقٍ[1] في الجنة، فكان جوابها: رَبِحَ البَيْعُ رَبِحَ البَيْعُ. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَداحٍ لأبـي الدَّحْدَاحِ في الجنّة، قالَها مراراً»[2].

تُعِينُه على طاعَةِ اللَّهِ:

ومن مآثر الزوجة المسلمة الراشدة: إعانتُها زوجَها على الطاعة في ضروبها المختلفة، ولا سيما قيام الليل؛ فإنها بذلك تسدي إليه نفعاً عظيماً؛

---

(١) العِذْق من التمر: كالعنقود من العنب. انظر صحيح مسلم ٧/ ٣٣ كتاب الجنائز: باب اللحد ونصب اللبن على الميت.

(٢) رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح، وانظر مجمع الزوائد ٩/ ٣٢٤ كتاب المناقب: باب ما جاء في أبـي الدحداح.

تَـتَـزَيَّـنُ لَــهُ:

إنها لتتزينّ لزوجها بكل ضروب الزينة والحليّ، بحيث تبدو جميلة أنيقة فاتنة، تسرّ عين زوجها، وتدخل السرور على قلبه، وتترع نفسه بالسعادة والحبور. وهذا ما كانت عليه نساء السلف الصالحات، العاكفات على عبادة ربهنّ، وتلاوة كتابه، وعلى رأسهنّ أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وغيرها. فقد كنَّ يرتدينَ الثياب الفاخرة، ويتّخذنَ الحليّ في الحضر والسفر، تجمّلاً لأزواجهنّ.

دخلت بَكْرة بنت عقبة على أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فسألتها عن الحنّاء، فقالت: شجرة طيبة وماء طهور. وسألتها عن الحِفاف[١]، فقالت لها: إن كان لكِ زوج، فاستطعتِ أن تنتزعي مقلتيكِ فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي[٢].

ألا فلتسمع الزوجات المهملات المتساهلات في زينتهنّ لأزواجهنّ توجيه أم المؤمنين السيدة عائشة، ولْيَعْلَمْنَ أن زينتهنّ يجب أن تكون في المقام الأول لأزواجهنّ، لا لرفيقاتهنّ ولِداتهنّ وصُوَيْحباتهنّ، وأن المتساهلات المقصّرات في التزيّن لأزواجهنّ آثمات؛ لأنهنّ يخللن بواجب كبير من واجبات الزوجية، وقد يكنّ بإهمالهنّ هذا سبباً في انحراف أزواجهنّ عنهنّ، ومدّ أبصارهم إلى غيرهنّ.

إن الزوجة التي لا يقع بصرُ زوجها منها إلاّ على الشعر الأشعث المنفوش، والوجه الأصفر الشاحب، والثوب القميء المهلهل، لَهي زوجةٌ

---

(١) أي إزالة الشعر.

(٢) أحكام النساء لابن الجوزي: ٣٤٣.

عاقّة غبيّة حمقاء، وليس بمغنٍ عنها فتيلاً أن تسارع إلى زينتها يوم تستقبل الضيوف، أو تذهب لحفلة تجتمع فيها النساء، وتبقى في معظم أيامها مهملة مظهرها وزينتها لزوجها. وأحسب أن المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها في نجوة من هذا التقصير وعصمة؛ لأنها بارّة بزوجها، ولا يجتمع البرّ بالزوج والتقصير بحقه في قلب زوجة مسلمة حصيفة واعية وَدود.

لقد كان من هَدْي هذا الدين للمرأة أن تتزيّن لزوجها وتتجمّل، بحيث لا يرى منها إلاّ ما يحب. ولذلك حرّم عليها أن تظهر في ملابس الحِداد القاتمة فوق ثلاثة أيام، إلاّ على زوجها، فقد أَذِنَ لها بالحِداد عليه أربعة أشهر وعشراً، ونجد ذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن زينب بنت أم سَلَمة، قالت: دخلتُ على زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ حين توفي أخوها، فدعت بِطِيبٍ فمسّت، ثم قالت: ما لي بالطِّيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول:

«لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليومِ الآخِرِ أن تُحِدَّ فوقَ ثَلاثِ ليالٍ إلاَّ على زَوْجٍ أربعةَ أشهرٍ وعَشْراً»[١].

تَلْقاهُ مَرِحَةً مُؤْنِسَةً شاكِرةً:

ومما تتجمّل به المرأة المسلمة الحصيفة لزوجها: المرح والبهجة والظرف والأنس، تغمر بذلك كله حياة زوجها، فتجعلها بهيجةً سعيدةً مؤنسةً، تلقاه حين يؤوب إلى البيت، كالاًّ من عمل يده، أو مُجْهَداً من إعمال فكره، بوجه طليق، وابتسامة مشرقة، وكلمة طيبة، تطوي همومها ساعة تلقاه، لتنسيه بذلك بعض همومه، وتبدي كل ما تستطيعه من بهجة ومرح

(١) فتح الباري ٩/ ٤٨٤ كتاب الطلاق: باب إحداد المتوفى عنها زوجها.

وظرف، لتفتح نفسه على السعادة وهناءة العيش، وتسمعه كلمة الشكر والعرفان بالجميل، كلما بدرت منه نحوها بادرة خير، أو قدّم لها شيئاً حسناً، أو فعل ما يستحق عليه الشكر والثناء.

ذلك أن المرأة المسلمة الواعية وفيّة منصفة، لا تعرف الكنود والجحود والكفران لأحد من الناس؛ لأن لها من هَدْي دينها ما يعصمها عن التردّي في مهاوي الأخلاق الشرسة المنكرة للمعروف الجاحدة للفضل، فكيف مع زوجها الحبيب، ورفيق دربها الطويل؟

لقد فقِهتْ من هَدْي دينها قول رسول الله ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ»[١]، وفهِمَتْ من هذا الهَدْي العظيم أن كل صانع خير ومعروف وبرّ من الناس يستحق الشكر والعرفان، فكيف تتوانى أو تتلكّأ أو تتردّد في إزجاء الشكر لزوجها، وهي تسمع قول الرسول ﷺ:

«لا يَنْظُرُ اللَّهُ إلى امْرأَةٍ لا تَشْكُرُ لِزَوْجِها، وهِيَ لا تَسْتَغْني عَنْهُ»[٢].

تُشارِكُهُ أَفْراحَهُ وأَتْراحَهُ:

ومما تدخل به المرأة قلب زوجها وتملأ نفسه: مشاركتُها إياه في أفراحه وأتراحه، وفي همومه ومسرّاته.

إنها لتشاركه بعض هواياته وأعماله اليومية، كالقراءة والرياضة والاستماع إلى بعض الأحاديث المفيدة، وغير ذلك، بحيث يشعر الزوج أنه ليس وحده في استمتاعه بطيّبات الحياة، وإنما تبادله كؤوسها الشهية المترعة زوجة وفية مرحة حصيفة وَدود.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣١٠ باب من لا يشكر الناس.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ١٩٠ كتاب النكاح، وقال: حديث صحيح الإسناد.

وفي مسابقة الرسول الكريم صلوات الله عليه السيدةَ عائشةَ غيرَ مرّة: دليلٌ على حضّ الإسلام الزوجين كليهما على مشاركة كُلٍّ منهما إلْفَهُ مُتَعَ الحياةِ ومسرّاتِها ومباهجَها، لما لتلك المشاركة من أثر كبيرٍ في ريّ العاطفة الزوجية، وتوطيد أواصرها، وتوثيق عراها.

وكما شاركته أفراحه ومسرّاته تشاركه همومه وأحزانه وأتراحه، فتكون إلى جانبه بالكلمة الطيبة المؤنسة المواسية، والرأي السديد الناضج الناصح، والتعاطف القلبي الصادق الملطِّف.

غَضِيضَةُ الطَّرْفِ عَنْ غَيْرِهِ:

والمرأة المسلمة التقية غضيضة الطرف عن غير زوجها. لا تُحِدّ النظر إلى الرجال من غير المحارم، عملاً بقوله تعالى: «وقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ». وهي إذ تلتزم بغضّ بصرها عن غير زوجها تكون من قاصرات الطرف، وهي الصفة المحبَّبة إلى الرجال في المرأة؛ لأنها تدل على نظافة الشعور وعفته، وسلامة النظر وأمانته، بل هي من أجمل صفات المرأة المسلمة الطاهرة العفيفة الحَصان. ولذلك نوّه بها القرآن الكريم في سياق الحديث عن نساء الجنة وصفاتهنّ المحبَّبة للرجال:

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ ﴾[1].

لا تَصِفُ لَهُ امْرَأَةً:

ومن خلائق المرأة المسلمة الحصيفة أنها لا تصف لزوجها امرأة من صويحباتها أو معارفها؛ لأن ذلك منهيٌّ عنه في الإسلام بقول الرسول ﷺ:

---

(١) الرحمن: ٥٦.

«لا تُباشِرِ المَرْأَةُ المَرْأَةَ، فَتَنْعَتَها لِزَوْجِها، كأنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْها»[1].

ذلك أن الإسلام يريد للضمائر أن تقرّ، وللقلوب أن تهدأ، وللأفكار والخواطر والتخيّلات المثيرة أن تُحَدّ، لينطلق الإنسان في حياته سويّاً مطمئناً هانئاً، فارغ البال، ميسَّراً لما خُلِق له من تكاليف وأعمال، لا ينشغل فكره في مقارنات تافهة بين الواصفة والموصوفة، ولا يَطيشُ صوابُه لما يُزَيِّنُهُ له خيالُه من تلك المقارنات، ولا تضطرب نفسُه وتتعطّل مواهبه وأعماله بسبب لغو من القول، وفضول من الكلام، قد يفضي به إلى الغَواية والفتنة والضلال.

تُحَقِّقُ لَـهُ الهُدوءَ والرّاحَةَ والسَّكَنَ:

ولا تكتفي المرأة المسلمة الواعية بتجمّلها لزوجها ومشاركتها إياه فيما يحبّ من هوايات وأعمال، بل تحرص أيضاً على أن تحقّق له الهدوء والراحة والسكينة في البيت، كما تحرص على ألا يقع بصره إلاّ على ما يسرّه من بيت نظيف مرتّب، يرى فيه النظام والذوق، وأولاداً مهذَّبين مؤدَّبين نظيفين، ومائدة جميلة منسَّقة، وما إلى ذلك مما تضفي عليه المرأةُ الحصيفة الذكية اللّبِقة من ذوقها ونباهتها وسمو مشاعرها. وهذا كلّه من حسن تبعّل المرأة المسلمة زوجَها الذي أوصى به الإسلام.

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أن الزواج في الإسلام آية من آيات الله، إذ جعل الزوجة سَكَناً للزوج وراحة وطمأنينة وأنساً وسلوى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[2].

---

(١) انظر فتح الباري ٩/٣٣٨ كتاب النكاح: باب لا تباشر المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجها.

(٢) الروم: ٢١.

إنها صلة النفس بالنفس في أعمق روابطها، يعقدها الله بين النفسين، لتنعما بالسكينة والطمأنينة والاستقرار والمتاع الحلال الطيب. وإن الزوجة لهي المثابة والأمن والراحة للرجل في بيت الزوجية المحبَّب، العامر بالمودّة الخالصة والرحمة الظليلة الحنون. والمرأة المسلمة الراشدة خير مَنْ يفهم هذه المعاني العالية، وخير مَنْ يعمل على ترجمتها إلى واقع مؤنس مبهج سعيد.

مُتَسامِحَـةٌ صَفـوحٌ:

والمرأة المسلمة متسامحة صَفوح، تتجاوز عن الهفوات إن وقعت من زوجها، ولا تحفظ له تلك الهفوات، ولا تذكّره بها بين الحين والحين. وما من صفة تنفتح لها مغاليق قلب الرجل مثل صفة التسامح والعفو والغفران، وما من صفة توصد أبواب قلب الرجل مثل صفة حفظ الهنات، وتعداد السيئات، والتذكير بالهفوات.

والمرأة المسلمة الوقّافة عند هَدْي دينها المتمثّلِ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]، هي هي الجديرة بالتربع على عرش قلب زوجها، وهي هي الخليقة بأن تُتْرِعَ نفسه بالبشر والسعادة والحبور.

قَوِيَّةُ الشَّخْصِيَّةِ حَكِيمَةٌ:

إن أبرز ما يميز المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها: قوةُ شخصيتها، ونضجُ تفكيرها، وجدّيّةُ سلوكها. فهذه خلائق تتحلّى بها المرأة المسلمة قبل زواجها وبعده؛ لأنها نتاج فهمها لدينها، ووعيها لرسالتها في الحياة.

---

(١) النور: ٢٢.

إنها قوية الشخصية في مرحلة اختيار الزوج، لا تذوب شخصيتها ولا تضمحل أمام رغبة والديها إن جنفا عن الحق، وأرادا إرغامها على زواج لا ترغب فيه. ولا تضعف شخصيتها أيضاً أمام الرجل المتقدم لخطبتها، مهما بلغ من المال والجاه، إذا لم تتوافر فيه صفات الزوج المسلم الحق.

وهي قوية الشخصية بعد الزواج، على ما تميّزت به من خلق رضيّ، وسلوك دمث، وطاعة محبَّبة للزوج وتبرز قوة شخصيتها على وجه الخصوص حين يحتاج الأمر إلى تميّز في الموقف يتعلق بعقيدتها ودينها، كما رأينا في إصرار أم سُلَيْم بنت مِلْحان على الإسلام هي وابنها أنس، مع بقاء زوجها مالك بن النضر على الشرك ومعارضته لإسلامها[١]، وكما رأينا أيضاً في ثبات أم حبيبة بنت أبي سفيان على عقيدتها ودينها، يوم ارتدّ زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي، ودخل في دين الأحباش[٢]، وكما رأينا في إصرار بَرِيرة على مفارقة زوجها الذي لا تحبه، مع شفاعة النبي ﷺ[٣]، وكما رأينا في طلب امرأة ثابت بن قيس بن شماس طلاقها من زوجها الذي لا تحبه أيضاً[٤] واستجابة الرسول ﷺ لطلبها.

ولقد كان الدافع الأساس لدى هؤلاء النساء الفاضلات في مواقفهنّ القوية: الحرص على سلامة الدين، ونقاء العقيدة، ومرضاة الله عز وجل في نهاية المطاف.

---

(١) انظر ص ١٥٦.

(٢) انظر ص ٩٤.

(٣) انظر ص ١٥٢.

(٤) انظر ص ١٥٢.

ذلك أن كل واحدة منهنّ كانت تتحرّى الحلال في حياتها الزوجية، وتخشى أن تقع في الحرام، إن هي اقترنت برجل لا يؤمن بدينها وعقيدتها، أو إن هي قصَّرت في حق الزوج الذي لا تحبّه، أو لا تطيق العيش معه. ولولا قوة شخصيتها، وشعورها بعزّة نفسها المؤمنة، لانصاعت لأمر الزوج الضال، وضاعت في متاهات ضلالاته، أو تجرعت غصص التعاسة والشقاء مع الزوج الذي لم ينفتح قلبُها للعيش معه، وهذا شأن المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها في كل زمان ومكان.

على أن قوة الشخصية التي تتحلى بها المرأة المسلمة لا تخرجها عن صفتها المتميِّزة في طاعة الزوج وحسنِ معاشرته وبرّه وإكرامه وتوقيره، بل إن قوة شخصيتها تجعلها متوازنة حكيمة في أقوالها له وأفعالها معه، لا طيشَ فيها ولا تهوّر ولا خفَّة، حتى في ساعات الغضب التي لا تخلو منها حياة زوجين، تمسك المرأة المسلمة نفسها، وتملك زمام لسانها، فما تندّ منها عبارة مسيئة لزوجها، جارحة لمشاعره. وهذا شأن الشخصية القوية المتّزنة المتماسكة.

وللسيدة عائشة أم المؤمنين القِدْح المُعَلَّى في هذه الخليقة التي يجدر بكل امرأة مسلمة أن تتأسَّى بها؛ فقد كانت عبارة القسم التي تقسم بها للرسول وهي راضية عنه، تختلف عن عبارة القسم التي تنطق بها وهي غاضبة منه، وفي كلّها أدب وذوق واحترام وتوقير. وقد لحظ ذلك منها رسول الله ﷺ، فقال فيما ترويه هي عنه:

«إني لأَعْلَمُ إذا كُنْتِ عنّي راضِيَةً، وإذا كنتِ عليَّ غَضْبَى، قالَتْ: ومِنْ أينَ تعرفُ ذلكَ؟ قالَ: أمّا إذا كنتِ عنّي راضِيَةً، فإنكِ تَقولين: لا، وربِّ

مُحَمّدٍ. وإذا كُنتِ غَضْبَى قلتِ: لا، وربِّ إبراهيم. قالَتْ: أجلْ، واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ، ما أهجرُ إلاَّ اسْمَكَ»[١].

فيا لَلأَدَبِ العالي! ويا لَلْوُدِّ الخالصِ! ويا لَلذَّوْقِ الرَّفيعِ!

وقد برزت قوة شخصية أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أقوى ما تكون يوم محنة الإفك، تلك المحنة التي جعلها الله امتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ ولجميع الأمة الإسلامية، ليرفع بها أقواماً، ويضعَ آخرين، ويزيد الذين اهتَدَوْا هُدًى وإيماناً، ولا يزيد الظالمين إلاَّ خساراً.

ففي هذه القصة ظهرت قوة شخصية السيدة عائشة رضي الله عنها، وتجلَّى إيمانها العميق بالله، وثقتها به وحده أن يظهر براءتها، ولست أجد أجمل وأوضح من عرض ابن قيّم الجوزية لهذه الصفحة المشرقة من الإيمان الصادق العميق الذي كانت تتحلَّى به أمّ المؤمنين، ومن قوة الشخصية المعتزّة بالله، الواثقة بعدله وإنصافه.

قال ابن القيّم: «واقتضى تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحيُ شهراً في شأنها، لا يُوحَى إليه في ذلك شيء، لتتمّ حكمته التي قدَّرها وقضاها، وتظهرَ على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحسنِ الظنّ بالله ورسوله، وأهلِ بيته، والصِّدِّيقين من عباده، ويزدادَ المنافقون إفكاً ونِفاقاً، ويُظْهِرَ لرسوله وللمؤمنين سَرائرَهم، ولتتمّ العبوديةُ المرادةُ من الصدِّيقةِ وأَبَوَيْها، وتتمّ نعمةُ الله عليهم، ولتشتدّ الفاقةُ والرغبةُ منها ومن أبويها، والافتقارُ

---

(١) انظر صحيح مسلم ١٥/٢٠٣ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أم المؤمنين عائشة.

إلى الله، والذلُّ له، وحسنُ الظن به، والرجاءُ له، ولينقطعَ رجاؤها من المخلوقين، وتَيْأَسَ من حصول النُّصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفَّتْ هذا المقامَ حقَّه، لمّا قال لها أبواها: قُومي إليه، وقد أنزل اللَّهُ عليه براءتَها، فقالت: واللَّهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلاَّ اللَّهَ، هو الذي أنزل براءتي.

«وأيضاً فكان من حكمة حبس الوحي شهراً، أن القضية مُحِّصَتْ وتَمَحَّصَتْ، واستشرفَتْ قلوبُ المؤمنين أعظمَ استشراف إلى ما يوحيه اللَّهُ إلى رسوله فيها، وتطلَّعت إلى ذلك غايةَ التطلُّع، فوافى الوحيُ أحوجَ ما كان إليه رسولُ الله ﷺ، وأهلُ بيته، والصدِّيقُ وأهلُه، وأصحابُه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيث على الأرض أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقع وألطَفَه، وسُرُّوا به أتمّ السرور، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع اللَّهُ رسولَه على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحيَ على الفور بذلك، لفاتت هذه الحِكَمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها.

«وأيضاً فإن الله سبحانه أحبَّ أن يُظهرَ منزلةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامته عليهم، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولَّى هو بنفسه الدفاعَ والمنافحةَ عنه، والردَّ على أعدائه، وذمَّهم وعَيْبَهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكون هو وحده المتوليَ ذلك، الثائرَ لرسوله وأهل بيته.

«وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصودَ بالأذى، والذي رُمِيَتْ زوجتُه، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سوءاً قَطُّ، وحاشاه وحاشاها، ولذلك لما

استعذر من أهل الإفك، قال: «من يَعْذِرُني[١] في رجل بلغني أذاه في أهلي، واللَّهِ ما علمت على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلاَّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاَّ معي». فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصدِّيقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمالِ صبرِه وثباتِه، ورِفْقِه، وحسنِ ظنّه بربه، وثقتِه به، وَفَّى مقامَ الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقَّه، حتى جاءه الوحي بما أقرّ عينه، وسرّ قلبه، وعظّم قدره، وظهر لأمته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه.

«ومن تأمَّل قول الصدِّيقة وقد نزلت براءتُها، فقال لها أبواها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالَت: «واللَّهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلاَّ الله»، علم معرفتَها، وقوةَ إيمانها، وتوليتَها النعمةَ لربّها، وإفرادَه بالحمد في ذلك المقام، وتجريدَها التوحيد، وقوةَ جأشها، وإدلالَها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامَها في مقام الراغب في العلم، الطالب له، ولثقتِها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال فوضعته موضعَه، ولِلَّهِ ما كان أحبَّها إليه حين قالت: لا أحمد إلاَّ الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي، ولِلَّهِ ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفتِ الرِّضا منه والإقبال، فلم تبادر إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه، مع شدَّة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوّة»[٢].

---

(١) أي من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٤.

أجل إنها غاية الثبات والرزانة وقوة الشخصية. فالمرأة المسلمة الواعية متواضعة لزوجها، بارّة به، متودِّدة إليه، مطيعة إياه، ولكن شخصيتها لا تذوب أمامه، ولو كان أحبّ حبيب، وأشرف الخلق طُرّاً، ما دامت على الحق، مستمسكة بالعروة الوثقى. وإن أمّ المؤمنين السيدة عائشة لتضرب بذلك المثل الأعلى لشخصية المرأة المسلمة المعتزّة بعقيدتها ودينها، المدركة حقيقة عبوديتها لله، وأن هذه العبودية لا تكون إلاّ له وحده.

ولا تحسبنّ المرأةُ المسلمةُ أن هذا الموقف من السيدة عائشة رضي الله عنها يعني الاستعلاء والتكبّر والامتناع عما يرضي الزوج. فقد سبق بيان وجوب برّ المرأة المسلمة بزوجها، وطاعتها إياه، وتودّدها له، وحرصها على مرضاته، ومسارعتها في ذلك كله، امتثالاً لأمر الدين الحنيف. وإنما يستفاد من موقف أم المؤمنين رضي الله عنها: العزَّة التي أسبغها الإسلام على المرأة المسلمة، والتكريم الذي أحاطها به، ما دامت ملتزمةً شرعَ الله، مستمسكةً بهَدْي دينها الحق، مطبّقةً تعاليمَه السَّمْحَةَ الغَرَّاء، وهذا ما أكسب شخصيتها قوةً وعزةً وكرامةً وحكمةً.

لقد أعطى الإسلامُ المرأةَ المسلمةَ من الحقوق، وحباها من التقدير والتكريم ما تحسدها عليه المرأةُ الغربيةُ، كلّما سمعت شيئاً عن حقوق المرأة في الإسلام[١]، وقد اعترف بذلك دعاة تحرير المرأة في البلاد العربية كما رأينا[٢]، وتراجع كثير منهم عن دعاواهم في أن المرأة المسلمة تحتاج إلى تحرير، ومنهم الدكتورة نوال السعداوي، فقد سألتها جريدة الوطن الكويتية في منتصف شهر آب ١٩٨٩ :

---

(١) انظر ص ٨٦.

(٢) انظر ص ٥٦، ٥٧.

هل تعتبرين الأوروبية مثالاً يحتذى ونموذجاً تجب محاكاته؟ فأجابت: «لا، أبداً، فالمرأة الأوروبية تقدمت في ميادين وتأخرت في أخرى. فقوانين الزواج في أوروبا تظلم المرأة، وهذا هو سبب نشأة حركات تحريرية نسائية عندهم، وكذلك في أمريكا وهي حركات قوية جداً وشرسة أحياناً».

ثم قالت: «ديننا الإسلامي أعطى المرأة حقوقاً أكثر من كل الأديان الأخرى، وضمن لها كرامتها وعزتها، إلاَّ أن الذي حدث أحياناً، هو أن الرجل وظَّف بعض جوانب هذا الدين لتركيز مجتمع رجال أبوي طبقي يسيطر فيه الذكور على الإناث».

وواضح أن هذا التعسُّف الأبوي الذي ذكرته الدكتورة السعداوي، إن عاد بشيء من ظلم على المرأة وحيف، فمردّه إلى الجهل بتعاليم الإسلام السمحة، والبعد عن هَدْيه اللألاء.

مِنْ أَنْجَحِ الزَّوْجاتِ:

تبين لنا مما تقدم من خلائق المرأة المسلمة النابهة وصفاتها الفكرية والنفسية والاجتماعية والجمالية، أنها زوجة ناجحة، بل هي من أنجح الزوجات، وأكثرهن بركةً ويمناً وخيراً على الرجل.

ذلك أنها بما وعت من هَدْي دينها، في القيام بواجباتها نحو زوجها، كانت بحق خير متاع للرجل في حياته؛ إذا دخل البيت تلقَّته بابتسامتها المشرقة وثغرها المفتر وتحيتها الطيبة، وأقبلت عليه إقبال الربيع، تنضّر حياته بالكلمة الطيبة، والعبارة المؤنسة، واللفتة البارعة، والدعابة الحلوة، والزينة المبهجة، والهيئة الأنيقة المعجِبة، والبيت النظيف المرتّب،

والحديث الطليّ السار، والمائدة الحافلة الشهية، وكانت في جلّ أحوالها فيما يرضيه، ويدخل البهجة والسرور إلى نفسه.

إنها مطيعة لزوجها، بارَّة به، متودِّدة إليه، حريصة على رضاه، لا تفشي له سرّاً، ولا تفسد له أمراً، تقف إلى جانبه في وقت الشدَّة، تمدّه بالرأي السديد، وتمحضه النصيحة الخالصة، تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه، تملأ نفسه في مظهرها ومخبرها، وتترع حياته بالسعادة والبهجة والسرور، تشجعه على الطاعة بألوانها المتعددة، وتنشّطه للقيام بها بمشاركتها إياه، تبرّ والديه وتحترم أهله وأقاربه، تغضّ طرفها عن الرجال، وتسمو عن السفاسف واللغو ورديء الكلام، وتحرص على توفير الهدوء والراحة والسكينة والاستقرار لزوجها وأولادها، وهي بعدُ، قوية الشخصية في غير خشونة ولا جلافة طبع، رقيقة المشاعر في غير مسكنة ولا ضعف، تحمل من يخاطبها على احترامها وتقديرها، متسامحة صَفوح، تنسى الإساءة، وتطّرح الضغينة.

ومن هنا كانت الزوجة المسلمة بحق من أنجح الزوجات، وكانت من نعم الله الكبرى على الرجل، ومتعته التي لا يدانيها في حياته متاع، وصدق رسول الله ﷺ: «الدُّنْيا مَتاعٌ، وخَيْرُ مَتاع الدنيا المرأةُ الصّالِحَةُ»(١).

❑ ❑ ❑

---

(١) صحيح مسلم ١٠/٥٦ كتاب الرضاع: باب استحباب نكاح البكر.

إلاَّ لتتميمها وتأصيلها في حياة الناس:

«إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأَخْلاقِ»[١].

وليس أدلّ على عظم مسؤولية الوالدين تجاه أبنائهما، وتربيتهم التربية اللائقة بالمسلمين الأتقياء من تقرير العلماء: أن كلّ بيت يسمع قول الرسول ﷺ: «مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ، وهُمْ أَبْناءُ سَبْعِ سِنينَ، واضْرِبوهُمْ علَيْها، وهُمْ أَبْناءُ عَشْرٍ...»[٢]، إن كل بيت يتردّد فيه قول الرسول ﷺ هذا، ولا يسارع الوالدان فيه إلى تطبيقه وتنفيذه على الوجه الأكمل، وذلك بأمر الأولاد بالصلاة متى بلغوا السابعة من العمر، ولا يضربانهم على تركها متى بلغوا العاشرة، هو بيت آثم مقصّر مفرّط، والوالدان مسؤولان أمام الله عن تقصيرهما وتفريطهما.

ذلك أن البيت الذي تعيش فيه الأسرة هو المجتمع الصغيرالذي تُصاغ فيه نفسيات الأفراد، وتتكون عقولهم وأمزجتهم وميولهم، وهم فراخ زغب، مستعدّون لتلقّي الكلمة الهادية والتوجيه السّديد. ومن هنا تبدو مهمة الوالدين في الأسرة كبيرة وخطيرة في صياغة نفسيات أبنائهما وبناتهما، وتسديد خَطْوهم نحو الرشد والهداية وفضائل الأعمال.

وقد أدركت المرأة المسلمة الواعية مسؤوليتها في تربية أولادها على مر الأزمان، وكانت بارعة في تكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وغرس القِيَم النبيلة في نفوسهم؛ وليس أدل على ذلك من أن

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٧١: باب حسن الخلق.

(٢) رواه أحمد ٢/١٨٧، وأبو داود ١/١٩٣ كتاب الصلاة: باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، وإسناده حسن.

النابهات الممتازات من النساء نَجَلْنَ وربَّيْنَ أولاداً أنبل وأفضل من أبناء النابهين الممتازين من الرجال؛ حتى إنك لا تكاد تجد عظيماً من عظماء أمتنا، ممن عاركوا خطوب الدهر، وراضوا شِماسَه، وطأطأت لرجولتهم نواصي الحادثات، إلاَّ وهو مدين بذلك إلى أمه العظيمة.

فالزبير بن العوام مدين بعظمته لأمه صفية بنت عبد المطلب التى غرست فيه طباعها الغرّ وسجاياها الحسان.

وعبد الله والمنذر وعروة أبناء الزبير ثمرات غرس أمهم أسماء بنت أبـي بكر، وكل واحد منهم له أثره الخالد ومقامه المحمود.

وعلي بن أبـي طالب رضي الله عنه لَقِنَ الحكمة والفضل ومكارم الأخلاق من صدر أمه الحافل بالحكمة وجليل الخلال، فاطمة بنت أسد.

وعبد الله بن جعفر، سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم، حُرِمَ من أبيه صغيراً، فتعاهدته أمه أسماء بنت عُمَيْس، وأسبغت عليه من الفضائل والمكارم التي كانت بها أسماء من نساء الإسلام الخالدات.

ومعاوية بن أبـي سفيان، ورث عن أمه هند بنت عتبة من قوة الشخصية وألمعية الذهن ما لم يرثه عن أبيه أبـي سفيان. ولما رأت مخايل النبل والذكاء على ملامحه، وهو وليد، وقيل لها: إن عاش ساد قومه، قالت: ثَكِلْتُه إن لم يَسُدْ إلاَّ قومَه.

ولم يستطع معاوية أن يودع يزيدَ ابنَه وخليفتَه ما كان يتمتع به هو من رأي وحلم وسياسة؛ لأن أمه امرأة أعرابية ساذجة، تزوجها معاوية لجمالها، ولمكان قبيلتها وعشيرتها.

وكذلك لم يستطع أخو معاوية زياد بن أبي سفيان الذي كان مثالاً في الذكاء والدهاء والفطنة، لم يستطع أن ينقل فضائله لابنه عبيد الله، فنشأ أحمق أخرق عيياً غبياً؛ إذ كانت أمه «مرجانة» امرأة فارسية، لا تملك من المواهب ما يؤهلها أن تكون أماً لرجل عظيم.

ولقد خلّد التاريخ رجلين عظيمين من بني أمية، عُرِفَ أولهما بالحول والطول والعقل والحكمة والحزم، ونهج ثانيهما سَنَن العدل والخير والصلاح والتقوى، وكلاهما ثمرة المرأة الحصيفة العظيمة.

أما أولهما فعبد الملك بن مروان، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبي العاص بن أمية المعروفة بقوة الشخصية، ونفاذ العزيمة، وذكاء القلب.

وأما ثانيهما فعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، خامس الخلفاء الراشدين، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب التي كانت أكرم أهل دهرها كمالاً وأكرمهنّ خلالاً، وأمها المرأة العابدة التقيّة التي اتخذها عمر زوجة لابنه عاصم؛ إذ رأى فيها الصدق مجسَّداً والاستقامة ناطقةً، يوم لم ترضَ أن تَمْذُقَ اللبن بالماء كما طلبت منها أمها؛ لأن الله يراها.

وإذا ما ولينا وجوهنا شطر الأندلس ألفينا الرجل الطَّموح الألمعي العظيم، أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذي انطلق من مهد اليتم ليؤسس دولة في المغرب، خضع لها عواهل أوروبا وملوكها، واختلف إلى معاهد العلم فيها علماء الأمم وفلاسفتها، وكانت شطراً كبيراً من حضارة الأمة الإسلامية العالمية.

وإذا ما فتّشنا عن سرّ عظمة هذا الرجل ألفينا المرأة الأم العظيمة التي عرفت كيف تغرس فيه روح التوثّب والعظمة والطُّموح.

وتستوقفنا في العهد العباسي امرأتان عظيمتان، أودعتا في ابنيهما روح السموّ وروح النبوغ والتفوّق. أولاهما أم جعفر بن يحيى، وزير الخليفة هارون الرشيد، وثانيتهما أم الإمام الشافعي الذي لم يَرَ أباه؛ إذ مات، وهو رضيع، وتولّت أمه تربيته والعناية به.

وفي تاريخنا من نوابه النساء كثيرات، أودعن في أبنائهنّ سرّ النبوغ، وأصَّلْنَ فيهم خليقة العظمة، وكنّ وراءهم في كلّ ما أثّلوه من أمجاد، وما بلغوه من مكارم، وما حققوه من أعمال عظيمة.

تَسْلُكُ في تَرْبِيَتِهِمْ أَنْجَعَ الأَساليبِ:

والمرأة المسلمة الذكية الحصيفة تتعرّف على نفسيات أطفالها، وتقدّر اختلاف أمزجتهم وميولهم، فتحسن التسرّب إلى داخل تلك النفوس، والتوغل في عوالمها الصافية البريئة، لتغرس فيها القِيَم العليا والشمائل الرفيعة والأخلاق العالية، متبعة أبرع الأساليب وأذكاها في صقل تلك النفوس.

وشخصية الأم بطبيعتها قريبة من الأولاد، محبَّبة إليهم، جذّابة لهم، تنفتح لها نفوسهم وقلوبهم، فيفضون إليها بما يعتلج فيها من خواطر ومشاعر، فتقبل على تسديدهم وصقل طباعهم ومشاعرهم، مراعية مستواهم العقلي والزمني، ملاعبة إياهم تارة، وممازحة تارة أخرى، ومجاملة إياهم تارة ثالثة، ملقيةً في أسماعهم عبارات المحبة والعطف والحنان والإيثار، فإذا هم يزدادون لها حبّاً، وعلى سماع توجيهاتها وتسديداتها إقبالاً، وإذا هم يمتثلون أمرها وتوجيهاتها امتثالاً نابعاً من القلب، وشتان بين طاعة صادقة نابعة من القلب، قائمة على الحب والاحترام والتقدير والثقة، وبين طاعة

كاذبة قائمة على الكبت والعنف والقهر والانصياع الزجري؛ فالأولى طاعة دائمة وطيدة مثمرة، والثانية طاعة مؤقتة هشّة عَقِيم، سرعان ما تزول وتتلاشى بزوال الشدّة والقهر والكبت والعنف والزجر.

تُشْعِرُهُمْ بِحُبِّها وحَنانِها:

لا يخفى على فطنة المرأة المسلمة المستنيرة أن الأولاد يحتاجون إلى الحضن الوثير الدافىء، والحب العميق الغامر، والحنان الوفير الصادق، لينشأوا نشأة نفسية صحية، خالية من الأمراض والأزمات والعقد، يَغْمُرُ نفوسَهم التفاؤلُ، وتغمر قلوبَهم الثقةُ، وتمتلىء أذهانُهم بالأمل والطموح. ومن هنا تُشْعِر الأم المسلمة الواعية أولادَها في كل مناسبة بالحب والحنان والعطف، يتدفّق من قلبها الكبير، فيغمر حياتهم بالبِشْر والسعادة، ويترع نفوسهم بالثقة والطمأنينة.

والأم المسلمة التقيّة رحيمة بأولادها؛ إذ الرحمة خلق إسلامي أصيل، حضّ عليه الرسول ﷺ بأقواله وأفعاله، وكان من أبرز أخلاقه الرحمة، ولا سيما بالأولاد، كما أخبرنا أنس رضي الله عنه إذ قال:

«ما رأيتُ أَحَداً كانَ أرحمَ بالعِيالِ مِنْ رسولِ الله ﷺ، قالَ: كانَ إبراهيمُ مُسْتَرْضِعاً له في عوالي المدينةِ، فكانَ ينطلقُ، ونحنُ معهُ، فيدخلُ البيتَ، فيأخذُه فيقبّلُه، ثم يرجعُ»(١).

وتتّسع رحمة الرسول الكريم بالبراعم المسلمة المتفتّحة، ويمتد رواقها الظليل فيشمل الصغار وهم يلعبون، فإذا هو يغمرهم بعطفه وحنانه، كما

---

(١) صحيح مسلم ١٥/ ٧٥ كتاب الفضائل: باب رحمته ﷺ وتواضعه.

يروي أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان كلما مر بصبيان هشّ لهم وسلّم عليهم[١].

وكان من أقواله التربويّة الخالدة: «ليسَ مِنّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغيرَنا، ويَعْرِفْ حَقَّ كَبيرِنا»[٢].

ويروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَبَّلَ الحسنَ بنَ علي، فقال الأقرعُ بن حابِس: إنّ لي عَشَرَةً منَ الولدِ ما قبّلتُ منهمْ أحداً، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[٣].

لقد كان الرسول المربّي العظيم يحاول دوماً، وهو يصوغ النفوس أن يفجّر فيها ينابيع الرحمة، ويفتّح كوامنَها على الحبِّ والحنانِ، أخصِّ خصائص الإنسان.

جاءه يوماً أعرابي فقال: أتُقَبِّلونَ صِبْيانَكمْ؟ فما نقبِّلُهمْ. فقال النبي ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟»[٤].

وتروي السيدةُ عائشةُ أمُّ المؤمنين: «أنّ فاطمةَ كانَتْ إذا دخلَتْ على النبيِّ ﷺ قامَ إليها، فرحَّبَ بها، وقَبَّلَها، وأجلسَها في مجلسِهِ. وكانَ إذا دَخلَ عَلَيْها قامَتْ إليهِ، فأخذَتْ بيَدِه، فرحَبَتْ بهِ، وقبلَتْهُ، وأجلسَتْهُ في مجلِسِها. وأنّها دخلَتْ عليهِ في مَرَضِهِ الذي تُوُفِّيَ فيهِ، فَرَحَّبَ بها،

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٢/ ٢٦٤ كتاب الاستئذان: باب التسليم على الصبيان.

(٢) رواه أحمد ٢/ ١٨٥ ، والحاكم ١/ ٦٢ كتاب الإيمان، وإسناده صحيح.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٣٤ كتاب البر والصلة: باب رحمة الولد وتقبيله.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٤٢٦ كتاب الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله.

وقبّلها»(١).

ويشيد الرسول ﷺ بنساء قريش، لأنهنّ أحنى النساء على أولادهنّ، وأكثرهنّ اهتماماً بتربيتهم وتنشئتهم والقيام على أمورهم والتضحية في سبيلهم، مع رعايتهنّ لأزواجهنّ، وذلك فيما رواه البخاري عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«نِساءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإبلَ، أَحْناهُ على طِفْلٍ، وأَرْعاهُ على زَوْجٍ في ذاتِ يَدِهِ»(٢).

إن المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها لا تملك إزاء هذا الهَدْي النبوي العالي أن تكون متجهّمةً قاسية شديدة على أولادها، مهما كان في طبعها من شدّة وقسوة وجفاف؛ ذلك أن هذا الهَدْي النبوي لا بد إلاّ أن يلامس شغاف قلب الأم، فيفجّر فيه نبع الحنان والعطف، ويُذْكي أوار الحب، فإذا الأولاد قطع من الأكباد تمشي على الأرض كما يقولُ الشاعرُ حِطّانُ بنُ المُعَلَّى(٣):

وإنَّمــا أَوْلادُنــا بَيْنَنــا ... أَكْبــادُنــا تَمْشــي علــى الأَرْضِ
إنْ هَبَّــتِ الــرِّيــحُ علــى بَعْضِهِــمْ ... تَمْتَنِــعُ العَيْــنُ مِــنَ الغَمْــضِ

وإذا الأم والأب ذوب حب وحنان، ودفقة عاطفة ورعاية، وموجة اهتمام وتضحية واحتضان.

---

(١) انظر فتح الباري ٨/ ١٣٥ كتاب المغازي: باب مرضه ﷺ ووفاته، وأبا داود ٤/ ٤٨٠ كتاب الأدب: باب ما جاء في القيام.

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٧٢ كتاب أحاديث الأنبياء: باب قوله تعالى: ٤٥ ـ ٤٨ من آل عمران.

(٣) الحماسة لأبي تمام ١/ ١٦٧.

ولا ريب أن هذا الرّيّ العاطفي الذي تحسّه الأم المسلمة نحو أولادها من أكبر دواعي سعادتها في الحياة، وهذا ما فقدته المرأة الغربية التي امتصَّتْها الحياة المادية، وأنهكها عملُها اليومي المستمرّ، ففقدت الشعور بهذا الرّيّ العاطفيّ الأسريّ. وقد عبّرت عن هذا كله السيدة سلمى الحفار إحدى عضوات الحركات النسائية في بلاد الشام بعد زيارتها إلى أمريكا، فقالت:

«من المؤسف حقاً أن تفقد المرأة أعزّ وأسمى ما منحتها إياه الطبيعة[1]، وأعني أنوثتها، ثمّ سعادتها، لأن العمل المستمر المضني قد أفقدها الجنّات الصغيرات التي هي الملجأ الطبيعي للمرأة والرجل على حد سواء، والتي لا يمكن أن تتفتّح براعمها ويفوح شذاها بغير الأم وربة البيت. ففي الدور وبين أحضان الأسرة سعادة المجتمع والأفراد، ومصدر الإلهام، وينبوع الخير والإبداع»[2].

تُسَوِّي بينَ أَوْلادِها وبَناتِها:

والمرأة المسلمة الواعية الحكيمة تسوّي بين أولادها وتعدل، فلا تفضل أحداً منهم على آخر في الأمور كلها، لما تعلم من كراهة تفضيل ولد على آخر في شِرْعة الإسلام، ولما يترك ذلك التفضيل من أثر سيىء في نفس الولد الذي فُضِّل أخوه عليه؛ ذلك أن الولد الذي لا يشعر بالتسوية بينه وبين إخوته وأخواته ينشأ معقَّداً حاقداً قلقاً، تأكل الغيرة والحقد والحسد قلبه. وعلى النقيض من ذلك ينشأ الولد الذي يشعر بالتسوية بينه وبينهم نشأة صحّية نقيّة بريئة من عقد النقص، بعيدة عن الحقد والحسد والضغينة والغيرة، وقد

---

(١) المانح هو الله، وليست الطبيعة. وهذا التعبير أثر من آثار التغريب.

(٢) من مقال لسلمى الحفار في جريدة الأيام الدمشقية في ٣/ ٩/ ١٩٦٢.

أترعت نفسُه بالتفاؤل والرضا والمحبة والإيثار والتسامح، وهذا ما يريده الإسلام من الوالدين ويحضّهم عليه.

روى الشيخان وغيرهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إنّي نَحَلْتُ ابْني هذا غُلاماً كان لي، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مثلَ هذا؟» فقالَ: لا، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَرْجِعْهُ». وفي رواية: فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَعَلْتَ هذا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟ قالَ: لا، قالَ: «اتَّقوا اللَّهَ وَاعْدِلوا في أَوْلادِكُمْ»، فرجع أبي فردَّ تلك الصدقةَ. وفي رواية: فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يا بشْرُ، أَلَكَ وَلَدٌ سِوَى هذا؟» قالَ: نعمْ، قالَ: «أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لهُ مثلَ هذا؟» قالَ: لا، قالَ: «فَلا تُشْهِدْني إذاً، فإنّني لا أَشْهَدُ على جَوْرٍ»، ثم قالَ: «أَيَسُرُّكَ أنْ يكونوا لكَ في البِرِّ سَواءً؟» قالَ: بَلَى، قالَ: «فَلا إِذاً»[1].

ومن هنا كانت المرأة المسلمة التقية الحصيفة عادلة في أولادها جميعاً، لا تفضل أحداً منهم على آخر، سواء أكان ذلك في النفقة أم الهبة أم المعاملة، وبذلك تنفتح لها قلوبهم جميعاً، وتلهج ألسنتهم بالدعاء لها، وتمتلىء نفوسهم ببرّها وإجلالها وإكبارها.

لا تُفَرِّقُ في حُنُوِّها ورِعايتِها بينَ البَنينَ والبَناتِ:

والمرأة المسلمة الصادقة لا تفرّق في حنوّها ورعايتها بين البنين والبنات، كما تفعل بعض النسوة اللاتي لم يبرأن من العقلية الجاهلية، بل تنظر إلى البنين والبنات بعين واحدة من الرحمة والعدل والرعاية والحنوّ،

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٨/ ٢٩٦ كتاب العطايا والهدايا: باب الرجوع في هبة الولد والتسوية بين الأولاد في النحل.

وإنها لتدرك أن الأولاد هبة من الله، وأن هبة الله من البنين والبنات نعمة لا مدفع لها ولا مغيّر ولا رادّ:

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾[١].

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها الثواب العظيم الذي أعّده الله لمن تربّي البنات وتحسن تربيتهنّ، كما جاء في عديد من الأحاديث الصحيحة، ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

«جاءَتْني امرَأَةٌ ومعَها ابنتَانِ لَها، فَسأَلَتْني فلَمْ تَجِدْ عِنْدي شَيْئاً غيرَ تَمْرةٍ واحدةٍ، فَأَعْطَيْتُها إيَاها، فَأَخذَتْها فقَسمَتْها بينَ ابْنَتَيْها، ولَمْ تأْكُلْ مِنْها شيْئاً، ثم قامَتْ فَخرَجَتْ وابْنَتاها، فَدَخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ، فحدَّثْتُه حَديثَها فقالَ النبيُّ ﷺ: مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ البَناتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إليهنَّ، كُنَّ لهُ سِتْراً مِنَ النّارِ»[٢].

وفي رواية أخرى لمسلم عن السيدة عائشة: «جاءَتْني مِسْكينةٌ تحملُ ابنتَيْنِ لَها، فَأَطْعَمْتُها ثَلاثَ تَمَراتٍ، فأعطَتْ كلَّ واحدةٍ منْهما تمرةً، ورفعَتْ إلى فِيها تمرةً لتَأْكُلَها، فاستَطْعَمَتْها ابْنَتاها، فشَقَّتِ التّمرةَ التي كانَتْ تُريدُ أَنْ تَأْكُلَها بيْنَهما، فأَعْجَبَني شأْنُها، فذكَرْتُ الذي صَنَعَتْ لِرسولِ الله ﷺ، فقالَ: إنّ اللّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَها بِها الجَنّةَ، أَوْ أَعْتَقَها بِها مِنَ النّارِ»[٣].

---

(١) الشورى: ٤٩، ٥٠.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٨٧ كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة على الأولاد والأقارب.

(٣) صحيح مسلم ١٦/ ١٧٩ كتاب البر والصلة: باب الإحسان إلى البنات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانَ لَهُ ثَلاثُ بَناتٍ فَصَبَرَ على لأوائِهِنَّ وضَرّائِهِنَّ وَسَرّائِهِنَّ، أدخلَهُ اللَّهُ الجنَّةَ بفضلِ رَحْمتِه إيّاهنَّ، فقالَ رجلٌ: أو اثْنَتانِ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: أو اثْنَتانِ، فقالَ رجلٌ: أو واحدةٌ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: أو واحِدةٌ»(١).

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ وُلِدَتْ لَهُ ابنةٌ فلَمْ يَئِدْها ولم يُهِنْها، ولم يُؤْثِرْ وَلَدَهُ علَيْها ـ يعني الذّكورَ ـ أَدْخَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بِها الجنَّةَ»(٢).

وتتسع رحمة الرسول الكريم بالإناث، فتشمل إلى جانب البناتِ الأخوات أيضاً، وذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا يكونُ لأَحدٍ ثلاثُ بَناتٍ، أو ثلاثُ أَخَواتٍ، فَيُحْسِنُ إليهنَّ إلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٣).

وفي رواية للطبراني: «مَا مِنْ أُمّتي مِنْ أَحَدٍ يكونُ له ثلاثُ بناتٍ، أو ثلاثُ أَخَواتٍ، يَعولُهنَّ حتى يبلُغْنَ إلاَّ كانَ معي في الجنةِ هكذا، وجمعَ أصبعَيْهِ السَّبابةَ والوُسْطَى»(٤).

فأي أم عاقلة حصيفة رزينة تتأفف من تربية البنات، أو تفضّل الذكور عليهنّ، وهي تسمع التوجيه النبوي العالي يُعلي من شأن تربية البنات، ويَعِدُ

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٣٥، والحاكم ٤/ ١٧٦ كتاب البر والصلة، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٧٧ كتاب البر والصلة، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١٦٢ باب من عال ثلاث أخوات.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٥٧.

مَنْ ربّاهنّ أو أحسن إليهنّ جنات عرضها السماوات والأرض، وفي صحبة الرسول الكريم ﷺ؟!!.

إن البنت في الأسرة المسلمة، وفي المجتمع الإسلامي الراشد، مَصونةٌ محبوبة مكرَّمة، تجد دوماً الحضن الدافىء في والديها ــ ولا سيما والدتها ــ والحماية التامة، والرعاية الكاملة، مهما أقامت في بيت والديها، أو إخوتها، أو غيرهما ممن يجب عليهم كفالتها، وسواءٌ انتقلت إلى بيت الزوجية أم لم تنتقل! ذلك أن الإسلام كفل لها حياة الصون والإعزاز والكفاية، ووقاها حياة التبذّل والإذلال والحاجة والضياع، مما تلقاه المرأة في المجتمعات البشرية الضالّة الشاردة عن هَدْي الله؛ إذ ما تكاد البنت تبلغ الثامنة عشرة من عمرها حتى تخرج من محضن أبويها الدافىء، لتلقى الحياة المادية القاسية، الحافلة بالمكاره والمخاطر، وهي في أشد الحاجة إلى الحماية والحنوّ والرعاية والصون.

إنه الفرق البعيد الشائع بين تشريع الله الذي جاء لسعادة الإنسان، وتشريع البشر القاصر الذي شقي به الإنسان.

ولا بدع أن نجد في الغرب، نتيجة لهذا التشريع المادي، جيوش المنحلّين التائهين من الشبّان، وجموع العاثرات من الأمهات غير المتزوجات من الفتيات البائسات الضائعات، وأعداد هؤلاء وأولئك في تصاعد مستمر على مرّ الأيام.

لا تَدْعو على أَوْلادِها:

والمرأة المسلمة النابهة لا تدعو على أولادها، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ الذي نهى عن الدعاء على الأولاد، خشيةَ أن يوافقَ الدعاءُ ساعةَ استجابة،

وذلك في حديث جابر الطويل الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُوا على أَنْفُسِكُمْ، ولا تَدْعُوا على أَوْلادِكُمْ، ولا تَدْعُوا على أَمْوالِكُمْ، لا تُوافِقُوا مِنَ اللَّهِ ساعَةً يُسْأَلُ فيها عَطاءٌ فيستجيب لكمْ»[1].

ذلك أن الدعاء على الأولاد ليس بعادة حسنة ولا بخلق كريم، وما فعلته أمٌ في ساعة غضب إلاَّ وندمت على فعلتها حينما سكت عنها الغضب وعادت إلى رشدها. وما أحسب أمّاً استنارت بهَدْي دينها تفقد وعيها واتّزانها فتدعو على أولادها، مهما رأت منهم؛ إذ لا ترضى لنفسها أن تتورط فيما تتورط به النساء العصبيات الخفيفات الطائشات.

مُتَنَبِّهَةٌ إلى كُلِّ ما يُؤَثِّرُ في تَكْوِينِهِمْ وتَوْجِيهِهِمْ:

والمرأة المسلمة الواعية مفتّحة العينين على أولادها، ترقب تحركاتهم ونشاطاتهم وهواياتهم، وتعرف ما يقرأون وما يكتبون، وما يتخذون من صداقات، وما يرتادون من أمكنة في أوقات الفراغ، تعرف هذا كلّه من حيث لا يشعر أولادها برقابتها عليهم، فإذا ما وجدت منهم انحرافاً في رأي أو اتجاه أو مطالعة أو هواية، أو تعلّق برفيق سوء، أو ارتياد لأماكن غير مرغوب فيها، أو اعتياد بعض العادات الضارة كالتدخين وغيره، أو العكوف على الألعاب المكروهة أو المحرَّمة، مما ينافي خلق المسلم، ويقتل الوقت، ويهدر الطاقة، ويعوّد الناشىء على الفراغ واللهو والتفاهة، إذا ما أحسّت الوالدة شيئاً من ذلك في أولادها، سارعت إلى تقويم الانحراف، وردّهم إلى الجادة برفق وأناة وحكمة وحزم، وسددتهم إلى الصواب بلباقة وحصافة وإقناع وجدّ، وإنها لأَقْدرُ على هذا كله من الوالد، بحكم قربها من الأولاد،

---

(١) صحيح مسلم ١٨/ ١٣٩ كتاب الزهد: باب حديث جابر الطويل.

ومُكْثها بينهم مدة أطول، وانفتاح نفوسهم لها والإفضاء بما فيها لوالدتهم أكثر من والدهم. ومن هنا تبدو مسؤولية الوالدة الكبيرة في تنشئة الأولاد التنشئة الصالحة، وتكوينهم التكوين السليم، وصياغة شخصياتهم الملائمة لمبادىء الإسلام وقيَمِه وأعرافه.

ذلك أن كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري.

ولا يخفى ما للوالدين من أثر كبير في صياغة عقل المولود وتكوين شخصيته وتربية نفسه، بملاحظة العوامل التربوية المؤثّرة في شخصيته منذ نشأته حتى بلوغه سنّ الرشد.

فالكتاب الذي يعكف على مطالعته الأولاد ينبغي أن يكون مفتّحاً لأذهانهم، مكوّناً لنفوسهم على مكارم الأخلاق، مزوِّداً شخصياتهم بالمثل العليا، لا أن يكون مغتالاً لعقولهم، مفسِداً لِفِطَرِهم، مطفئاً جَذَواتِ الخير في نفوسهم.

والهوايات ينبغي أن تكون منمّية جوانب الخير في نفوسهم لا جوانب الشرّ، مُشْعِلةً جَمَراتِ الحق في أفئدتهم لا جَمَراتِ الباطل، مربّيةً فيهم الذوق السليم لا الذوق السقيم.

والرفيق ينبغي أن يكون قائداً إلى الجنة لا إلى النار، مُرْشِداً إلى الحق لا إلى الباطل، هادياً إلى الرشد والتسامي والنجاح والبرّ لا إلى الغيّ والهبوط والخيبة والعقوق، وكم من رفيق جرّ رفاقه إلى مزالق السوء ومنحدرات الشرّ ومهاوي الرذيلة، والآباء والأمهات عن أولادهم غافلون، وما أَحْكَمَ قولَ

الشاعر عَدِيٌّ بن زيد العِبادي في الصاحب والقرين[١]:

إذا كنتَ في قَوْمٍ فصاحِبْ خِيارَهُمْ ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

عنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُـلُّ قَـرِيـنٍ بِـالمُقَـارَنِ يَقْتَـدِي

هكـذا تبقـى عيـن الـوالـدة مفتّحـة علـى أبنـائهـا، تلحـظ فـي تـربيتهـم وتوجيههم الكتاب والمجلة والرفيق والهواية والمدرسة والأساتذة والنادي ووسائل الإعلام، وكلّ ما له تأثير في تكوين شخصيات أبنائها وتربية عقولهـم ونفـوسهـم وعقيـدتهـم، وتتـدخّـل عنـد اللـزوم سلبـاً أو إيجـابـاً، وبالاستعانة بالأب إذا اقتضت الحاجة، وتختار الأسلوب الحكيم الناجع الذي يضمن سلامة العملية التربوية للأولاد، ويقيها العراقيل والأمراض وردود الأفعال.

وكم من أسرة يعود الفضل في نجاح تربية أولادها إلى الأم الذكية اللبقة النبيهة الحصيفة التي أدركت مسؤوليتها تجاه أولادها، فقامت بها خير قيام، فأنشأت أولاداً عادوا بالخير على والديهم وعلى المجتمع والناس.

وكم من أسرة أخفقت في تربية أبنائها؛ لأن الأم لم تدرك مسؤوليتها تجاه أولادها، فأهملتهم، فكانوا شرّاً مستطيراً وعذاباً واصباً على والديهم وعلى المجتمع والناس.

ومـا كـان الأولاد ليكـونـوا شرّاً محضاً لو أن الوالدين، ولا سيما الأم، عرفا مسؤوليتهما إزاء أولادهما، وقاما بتبعات تلك المسؤولية خير قيام.

(١) انظر عدي بن زيد العبادي: الشاعر المبتكر للمؤلف: ١٧١، ١٧٢.

تَغرِسُ فيهمْ مَكارِمَ الأَخْلاقِ:

تحرص المرأة المسلمة الواعية على أن تغرس في نفوس أبنائها مكارم الأخلاق من حبّ للآخرين، وصلة للأرحام، وحَدَب على الضعفاء، واحترام للكبير، ورحمة بالصغير، وارتياح لفعل الخير، وصدق في القول والعمل، ووفاء بالوعد، وعدل في الحكم، وما إلى ذلك من غُرَر الأخلاق وحميد السجايا.

وإن المرأة المسلمة الحصيفة الذكية تعرف كيف تتسرب إلى كوامن نفوس أبنائها، وتغرس فيها هذه السجايا الغرّ والخلائق الحسان، مستخدمة في ذلك أبرع الأساليب وأذكاها، من قدوة مثلى محبّبة، وتبسّط ومخالطة وحسن معاملة، ورحمة ورفق وتعهّد وتواضع وسماحة وحب وحنو واهتمام وتشجيع، وعطف ومساواة وعدل ونصح وتسديد وإرشاد، في لين من غير ضعف، وشدة من غير عنف، ومناقشة ومحاسبة في غير إملال، وتغاضٍ عن بعض الهفوات في غير إخلال؛ وبذلك ينشأ الأولاد نشأة سويّة راشدة، مفتّحي العقول، ناضجي الأفكار، صالحين، أوفياء، بررة، قادرين على العطاء، مهيّئين للبناء والإعمار في شتى حقول الحياة. ولا بدع أن تثمر تربية الأم المسلمة أينع الثمرات؛ فهي المدرسة الأولى في تربية الشعوب، وهي الأستاذ الأول للعباقرة صانعي الحضارات، كما يقول الشاعر حافظ إبراهيم[1]:

الأُمُّ مَدرَسَةٌ إذا أَعدَدْتَها ... أَعدَدْتَ شَعْباً طَيِّبَ الأَعْراقِ
الأُمُّ أُستاذُ الأَساتِذةِ الأُلَى ... شَغَلَتْ مَآثِرُهُمْ مَدَى الآفاقِ

❑ ❑ ❑

(١) ديوان حافظ إبراهيم: ٢٨٢ ط دار الكتب المصرية.

٦

المرأة المسلمة مع كنائنها وأصهارها

أ ـ مع كَنائِنها

نظرتُها إلى كَنّتها:

تنظر المرأةُ المسلمةُ الواعيةُ هَدْيَ دينها، المتحلّيةُ بخلقه الرفيع، إلى كنّتها نظرتَها إلى ابنة من بناتها، ساقتها الأقدار لتكون زوجة لابنها، وفدت إلى الأسرة وأصبحت فرداً من أفرادها. كما تنظر الفتاةُ المسلمةُ المنشّأةُ على قِيَم الإسلام وأخلاقه إلى حماتها نظرتَها إلى أمها، بعد أن فارقت ديار والديها إلى دار الزوجية الجديدة.

تُحْسِنُ اختيارَها:

ولذلك تحرص كلٌّ منهما قبل الزواج على حسن الاختيار، وتتحرّى فيمن تقبل على مصاهرتهم أو مصاهرتهنّ الدينَ والخلقَ والتربيةَ القويمةَ والسمعة الحسنةَ.

إن المرأة المسلمة الحصيفة إذ تخطُبُ لابنها، وتفتش عن الفتاة اللائقة به، تضع في حسابها دوماً أنها ستضمّ إلى أسرتها بنتاً جديدة إلى بناتها، لها ما لهنّ من إعزاز وتقدير وودّ، وعليها ما عليهنّ من واجبات يَنْهَضْنَ بها في

محيط الأسرة الكبير، ولا تريد لكنّتها المقبلة في حياتها الزوجية إلاَّ النجاح والسعادة والاستقرار. ولذلك لا تستهويها في الفتيات المخطوبات المظاهرُ الخلّابةُ فحسب، من جمال وخفّة روح وجاذبية، بل تتطلب إلى جانب ذلك كلّه وقبلَه الدينَ القويمَ، والخلقَ الحسنَ، والشخصيّةَ المتزنةَ الرّزانَ، مستهدية في ذلك كلّه بهَدْي الرسول الكريم القائل:

«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَع: لِمالِها، ولِحَسَبِها، ولِجَمالِها، ولِدِينِها، فَاظْفَرْ بِذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ»[1].

تُقدِّرُ حقيقةَ وجودِها في بيتِ الزَّوْجيّة:

من هذه النظرة الراشدة السديدة للكنّة ووجودها في بيت الزوجية، ومن هذا التصور الحكيم لمكانة الكنّة بين أفراد الأسرة الجديدة التي ستفد إليها الكنّة، تنبثق المعاملة الحسنة من الحماة لكنّتها، ويسود العدل، ويغلب الإنصاف في المواقف والتصرفات والأعمال وردود الأفعال.

لا يخطر على بال الحماة المسلمة التقيّة المتشبّعة بأدب الإسلام وقِيَمه أن كنّتها خطفت منها ابنها الذي ربّته سنين طويلة، وأنفقت في تربيته والسهر عليه بياضَ أيامها وسوادَ لياليها، حتى إذا ما بلغ أَشُدَّهُ واستوى رجلاً قادراً على العطاء والبذل والتضحية، أخذت الزوجةُ بيده إلى عشّ الزوجية السعيد، حيث ينسى في جوّه الوريف العَطِر أمّه وما أنفقَتْ وما قدّمَتْ في تربيته وإعداده من جهود. لا يخطر هذا الخاطر الشيطاني للمرأة المسلمة الصالحة على بال؛ لأنها تدرك سنة الله في هذه الحياة، وتعلم أن ابنها الذي غذّته بِلِبان الإسلام منذ نعومة أظفاره لا يمكن أن تُنْسِيَه الزوجةُ الحسناءُ أمّه، كما

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٨/٩ كتاب النكاح: باب اختيار ذات الدين.

لا يمكن لكنّتها التي تخيّرتها من الفتيات المؤمنات الطيّبات أن ترضى لزوجها هذا النسيان الذي هو العقوق بعينه، وقد حرّمه الإسلام.

وإذا ما ساور الحماة شعور بالغَيْرة من كنّتها في لحظة من لحظات الضعف البشري، لاذت بدينها وتقواها وورعها، فانخلعت من هذا الشعور البغيض، وارتدّت إلى صحوة إيمانها وتقواها، وإلى نظرتها السديدة الراشدة لكنّتها، وهذا شأن الأتقياء من المؤمنين والمؤمنات، إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا، فإذا هم مبصرون الحقيقة الناصعة الراشدة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[١].

من هنا يقوم التوازن في حياة الأسرة بين الكنّة والحماة والزوج، وتسير الأمور في مجراها الطبيعي الهادىء الذي لا تتحكم فيه الأهواء والعواطف والشهوات والضلالات، بل يتحكم فيه الدين والعقل والحكمة والرشاد.

تَنْصَحُ ولا تَتَدَخَّلُ في الخُصوصِيّات:

إن المرأة المسلمة التقيّة الحصيفة لتضع في حسابها منذ اللحظة الأولى التي تُزَفُّ فيها كنّتُها إلى ابنها أنّ لكنّتها الحقَّ في أن تعيش حياتها الزوجية بكل أبعادها ومعانيها، ما دامت في نطاق الحلال، وفي الحدود المشروعة المباحة، وليس لأحد أن يتدخل في الخصوصيات بين الزوجين، إلاّ ما دعت إليه الحاجة والضرورة، على سبيل النصيحة المطلوبة من كل مسلم، عملاً بقول الرسول الكريم: «الدين النصيحة...»[٢].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٣٧ كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة.

وضابط هذا السلوك الحكيم عند الحماة المسلمة التقيّة: صنيعُها مع ابنتها، فكما أنها تريد لابنتها أن تعيش حياتها الزوجية بكل جوانبها هانئة سعيدة مستقلة راضية، لا ينغّص عيشها تدخّل مزعج في خصوصياتها، كذلك تريد لكنّتها ما تريد لابنتها من غير استثناء.

تَبَرُّها وتُحْسِنُ مُعامَلَتَها:

والحماة المسلمة الحصيفة تبرّ كنّتها وتكرمها وتحسن معاملتها، وتشعرها بحبها وتقديرها، وتستمع إلى ما تبدي من آراء، فتقرّ الصائب منها، وتشيد به وتشجع عليه، وتتلطّف في رد الخاطىء وتصحيحه، ورائدها في ذلك كله الإنصاف والعدل والإحسان، والحكم بما تحكم به على ابنتها لو كانت في مكان كنّتها، وأبدت أمها الرأي فيه، مستهدية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾[١].

ولا يفوتها أن تعبّر عن السعادة تغمر نفسها بين الحين والحين، إذ ترى ابنها سعيداً مع زوجته، مُضْفِيَةً بذلك على نفس ابنها وكنّتها أجمل المشاعر وأنبل الأحاسيس، كما لا يفوتها أن تحسب حساب كنّتها في المناسبات كما تفعل مع بناتها، فتصحبها معهنّ، وتشعرها أنها واحدة منهنّ، بل هي فرد حبيب من أفراد الأسرة منذ دخلت عشّ الزوجية واقترنت بابنها الحبيب.

بذلك تكون الحماة مُحَبَّبَةً إلى كنّتها؛ لأنها أثبتت أن كنّتها حبيبة إلى نفسها، على النقيض مما نرى في المجتمعات الجاهلية المتخلّفة الشاردة عن هَدْي الله من بغضاء وكيد وشحناء بين الحماة وكنّتها، حتى صارت تلك العداوة ظاهرة تقليدية حتمية، صيغت فيها أمثال، وغُنِّيَتْ فيها أغانٍ، وكأن

---

(١) الأحزاب: ٧٠.

العداوة بين الكنّة وحماتها عداوة تقليدية، لا فكاكَ منها، ولا مَعْدَى عنها. وما كان شيء من ذلك ليكون، لو أن كلاًّ من الحماة والكنّة أقرّت بحقّ كلّ منهما في الحياة كما رسمه الإسلام، ووقفت عند الحدّ الذي أمرها بالوقوف عنده. لهذا تلاشت تلك العداوة التقليدية بين الحماة وكنّتها في الأوساط والبيئات الإسلامية الواعية، المستمسكةِ بهدي دينها، الملتزمةِ بأحكامه وقِيَمه وأعرافه.

حَكيمةٌ عادِلةٌ في حُكْمِها على كَنَّتِها:

وقد تُبْتَلَى الحماةُ بكنّة على غير خلق حسن، بل قد تكون متصفة بشيء من الفظاظة وسوء المعاملة، وهنا تبرز الحاجة إلى حكمة الحماة وحنكتها بالدفع بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

ومن الدفع بالتي هي أحسن أن تزوي الحماة عن ابنها سلبيات كنّتها وأخطاءها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتنصحها على انفراد، مبينةً لها حرصَها على بقاء بيتها معموراً بالخير والودّ والعمل الصالح، وتستمر في نصحها حتى تتخلص من تلك السلبيات أو تتخفّف منها، وبذلك تحسّ الكنّة أن حماتها صديقة حميمة محبّة، وليست عدواً لدوداً متربصاً بها الدوائر.

وتلتزم الحماة المسلمة التقية الحكيمة العدلَ في حكمها بين كنّتها وابنها إذا رأت تجنّياً من ابنها على كنّتها؛ ذلك أن لها من تقواها وورعها ما يعصمها من الوقوف إلى جانب ابنها والتحيّز له على حساب الحق، فلا

---

(١) فصّلت: ٣٤، ٣٥.

تحابيه على ظلم، ولا تمالئه على باطل، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾(٢). والمرأة المسلمة الواعية الراشدة المتأمّلة هذا الهَدْي العظيم لا تقع في إثم الجور، ولا ترضى في حكمها إلاّ بالعدل، ولو كان الحكم لكنّتها على ابنها الحبيب.

ب ـ مع أَصْهَارِها

نَظْرَتُها إلى الصِّهْرِ:

لا تختلف نظرة الحماة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها إلى أصهارها عن نظرتها إلى كنائنها. فكما أنها تنظر إلى كنّتها نظرتَها إلى ابنتها، تنظر إلى صهرها نظرتَها إلى ابنها. وكما أنها تريد لابنها أن يكون من أحسن الناس، تريد أن يكون صهرها من أحسن الناس أيضاً.

تُحْسِنُ اخْتِيَاره:

ولذلك تحسن اختياره لابنتها، فلا ترضاه إلاّ من أصحاب الدين والخلق والسُّمعة العطرة، كما حضّ على ذلك الرسول الكريم بقوله: «إذا أتاكمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دينَه وخُلُقَهُ فزَوِّجوهُ، إلاّ تَفْعَلوا تكنْ فِتنةٌ في الأَرْضِ وفَسادٌ عَريضٌ»(٣). ولا يستهويها في خطيب ابنتها المظهرُ الأنيقُ أو المركزُ الرفيعُ

(١) الأنعام: ١٥٢.

(٢) النساء: ٥٨.

(٣) حديث حسن رواه الترمذي ٢/ ٢٧٤ أبواب النكاح: ٣، وابن ماجه ١/ ٦٣٣ كتاب النكاح: باب الأكفاء.

أو المالُ الغزيرُ فحسب؛ لأنها تدرك أنها ستضمّ بتزويجه ابنتَها ولداً إلى أولادها، تستأمنه على عرض ابنتها وحياتها وسعادتها. ولا يصون هذا كلّه ولا يرعاه إلاّ رجلٌ ذو خلق ودين وشرف ومروءة وقِيَم.

تُكْرِمُهُ وتَبَرُّهُ:

فلا بدع أن يكون صهرها موضع إكرامها وبرها وتقديرها، تشعره في كل مناسبة أنه أصبح فرداً من أفراد الأسرة منذ اقترانه بابنتها، تودّ له ولابنتها السعادة والتوفيق في دربهما الطويل، وأنه العزيز المؤتمن على العرض الغالي، والمؤمَّل المُرَجَّى لتحقيق ما تصبو إليه ابنتها من آمال عزيزة وأُمنيّات كبار، كما تشعره أنها أمٌّ ثانية له، لا تضنّ عليه بنصح، ولا تألو جهداً في توفير أسباب السعادة له ولزوجه وأولاده.

تُعِينُ ابنتَها على حُسْنِ تَبَعُّلِها زَوْجَها:

لا تكفّ المرأة المسلمة الحصيفة الواعية عن نصح ابنتها، وتزويدها بكل نافع لها في شؤون بيتها وزوجها وأولادها، فهي تفتّح عيني ابنتها دوماً على ما يسرّ زوجها ويسعده، وتشجعها على القيام بواجباتها الزوجية والأسرية على أحسن وجه، وإن رأت من ابنتها شيئاً من تقصير أو تراخٍ أو لا مبالاة، سارعت إلى نصحها وتسديدها ومساعدتها لتلافي ذلك التقصير، بحيث لا تترك لصهرها على ابنتها مأخذاً يهوّن من شأنها، أو يصغّرها في عينه. ولا تنسى أن تنوّه بين الحين والحين بمزايا وإيجابيات صهرها، تردّدها على مسامع ابنتها، لتزيدها التصاقاً به، وحباً له، ورضاً بما قسمه الله لها. وبذلك تكون خير معوان لابنتها على تماسك حياتها الزوجية واستمرارها وإشاعة السعادة في أجوائها.

عادِلةٌ لا تَتَحَيَّزُ لِابنتِها:

وتلتزم الحماة المسلمة العدل في مواقفها وأحكامها إن نَشِب خلاف أو سوء تفاهم بين ابنتها وزوجها، أو رأت من ابنتها تقصيراً مخلاًّ في حسن تبعّلها زوجَها، أو في قيامها بواجباتها المنزلية، أو في مراعاة رغبات الزوج المشروعة، فلا تتحيّز لابنتها، بل تنطق بكلمة الحق والعدل، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[١]. وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ . . . ﴾[٢].

وإن رأت من ابنتها ميلاً إلى الابتزاز والإسراف والإنفاق بغير حساب، ولم تُجْدِ نصيحتُها لابنتها، نطقت بكلمة الحق، مبينةً لابنتها خطأها، وتجاوزَها الحدّ المشروع الذي بيّنهُ الشرع الحنيف للإنفاق، مستهدية بقوله تعالى في وصف عباد الرحمن المهتدين المكرَّمين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ ﴾[٣].

وإذا ما رأت في شخصية ابنتها قوةً طاغية، وميلاً يتحيّف من كرامة الرجل وقوامتِه، سارعت إلى إفهام ابنتها بصريح العبارة: أن الرجال قوّامون على النساء، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[٤]، وأن القِوامة للرجل على المرأة لسببين جوهريين، لا ينبغي للمرأة أن تنساهما أبداً، وهما: الأفضلية

---

(١) الأنعام: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٧٠.

(٣) الفرقان: ٦٧.

(٤) النساء: ٣٤.

والإنفاق: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[(١)].

والحماة المسلمة الذكيّة اللبقة المستهدية بهَدْي دينها لا تفرّق في موقفها الحكيم العادل هذا بين ابنها وصهرها. فكما أنها تريد لابنها أن يحقّق قِوامته على زوجه، وتريد له أن يسيّر دَفَّةَ حياته الزوجية برجولة وحزم ومنطق وحكمة، تريد ذلك لصهرها أيضاً، ولو أصاب ابنتها منه شيء من شدّة؛ لأن منطق العدل والإنصاف يتطلب ذلك من كل امرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر.

وكما تأخذ الحماة المسلمة على كنّتها إسرافها، إن كانت مسرفة، رحمة بابنها وإشفاقاً عليه، تأخذ ذلك على ابنتها أيضاً، إن هي أسرفت، وجاوزت الحدّ، تحقيقاً للعدل والإنصاف، واتباعاً لهَدْي القرآن العظيم: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[(٢)].

حَكِيمَةٌ لَبِقَةٌ في مُواجَهَةِ المُشْكِلات:

وقد يكون الصهر ذا عقلية خاصة لا ترتاح لها الزوجة ولا الحماة، وذا مزاج خاص لا يلائم مزاجهما، ومن هنا يحصل التنافر والخلاف والشقاق. وواجب الحماة المسلمة المتزوّدة بهَدْي دينها في مثل هذه الحالة أن تحسن التّأنّي في مخاطبة صهرها، وتستخدم الحكمة في معاملته، وتكون لبقة حصيفة في الوصول إلى نفسيته وعقليته، ولا تيأس من بلوغ هدفها بشيء من الصبر والمثابرة وحسن التصرف.

وتحذر كل الحذر من تضخيم سلبيات صهرها لابنتها، بل تحاول أن تهوّن من شأنها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتسعى جاهدة في معالجة تلك

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

السلبيات بالوسائل المشروعة والأساليب الحكيمة، ما دامت تلك السلبيات لا تجرح شخصية الزوج في خلق ولا دين، ولا تستحق أن تكون سبباً في هدم صرح الحياة الزوجية.

وهكذا تكون الحماة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها خيراً وبركة على ابنتها وزوجها، ودعامة راسخة من دعائم الحياة الزوجية، تقدّم الدليل بعدلها وتقواها على أنها أم ثانية للزوج، وليست عدوة تقليدية للأزواج، كما يُشاع في بعض الأوساط الجاهلية المتخلّفة، ويتندّر المتندّرون بتلك العداوة الدائمة الأبدية المستحكمة، وما هي في الحقيقة إلاَّ نتيجةٌ لسوء تطبيق المسلمين لأحكام دينهم، وخلل في التزامهم بأخلاقه وقِيَمِه.

ولنا أن نتصور حجم السعادة الكبير الذي تحسّه الأسرتان لهذه الحماة المؤمنة التقيّة الدَّمِثَة الحصيفة، أسرةُ ولدها، وأسرةُ ابنتها، عندما تكون الحماة صديقة محبوبة للصهر وللكنّة على السواء، وانعكاس تلك المحبة على سعادة الأسرتين.

إنها بحكمتها وتقواها وعدلها ولباقتها وحسن معاملتها لصهرها ولكنّتها، أضفَتْ أجواء السعادة على حياة ابنتها وحياة ولدها، وحقَّقَتْ لأسرتيهما الصفاء والراحة والطمأنينة، وخصتهما بالنفع العميم الذي يعود على ابنها وابنتها قبل الكنّة والصهر.

فما أجملَ صنيعَ الحماة المؤمنة الذكية الفطِنة، وما أحوجَ أسرَ البنين والبنات إليها!!

❑ ❑ ❑

٧

المرأة المسلمة مع أقربائها وذوي رحمها

المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ والأَرْحام:

لا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها أن لِرَحِمها عليها حقاً، وأنها مطالبة بصلتهم وبرّهم والإحسان إليهم. والأرحام: هم الأقارب الذين يرتبطون مع الإنسان بنسب، سواءٌ أكانوا ممّن يرثونه أم ممّن لا يرثونه.

حَفاوَةُ الإِسْلامِ بالرَّحِم:

لقد حَفِيَ الإسلام بالرَّحِم حفاوة فريدة، ما عرفتها الإنسانية في غيره من الأديان والشرائع والنظم والفلسفات، فأوصى بها، ورغّب في صلتها، وشدّد النكير على مَنْ تنكّر لها وقطعها.

وتتجلّى حفاوة الإسلام البالغة بالرَّحِم في تلك الصورة الرائعة التي رسمها رسول الله ﷺ للرَّحِم، تقوم بين يدي الله في الساحة الكبيرة التي خلق الله فيها الخَلْق، فتستعيذ به من قطيعتها، ويجيبها المولى عز وجل إلى سُؤْلها، فيَصِل مَنْ وَصَلَها، ويقطع مَنْ قطعها، وذلك في الحديث الصحيح المتفق عليه الذي رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ تَعالى خَلَقَ الخَلْقَ، حتى إذا فَرَغَ منهمْ، قامَتِ الرَّحِمُ فقالَتْ: هذا مَقامُ العائِذِ بكَ من القَطِيعَة. قال: نعمْ، أَما تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأقطعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قالَتْ: بَلَى، قالَ: فَذلِكِ لَكِ». ثم قال رسولُ الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾»(١).

وتوالت آيات القرآن الكريم، تؤكد منزلة الرَّحِم في الإسلام، وتحضّ على الإحسان إليها، وتحذّر من الإساءة إليها، بخَدْشها أو مسّها بأذى، وتنمّي مشاعر الإحساس بوشائجها والقيام بحقها. ومن هذه الآيات قولُه تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾(٢).

فقد أمر بتقوى الله، وثنّى بالأرحام، إعظاماً لها، وتوكيداً لمكانتها وأهميتها، وحَضّاً على المبادرة إلى صلتها وبرّها.

ولكي يبقى ذكر الأرحام حيّاً طريّاً في شعور المسلم، أمر الله تعالى في كثير من الآيات بصلتها وبرّها والإحسان إليها بعد الإيمان بالله والإحسان بالوالدين:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾(٣).

ثم يقول بعد قليل:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٢٠ كتاب البر والصلة: باب ثواب صلة الرحم وإثم من قطعها.

(٢) النساء: ١.

(٣) الإسراء: ٢٣.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾(١).

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٢).

لقد جاءت مرتبة ذوي القربى في البرّ بعد الوالدين؛ إذ تدرّج التوجيه القرآني الحكيم من الأعلى إلى الأدنى، مبيناً سلّم العلاقات الإنسانية، محدّداً مراتبها، بدءاً من الوالدين، فذوي القربى، فاليتامى والمساكين وابن السبيل والجيران، إذ يمتدّ البرّ، ويتسع نطاقه، وينسحب خيره على الأقرب فالأقرب، حتى يصل إلى المحتاجين جميعاً في الأسرة الإنسانية الكبيرة، أخذاً بما تميل إليه النفس البشرية من البدء ببرّ مَنْ هو أقرب إليها، وعملاً بمنهج الإسلام في تنظيم المجتمع الإسلامي، إذ جعل التكافل الاجتماعي يبدأ من محيط الأسرة، ثم يمتد إلى دائرة الأقربين، ثم ينساح في محيط الجماعة في عفوية ويسر، محققاً التواصلَ والتعاطفَ والتراحمَ بين بني الإنسان، مشيعاً في الحياة البهجةَ والسرورَ والتفاؤلَ.

ولقد كان من حفاوة الإسلام بالرَّحِم أنه جعل صلتها من المبادىء الإسلامية الأولى والأصول الكبرى التي طلع بها هذا الدين على البشرية منذ اليوم الأول الذي صدع فيه رسول الله ﷺ بأمر ربه، مبيناً أسس هذا الدين الجديد، موضحاً معالمه، إذ جعلها من أبرز هذه المعالم وأوضحها في شريعته الغراء، نجد ذلك في حديث أبـي سفيان الطويل مع هرقل، حين سأل

---

(١) الإسراء: ٢٦.

(٢) النساء: ٣٦.

أبا سفيان: فماذا يأمُركمْ نَبِيُّكُمْ؟ فأجابَهُ: يقولُ: «اعبُدوا اللَّهَ وحدَهُ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، واترُكوا ما يقولُ آباؤُكُمْ، ويأمُرُنا بِالصَّلاةِ، والصِّدْقِ، والعَفافِ، والصِّلَةِ»(١).

فقد جاءت صلة الرَّحِم في عداد المعالم الكبرى لهذا الدين الحنيف، من توحيد لله، وإقامة للصلاة، وتمسك بالصدق والعفاف. ومن هنا كانت صلة الرَّحِم من أبرز مميّزات هذا الدين التي عرضها أبو سفيان على أسماع هرقل الذي سأل عن الإسلام لأول مرة، مستفهماً عن أهم ما جاء به.

وفي حديث عمرو بن عَبَسَة الطويل المشتمل على جملة من قواعد الإسلام وآدابه، قالَ فيه: دخلتُ على النبيِّ ﷺ بمكَّةَ، يعني في أولِ النُّبوّةِ، فقلتُ له: ما أنتَ؟ قال: «نَبِيٌّ». فقلت: وما نَبِيٌّ؟ قال: «أَرْسَلَني اللَّهُ»، فقلت: بِأَيِّ شيءٍ أَرْسَلَكَ؟ قالَ: «أَرْسَلَني بِصِلَةِ الأَرْحامِ، وكَسْرِ الأَوْثانِ، وأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ...»(٢).

وواضح أن الرسول الكريم في شرحه الموجز لأهم مبادىء الإسلام وقواعده في هذا الحديث قدّم صلة الأرحام، فذكرها في طليعة تلك المبادىء والقواعد، لما لها من منزلة كبيرة ومكانة عالية في منهج هذا الدين الذي أنزله الله رحمة للعالمين.

ومن هنا جاءت النصوص مستفيضة متتابعة تحضّ على صلة الرَّحِم، وتوصي بها، وترغّب فيها، وتحذّر من قطيعتها، وتتوعد جافيها.

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٥١ باب الصدق.

(٢) صحيح مسلم ٦/١١٥ كتاب صلاة المسافرين: باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها.

فعن أبي أيوب الأنصاري أن رجلاً قالَ: يا رسولَ اللَّهِ، أَخْبِرْني بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجَنَّةَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «تعبدُ اللَّهَ ولا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ»(١).

فما أعظمَ صلة الرَّحِم! وما أثقلَها في ميزان أعمال الإنسان! إنها لتأتي مع عبادة الله وتوحيده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في سياق واحد؛ فهي إذاً من أجلّ الأعمال الصالحات التي تدخل صاحبها الجنة، وتقيه من النار.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ لهُ في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٢).

إنها إذاً بركة على واصل الرَّحِم في رزقه، وبركة عليه في عمره، تزيد في ماله وتنمّيه، وتنسأ في أجله وتبارك فيه.

وكان ابن عمر يقول: «مَنِ اتَّقَى رَبَّهُ، وَوَصَلَ رَحِمَهُ، نُسِيءَ في أَجَلِهِ، وثَرَى مالُهُ، وأَحَبَّهُ أَهْلُهُ»(٣).

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة أن صلة الرَّحِم مطلوبة من المرأة كما هي مطلوبة من الرجل على السواء، وأن الخطاب فيها موجه للإنسان المسلم، سواءٌ أكان رجلاً أم امرأة، شأن التكاليف الشرعية العامة جميعاً. ومن هنا فإن المرأة المسلمة التقية تقبل على صلة الرحم بصدق وجدّ وحرارة، لا تصرفها عنها الشواغل والأعباء والمسؤوليات، مهما كانت كثيرة.

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٩٥ باب بر الوالدين وصلة الأرحام.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/١٩ كتاب البر والصلة: باب ثواب صلة الرحم.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/١٤٠ باب من وصل رحمه أحبه الله.

إن المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها لتدرك أن صلة المرأة رَحِمَها تكون بركةً عليها في رزقها وعمرها، ورحمةً لها من الله تتغشّاها في دنياها وأخراها، ومَجْلَبَةً لمحبّة الناس لها والثناء عليها، وبالمقابل تكون قطيعتُها رَحِمَها شؤماً عليها وبلاءً ومقتاً لها من الله والناس، وبُعْداً لها عن الجنة في دار القرار. وحسبها أن تسمع قول الرسول ﷺ في كل قاطع رَحِم: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قاطعُ رَحِمٍ»[١].

وحسبها أن تعلم أن رحمة الله تحتجب عن قاطع الرَّحِم، فلا تتنزّل عليه، بل لا تتنزّل على قوم فيهم قاطع رَحِم، كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد[٢]:

«إنَّ الرَّحْمَةَ لا تَنزل على قَوْم فيهمْ قاطعُ رَحِمٍ».

ولهذا كان الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه لا يرضى أن يدعو الله في مجلس فيه قاطع رَحِم؛ لأنه يحول دون نزول الرحمة واستجابة الدعاء؛ فقد قال في أحد مجالسه عشيّةَ يوم خميس، ليلة الجمعة: أُحَرِّجُ[٣] على كل قاطع رحم لَما قام من عندنا، فلم يقم أحد، حتى قال ثلاثاً. فأتى فتىً عمةً له قد صَرَمَها منذ سنتين، فدخل عليها، فقالت له يا ابن أخي، ما جاء بك؟ قال: سمعتُ أبا هريرة يقول: كذا وكذا، قالت: ارجع إليه فسَلْهُ: لِمَ قال ذاك؟ قال سمعت النبي ﷺ يقول:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/٢٦، كتاب البر والصلة: باب ثواب صلة الرحم وإثم من قطعها.

(٢) ١/ ١٤٤ باب لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم.

(٣) أي أُضَيِّقُ وأُصِرُّ.

«إنَّ أعمالَ بني آدمَ تُعْرَضُ على اللَّهِ تَباركَ وتعَالى عَشِيَّةَ كُلِّ يومِ خَميسٍ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، فلا يُقْبَلُ عَمَلُ قاطِعِ رَحِمٍ»(١).

إن المرأة المسلمة التي أرهفت تعاليم الإسلام أحاسيسها، وجعلتها تتطلّع إلى الصالحات من الأعمال، لَتهزُّها هذه النصوص من أعماقها، وتبرز لها فظاعة قطيعة الرَّحِم، إذ تُحْجَبُ عن قاطعة الرَّحِم الرحمةُ، ويُرَدُّ الدعاءُ، ويُحْبَط العملُ. وإنه لَبلاءٌ كبيرٌ يحيق بقاطعة الرحم، تدعو فلا يُستجاب لها دعاء، وتعمل فلا يُرفَع لها عمل، وتفيء إلى رحمة ربّها فتبتعد عنها. ومن هنا لا يمكن أن تكون المرأة المسلمة التي خالطت بشاشةُ الإسلام قلبَها قاطعةَ رَحِم.

إن قطيعة الرحم ذنب لا تبوء بإثمه امرأة آمنت بالله واليوم الآخر، وتفتّحت نفسُها على الهداية الربانية، وأنست روحُها بحلاوة الطاعة لله، بل إنها لتتحاشى من الارتكاس فيه، وخصوصاً إذا علمت أن قطيعة الرَّحِم من الذنوب التي يعجّل الله بها العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف:

«ما مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَر أنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصاحِبِهِ العُقوبَةَ في الدُّنْيا ــ معَ ما يَدَّخِرُ لَهُ في الآخِرةِ ــ مِنْ البغي وقَطِيعةِ الرَّحِمِ»(٢).

ذلك أن قطيعة الرحم والبغي صنوان، ولذلك جمع بينهما رسول الله ﷺ في حديثه، مؤكداً الصلة الوشيجة بين قطيعة الرَّحِم والظلم، ولعمري إن قطيعة الرحم لَظُلْمٌ عظيم، وأي ظلم أشدّ من تقطيع وشائج القربى، وفصم عرى المحبة، وقطع حبل الودّ؟

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١٤٢ باب بر الأقرب فالأقرب.

(٢) رواه أحمد ٥/ ٣٨، وابن ماجه ٢/ ٣٧ كتاب الزهد: باب البغي، بإسناد صحيح.

ولقد صوّر رسول الله ﷺ الرَّحِمَ شاكيةً إلى الله من الظلم والقطيعة، يقعان عليها، فيجيبها الله إلى سُؤْلها، ويصل مَنْ وَصَلَها، ويقطع مَنْ قَطَعَها:

«إنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ[١] مِنَ الرَّحْمن، تقولُ: يا رَبِّ، إنّي ظُلِمْتُ، يا رَبِّ، إنّي قُطِعْتُ، يا رَبِّ، إنّي... فَيُجِيبُها: ألا تَرْضَيْنَ أنْ أقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ وأَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ؟»[٢] وفي حديث آخر قدسي يعلي رسول الله ﷺ من شأن الرَّحِم، إذ يخبر أن الله تعالى اشتقّ اسمها من اسمه، وفي هذا الاشتقاق تشريف لها وتكريم وتعظيم:

«أَنا الرَّحْمنُ، وأَنا خَلَقْتُ الرَّحِمَ، واشْتَقَقْتُ لَها مِنْ اسْمي. فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَها بَتَتُّهُ»[٣].

إن في تلك النصوص لَتأكيداتٍ قاطعةً بأنّ واصلَ الرَّحِم سعيدٌ محبوبٌ مكرَّمٌ، ينعم برضوان ربه ورحمته، وأنّ قاطعَها شقيٌّ نَحِسٌ مُهانٌ مَبْتوتٌ عن رحمة ربه، محروم من مغفرته ورضوانه.

المرأةُ المسلمةُ تَصِلُ رَحِمها حَسَبَ هَدْي الإسلامِ:

لا تغفل المرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها عن صلة الرَّحِم، بل هي دائمة الصلة بهم، لا تلهيها عن تلك الصلة شواغل الأمومة وأعباء البيت والزوج، وهي إذ ترتّب أوقاتها لزيارة رَحِمها تتبع هَدْي الإسلام في تقديم الأقرب فالأقرب، فتبدأ بصلة الأم، ثم الأب، ثم الأقرب فالأقرب، كما يُرْشِد إلى ذلك الهَدْي النبوي الشريف؛ فقد جاء رجل إلى النبـي ﷺ، فقال:

---

(١) أي قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١٤٦ باب إثم قاطع الرحم.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١٣٢ باب فضل صلة الرحم.

يا رسول الله، مَنْ أحقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قالَ: «أمُّكَ، ثم أُمُّكَ، ثم أُمُّكَ، ثم أَبوكَ، ثم أَدْناكَ أَدْناكَ[١]»[٢].

وإن للمرأة المسلمة في برّها ذوي قرباها وصلتهم لأَجْرَيْنِ، أجرَ القرابة، وأجرَ الصدقة، إذا كانت من أهل اليسار والغنى، وأمدّتهم بالمال إن كانوا بحاجة إليه، وبذلك تغنم الأجرين عند الله تعالى، وتخفق قلوب أرحامها بحبّها والدعاء لها، وهذا ما حبّب به الإسلام، ودعا إليه الرسول ﷺ في الحديث الذي روته زينب الثقفيّة امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«تَصَدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النِّساءِ ولَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ». قالت: فرجعتُ إلى عبدِ الله بـن مَسْعـود فقلـتُ لـهُ: إنّـكَ رجـلٌ خَفيـفُ ذاتِ اليـد[٣]، وإنَّ رسول الله ﷺ قَدْ أمَرَنا بالصَّدَقةِ، فأْتِهِ فَاسْأَلْهُ، فإنْ كانَ ذلكَ يُجْزِىءُ عنّي[٤]. وإلاّ صَرفتُها إلى غيرِكمْ، فقال عبدُ اللَّهِ: بَلِ ائْتِيهِ أنتِ، فانطلقتُ، فإذا امرأةٌ من الأنصار ببابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، حاجَتي حاجَتُها، وكانَ رسولُ الله ﷺ قَدْ أُلْقِيَتْ عليهِ المهَابةُ، فَخَرَج علينا بِلالٌ، فقُلْنا لهُ: ائْتِ رسولَ الله ﷺ فَأَخْبِرْهُ أنّ امْرأتَيْنِ بالبابِ تَسْأَلانِكَ: أَتُجزِىءُ الصَّدَقَةُ عَنْهما على أَزْواجِهما وعلى أَيْتامٍ في حُجُورِهِما[٥]؟ ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ، فَدَخَلَ بلالٌ على رسولِ الله ﷺ، فسأَلَهُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ هُما؟» قالَ: امرأةٌ مِنَ الأنْصارِ وزَيْنَبُ.

---

(١) أي الأقرب إليك فالأقرب.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٨٩ باب بر الوالدين وصلة الأرحام.

(٣) أي قليل المال.

(٤) أي دفع الصدقة لكم.

(٥) أي في ولايتهما.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أيُّ الزَّيانِبِ هيَ؟» قالَ: امرأةُ عبدِ الله، فقال رضي الله عنه: «لَهُما أَجْرانِ، أَجْرُ القَرابَةِ وأَجْرُ الصَّدَقَةِ»(١).

ويقولُ الرَّسولُ ﷺ: «الصَّدَقَةُ على المِسْكين صَدَقَةٌ، وعلى ذي الرَّحِمِ ثِنْتانِ: صَدَقَةٌ وصِلَةٌ»(٢).

وفي صحيح البخاري أن ميمونة بنت أم الحارث أمّ المؤمنين رضي الله عنها أخبرَت النبيَّ ﷺ أنّها أعتقَتْ وليدةً ولم تَسْتَأْذِنْهُ. فلمّا كانَ يومُها الذي يدورُ عليها فيهِ قالَتْ: أَشَعَرْتَ يا رسولَ اللّهِ أنّني أعتقتُ وَليدتي؟ قالَ: «أَوَ فَعَلْتِ؟» قالَتْ: نعَمْ، قالَ: «أَما إنّكِ لَوْ أَعْطَيْتِها أَخْوالَكِ كانَ أعظمَ لِأَجْرِكِ»(٣).

لقد كان الرسول ﷺ يؤكد أفضلية برّ الأقربين في كل فرصة تسنح، وفي كل مناسبة تمرّ. فلما نزلت الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٤)، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنّ أحبَّ ما لي إليَّ بَيْرَحاءُ(٥)، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برَّها وذُخْرَها عند الله، فضَعْها يا رسولَ اللّهِ حيث أراكَ اللّهُ، فقال رسول الله ﷺ: «بَخٍ(٦)، ذلكَ مالٌ رابحٌ، ذلكَ مالٌ رابحٌ!

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/١٨٧ كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة على الأولاد والأقارب.

(٢) رواه الترمذي ٢/ ٨٤ أبواب الزكاة: ٢٦، وقال: حديث حسن.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/١٩٥ كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة على الأولاد والأقارب.

(٤) آل عمران: ٩٢.

(٥) بَيْرَحاء: حديقة نخل.

(٦) بَخٍ: كلمة تقال للإعجاب بالأمر وتفخيمه.

وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنّي أَرَى أن تجعلَها في الأَقرَبينَ»، فقالَ أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمَها أبو طلحة في أقارِبِه وبَني عمِّه»[1].

وأوغل رسول الله ﷺ في قلب الزمن، موصياً بالرَّحِم المتحدّرة عَبْرَ القرون والآماد، حينما أوصى بشعب مصر في الحديث الذي رواه مسلم:

«إنَّكُمْ سَتَفْتَحونَ مِصْرَ، وهي أَرْضٌ يُسَمَّى فيها القِيراطُ، فإذا فَتَحْتُمُوها فأَحْسِنوا إلى أَهْلِها، فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً، أو قال: ذِمَّةً وصِهْراً»[2]. وقال العلماء في شرحهم: الرَّحِمُ التي لهم: كون هاجر أم إسماعيل منهم. والصهر: كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله منهم.

فيا لَوفاءِ النبوّة الكبير! وبِرِّها الواسع الوَدود! ويا لَنداها الإنساني يمتد ويتسع حتى يشمل الذراري المتحدّرة من هاتين الرَّحِمَيْنِ الكريمتين على كرّ السنين والأحقاب!

إن المرأة المسلمة إذ تسمع هذا الهَدْي النبوي العالي، لا يسعها إلاّ أن تقبل على أرحامها، فتمنحهم ودّها الخالص، وصلتها الدائمة، وبرّها الموصول.

تَصِلُ أَرْحامَها ولَوْ كانوا غيرَ مُسْلِمينَ:

وتنظر المرأة المسلمة في هَدْي دينها، فتراه يسمو في سماحته وإنسانيته، فيوصي بصلة الرَّحِم، ولو كان الأرحام من غير المسلمين! ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سرّ يقول:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/١٨٩ كتاب الزكاة: باب فضل الصدقة على الأقارب.

(٢) صحيح مسلم ١٦/٩٧ كتاب فضائل الصحابة: باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر.

«إنّ آلَ أبـي فُلانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيائي، إنّما ولِيِّـي اللَّهُ وصالِـحُ المُؤْمِنينَ، ولكنْ لهمْ رَحِمٌ أَبُلُّها بِبِلالِها[١]»[٢].

ولما نزل قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾[٣]، دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعَمّ وخصَّ، فقال: «يا بَني كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، أَنقِذوا أنفسَكمْ مِنَ النّار، يا بَني مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنقِذوا أنفسَكمْ مِنَ النّارِ، يا بني عبدِ شمس، أَنقِذوا أنفسَكمْ مِنَ النّارِ، يا بَني عبدِ مَنافٍ، أَنقِذوا أنفسَكمْ مِنَ النّارِ، يا بَني هاشِم، أَنقِذوا أنفسَكمْ مِنَ النّار، يا بَني عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَنقِذوا أنفسَكمْ مِنَ النّارِ، يا فاطمةُ، أَنقِذي نفسَكِ مِنَ النّارِ؛ فإنّي لا أملكُ لكمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، غير أنّ لكمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها»[٤].

ولقد سرى هذا الهَدْي النبوي العالي إلى مسامع المسلمين والمسلمات في الصدر الأول، وفعل فعله في نفوسهم، فكانوا يبرّون أرحامهم وذوي قرباهم من غير المسلمين. ومن شواهد ذلك ما رواه ابن عبد البرّ في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة أن جارية لصفية أم المؤمنين أتت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود. فبعث عمر إلى صفية يسألها عن ذلك، فأجابت: «أمّا السبتُ فإني لم أحبّه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأمّا اليهود فإن لي فيهم رَحِماً فأنا أَصِلُها». ثم انثنت إلى جاريتها فسألتها عمّا حملها على مثل ذلك

---

(١) أي أَصِلُها بالمعروف اللائق بها. والبِلال: الماء، شبه صلة الأرحام بالنداوة والريّ.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/٢٩ كتاب البر والصلة: باب ثواب صلة الرحم.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) صحيح مسلم ٣/٧٩ كتاب الإيمان: باب من مات على الكفر لا تلحقه الشفاعة.

الافتراء، فأجابت الجارية: الشيطان! وكان ردّ صفيّة: اذهبي فأنتِ حرّة[١].

ولم يجد عمر رضي الله عنه حَرَجاً من أن يُهدي حُلّةً بعث بها إليه الرسول ﷺ إلى أخ له من أمه مشرك[٢].

ومن هنا ترى المرأة المسلمة أن ندى العاطفة الإنسانية لا ينقطع من قلب إنسان نطق بالشهادتين، بل تتسرب منه إلى ذي القربى بَلّةٌ من ريّ البرّ والصلة والإحسان، ولو كانوا على غير دين الإسلام. ولقد جاء تعبير الرسول الكريم ﷺ: «غيرَ أنّ لكمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبلالِها» في قمة البلاغة العربية، إذ شبه الرحم بالأرض، تندى بالصلة والبرّ، فتثمر الحب والتعاطف. وتجفّ بالقطيعة والهجران، فتنبت البغضاء والتجافي. والإنسان المسلم الحق آلف مألوف محبوب من الناس جميعاً؛ لأنهم يرون فيه تجسيداً لمكارم الأخلاق ورفيع الشمائل والصفات.

لقد حضّ الإسلام على برّ الوالدين، ولو كانا مشركَيْن، وها هوذا يحضّ على برّ ذوي القربى، ولو كانوا غير مسلمين أيضاً، انطلاقاً من السماحة والإنسانية والرحمة التي جاء هذا الدين بها للناس جميعاً:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٣].

تَفْهَمُ صِلَةَ الرَّحِمِ بِمَعْناها الواسِعِ:

تتعدّد وجوه صلة الرحم عند المرأة المسلمة، وتتسع مجالاتها، وتتنوع أساليبها وأشكالها؛ فتارة تكون بالمال الذي يدفع الفاقة، ويسدّ الخَلّة،

---

(١) الاستيعاب ٤/ ١٨٧٢، وابن حجر في الإصابة ٨/ ١٢٧.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٤١٤ كتاب الأدب: باب صلة الأخ المشرك.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

وينفّس الكرب، وتارة تكون بالزيارة الوَدود التي توطّد أواصر القربى، وتفجّر ينابيع المحبة والمودّة، وتارة تكون بالكلمة الطيبة والبسمة الحانية واللقاء الحسن، وتارة تكون بالنصيحة والعطف والإيثار، وتكون في غير ذلك من أعمال البرّ والخير والتعاطف التي تذكي العاطفة الإنسانية، وتنمّي مشاعر الألفة والتراحم والتكافل والحب والوداد بين ذوي الرَّحِم والقربى.

ولهذا جاء التوجيه النبوي العالي حاضّاً على استمرار هذه الصلة، ولو كانت في أبسط أشكالها وأقلّها كلفة ومؤونة:

«بُلُّوا أَرْحامَكُمْ ولَوْ بِالسَّلامِ»(١).

تَصِلُ رَحِمَها وإنْ لَمْ يَصِلوها:

والمرأة المسلمة التي ارتوت روحها من هَدْي دينها الحق تصل أرحامها، ولو قطعوها، ولا تعاملهم بالمثل، تصلهم إن وصلوها، وتقطعهم إن قطعوها؛ ذلك أن المرأةَ المسلمةَ واصلةَ الرحم، إنما تبتغي بصلتها أرحامَها وجهَ الله عز وجل ومثوبته، ولا تريد على صلتها مكافأة بالمثل، ولا مبادلة بالصلة، وبذلك تضرب بفعلها وخلقها المثل الأعلى في الخلق الإنساني الرفيع الذي يحرص الإسلام دوماً على تأصيله في نفوس المسلمين والمسلمات. وإنه لَمُرْتَقىً عالٍ صعبٌ إلاَّ على الذين هدى الله وانقادت نفوسهم إلى مرضاته عز وجل. والمرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها من هذا النمط العالي من النساء الراقيات الساميات الحريصات على حسن التعامل مع الأقارب والأرحام، عملاً بقول الرسول ﷺ:

---

(١) رواه البزّار عن ابن عباس كما في كشف الأستار للهيثمي ٢/ ٣٧٣، وطرقه يقوّي بعضها بعضاً كما في المقاصد الحسنة للسخاوي: ١٤٦.

ليسَ الواصِلُ بِالمُكافِىءِ، ولكنّ الواصِلَ الذي إذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها»[١].

هذا هو الخلق الإنساني الرفيع الذي يريد الإسلامُ أن يسموَ إليه المسلمون والمسلمات في التعامل مع الأقارب والأرحام. ولهذا جاء الهَدْي النبويّ يعزّز فيهم خلق الحلم والصبر والعفو والتسامح، وخصوصاً في نفس واصل الرَّحِم الذي يصل قرابته، ولا يجد منهم إلاّ القطيعة والنّفور والإعراض والجفاء والإساءة، فيقرر أنّ الله مع مَنْ يصل الرَّحِم فلا يُجازَى على صلته بمثلها، ويرسم صورة مخيفة للعقوبة التي تلحق الجفاة القساة الغلاظ المتنكّرين لوشيجة القربى، المقطّعين للأرحام؛ فقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابةً أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأَحْلُمُ عنهم ويجهلون عليّ، فقال:

«لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فكأنّما تُسِفُّهُمُ المَلّ[٢]، ولا يَزالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عليهِمْ ما دُمْتَ على ذلكَ»[٣].

فيا لَلرَّحِمِ! ما أَثْقَلَ صِلَتَها في ميزان العبد المؤمن! وما أشقى المتنكّرين والمتنكّرات لها! القاطعين والقاطعات حبلَ ودّها! وما أعظمَ ثواب الواصِلَةِ رَحِمَها، الصابرةِ على جفاء ذوي قرباها وقطيعتهم! حتى إن الله لَيمدُّها بِظَهيرٍ من عنده يعينها عليهم، ويملأ قلبها بالصبر على أذاهم، ويثبتها

---

(١) فتح الباري ١٠/٤٢٣ كتاب الأدب: باب ليس الواصل بالمكافىء.

(٢) أي الرماد الحار.

(٣) صحيح مسلم ١٦/١١٥ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم التحاسد والتباغض.

على الاستمرار في خلقها الإنساني النبيل. وما أشدّ الإثم الذي يلحق قاطعي الرَّحِم والقاطعات! إذ مثّله الرسول ﷺ بما يلحق آكل الرماد الحار، جزاء قطيعة الرحم في حق مَنْ وَصَلَها من المسلمين والمسلمات!

من هنا كانت المرأة المسلمة الصادقة واصلة رَحِمَها على كل حال، لا تقطعهم وإن قطعوها، مبتغيةً بذلك مرضاةَ ربها، مترفّعةً عن الجهالات والحماقات والإساءات، تبدر بين الحين والحين من بعض ذوي القربى، معرضةً عن الصغائر التي تشغل الصغار من الناس، وتوغر منهم الصدور، موقنةً بأنها أكبر من أن تهبط إلى مستوى الصغائر والتفاهات والجهالات والحماقات التي تحبط العمل، وتؤثر في صفاء العلاقة بين ذوي القربى والأرحام، وما كان لها أن تسفّ إلى هذا الدَّرْك، وهي تصغي إلى قول الرسول ﷺ.

«الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تقولُ: مَنْ وَصَلَني وَصَلَهُ اللَّهُ، ومَنْ قَطَعني قَطَعَهُ اللَّهُ»[1].

❑ ❑ ❑

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٩١ باب بر الوالدين وصلة الأرحام.

٨

المرأة المسلمة مع جيرانها

المُسْلِمَةُ مُحْسِنَةٌ وَدُودٌ لِجيرانِها :

من خلائق المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها، والمتمسكة بعروته الوثقى، الإحسانُ إلى جيرانها، والبرّ بهم، والاهتمام بأمرهم.

متمثّلة هَدْي الإسلام في الوصية بالجيران :

ذلك أن المرأة المسلمة الراشدة تعي هَدْي الإسلام العالي في حضّه الجار وتوصيته الشديدة بالجار، حتى إنه أحلّه مكانة ما عرفتها الإنسانية في سلّم العلاقات البشرية إلاّ في هذا الدين الإنساني السمح المعطاء.

لقد جاء أمر الله تعالى في محكم كتابه صريحاً حارّاً بالإحسان إلى الجار:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ... ﴾[١].

---

(١) النساء: ٣٦.

والجار ذو القربى هو الذي تجمعك به مع الجوار آصرة النسب أو الدين، والجار الجُنُب هو الذي لا تجمعك به صلة من نسب أو دين، والصاحب بالجَنْب هو الرفيق في أمر حسن.

ومن هنا كان كل مَنْ جاور الإنسان المسلم له عليه حق الجوار، ولو لم يكن بينهما وشيجة من نسب، أو رابطة من دين، وفي هذا تكريم للجار، وإعلاء لعلاقة الجوار في شرعة الإسلام السمحة الغراء.

ولقد جاءت أحاديث الرسول ﷺ تترى مؤكدة هذه القِيَم الإنسانية العليا في علاقة الجوار، إذ توصي بالجار غير ناظرة إلى قرابته أو دينه:

«ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظَنَنْتُ أنّه سَيُوَرِّثُهُ»(١).

إنها المنزلة العالية الفريدة التي عرفها الجار في شرعة الإسلام، يؤصّلها جبريل الروح الأمين لرسول الله ﷺ، ويؤكّدها في عديد من المرات، حتى إن الرسول الكريم ﷺ حسب أن توصيات الروح الأمين بالجار سترفعه إلى مرتبة القرابة، وتجعله وارثاً مثلهم.

وإزاء توصية جبريل المتكررة بالجار لهج رسول الله ﷺ بالحضّ على الإحسان بالجار، فكان يأمر به في كل مناسبة تمر. ولمّا وقف ليلقي خطبته التاريخية الجامعة في حجة الوداع كان للجار فيها نصيب. ونحن إذا علمنا أن رسول الله ﷺ اعتصر في خطبته العظيمة هذه كل ما كان يحرص على قوله للمسلمين، إذ أحسّ صلوات الله عليه أنها آخر خطبة له في هذا الموقف العظيم، إذا علمنا ذلك كله أدركنا أهمية الإحسان إلى الجار. وقد لاحظ

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٧١ كتاب البر والصلة: باب حق الجار.

الصحابي الجليل أبو أمامة رضي الله عنه حفاوة رسول الله ﷺ بالجار في خطبة حجة الوداع، فحسب أيضاً أنه سيورّثه، وذلك في قوله:

«سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ، وهو على ناقتِه الجَدْعاءِ في حِجَّة الوَداعِ، يقولُ: أُوصيكُمْ بالجارِ حتى أكثرَ، فقلتُ: إنهُ يُورِّثُهُ»[١].

وكان رسول الله ﷺ يستجيش مشاعر الصحابة أحياناً في الحضّ على العمل الصالح، فيصدّر موعظته بقوله: «مَنْ كانَ يؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيفعلْ كذا وَلْيفعَلْ كذا...»، ويكرر هذه العبارة المثيرة آمراً بمعروف، أو حاضاً على مكرمة من المكارم. ومن الأحاديث التي سلك فيها هذا الأسلوب المؤثّر قوله:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ، ومَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومن كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ»[٢].

وفي رواية للبخاري: «مَنْ كانَ يؤْمنُ باللّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ...»[٣].

فقد أوصى بالإحسان إلى الجار في صدر الحديث الشريف، وجعل هذا الإحسان علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، وثمرة يانعة من ثمراته الحسان.

---

(١) رواه الطبراني بإسناد جيد. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٦٥.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٨٥ باب في حق الجار والوصية به.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٤٤٥ كتاب الأدب: باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

تُحِبُّ لِجيرانِها ما تُحِبُّ لِنَفْسِها:

والمرأة المسلمة التي تفتّحت نفسها على الهداية الربانية رقيقة القلب، سمحة النفس، دمثة الطبع، محبّة لجيرانها، مرهفة الحسّ في كل ما يؤذيهم أو يخدش كرامتهم أو يمسّهم بسوء أو أذى، تحب لهم الخير كما تحبه لنفسها، تفرح لفرحهم، وتألم لألمهم، انطلاقاً من فهمها لقول الرسول ﷺ:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١).

وفي رواية لمسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: «والّذي نَفْسي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حتّى يُحِبَّ لِجارِهِ أو قالَ لأَخيهِ ما يحبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة الواعية أن تتعهد جيرانها المعسرين بين الفَيْنة والفَيْنة، بالعطاء والهدية والهبة، أو كلما انبعثت روائح الطبخ والشواء من منزلها، فتقدّر شهوتهم إلى الطعام الشهيّ، وهم مملقون غير قادرين على حيازة مثله، فترسل إليهم منه، مؤكّدة التكافل الاجتماعي الذي حضّ عليه رسول الله ﷺ في حديثه لأبي ذر:

«يا أبا ذَرّ، إذا طبختَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ ماءَها، وتَعاهَدْ جِيرانَكَ»(٣).

وفي رواية: «إذا طبختَ مَرَقاً فَأَكْثِرْ ماءَهُ، ثمّ انظُرْ أهلَ بيتٍ من جيرانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْها بِمَعْروفٍ»(٤).

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٦٠ كتاب البر والصلة: باب حق الجار.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٧ كتاب الإيمان: باب من خصال الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

(٣) صحيح مسلم ٦/ ١٧٧ كتاب الأدب: باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

(٤) صحيح مسلم ٦/ ١٧٧ كتاب الأدب: باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

إن المرأة المسلمة التي أرهف الإسلام وجدانها لا تطيق أن ترى جيرانها في فاقَة وعُسْر وحِرْمان، فلا تمدّ لهم يداً بمعروف، أو تقدّم لهم شيئاً من رفد وإكرام وإطعام، وخصوصاً إذا كانت في شيء من السَّعة واليسار والغنى، تستمتع بما أنعم الله عليها من خفض العيش ورغد الحياة، وتسمع في الوقت نفسه قولَ الرسول الكريم:

«ما آمَنَ بـي مَنْ باتَ شَبْعانَ، وجارُهُ جائِـعٌ إلى جَنْبِهِ، وهُوَ يَعْلَمُ»(١).

وقولَهُ: «ليسَ المُؤْمِنُ الذي يَشْبَعُ، وجارُهُ جائِـعٌ»(٢).

تُحْسِنُ إلى جِيرانِها على قَدْرِ طاقَتِها:

لا تستقل المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها معروفاً تسديه إلى جارتها، بل تقدّم إليها ما تستطيع من معروف مهما قلّ، ولا يمنعها خجلها أو حبّها للتكاثر والتفاخر أن تمسك عن تقديم القليل الذي في حوزتها، بدعوى أنه غير لائق فتحجبه عن جارتها ريثما يتسنى لها تقديم الكثير اللاّئق، فتحرم بذلك نفسها وجارتها من الخير المتاح، في انتظار الكثير المنتظَر المأمول، وقد لا يتيسر لها ذلك الكثير، وتضيع عليها فرصة فعل الخير، وهذا ما نبّه إليه الرسولُ الكريم ﷺ النساءَ على وجه الخصوص، فقال:

«يا نِساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها، ولَوْ فِرْسِنَ شاةٍ»(٣).

وفِرْسِنُ الشّاةِ: ظِلْفها، وهو كناية عن القلّة، أي لا تحقرنّ جارةٌ أسدت إلى جارتها شيئاً من معروف، ولو كان قليلاً كفِرْسِنِ شاةٍ، فهو خير من

(١) رواه الطبراني والبزّار بإسناد حسن. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٦٧.

(٢) رواه الطبراني وأبو يعلى، ورواته ثقات. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٦٧.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤١ كتاب الزكاة: باب التصدق بالشيء اليسير.

العدم، والله تعالى يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾[١]. وقال رسول الله ﷺ: «اتَّقوا النَّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فإنْ لَمْ تَجِدُوا فبكلمةٍ طَيِّبةٍ»[٢]

على أن هذا الحديث الشريف، بما أفاد سياقُه من عموم، يحتمل أن يكون نهياً للجارة المُعطاة أيضاً عن الاحتقار، ويكون معناه عندئذٍ: لا تحقرنَّ جارةٌ معروفاً أسدته إليها جارتُها، ولو كان هذا المعروف قليلاً كفِرْسِنِ شاة، بل ينبغي أن تشكرها عليه، فبالشكر على المعروف تشيع الألفة بين الجيران، وتنمو المودّة، ويربو التكافل والتراحم في حياتهم، هذا إلى ما في شكر الإنسان على المعروف من خلق إسلامي أصيل، أكّده رسول الله ﷺ وحضّ عليه بقوله:

«لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النّاسَ»[٣].

لقد أراد الإسلام أن يشيع التوادد والتحابب والتعاطف بين الجيران، وسبل الإنسان إلى هذا التوادد والتحابب والتعاطف كثيرة، ومنها التّهادي، ولذلك نهى رسول الله ﷺ المرأة خاصة عن احتقار الهدية لجارتها أو من جارتها مهما صغرت، لأن للمرأة حساسية في مثل هذه المواقف والمناسبات، قد تؤثر في نفسيتها ومشاعرها نحو جارتها، لافتاً نظر المرأة المسلمة إلى أن المهمّ في الهدية المعنى الإنساني النبيل الذي يكمن وراء الهدية، لا في ثمن الهدية الماديّ، وما ينبغي للمرأة المسلمة الواعية أن تغفل عن هذا المعنى الإنساني، فتستصغر الهدية المقدَّمة منها إلى جارتها، أو من جارتها إليها؛ لأن المعنويات في نظر الإسلام مقدَّمة على الماديّات.

---

(١) الزلزلة: ٧.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤٠ كتاب الزكاة: باب التصدق بالشيء اليسير.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣١٠ باب من لم يشكر الناس.

تَخُصُّ بِإِحْسانِها جيرانَها ولَوْ كانوا مِنْ غيرِ المُسْلِمينَ :

وتتسع دائرة الإحسان إلى الجيران عند المرأة المسلمة، فلا تقتصر على الجيران الأقربين منهم أو من المسلمين، بل تتعدّاهم إلى جيرانها من غير المسلمين، تمشّياً مع هَدْي الإسلام العظيم وسماحته وتوصيته وبرّه بالنّاس جميعاً، على اختلاف أديانهم ونحلهم، ما لم يبدر منهم أذىً على المسلمين أو اعتداء:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾[١].

ومن هذا المنطلق الإنساني الرحيب كان الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو إذا ذُبِحَتْ له شاةٌ سأل غلامه: «أهديتَ لجارنا اليهوديّ؟ أهديتَ لجارنا اليهوديّ؟ فإني سمعت رسول الله [redacted] يقول: «ما زالَ جِبْريلُ يُوصيني بالجارِ حتّى ظَنَنْتُ أنّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[٢].

ألا ما أوسعَ رحمةَ الإسلام بالناس! وما أرفقه بالرعايا الذين يعيشون في كنفه وتحت ظلاله الوارفة الآمنة! إن التاريخ ليشهد أن أهل الكتاب عاشوا في جوار المسلمين في كثير من بقاع الإسلام آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومعتقداتهم، ينعمون بحسن الجوار، وكرم المعاملة، وحرية العقيدة، وكنائسهم قائمة منذ أقدم العصور في قرى مسلمة معلّقة فوق رؤوس الجبال، وحولها آلاف المسلمين يحيطون جيرانهم من أهل الكتاب بالرعاية والحماية والبرّ والعدل وحسن الجوار.

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٧١ كتاب البر والصلة: باب حق الجار.

تُقَدِّمُ في إحْسانِها لِجيرانِها الأَقْرَبَ فالأَقْرَبَ:

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها التنظيمُ الدقيقُ الذي وضعه الإسلام في الإحسان إلى الجيران، إذ أوصى بتقديم الإحسان إلى الأقرب فالأقرب، مراعياً قوّة العلاقة بين الجارين المتلاصقين، وما يكون بينهما عادةً من حساسيات يجدر مراعاتها، استبقاءً للألفة والمودة والوئام

فعن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنّ لي جارَيْنِ، فإلى أيِّهما أُهْدي؟ قالَ: «إلى أَقْرَبِهما باباً»[1].

على أن هذا التصنيف في الإحسان للجيران لا يعني أن تصرف المرأةُ المسلمةُ نظرَها عن الاهتمام بالجيران الأبعدين والإحسان إليهم، فكل مَنْ كان في دائرة بيتها من الجارات الصالحات داخل في ذمة الجوار، ولهنّ عليها حق الجوار، وما ذلك التصنيف المذكور آنفاً في تقديم الجار الأقرب إلاّ تصنيف تنظيمي، راعى فيه الرسول الكريم نفسية الجيران الأقربين، لما يكون في العادة بين الجارين المتقاربين من اتصال واحتكاك وتعامل وألفة وتوادّ.

المُسْلِمَةُ الصَّادِقَةُ خيرُ جارَةٍ:

لا بدع أن تكون المسلمة الصادقة المستنيرة بهَدْي دينها خير جارة في المجتمع، ذلك أن الإحسان إلى الجيران خلق إسلامي أصيل عميق في وجدان المرأة المسلمة التي تربَّتْ على أخلاق الإسلام الغرّ وشمائله الحسان، التي تعدّ الجارةَ الأكثرَ إحساناً لجارتها خيرَ الجيران عند الله:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١٩٨/١ باب تهدي إلى أقربهم باباً.

«خَيْرُ الأَصْحابِ عندَ اللَّهِ خيرُهمْ لِصاحِبِهِ، وخيرُ الجِيرانِ عندَ اللَّهِ خيرُهمْ لِجارِهِ»(١).

وأكّد الهَدْيِ النبوي أن الجِيرة الصالحة ركن من أركان سعادة الإنسان المسلم في الحياة؛ لما تضمن للجار من قرّة عين وهناءة وارتياح وأمن وطمأنينة:

«مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ المُسْلِمِ في الدُّنْيا الجارُ الصّالحُ، والمنزلُ الواسِعُ، والمركبُ الهَنيءُ»(٢).

ولقد كان السلف الصالح يقدّرون قيمة الجوار الصالح، ويعدّونه من النعم التي لا تقدّر بمال، ومن الغنائم التي لا يَعْدِلُها عَرَضٌ من أعراض الحياة الدنيا، يشهد لذلك ما حكاه التاريخ من أن جار سعيد بن العاص ساوم على مئة ألف درهم في داره، ثم قال للمشتري: هذا ثمن الدار، وبكم تشتري جوار سعيد؟ فلما علم سعيد بذلك بعث إليه بالثمن واستبقاه في داره.

هذه هي الصفحة الوضيئة المشرقة للجارة الصالحة، فما هي صفحة جارة السوء؟

جارَةُ السُّوءِ وصَفْحَتُها السَّوْداءُ:

تؤكد النصوص الصحيحة أن صفحة جارة السوء قاتمة كابية كالحة معتمة، لا تستطيع المرأة المسلمة التقيّة المرهفة أن تتملاها دون أن تهتزّ

---

(١) رواه الترمذي بإسناد صحيح ٣/٢٢٤ أبواب البر والصلة: باب ما جاء في حق الجوار.

(٢) رواه الحاكم بإسناد صحيح ٤/١٦٦ في كتاب البر والصلة.

نفسُها فَرَقاً، وتمتلىء رعباً من مصير جارة السوء، ودون أن تُفعَمَ مشاعرُها بمزيج من الازدراء والمقت والكراهية لها والنفور منها.

جارَةُ السُّوءِ عُرِّيَتْ مِنْ نِعْمَةِ الإِيمانِ:

وحسبها شقاءً ومَقتاً ونحساً أنها عُرِّيَتْ من نعمة الإيمان، أكبر النعم وأجلّها في حياة الإنسان. وقد أكّد رسول الله ﷺ انسلاخ هذه النعمة عن كل إنسان دأب على الإساءة إلى جواره حتى عُدَّ من جيران السُّوء، تأكيداً قاطعاً لا هوادة فيه ولا لين ولا تراجع، إذ أقسم بالله ثلاث مرات مؤكداً انسلاخ الإيمان عنه:

«واللّـهِ لا يُـؤْمِـنُ، واللّـهِ لا يُـؤْمِـنُ، واللّـهِ لا يُـؤْمِـنُ، قيـلَ: مَـنْ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: «الّذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ[(١)]»[(٢)].

وفي رواية لمسلم: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ»[(٣)].

فما أكبَرها جريمةً! وما أعظمَهُ إثماً! يرتكس فيه الإنسان إذ يُسيءُ إلى جاره، فينسلخُ من نعمة الإيمان، ويُحْرَمُ من دخول الجنان!!!

إن المرأة المسلمة الصادقة النقيّة السريرة لتَتملّى هذه النصوص وما تلقيه في الذهن من أحكام صارمة، وما تخلعه في النفس من ظلال قاتمة، تحيط بجارة السّوء، فلا يخطر لها على بال أن تسيء إلى جيرانها، مهما تكن الظروف والأحوال؛ ذلك أن الإساءة إلى جاراتها والدخول معهنّ في كيد ومكر وشحناء وخصام، ليس من الذنوب الصغيرة والهفوات الطفيفة، بل هو

---

(١) البوائق: الغوائل والشرور.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٨٥ باب في حق الجار والوصية به.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٧ كتاب الإيمان: باب بيان تحريم إيذاء الجار.

من الذنوب الكبيرة التي تطيح بالإيمان، وتهدّد مصيرها في الآخرة، وهل بعد فقدان الإيمان وخسارة الآخرة من مصيبة ينهلع لها قلب المرأة المسلمة، وترتعش نفسها، ويهتزّ كيانها؟

جارَةُ السُّوءِ امرأةٌ حَبِطَ عملُها:

وإذا كانت جارة السُّوء قد فقدت الإيمان كما في الحديث السالف الذكر، فإنها امرأة حَبِطَ عملُها كلُّه، فما تنفعها بعد اليوم طاعةٌ تقوم بها، ولا يُرْفَعُ لها عملٌ صالح، ما دامَتْ مُصِرَّةً على إيذاء جيرانها؛ ذلك أن الأعمال الصالحات ترتكز في أصلها على الإيمان بالله، والإيمانُ بالله ليس كلمة طائرة يلغو بها اللسان وإنما هو تنفيذ دقيق لما يريده الله من عباده. فإذا ما فقدت جارة السوء إيمانها باستمرارها وإصرارها على إيذاء جيرانها، فلا تطمع بعد ذلك أن يتقبّل الله منها عملاً صالحاً مهما بلغ، بل يمحقه ولا يبقي له أثراً، ولو أفنَتْ فيه بياضَ أيامها وسوادَ لياليها.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فلانةً تقومُ الليلَ، وتصومُ النهارَ، وتفعلُ، وتَصَدَّقُ، وتؤذي جيرانَها بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: «لا خيرَ فيها، هيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» قالوا: وفُلانةٌ تصلّي المكتوبةَ، وتَصَدَّقُ بأثْوارٍ[١] ولا تُؤْذي أَحَداً، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[٢].

ووصف رسول الله ﷺ جار السُّوء بأنه من العواقر التي حدّدها بقوله:

«ثَلاثةٌ من العَواقِرِ: إمامٌ إنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَشْكُرْ، وإنْ أَسأْتَ لَمْ يَغْفِرْ، وجارُ سُوءٍ إنْ رأَى خَيْراً دَفَنَهُ، وإنْ رَأَى شَرّاً أَذاعَهُ، وامْرَأَةٌ إنْ حَضَرْتَ

---

(١) الأثوار: جمع ثور، وهي قطعة من اللبن الجامد المستحجر.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٢١٠ باب لا يؤذي جاره.

آذَتْكَ، وإنْ غِبْتَ عَنْها خانَتْكَ»[١].

وهكذا تتوالى النصوص ترسم الصورة البشعة لجارة السُّوء التي تشمئز منها نفس المرأة المسلمة الصافية، فإذا هي حذرة واعية من الوقوع في إثم الإساءة للجوار، وإذا هي بعيدة جدّ بعيدة عن أن تكون يوماً جارةَ سُوء، تستعر بينها وبين جاراتها خصومة، أو يقوم بينها وبينهنّ عداوة، أو ينشأ حَسَد، أو يستشري كيد؛ ذلك أن تحذير الرسول الكريم من أذى الجيران بخصومة أو كيد لا يبرح سمعها، ولا يغيب عنها كلما استطار شرر الغضب والشقاق والمنازعة بين الجيران:

«أوّلُ خَصْمَيْنِ يومَ القيامَةِ جارانِ»[٢].

لا تُقَصِّرُ المسلمةُ في إسْداءِ المَعْروفِ إلى جيرانِها:

ولا تكتفي المرأة المسلمة التقيّة بالكفّ عن إيذاء جاراتها، بل تبادر دوماً إلى إسداء المعروف إليهنّ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فتفتح لهنّ أبواب البرّ والخير والمعروف على مصاريعها، وتحاذر من التقصير في حقهنّ كلما دعا الداعي إلى رعايتهنّ وإكرامهنّ والإحسان إليهنّ، خشية أن يصدق عليها ما بيّنه رسول الله ﷺ في شأن الجار الشانىء الكَنود الكزّ قليل المعروف في قوله:

«كَمْ مِنْ جارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجارِهِ يومَ القِيامةِ، يقولُ: يا رَبِّ، هذا أغلقَ بابَهُ دُوني، فَمَنَعَ مَعْروفَهُ»[٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ١٨/ ٢٦٧، ورجاله ثقات.

(٢) رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٢٠٠ باب من أغلق الباب على الجار.

فيا لَسوءِ العاقبة! ويا لَخسارةِ الجار الممسك الضنين بمعروفه على جاره! ويا لَخَيْبَتِهِ يوم يقوم الناس لرب العالمين!.

إن المسلمين والمسلمات في نظر الإسلام بناء سامق متراصّ، لَبِناتُه أبناء هذه الأمة، وكل لَبِنة ينبغي أن تكون متينة متماسكة، شديدة الارتباط باللَّبِنات الأخرى، ليتوافر للبناء تماسكه وقوته وصموده، وإلاَّ فإنه يتعرض للوهن والتداعي والانهيار.

ومن ثَمَّ أحاط الإسلام لَبِناته برباط وثيق من الزاد الروحي، يحفظ تماسكها وتساندَها ومقاومتَها، ليبقى بناء المسلمين قوياً، لا تزعزعه عوارض الأحداث، ولا يهزّ من كيانه عاتي الأعاصير.

وما أروع التمثيل النبوي لتماسك المسلمين والمسلمات وتكافلهم وتساندهم في قول الرسول الكريم:

«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»[١].

وقوله:

«مَثَلُ المُؤْمِنينَ في تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ، إذا اشْتَكى منهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[٢].

إن ديناً يحرص على تماسك أفراد الأمة هذا التماسك العجيب لَبَدَهِيٌّ أن يوثِّق علاقة الجار بجاره، ويقيمَها على أساس ثابت ركين من المودّة والبرّ والتكافل وحسن المعاملة.

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤٧/١٣ كتاب البر والصلة: باب تعاون المؤمنين وتراحمهم.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤٦/١٣ كتاب البر والصلة: باب تعاون المؤمنين وتراحمهم.

تَصْبِرُ على هَنَاتِ جاراتِها وأَذاهُنَّ:

لا غروَ أن تكون المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها صابرة على أذى جاراتها، لا تقابل سيئتهنّ بمثلها، ولا تستشيط غضباً إن بدرَتْ منهنّ هَنَةٌ من الهَنات، ولا تحصي عليهنّ زلاّتهنّ وتقصيراتهنّ وأخطاءهنّ، بل تأخذ نفسها بالعفو والتسامح، محتسبة صبرَها وعفوَها ومسامحتَها عند الله، واثقةً أن موقفها المتسامح النبيل هذا لن يضيع عند الله، بل إنه ليكسبها محبّته ورضوانه، يشهد لذلك الحديث الذي رواه أبو ذرّ حين لقيه مطرِّف بن عبد الله، فقال له:

«يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديثُك، وكنت أشتهي لقاءَك. قال: لله تبارك وتعالى أبوك! قد لقيتَني. قلتُ: حديثاً بلغني أن رسول الله ﷺ حَدَّثَكَ، قال: «إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُحِبُّ ثَلاثَةً ويُبْغِضُ ثَلاثَةً». قال: فما إخالُني أكذبُ على رسول الله ﷺ، قلتُ: فمَنْ هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عزّ وجلّ؟

قال: «رجلٌ غَزا في سبيل اللَّهِ صابِراً مُحْتَسِباً، فقاتَلَ حتى قُتِلَ، وأنتمْ تَجدونَهُ عندكمْ في كتابِ اللَّهِ عزّ وجلّ، ثم تلا: «إن الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص». قلتُ: ومَنْ؟ قال: «رجلٌ كانَ له جارُ سُوءٍ يُؤْذِيهِ، فَصَبَرَ على أذاهُ حتّى يَكْفِيَهُ اللَّهُ إيّاهُ بحياةٍ أو مَوْتٍ. . .»[(١)].

إن من خلائق المرأة المسلمة التي هذّب الإسلام نفسها وأرهف مشاعرها الصبرَ على أذى جاراتها، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ودفعَ أذاهنّ بالتي هي أحسن، وهي بصبرها وسلوكها الراشد هذا تضرب لهنّ المثل الأعلى في حسن معاملة الجار، وتقتلع من نفوسهنّ ما ترسّب فيها من

---

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد صحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٧١.

جذور السوء وكدر الضغينة وسخائم الشحناء، وفوق هذا كله تمثل هَدْي النبي ﷺ القائل:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليومِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ...»[(١)].

ألا فَلْتَسْمَعِ الجاراتُ من بعض النسوة اللواتي يفقدنَ صوابهنّ إذا تشاجر ولد من أولادهنّ مع ابن للجيران، فإذا هنّ يغمضنَ أعينهنّ ويقذفن جاراتهنّ بنابي الكلام ولواذع القول وموجع الشتيمة، ضارباتٍ بوشائج الجوار عرض الحائط، مقطّعات أواصر المودّة والعشرة والتقارب في لحظة غضب، لِتَسْمَعْ هؤلاء أنهنّ خالَفْنَ هَدْي الإسلام في معاملة الجيران، ورضين لأنفسهنّ أن يكنّ من جارات السوء.

وَلْتَقَرَّ أعينُ الجارات المهذّبات المتحلّيات بالصبر والحلم والأناة والرزانة وحسن التصرّف، اللّواتي لم يقابلن إساءات جاراتهنّ بمثلها، بأنهنّ من الجارات الصالحات اللواتي رضي الله عن سلوكهنّ الراشد الحكيم.

❑ ❑ ❑

---

(١) فتح الباري ١٠/٤٤٥ كتاب الأدب: باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

٩

المرأة المسلمة مع أخواتها وصديقاتها

تُحِبُّهُنَّ وتُؤاخِيهنَّ في اللَّهِ:

تتميّز صِلات المرأة المسلمة الصادقة وعلاقاتها بأخواتها وصديقاتها عن غيرها من النساء في علاقاتهنّ الاجتماعية وصِلاتهنّ. إنها لتبني صِلاتها وعلاقاتها بأخواتها على أساس من التآخي في الله. وهذا التآخي في الله، أسمى رباط يربط بين إنسان وإنسان، رجلاً كان أو امرأة. إنه رباط الإيمان بالله الذي عقده الله بين المؤمنين كافة بقوله:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1].

وأخوّة الإيمان أمتن روابط القلوب، وأوثق عرى النفوس، وأعلى صِلات العقول والأرواح.

فلا بدع أن نرى الأخوات المتآخيات في الله على صلة وثيقة دائمة وطيدة، قائمة على الحب في الله، وهو الحب الأسمى والأطهر والأنقى في حياة البشر. إنه الحب المجرد عن كل منفعة، البريء من أي غرض، النقي

(١) الحجرات: ١٠.

من كل شائبة؛ لأنه يستمد صفاءه وشفافيته ونقاءه من مشكاة الوحي وهَدْي النبوة، وهو الحب الطاهر الذي يجد فيه المسلمون والمسلمات حلاوة الإيمان:

«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه مِمّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ لِلَّهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يعودَ في الكُفْرِ بعدَ أن أَنْقَذَهُ اللَّهُ منهُ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النّارِ»[1].

مَنْزِلَةُ المُتَحابّاتِ في اللَّهِ:

وقد جاءت النصوص الصحيحة غزيرة متتابعة غنيّة، تُعْلي من شأن المتحابين في الله، رجالاً كانوا أو نساءً، وتصوّر منزلتهم العظيمة، ومقامهم الكريم، والشرف الرفيع الذي يسبغه الله عليهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وحسب المتحابين والمتحابات في الله شرفاً وعزة ورفعة وتكريماً أن ربّ العزة يحفِلُ بهم يوم يقوم الأشهاد، فينادي:

«أينَ المُتَحابّونَ بِجلالي؟ اليومَ أُظِلُّهمْ في ظِلّي يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلّي»[2].

فما أعظمَه من شرف! وما أعزَّها من منزلة! وما أرفعَه من تكريم! يلقاه المتحابّون والمتحابّات في الله يوم الهول والشدّة والكرب العظيم.

ذلك أن الحب المجرد النظيف النقي الخالص الذي يخفق به قلب

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/٤٩ كتاب الإيمان: باب حلاوة الإيمان.

(٢) صحيح مسلم ١٦/١٢٣ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الحب في الله.

الإنسان نحو أخيه الإنسان، لا يبتغي به إلاّ وجه الله، مرتقى عسير صعب، لا يبلغه إلاّ من صفت نفوسهم، وطهرت أرواحهم، وهانت عليهم الدنيا وما فيها من متاع، فارتفعوا عن جواذب الحياة المادية وشهواتها ومتعها ومنافعها، وآثروا ما عند الله من نعيم مقيم، ورضوان منه أكبر. فلا غرو أن يرفع الله هذا النمط الفذّ من البشر إلى أعلى المراتب، ويعدّ لهم من المنزلة والنعيم ما يليق بسموّهم وارتفاعهم وتجرّدهم لله عز وجل، نجد ذلك في الحديث الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: المُتحَابّونَ في جَلالي لهمْ مَنابِرُ مِنْ نورٍ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيّونَ والشُّهداءُ»(١).

بل لا غرو أن يحبو الله هؤلاء العباد المكرمين ما هو أجل وأعظم وأسمى من تلك المنزلة وذلك النعيم، يحبوهم حبَّه الغالي العزيز الذي تتقطّع دونه أعناق البشر، وتنتهي عنده معسولات أمانيهم في الدنيا والآخرة، وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنّ رجلاً زارَ أخاً لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ تَعالى على مَدْرَجَتِهِ(٢) مَلَكاً، فلمّا أَتَى عليهِ قالَ: أينَ تُريدُ؟ قالَ: أُريدُ أَخاً لي في هذهِ القَرْيَةِ، قالَ: هَلْ لَكَ عليهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها(٣) عليهِ؟ قالَ: لا، غيرَ أنّي أَحْبَبْتُهُ في اللَّهِ تَعالَى، قالَ: فإنّي رسولُ اللَّهِ إليكَ بأنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كمَا أَحْبَبْتَهُ فيهِ»(٤).

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٢٤ باب ما جاء في الحب في الله، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أي على طريقه.

(٣) أي تقوم بها.

(٤) صحيح مسلم ١٦/ ١٢٤ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الحب في الله.

فما أبركه من حب على الإنسان! يرفعه إلى الدرجة التي يستحق فيها محبة الله ورضوانه!

ولقد كان رسول الله ﷺ يدرك ما لهذا الحب الطاهر النقي من أثر كبير في تقوية المجتمعات الإنسانية وتساميها وإسعادها، فكان لا يدع مناسبة تمرّ إلاّ ويحضّ المسلمين على التحابب والتقارب والتصافي، ويأمرهم أن يعلنوا هذا التحابب، لتنفتح مغاليق القلوب، وتشيع المودّة والألفة والصفاء في النفوس:

فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمرّ به رجل، فقال: يا رسولَ الله، إني لأُحِبُّ هذا، فقال له النبيُّ ﷺ: «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قالَ: لا، قالَ: «أَعْلِمْهُ»، فلحقَهُ فقالَ: إنّي لأُحِبُّكَ في الله، فقالَ: أحبَّكَ اللَّهُ الذي أَحْبَبْتَني لَهُ»[1].

وكان رسول الله ﷺ يفعل هذا بنفسه أيضاً، معلّماً المسلمين كيف يبنون مجتمع المحبّة والتآخي والصفاء، فقد أخذ يوماً بيد معاذ، وقال: يا مُعاذُ، واللَّهِ إنّي لأُحِبُّكَ، ثم أُوصيكَ يا مُعاذُ: لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تقولُ: اللّهمّ أعنّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ»[2].

وقد انطلق معاذ ينشر شذى هذا الحب الطاهر بين المسلمين في ديار الإسلام، فيحدّثهم بما سمع من رسول الله ﷺ عما أعدّه الله للمتحابّين فيه من ثواب جزل، ومحبة منه أكبر؛ فقد روى الإمام مالك في موطَّئه بإسناده الصحيح عن أبي إدريس الخولاني، قال: «دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فإذا فَتًى

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح ٤/ ٤٥٢ كتاب الأدب: باب إخبار الرجل بمحبته إليه.

(٢) رواه أحمد ٥/ ٢٤٥ بإسناد صحيح.

برّاقُ الثّنايا[١]، وإذا النّاسُ مَعَهُ، فإذا اختَلَفوا في شَيْءٍ أَسْنَدوهُ إليه، وصَدَروا عَنْ رَأْيِه، فَسَأَلْتُ عنهُ، فقِيلَ: هذا مُعاذُ بنُ جَبَلٍ رضيَ اللّهُ عنه، فلمّا كانَ مِنَ الغَدِ هَجّرْتُ[٢]، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَني بِالتَّهْجير، وَوَجَدْتُهُ يُصلّي، فَانتَظَرْتُهُ حتّى قَضى صَلاتَهُ، ثمّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عليه، ثمّ قلتُ: وَاللّهِ إنّي لأُحِبُّكَ، فقالَ: آللّهِ؟ فقلتُ: أَللّهِ، فقالَ: آللّهِ؟ فقلتُ: أَللّهِ، فَأَخَذَني بِحَبْوَةِ ردائي، فَجَذَبَني إِلَيْهِ، فقالَ: أَبْشِرْ، فَإِنّي: سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «قالَ اللّهُ تعالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَحابِّينَ فِيَّ، والمُجالِسين فِيَّ، والمُتَزاوِرينَ فِيَّ، والمُتَباذِلينَ فِيَّ»[٣].

تَأْثيرُ الحُبِّ في اللّهِ في حَياةِ المُسْلِمينَ والمُسْلِماتِ:

لقد جاء الإسلام ليبني المجتمع الأمثل القائم على المحبة والتآخي والتناصح، فكان لا بد من زرع المحبّة في قلوب الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع، ولذلك جعل هذه المحبة بين المؤمنين وبين المؤمنات شرطاً من شروط الإيمان الذي به يدخلون الجنة، وذلك فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

«والّذي نَفْسي بِيَدِهِ لا تَدْخُلون الجَنّةَ حتّى تُؤْمِنوا، ولا تُؤْمِنوا حتّى تَحابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُموهُ تَحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»[٤].

---

(١) أي أبيض الثغر حسن المبسم.

(٢) أي بكّرت.

(٣) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٥٣ كتاب الشعر: باب ما جاء في المتحابين في الله.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٣٥ كتاب الإيمان: باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلاّ المؤمنون.

إنها النظرة النبوية الصائبة الثاقبة، المدركة أنه لا يستلّ سخائم الحقد من النفوس، ولا يغسل أدران التنافس والحسد من الصدور إلاّ أخوّة صادقة نبيلة عالية، تسود حياة المسلمين والمسلمات وتملؤها بالمحبة والتوادّ والتناصح والتآلف والتصافي، وتنقّيها من الكراهية والتنابذ والغش والغل والحقد والحسد، والسبيل إلى ذلك كله إفشاء السلام، ليكون مفتاح القلوب إلى الألفة والبرّ والمحبة والصفاء.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ يكرر هذا المعنى على الأسماع، متوخياً إلقاءَ بذرة المحبة في القلوب، وتَعَهُّدَها بالرعاية، حتى تثمر ذلك الحب الكبير النقيّ الوضيء الذي يريده الإسلام دوماً للمسلمين والمسلمات.

بهذه المحبّة النقيّة الناصعة بنى رسول الله ﷺ نفوس جيل الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات، فكانوا بحق القاعدة الصّلبة التي قام عليها صرح الإسلام الشامخ، وكانوا النجوم المتلألئة في سماء البشرية الداكن، التي أضاءت الطريق للأمم والشعوب.

وبهذه المحبة الصافية الصادقة استطاع رسول الله ﷺ أن يبني المجتمع الإنساني الأمثل القائم على أخوّة الإيمان، فكان أعجوبة في صلابته وصموده وتحمّله تبعات الجهاد وتقديم التضحيات، لنشر الإسلام وتركيز أعلامه في الخافقين، كما كان أعجوبة في تماسكه وتسانده وتكافله الذي صوره رسول الله ﷺ أروع تصوير بقوله:

«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»[١].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/٤٧ كتاب البر والصلة: باب تعاون المؤمنين وتراحمهم.

وبقوله أيضاً:

«مَثَلُ المُؤْمِنينَ في تَوادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسدِ، إذا اشْتَكَى منهُ عُضْوٌ تَداعَى لهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهرِ والحُمَّى»(١).

وقد شاركت المرأة المسلمة في أيامها الأولى وعبر تاريخها الطويل في بناء ذلك الصرح الشامخ للإسلام على أساس من أخوّة الإيمان، ولا تزال تشارك في ذلك البناء المبارك، بنشر أنداء المحبة في الله، وإشاعة شذاها العطر في المجتمعات الإسلامية، فتقبل على أخواتها وصديقاتها بقلبها ومشاعرها، فتوطّد أواصر الأخوّة في الله، وتوثّق عرى المحبة فيه.

لا تُقاطِعُ أَخَواتِها ولا تَهْجُرُهُنَّ:

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أحكام دينها أن الإسلام الذي حضّ على التآخي والتحابب والتعاطف، هو هو الذي حرّم التقاطع والتدابر والهجر، وأكّد أن الهنوات العارضات لا تفرّق بين المتحابّتين الصادقتين في الله؛ ذلك أن عروة المحبة في الله أشدّ وأقوى وأوثق من أن تنفصم من أول ذنب تقترفه إحداهما، يشهد لذلك قول الرسول ﷺ:

«ما تَوادَّ اثْنانِ في اللَّهِ جَلَّ وعَزَّ، أو في الإسْلامِ، فَيُفَرِّقُ بينهما أولُ ذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُما»(٢).

وقد تعصف بنفس المرأة نزوة غضب في لحظات الضعف البشري، فتسيء الأخت إلى أختها، وقد يؤدي بينهما الغضب والانفعال إلى

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤٦/١٣ كتاب البر والصلة: باب تعاون المؤمنين وتراحمهم.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٤٩٣/١ باب هجرة المسلم.

المقاطعة، وهنا ينبغي ألا يغيب عن بال المرأة المسلمة أن هَدْي الإسلام لم يغفل طبيعة النفس البشرية، وأنها عرضة للانفعال ولنزوات العاطفة وتقلباتها، ولذلك وضع حداً للمدّة التي يمكن للنفس الإنسانية أن تهدأ فيها ثائرة الانفعال ويسكت صوت الغضب، وقدّرها بثلاثة أيام، وحرّم على المتنازعَتَيْنِ أن تمضي هذه الأيام الثلاثة، ولا تسارعان إلى المصالحة والتصافي والوئام، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، يَلْتَقِيانِ، فَيُعْرِضُ هذا، ويُعْرِضُ هذا، وخَيْرُهُما الّذي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ»[١].

وواضح أن كلمة (مسلم) تشمل الرجل والمرأة على السواء، في مثل هذه النصوص التكليفيّة التشريعية التي تنظّم حياة الفرد والأسرة والمجتمع في دنيا الإسلام.

ومن هنا نرى المرأة المسلمة التي صاغ مشاعرَها الإسلامُ وهذّب نفسَها هَدْيُه الحكيم لا تقيم على قطيعة لأخت من أخواتها، مهما كانت الأسباب، بل تسارع إلى مصافاتها والتسليم عليها، وإنها لتعلم أن خيرهما التي تبدأ بالسلام، فإن ردّت أختها تحيتها اشتركت كلتاهما في أجر المصالحة، وإن لم تردّ عليها، فقد برئت المسلّمة من إثم القطيعة والهجر، وباءت الممتنعة عن ردّ التحية وحدها بالإثم، وهذا ما أرشد إليه الإسلام في حديث أبي هريرة القائل: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أنْ يَهْجُرَ مُؤْمِناً فوقَ ثَلاثَةِ أيّامٍ، فإذا مَرَّت ثَلاثَةُ أيّامٍ

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/١٠٠ كتاب البر والصلة: باب النهي عن هجران الإخوان.

فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فإِنْ رَدَّ عليه السَّلامَ فقد اشْتَرَكا في الأَجْرِ، وإِنْ لَمْ يَرُدَّ عليهِ فَقَدْ بَرِىءَ المُسَلِّمُ مِنَ الْهِجْرَةِ[1]»[2].

ولست بحاجة إلى بيان أن كلمة (رجل) هنا في سياق الحديث عن المقاطعة والهجر تشمل المرأة والرجل على السواء. وكلما زادت مدة القطيعة زاد الإثم واستفحلت الخطيئة واشتد الوعيد للمتنازِعَتَيْنِ المتصارِمَتَيْنِ، فقد قال النبي ﷺ:

«مَنْ هَجَرَ أَخاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ»[3].

فما أبشعَ جريمةَ المقاطعة والهجر في شِرْعة الإسلام! وما أثقلَ وزرَها على مرتكبها! حتى إنها لتكاد تعدل سفك الدم الحلال! ذلك أن منهج الإسلام في تربية النفوس قائم على المحبة والتآخي والتقارب والتآلف، ومن هنا يريد الإسلام من المسلمين والمسلمات أن ينتفي من حياتهم التباغض والتحاسد والتدابر، ولا يرضى أن يُعَكِّر صفوَ حياتهم شيءٌ من تلك الأخلاق الوضيعة المجانبة لأخوّة الإيمان، ولذلك ينسكب هَدْيُه في الأسماع راسماً أروع منهج للأخلاق عرفته البشرية منذ كان على ظهر هذه الأرض إنسان:

«لا تَقاطَعوا، ولا تَدابَروا، ولا تَباغَضوا، ولا تحَاسَدوا، وكُونوا إِخْواناً كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ»[4].

---

(١) أي من إثم الهجرة.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/٥٠٥ باب إن السلام يجزىء من الصرم.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/٤٩٧ باب من هجر أخاه سنة.

(٤) صحيح مسلم ١٦/١٢٠ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظن والتجسس والتنافس.

وبقوله:

«إيّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ، ولا تَحَسَّسُوا[١]، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونوا عِبادَ اللَّهِ إخْواناً»[٢].

وبقوله:

«لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا[٣]، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونوا عِبادَ اللَّهِ إخْواناً. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى ههنا ـ ويُشيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرّاتٍ ـ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ المُسْلِمَ. كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ»[٤].

إن المرأة المسلمة التي هذّب الإسلام مشاعرها لتتأمّل هذه النصوص من الهَدْي النبويّ، المحتوية على مكارم الأخلاق كلها، من حب وتصاف وتوادّ وتآخ وتناصح وتراحم وإيثار، لا يمكن أن تطوي صدرها على شحناء، ولا يمكن أن تقيم على قطيعة، فما تقيم على شحناء وتصرّ على القطيعة إلاّ امرأة في قلبها مرض، وفي نفسها كزازة، وفي خلقها التواء، وفي عقلها

---

(١) أي لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تَتَبَّعُوها.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠٩/١٣ كتاب البر والصلة: باب ما لا يجوز من الظن.

(٣) التّناجش: أن يزيد المرء في السلعة ولا رغبة له في شرائها، بل ليغرّ غيره في شرائها.

(٤) صحيح مسلم ١٢٠/١٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.

تحجّر. والمرأة المسلمة التقيّة بعيدة عن هذه الخلائق الوضيعة كل البعد.

ومن هنا جاء الوعيد شديداً لقساة القلوب، المتحجّري العقول، من الرجال والنساء، المنحرفين والمنحرفات عن هَدْيِهِ الحكيم، المحجوبة نفوسهم عن سماحته ونورانيته ونداه، بإصرارهم على القطيعة والهجر، يهدّدهم في آخرتهم، ويحجب عنهم رحمة ربهم ومغفرته، ويغلّق دونهم أبواب الجنة، وذلك في قول الرسول ﷺ:

«تُفَتَّحُ أَبْوابُ الجَنَّةِ يومَ الاثْنين ويومَ الخَميس، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئاً، إلاَّ رَجُلاً كانَتْ بينَهُ وبينَ أَخيهِ شَحْناءُ. فيُقالُ: أَنْظِروا هذَيْن حتّى يَصْطَلِحا، أَنْظِروا هذَيْنِ حتّى يَصْطَلِحا، أَنْظِروا هذَيْنِ حتّى يَصْطَلِحا»[١].

وكان الصحابـي الجليل أبو الدرداء يقول: «أَلا أُحَدِّثُكُمْ بِما هُوَ خَيْرٌ لكم مِنَ الصَّدَقَةِ والصِّيامِ؟ صَلاحُ ذاتِ البَيْنِ. أَلا وإنّ البِغْضَةَ هِيَ الحالِقَةُ[٢]»[٣].

إنها لنظرة صائبة نافذة عميقة من هذا الصحابـي الجليل لروح هذا الدين القائم على المحبة والتآخي والتقارب، ما أجدَر النساءَ أن يتأمّلْنها في منازعاتهنّ ومهاتراتهنّ وخصوماتهنّ. فقد رأى هذا الصحابـي الجليل الذي كان موضع ثقة الرسول الكريم في حسن تفكيره وسداد نظرته، أن التباغض يحبط العمل، ويمحق الأجر، ويبدّد الحسنات؛ ومن هنا كان صلاح ذات البين للمسلمة بإقبالها على أختها خيراً لها من الصدقة والصيام؛ إذ أن إصرارها على القطيعة والهجر والتباغض تودي بما تجنيه في عباداتها من حسنات.

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٢٢ كتاب البر والصلة والآداب: باب النهي عن الشحناء.

(٢) أي الماحية للثواب.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٥٠٥ باب الشحناء.

ولقد أخذ الصحابي أبو الدرداء حديثه هذا من هَدْي الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي عنه أيضاً: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ». قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلٰكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ».

مُتَسامِحَةٌ عَفُوٌّ عَنْهُنَّ:

والمرأة المسلمة التي أُشْرِبَتْ نفسُها هَدْيَ الإسلام متسامحة مع أخواتها وصديقاتها، لا تطوي صدرها على ضغينة ومَوْجدة وحقد. إن مسَّها غيظٌ من إحدى أخواتها كظمت غيظها، وعفت عن أختها المسيئة، في عفوية وبساطة ويسر، دون أن تجد في نفسها غضاضة من جراء هذا العفو، ودون أن تحسّ بإثارة من مذلة أو هوان، بل إنها لتجد في عفوها عن أختها المنبثق من أعماق نفسها السمحة إحساناً يحبه الله من عباده، ويقربهم منه زلفى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1].

ذلك أن مراجل الغضب إذا فارت في النفس الإنسانية، وكبتَها صاحبها أو صاحبتها، ولم يتبعاها بعفو، استحالت إلى إحْنَة وحقد وضغينة، وهذا أصعب وأخطر على الإنسان من الغضب. أما إذا أتبعها الإنسان بالعفو والصفح والغفران، فإنه يطفىء جذوة الغضب، ويغسل النفس من أدران الغل والحقد والمَوْجدة، وهذه هي مرتبة الإحسان التي يحب الله مَنْ يسمو إليها من عباده المؤمنين والمؤمنات: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

والمرأة المسلمة التي صاغها الإسلام على هَدْيه من هذا النمط من المحسنين، لا تحتفظ بالغيظ يتأجج في صدرها؛ لأن الغيظ المتأجج وِقْرٌ ثقيل على النفس حين تكظمه، وشواظ يلفح القلب ودخان، بل تسارع إلى العفو والصفح والغفران، وبذلك تنطلق نفسها في آفاق النور، مرفرفة في أجواء التسامح، وإذا هي تحسّ بردَ الطمأنينة ينسكب على قلبها، والراحة والسلام والغبطة تغمر ضميرها ووجدانها.

ويعين المرأةَ المسلمةَ على بلوغ هذا المرتقى الأخلاقي الصعب إدراكُها أن صفحها عن أختها المسيئة لن يلحق بها ذلة ولا عاراً، بل يزيدها عند الله عزة ورفعة، وهذا ما ألمع إليه رسول الله ﷺ في قوله:

«ما زادَ اللَّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إلاَّ عِزّاً، وما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ»[١].

وإذا ما قرنّا هذه العزّة وهذه الرفعة بمرتبة الإحسان التي بلغتها المرأة العفوّ المتسامحة الصَّفوح ألفينا الشرف العظيم الذي حازته هذه المرأة، فإذا هي عند الله من المحسنات، وإذا هي عند الناس من المُثْلَيات المحبوبات المكرَّمات.

إن المرأة المسلمة التي استروحت نسمات هَدْي دينها البَرود لا يمكن أن يكون في قلبها أثارة من حقد أو غل أو ضغينة على أحد؛ لأنها تدرك تماماً قيمة العفو وصفاء القلب ونقاء النفس من هذه الأدران الخبيثة في ميزان الله ومغفرته ورضوانه، كما بينها رسول الله ﷺ بقوله:

«ثَلاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنَّ فيهِ غُفِرَ لهُ ما سِواهُ لِمَنْ شاءَ: مَنْ ماتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً، ولَمْ يَكُنْ ساحِراً يَتَّبِعُ السَّحَرَةَ، ولمْ يَحْقِدْ على أَخيهِ»[٢].

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٤١ كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٥٠٥ باب الشحناء.

تَلْقَى أَخَواتِها بِوَجْهٍ طَلِيقٍ:

والمرأة المسلمة الصادقة طلقة الوجه، متهلّلة الأسارير، وضّاحة المحيّا، مفترّة الثغر، كلما لقيت أخواتها أقبلت عليهنّ بوجهها الطليق البشّ المتهلّل، كما يريد رسول الله ﷺ بقوله:

«لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْروفِ شَيْئاً ولَوْ أَنْ تَلْقَى أخاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ»(١).

ذلك أن طلاقة الوجه صفة حسنة، حضّ عليها الإسلام، وجعلها حِلْيَة ثمينة للإنسان في الدنيا تكسبه محبة الناس، وعدّها من الأعمال الصالحات التي تكسب صاحبها المثوبة والأجر؛ لأن الوجه الطليق السمح يدل في الغالب على صفاء السريرة، وهذا الصفاء في المظهر والمخبر مما حرص الإسلام على تحلّي المسلمين والمسلمات به، واتخاذه خلقاً دائماً لهم.

ولهذا كان من هَدْي الرسول الكريم:

«تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»(٢).

وكان الرسول صلوات الله عليه طليق الوجه، يفترّ وجهه لأصحابه، ويبتسم لهم كلما وقع بصره عليهم، كما حدثّ بذلك الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البَجَليّ:

«ما حَجَبَنِي رسولُ اللَّهِ ﷺ منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلاَّ تَبَسَّمَ»(٣).

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٧٧ كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

(٢) رواه الترمذي ٣/ ٢٢٨ أبواب البر: ٣٦، وقال: حسن غريب.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٥٠٤ كتاب الأدب: باب التبسم والضحك، وصحيح مسلم ١٦/ ٣٥ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل جرير بن عبد الله.

لقد أراد الإسلام للمسلمين والمسلمات أن تبقى أواصر الودّ بينهم معقودة، ووشائج الأخوّة متينة صلبة؛ ولذلك حبّب إليهم إفشاء السلام، وطلاقة الوجه، ولين الكلام، وحسن اللقاء، لتبقى النفوس منفتحة صافية مقبلة على التعاون والبرّ والعمل الصالح، قادرة على النهوض بتكاليف الإسلام وما تتطلب من جهود وتضحيات.

ناصِحَـةٌ لَهُـنَّ:

ومن خلائق المرأة المسلمة الصادقة أنها ناصحة النصح كلّه، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، كما جاء في الحديث الصحيح:

«الدِّينُ النَّصيحةُ». قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: «لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمينَ وعامَّتِهِمْ»[1].

وهذه الخليقة في المرأة المسلمة تجعلها ناصحة لأخواتها، لا تغشهنّ، ولا تخدعهنّ، ولا تزوي عنهنّ خيراً، وهي إذ تكون ناصحة دوماً لأخواتها وصديقاتها لا تفعل ذلك مجامَلَةً لهنّ، ولا تظاهراً بالدّماثة الاجتماعية، وإنما تفعله اعتقاداً منها أن النصيحة من أمهات قواعد الإسلام التي كان المؤمنون الأولون يبايعون رسول الله ﷺ عليها، يؤكد ذلك قول جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

«بايَعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ على إقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[2].

ولقد رأينا آنفاً في مستهل هذه الفقرة أن الرسول ﷺ عرّف الدّين بكلمة

---

(١) صحيح مسلم ٢/٣٧ كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/٦٣ كتاب الإيمان: باب البيعة على الإسلام.

واحدة هي «النصيحة» وهذا تأكيد منه أن النصيحة عمود الدين، ومرتكزه الأصيل، وأساسه الراسخ، وهي من شروط صحة الإيمان وكماله، كما يفهم من قول الرسول الكريم:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١). وبدهي أن الإنسان لا يمكن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه إلاَّ إذا كان محبّاً نصوحاً.

وحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه ليس بالأمر السهل اللين الميسور، بل هو مرتقى صعب عسير المنال، لا يناله من الرجال والنساء إلاَّ مَنْ هذّب الإسلام مشاعرهم، واستلّ سخائم الأنانية من صدورهم، ونقّى قلوبهم وسرائرهم من الحقد والحسد والكراهية، وزرع فيها حب الآخرين.

والمرأة المسلمة الصادقة التي استقرّ في أعماق مشاعرها أنّ حبّها لأختها ما تحبه لنفسها شرط من شروط صحة الإيمان وكماله، وأن دينها قائم على النصيحة، مُرَشّحةٌ لبلوغ هذا المرتقى الصعب، بل إنّ هذه المعاني السامية لتغدو أمراً طبيعياً في حياتها وتصرفاتها مع أخواتها وصديقاتها، فإذا هي مرآة صادقة لهنّ، تنصحهنّ، وتسدّدهن، ولا تتمنّى لهنّ إلاَّ الخير، كما يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

«المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخيهِ، إذا رَأَى فيهِ عَيْباً أَصْلَحَهُ»(٢).

وهذا الكلام العالي من أبي هريرة إنما هو قَبَسٌ من أقباس النبي الكريم وهَدْيه القائل:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٦٠ كتاب البر والصلة: باب يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٣٣ باب المسلم مرآة أخيه.

«المُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ، والمُؤْمِنُ أَخو المُؤْمِنِ، يَكُفُّ عليهِ ضَيْعَتَهُ، ويَحوطُهُ مِنْ وَرائِهِ»[١].

إنه لمن الطبعيّ أن تكون صِلات المرأة المسلمة الصادقة بأخواتها وصديقاتها ومواقفها منهنّ في هذا المستوى العالي الرفيع، ولو أنها أرادت أن تهبط عن هذا المستوى لما استطاعت؛ إذ ما كان لمَنْ عاشَتْ في الأجواء الطاهرة النظيفة المفعمة بشَذا الحب، وعبير الوفاء، وندى الأخوّة، أن تهبط إلى درك الكراهية والخيانة والحقد والأنانية والغَيْرة المَقيتة؛ فكل إناء بالذي فيه ينضح، والمسك لا ينفح إلاّ الشّذا، والتربة الطيبة لا تخرج إلاّ النبات الطيب، ولله در الشاعر زهير بن أبـي سُلْمَى إذ يقول[٢]:

وهَـلْ يُنْبِـتُ الخَطِّـيَّ إلاَّ وَشِيجُـهُ ... وتُغْـرَسُ إلاَّ فـي مَنـابِتِهـا النَّخْـلُ

بَـرَّةٌ وَفِـيَّـةٌ لَـهُـنَّ:

لم يكتف الإسلام بحض أبنائه وبناته على برّ الأصدقاء والصديقات، بل حضّ على برّ أصدقاء الوالدين أيضاً، تأكيداً منه على فضيلة الوفاء والبرّ في النفس الإنسانية، وتأصيلاً لها في الحياة الإسلامية. وكتب التراث مليئة بأخبار الوفاء والبرّ، تمثّلهما السلف الصالح، وتحلّوا بهما في حياتهم ومعاملاتهم، فكانوا درراً لامعة في جبين البشرية.

من هذا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبـي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٣٣ باب المسلم مرآة أخيه.

(٢) شرح ديوان زهير: ١١٥ ط دار الكتب المصرية.

«إنَّ أَبَرَّ البرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ»[١].

وكان رسول الله ﷺ حفيّاً بغرس بذور الوفاء والبرّ في نفوس المسلمين، كلما أفاض من هَدْيه العالي على أسماع أصحابه؛ فقد جاء رجل من بني سَلَمة فقال: يا رسول الله، هَلْ بقيَ من برّ أبويَّ شيءٌ أَبَرُّهما به بعدَ موتهما؟ فقال: «نعمْ، الصّلاةُ عَلَيْهما[٢]، والاستغفار لهما، وإنفاذُ عَهْدِهما من بَعْدِهما، وصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا تُوصَلُ إلاَّ بهما، وإكرامُ صَديقِهما»[٣].

ولقد وضع الرسول الكريم للمرأة المسلمة نبراساً تستهدي به في الوفاء والبرّ، إذ كان يرعى صديقات خديجة رضي الله عنها بعد موتها، فلا ينساهنّ أبداً من برّه وإحسانه، وكان هذا الاهتمام من رسول الله ﷺ بصديقات خديجة مما يَغيظ أمّ المؤمنين السيدة عائشة، فتغار منها. وهذا ما نجده في حديث السيدة عائشة الذي تقول فيه: «ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرْتُ على خَديجةَ رضي الله عنها، وما رأيتُها قَطُّ، ولكن كانَ يُكْثِرُ ذِكْرَها، وربّما ذَبَحَ الشّاةَ ثمّ يُقَطِّعُها أَعْضاءً، ثمّ يبعثُها في صَدائِقِ خَدِيجَةَ، فربّما قلتُ لهُ: كأنْ لم يكنْ في الدنيا امرأةٌ إلاَّ خديجة! فيقول: «إنّها كانَتْ وكانَتْ، وكانَ لي مِنْها وَلَدٌ»[٤].

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١١٠ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم.

(٢) أي الدعاء لهما.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٦٢ كتاب البر والإحسان: باب حق الوالدين.

(٤) فتح الباري ٧/ ١٣٣ كتاب مناقب الأنصار: باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، وصحيح مسلم ١٥/ ٢٠١ كتاب الفضائل: باب فضائل خديجة.

وفي رواية: «وإنْ كانَ لَيَذْبَحُ الشّاةَ، فَيُهْدي في خَلائِلها منها ما يَسَعُهُنَّ»(١).

ففي صنيع الرسول ﷺ هذا وهَدْيه تأصيل للوفاء والبرّ، يمتد فيشمل الأصدقاء والصديقات الأبعدين للآباء والزوجات الأموات، فكيف بالصديقات القريبات من الأحياء؟.

رَفِيقَـةٌ بِهِـنَّ:

والمرأة المسلمة التي أُشرِبت نفسُها هَدْي الإسلام لا تستعلي على أخواتها وصديقاتها، ولا تتجهّم لهنّ، ولا تغلظ لهن في القول، بل تكون معهنّ دوماً رفيقة لطيفة آلفة مألوفة حسنة المعشر لينة القول. وحسبها أن تقرأ قوله تعالى في صفة المؤمنين والمؤمنات: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢)، لتتجسّد أمامها الحالة التي ينبغي أن تكون عليها المرأة المسلمة مع أخواتها وصديقاتها. إنها الحالة المثلى من التواضع ولين الجانب وحسن التعامل التي تصل إلى القمّة في الرفق، حتى إنها لتشبه الذّلّة.

وإذا ما التفتت المرأة المسلمة إلى التوجيه النبوي ألفته آية في تحبيب الرفق إلى الإنسان، حتى إنه ليجعله زينة كلّ شيء في الحياة، وذلك في قول الرسول الكريم:

«إنّ الـرِّفْـقَ لا يَكـونُ فـي شَـيْءٍ إلاّ زانَـهُ، ولا يُنْـزَعُ مِـنْ شَـيْءٍ إلاّ شانَهُ»(٣).

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٣٣ كتاب مناقب الأنصار: باب تزويج النبـي ﷺ خديجة وفضلها.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) صحيح مسلم ١٦/ ١٤٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الرفق..

وتنظر المرأة المسلمة في سيرة الرسول الكريم، فيروعها ما اتصفت به شخصيتُه من خلق عظيم، ورقة متناهية، ودماثة محببة، ورفق جمّ في معاملته، لم يُعرَف عنه أنه تجهّم يوماً لأحد، أو أغلظ له في القول، أو كان فظّاً غليظ القلب معه، وصدق الله العظيم في وصفه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

وها هوذا أنس رضي الله عنه خادمه وملازمه يصف أخلاقه وشمائله الرفيعة بقوله: «لقد خدمتُ رسولَ اللّهِ ﷺ عَشْرَ سِنينَ، فما قالَ لي قَطُّ: أُفٍّ، ولا قالَ لشيءٍ فعلتُه: لم فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لمْ أفعلْهُ: ألا فعلتَ كذا؟!»[2].

ويقول أنس أيضاً: «لمْ يكنْ النبي ﷺ سَبّاباً ولا فَحّاشاً ولا لَعّاناً، كانَ يقولُ عندَ المَعْتَبَةِ: ما لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ[3]»[4]؟

لا تَغْتَابُهُنَّ:

لا تنساق المرأة المسلمة الواعية اليَقِظة إلى الغِيبَة في المجالس التي تدور فيها أحاديث الغِيبَة، بل تمسك لسانها عن الخوض فيها بعامّة، وعن غِيبة أخواتها وصديقاتها بخاصّة، وترى من واجبها أن تحفظ المجلس من التردّي في مستنقع الغِيبة الوخيم؛ لأن الغِيبَة حرام بنص القرآن الكريم:

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٣٦ باب حسن الخلق.

(٣) قيل في تفسير هذه العبارة: أراد النبي ﷺ بها دعاءً له بكثرة السجود، ففي ذلك هداية له وإصلاح.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٤٥٢ كتاب الأدب: باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾(١).

إن المرأة المسلمة التقية تحفظ لسانها دوماً عن الخوض في الأحاديث الموقعة في الغِيبَة، وتدرك مما لقنته من هَدْي دينها أن اللسان هو الذي يكب صاحبه أو صاحبته في النار، وذلك في الحديث الذي حذّر فيه رسول الله ﷺ معاذ بن جبل، إذ أخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عليكَ هذا»، فقالَ مُعاذ: يا نبي اللَّهِ وإنَّا لَمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال النبي ﷺ: «ثَكِلَتْك أُمُّكَ، وهَلْ يَكُبُّ النّاسَ في النّار على وُجوهِهِمْ، أو قال: على مَناخِرِهِمْ، إلاَّ حَصائدُ ألسِنَتِهِمْ؟»(٢).

إن الغِيبَة خلق ذميم، لا تتصف به المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها، وتأبى عليها شخصيتها التي ارتوت من فضائل هذا الدين أن تكون بوجهين ولسانين، تتلوّن وتتكيّف وتنافق وتجامل، فتغتاب أخواتها وصديقاتها في المجالس، فإذا لقيتهنّ هشت لهنّ وبشّت وتظاهرت لهنّ بالمودّة والصداقة؛ لأنها تعلم أن هذا التلوّن حرام في شِرْعة الإسلام التي قامت على الاستقامة والصدق والوضوح، وطبعت المؤمنين والمؤمنات بذلك، وكرّهت إليهم التذبذب والتلوّن والنفاق، بل نفّرت من تلك الخلائق تنفيراً شديداً، حين جعلت مَنْ يتخلّق بها من ذوي الوجهين، وذو الوجهين وذوات الوجهين من شرار الناس عند الله، وذلك في قول الرسول ﷺ:

«تَجِدُ مِنْ شِرارِ النّاسِ يومَ القِيامَة عندَ اللَّهِ ذا الوَجْهَيْنِ، الذي يأتي

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) حديث حسن صحيح رواه ابن ماجه ٢/١٣١٥ كتاب الفتن.

هؤلاء بِوَجْهٍ، وهؤلاء بِوَجْهٍ»[١].

والمرأة المسلمة الصادقة لها وجه واحد لا وجهان، وإنه لَوَجْهٌ أغرُّ أزهرُ أبلجُ مشرقٌ واضحٌ، لا يتلون ولا يتغيّر، تلقى به الناس جميعاً، ولا يغيب عن فطنتها أن المرأة ذات الوجهين منافقة، والإسلام والنفاق لا يجتمعان، والمنافقات في الدرك الأسفل من النار.

تَجْتَنِبُ مَعَهُنَّ المُخاصَمَةَ والمُزاحَ المُؤْذي والإخْلافَ بالوَعْدِ:

ومن صفات المرأة المسلمة الواعية الاتزان والحكمة والفطنة في معاشرتها أخواتها وصديقاتها، فهي لا تعنتهنّ بالجدل والمخاصمة والمماحكة المملّة المنفّرة، ولا تثقل عليهنّ في المزاح المؤذي، ولا تخلفهنّ في موعد ضربته لهنّ، مستهدية بهذا كلّه بهَدْي الرسول الكريم القائل: لا تُمارِ أَخاكَ[٢]، ولا تُمازِحْهُ[٣]، ولا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفْهُ»[٤].

ذلك أن كثرة الجدل والمخاصمة توغر الصدور، وتورث النفور والبغضاء، وكثرة المُزاح الجارح المؤذي يعكّر صفو العلاقة بين الأختين، وإخلاف المواعيد يوهن وشيجة الأخوّة والصداقة ويقلّل من الاحترام المتبادل بينهما. والمرأة المسلمة النبيهة بعيدة عن الوقوع في مثل هذه المخالفات الاجتماعية المزرية بشخصية الإنسان.

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٧٤ كتاب الأدب: باب ما قيل في ذي الوجهين، وصحيح مسلم ١٦/ ١٥٧ كتاب البر والصلة والآداب: باب ذم ذي الوجهين.

(٢) أي لا تجادله مخاصماً.

(٣) أي لا تفرط في المزاح.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٨٥ باب لا تعد أخاك شيئاً فتخلفه.

جَوادٌ سَخِيَّةٌ تُكْرِمُ أَخَواتِها:

والمرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها كريمة جواد، يدها مبسوطة سخّاء على أخواتها وصديقاتها، ووجهها مشرق وضّاح متهلل في دعوتهنّ واستقبالهنّ وإكرامهنّ وإطعامهنّ.

ذلك أن اللقاءات الودية على الطعام توثّق عرى الأخوّة، وتوطّد أواصر المودّة بين الأخوات، وتشيع في حياتهنّ ندى العاطفة الإنسانية النبيلة الذي افتقدته المرأة الغربية التي ربتها الحضارة المادية الحديثة، فنمّت في نفسها روح النفعية والأنانية والفردية، فإذا هي تعاني خَواءً روحياً وجفافاً عاطفياً، نتج عنهما شعور بالحرمان من الصداقة والصديقات المخلصات. وهذا شأن الإنسان الغربي بعامة، والمرأة الغربية بخاصة. وما حفاوتها باقتناء الكلاب وإقبالها على تربيتها وتدليلها والعناية بها إلاّ تعويض عما فقدت من ريّ العاطفة الإنسانية الذي جففته في نفسها الفلسفة المادية؛ فقد جاء في تقرير فرنسي أن هناك سبعةَ ملايين من الكلاب في فرنسا التي يبلغ عدد سكانها اثنين وخمسين مليون نسمة، وتعيش هذه الكلاب مع أصحابها كأنها من أقاربهم، ولم يعد غريباً في مطاعم باريس أن تشاهد الكلب وصاحبته يتناولان طعامهما على مائدة واحدة. وحين سئل مسؤول في جمعية رعاية الحيوان بباريس: «لماذا يعامل الفرنسيون كلابهم مثل ما يعاملون به أنفسهم» أجاب: «لأنهم يريدون أن يحبّوا، ولكنهم لا يعثرون بين الناس على مَنْ يحبّونه»[1].

---

(١) من مقال للأستاذ وحيد الدين خان بعنوان (وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل زمان ومكان) نشره في مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٣٢٥، في ٢٤ من ذي القعدة ١٣٩٦هـ = ١٦ من تشرين الثاني في (نوفمبر) ١٩٧٦م.

إن الإنسان المادي في الغرب أو في الشرق لم يعد يجد الإنسان الصديق الوفيّ الوَدود في مجتمعه، ليمنحه حبه وعاطفته، فاتجه إلى هذه الحيوانات التي وجد فيها من الأُلفة والوفاء أكثر مما وجد في الناس الذين حوله. فهل بعد هذا من ارتكاس عاطفي يهوي بالإنسان، فيجعله أليفَ الحيوان، بعد فقده إشراقة الهدى ونعمةَ الإيمان؟.

ولقد كان هذا الارتكاس العاطفي الذي مُنِيَ به إنسان الغرب، فجفّف ينابيع الشعور الإنساني في نفسه، أول ما لفت أنظار أدباء المهجر من مسلمين وغير مسلمين؛ ذلك أنهم نظروا إلى الحياة الغربية المادية التي جرفت الإنسان في مجتمعات الغرب، فجعلته كالآلة، لا يعرف من الحياة إلاَّ الكدَّ والإنتاجَ والتسابقَ العنيفَ على الكسب، لا يَهشُّ قلبُه لصديق، ولا يفترُّ ثغرُه عن ابتسامة حب لرفيق، وإنما هو ذاهل مأخوذ بالسرعة والآلة والازدحام، فهالهم ذلك كلُّه، وهم الذين نشأوا في ديار الإسلام، وتنفّسوا في أجواء روحانيته السمحة، وأُترِعَتْ نفوسُهم بحب الإنسان لأخيه الإنسان، فانطلقوا يدعون الغربيين بحرارة إلى الحب والتآخي والتعارف. فهذا نسيب عريضة يحمل لواء هذه الدعوة الإنسانية، فينادي الإنسان الغربيّ الذي رانَتْ على قلبه المادة، وأعشَتْ بصرَه أضواءُ الحضارة، وأَصَمَّ أذنيه ضجيجُ الآلة، قائلاً له(١):

يابنَ وُدّي، يا صاحِبي، يا رَفيقي ... لَيسَ حُبّي تَطَفُّلاً أو ثَقالَةْ
فَأَجِبْني «بيا أخي» يا صَديقي ... وأَعِدْ، إنَّها أَلَذُّ مَقالَةْ
وإذا شِئْتَ أنْ تسيرَ وَحيداً ... وإذا ما اعْتَرَتْكَ منّي مَلالَةْ

(١) ديوان الأرواح الحائرة: قسم النزعة الإنسانية.

فَامْضِ، لكنَّما سَتَسْمَعُ صَوْتي صارِخاً: «يا أَخي» يُؤدّي الرِّسالَةْ
وسَيَأْتِيكَ أين كنتَ صَدَى حُبّي فَتَذْري جمَالَهُ وجَلالَهْ

وتشتدُّ في تلك الديار وطأة الحياة المادية على يوسف أسعد غانم، فيسأمُ هذه الحياةَ المثقَلةَ بالأعباء، الغارقة في لجّة التيار المادي الجاف العنيف، لا ترفُّ عليها نسمةٌ نديّة من روحانية أو تآخٍ أو تعاطف، فتتفجّر في نفسه ينابيع الشوق والحنين إلى الأرض العربية في ديار الإسلام، حيث مهبط النبوّات، ومصدرُ الروحانيات، وموطنُ الحب والتآخي والصفاء، وإذا هو يتمنى أن يعيش في خيمة عربية، ويتركَ دنيا الحضارة وما فيها من صخب وضجيج وأضواء، فيقول[١]:

«ولو تبخّر عُمري كلُّه قصيراً في أي صعيد عربي، لَحَمِدْتُ اللَّهَ على حياة قصيرة عريضة في دنيا يقيمُ اللَّهُ في قلوب أبنائها... لقد تعبتُ في الغرب حتى ملّني التعب، خذوا السيارة والطيارة، وأعطوني جملاً وحصاناً، خذوا الدنيا الغربية، أرضاً وبحراً وسماءً، وأعطوني خيمةً عربية أنصبها على إحدى روابي وطني لبنان، على ضفاف بردى، على شواطىء الرافدين، في أرباض عَمّان، في الصحراء السعودية، في مجاهل اليمن، في سفح الأهرام، في واحات ليبيا، أعطوني خيمة عربية لأضعها في كِفّة، وأضع الدنيا في كِفّة، وأنا الرابح...».

والنصوص التي تنبض بهذا الإيقاع كثيرة جداً في أدب المهجر، أكتفي منها بهذين النَّصَّيْنِ، وكلها تصوّر ظمأ المهاجرين إلى الرّيّ العاطفيّ الذي افتقدوه في عالم الغرب المادي، ففجّر فقدُه في نفوسهم ينابيع الشوق

(١) انظر أدب المهجر لعيسى الناعوري. دار المعارف بمصر ص ٥٢٧.

والحنين إلى الشرق الذي أشاع الإسلامُ فيه المحبّةَ والأخوّةَ والتعاطفَ والتكافلَ. . .

لقد زرع الإسلامُ في الشرق نبتةَ المحبة في النفوس، وغرس غرسات الإخاء والمودّة في القلوب، إذ حض على التلاقي والتآلف وتبادل الزيارات والدعوات، وجعل الداعين والداعيات إلى مثل هذه الاجتماعات واللقاءات من خيار الناس:

«خيرُكُم مَنْ أَطْعَمَ الطَّعامَ، وردَّ السَّلامَ»[١].

وبشّر الكرماء الأجواد الأسخياء من الرجال والنساء بأنهنّ من الداخلين الجنة بسلام:

«أَفْشِ السَّلامَ، وأَطْعِمِ الطَّعامَ، وصِلِ الأَرْحامَ، وقُمْ بِاللَّيْلِ والناسُ نِيامٌ، وادْخُلِ الجَنّةَ بِسَلامٍ»[٢].

وخصّ هؤلاء الأجواد بغرف متميّزة خاصة في الجنة:

«إنَّ في الجنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظاهِرُها مِنْ باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرِها، أَعَدَّها اللّهُ تَعالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعامَ، وأَلانَ الكَلامَ، وتابَعَ الصِّيامَ، وصَلَّى بِاللَّيْلِ والنّاسُ نِيامٌ»[٣].

تَدْعو لِأَخَواتِها بِظَهْرِ الغَيْبِ:

والمرأة المسلمة الصادقة التي خالطت بشاشةُ الإيمان قلبَها تحبّ لأختها في الله ما تحبّه لنفسها، ولذلك لا تنسى أن تدعو لها بظهر الغيب،

---

(١) حديث حسن رواه أحمد ٦/١٦.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد ٢/٢٩٥، والحاكم ٤/١٢٩ كتاب الأطعمة.

(٣) حديث حسن رواه أحمد ٥/٣٤٣، وابن حبان ٢/٢٦٢ كتاب البر والإحسان: باب إفشاء السلام وإطعام الطعام.

دعوةَ غائبة لغائبة، مفعمةً بحرارة الأخوّة الصادقة، صادرةً عن قلب محب صَدوق، وإنها لتعلم أن مثل هذه الدعوة أسرع الدعوات إجابة، لما حملته من صدق ابتهال، وحرارة شعور، وسمو غرض، يؤكد ذلك قول الرسول ﷺ: «أَسْرَعُ الدُّعاءِ إجابَةً دُعاءُ غائِبٍ لِغائِبٍ»(١).

وقد وَقَرَ هذا المعنى في نفوس الصحابة الكرام، فكانوا يطلبون الدعاء من إخوانهم كلما وقفوا موقفاً يُسْتَجاب فيه الدعاء، يستوي في ذلك الرجال والنساء، مما يدلّ على ارتفاع مستوى المجتمع كله في تلك الفترة الوضيئة من تاريخنا؛ فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن صفوانَ بن عبد الله بن صفوان، وكانت تحته الدَّرْداءُ بنتُ أبي الدّرداء، قال: قدمتُ عليهم الشّامَ، فوجدتُ أمَّ الدَّرْداءِ في البيت، ولم أجد أبا الدَّرْداء، قالتْ: أتُريد الحجَّ؟ قلتُ: نعم، قالتْ: فَادْعُ لنا بخير؛ فإن النبي ﷺ كان يقول: «إنَّ دَعْوَةَ المَرْءِ المُسْلِمِ مُسْتجابَةٌ لأَخيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، عندَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كلّما دَعا لأَخيهِ بخيرٍ قالَ: آمين، ولَكَ بِمِثْلٍ»(٢). قال: فلقيتُ أبا الدّرداء في السوق، فقال مثل ذلك، يَأْثُرُ عن النبي ﷺ.

لقد كان رسول الله ﷺ يؤصّل الروح الجماعية في نفوس المسلمين والمسلمات، ويوطّد بينهم أواصر المودّة، ويوثّق عرى الحبّ في الله، ويبثّ فيهم روح الغيريّة، ويجتثّ نزعة الفردية والأنانية في كل مناسبة تسنح له، لتترسخ في حياة المجتمع المسلم مشاعر الودّ والترابط والتكافل والحب والتواصل والإيثار.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/ ٨٣ باب دعاء الأخ بظهر الغيب.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ٢/ ٨٤ باب الدعاء بظهر الغيب.

ومن توجيهاته الرائعة التي تغرس في النفس الروح الجماعية، ما قاله لرجل هتف داعياً: اللهم اغفر لي ولمحمد وحدَنا، قال له: «لقدْ حَجَبْتَها عَنْ ناسٍ كَثيرينَ»[١].

ورسول الله ﷺ في مثل هذه اللفتات التربوية لا يسدِّد هذا الرجل الداعي فحسب، وإنما يؤصِّل لأمة الإسلام قاطبة الروح الجماعية فيها، ويعلِّم كل مسلم ومسلمة في كل زمان ومكان أنه لا ينبغي لكل من نطق بالشهادتين أن يستأثر بالخير وحده، لأن المؤمن ينبغي دوماً أن يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه.

وبعد، فهذه هي المرأة المسلمة التي ربّاها الإسلام، تحب أخواتها وتؤاخيهنّ في الله، وهي في محبتها ومؤاخاتها لهنّ صادقة مخلصة ناصحة حريصة على كل ما ينفعهنّ، تحبّ لهنّ ما تحب لنفسها، حريصة على بقاء حبل الأخوّة والودّ موصولاً بينها وبينهنّ، لا تقاطعهنّ ولا تهجرهنّ، وهي متسامحة عفوّ عن أخطائهنّ وزلّاتهنّ، لا تحمل في نفسها عليهنّ شيئاً من غل أو حسد أو ضغينة، تلقاهنّ دوماً بوجه متهلّل متألّق طليق، وهي برّة وفية لهنّ، رفيقة بهنّ، لا تغتابهنّ، ولا تجرح مشاعرهنّ بِلَدَدِ من الخصام والجَدَل والمشاحَنة، سخيّة عليهنّ، تكرمهنّ، وتدعو لهنّ بظهر الغيب.

ولا عجب أن تتصف المرأة المسلمة التي هذّب الإسلامُ مشاعرَها وصاغ شخصيتَها بهذه الصفات؛ إنها معجزة الإسلام في تربية الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، في أي زمان عاش، وفي أي مكان كان.

❑ ❑ ❑

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/ ٨٥ باب الدعاء بظهر الغيب.

١٠

المرأة المسلمة مع مجتمعها

تمهيد:

المرأة المسلمة بحكم تكليفها كالرجل، هي صاحبة رسالة في الحياة، ولذا وجب أن تكون اجتماعية فعّالة مؤثّرة، ما أسعفتها ظروف حياتها وأسرتها وإمكاناتها بذلك، تخالط النساء على قدر استطاعتها، وتعاملهنَّ بخلق الإسلام الرفيع الذي يميّزها عن غيرها من النساء.

وحيثما وُجِدَتْ المرأة المسلمة الواعية كانت منارَ إشعاع، ومِشْكَاةَ هداية، ومصدرَ توجيه، وعاملَ بناء وتسديد وتوعية، بأقوالها وأفعالها على السواء.

ذلك أن المرأة المسلمة التي استنارت بهَدْي القرآن الكريم، وارتوت من منهل السنة النبوية المطهرة، شخصيةٌ اجتماعية راقية من الطراز الأول، مؤهَّلةٌ لتقوم بواجبها الدعويّ في المجتمعات النسائية، مُفَتّحةً العيونَ والأذهانَ والبصائرَ على هَدْي هذا الدين العظيم الذي سما بالمرأة في وقت مبكر جداً من تاريخ المرأة في العالم، وزوّدها بمجموعة كبيرة جداً من مكارم الأخلاق، نطقت بها نصوص هذا الدين الحنيف من قرآن كريم

وحديث شريف، وجعل التخلّق بها ديناً، يُثابُ المرء عليه، ويُحاسَبُ على تركه؛ فاستطاعت هذه النصوص أن تجعل من شخصية المرأة الصادقة مع ربّها نموذجاً فذّاً للمرأة الاجتماعية الراقية المهذبة التقيّة العفيفة الخيِّرة الحَصان.

إن المرأة المسلمة الواعية أحكام دينها، تبرز في كل مجتمع نسائي توجد فيه، مُجسِّدة قِيَم دينها الحق، وشمائله الحِسان، بتطبيقها العملي لهذه القِيَم، وَتحلِّيها بتلك الشمائل. فقِوام شخصيتها الاجتماعية المتميِّزة رَصيدٌ ضخمٌ من تلك القِيَم الإسلامية في سلوكها الاجتماعي ومعاملتها للناس. فمن هذا النبع الثرّ الكبير تمتاح المرأة المسلمة أعرافها وعاداتها وسلوكيّاتها ومعاملاتها، ومن هذا المعين الصافي والمورد العذب، تنهل المرأة المسلمة لتزكية نفسها وتكوين شخصيتها الاجتماعية المسلمة.

حَسَنَـةُ الخُلُـق:

المرأة المسلمة التقيّة حسنة الخلق، نبيلة المعشر، موطّأة الكنف، ليّنة القول، رقيقة الخطاب، دَمِثة التعامل، آلفة مألوفة. وهي في ذلك كله مُؤتَسِيَةٌ بخُلُق الرسول الكريم ﷺ الذي يشهد خادمه أنس رضي الله عنه أنه «كانَ أحسنَ الناسِ خُلُقاً»[١].

ذلك أن أنساً رضي الله عنه رأى من خلق الرسول الكريم ما لم يره من بشر، وما لم يتصوّر وجوده في بشر. ولْنَدعْه يحدثنا عن طرف من خلق هذا الرسول الكريم، فيقول:

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٢٣٥ كتاب الفضائل: باب حسن خلقه ﷺ.

«لَقَدْ خَدَمْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ عشرَ سِنينَ، فما قالَ لي قَطُّ: أُفٍّ، ولا قالَ لِشيءٍ فعلتُه: لِمَ فعلتَه؟ ولا لِشيءٍ لم أفعلْه: ألا فعلتَ كذا؟»[١].

كان رسول الله ﷺ على خلق عظيم، كما وصفه ربه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[٢]، وكان يكرر على أسماع صحابته أثر حسن الخلق في تكوين شخصية الإنسان المسلم، وفي رفع درجته عند الله، وسمو منزلته بين الناس، ومن ذلك قولُه:

«إنّ مِنْ خِيارِكمْ أحاسِنَكمْ أخلاقاً»[٣].

وقولُه:

«إنّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إليَّ وأَقْرَبِكُمْ منّي مَجْلِساً يومَ القِيامَةِ أَحاسِنَكُمْ أَخْلاقاً، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ وأَبْعَدَكُمْ منّي يومَ القِيامَةِ الثَّرْثارونَ والمُتَشَدِّقونَ والمُتَفَيْهِقونَ». قالوا: يا رسولَ اللّهِ، قد عَلِمنا الثَّرثارونَ والمُتَشَدِّقونَ، فما المُتَفَيْهِقونَ؟ قال: «المُتَكَبِّرونَ»[٤].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم، رجالاً ونساءً، يسمعون هذا التوجيه النبوي العالي في حسن الخلق، ويرون بأعينهم التجسيد الحيّ للأخلاق الكريمة في شخصية الرسول ﷺ، فتنطبع مكارم الأخلاق في أنفسهم، وتصبح سجية من سجاياهم، وخليقة من خلائقهم. ومن هنا نشأ ذلك الجيل الأخلاقي الفريد، في ذلك المجتمع الأمثل في خير القرون.

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٣٦ باب حسن الخلق.

(٢) القلم: ٤.

(٣) فتح الباري ١٠/٤٥٦ كتاب الأدب: باب حسن الخلق، وصحيح مسلم ١٥/٧٨ كتاب الفضائل: باب كثرة حيائه ﷺ.

(٤) رواه الترمذي ٣/٢٤٩ في أبواب البر: ٧٠، وقال: حديث حسن.

يقول أنس رضي الله عنه:

«كان النبيُّ رحيماً، وكانَ لا يَأْتيه أَحَدٌ إلاّ وَعَدَهُ، وأَنْجَزَ لهُ إنْ كانَ عِنْدَهُ. وأُقيمَتِ الصّلاةُ، وجاءَ أَعْرابيٌّ فأَخَذَ بِثَوْبِهِ فقالَ: إنّما بَقِيَ مِنْ حاجَتي يَسيرةٌ، وأخافُ أنْساها، فقامَ معهُ حتّى فرغَ مِنْ حاجَتِهِ، ثم أقبلَ فَصَلَّى»[1].

لم يجد رسول الله ﷺ حرجاً في أن يستمع إلى الأعرابي، ويقضي حاجته، وقد أقيمت الصلاة، ولم يضق صدره بذاك الأعرابي الذي أخذ بثوبه، وأصرّ على قضاء حاجته قبل الصلاة؛ لأنه، صلوات الله عليه، كان يبني مجتمع الأخلاق، ويعلّم المسلمين بفعله كيف يجب أن يعامل المسلم أخاه الإنسان، ويقرر لهم المبدأ الخلقي الذي ينبغي أن يسود مجتمع المسلمين.

وإذا كان حسن الخلق عند غير المسلمين يرجع إلى حسن التربية وسلامة التنشئة ورقي التعليم، فإن حسن الخلق عند المسلمين يعود قبل هذا كله إلى هَدْي الدين الذي جعل الخلق سجيّة أصيلة في الإنسان المسلم، ترفع من منزلته في الدنيا، وترجّح كفّة ميزانه في الآخرة؛ إذ ما من عمل أثقل في ميزان الإنسان المؤمن يوم الحساب من حسن الخلق، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«ما شَيْءٌ أَثْقَلُ في ميزانِ المُؤْمِنِ يومَ القيامةِ مِنْ خُلُقٍ حسن؛ فإنّ اللّهَ تَعالَى لَيُبْغِضُ الفاحِشَ البَذِيءَ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٧٥ باب سخاوة النفس.

(٢) رواه الترمذي ٣/ ٢٤٤ في أبواب البر: باب حسن الخلق، وقال: حديث حسن صحيح.

بل إن الإسلام جعل حسن الخلق من كمال الإيمان، إذ عدّ أحسن الناس خلقاً أكملَهم إيماناً، وذلك في قول الرسول ﷺ:

«أَكْمَلُ المُؤْمنينَ إيماناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»[(١)].

وجعل أحسن الناس خلقاً من أحب عباد الله إليه، يشهد لذلك حديث أسامة بن شُرَيْك، قال:

«كُنّا جُلوساً عندَ النَّبِيِّ ﷺ كأنَّما على رُؤوسِنا الطّير، ما يتكلمُ منا متكلمٌ إذ جاءَه ناسٌ فقالوا: مَنْ أحبُّ عبادِ اللّهِ إلى اللّهِ تعالى؟ قال: أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقاً»[(٢)].

ولا غرو أن يكون أحسن الناس خلقاً أحبَّهم إلى الله؛ ذلك أن حسن الخلق في شريعة الإسلام شيء عظيم، إنه لأثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة، كما رأينا، وإنه لَيَعدِلُ الصلاة والصيام، ركني الإسلام الكبيرين، كما قرر رسول الله ﷺ في قوله:

«لا يُوضَعُ في الميزانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ حُسْنَ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِصاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّوْمِ والصَّلاةِ»[(٣)]. وفي رواية: «إنَّ العبدَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصّائمِ القائمِ».

ومن هنا كان رسول الله ﷺ يؤكد أهمية حسن الخلق للصحابة الكرام، ويحضهم على التجمّل به، ويحبّبه إلى نفوسهم بأساليب شتى من قوله وفعله، إدراكاً منه لأثره الكبير في تهذيب الطباع، وتزكية النفوس، وتجميل الخلائق، ومن ذلك قوله لأبي ذر:

---

(١) رواه الترمذي ٢/ ٣١٥ في أبواب الرضاع: ١١، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الطبراني في الكبير ١/ ١٨١، ١٨٣، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه الترمذي ٣/ ٢٤٥ في أبواب البر والصلة: ٦١، ورجاله ثقات.

«يا أبا ذَرّ، ألا أَدُلُّكَ على خَصْلَتَيْنِ، هُما أَخَفُّ على الظَّهْرِ، وأَثْقَلُ في الميزانِ مِنْ غَيْرِهما؟». قالَ: بَلَى يا رسولَ اللّه، قالَ: «عليكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ، وطولِ الصَّمْتِ. فَوالذي نَفْسي بيَدِهِ ما تَجَمَّلَ الخَلائِقُ بِمِثْلِهما»[١].

وقـولُـه:

«حُسْنُ الخُلُقِ نَماءٌ، وسُوءُ الخُلُقِ شُؤْمٌ، والبِرُّ زِيادَةٌ في العُمُرِ، والصَّدَقَةُ تَمْنَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»[٢].

وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقي، فَأَحْسِنْ خُلُقي»[٣].

إن دعاء الرسول الكريم أن يُحَسِّنَ اللَّهُ خُلُقَهُ، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[٤] لَدَليلٌ عميقٌ على اهتمامه الشديد بحسن الخلق، ورغبته الحارّة في أن يستزيد المسلمون دوماً منه، مهما سَمَوْا في معارجه الوِضاء، كما كان يستزيد نبيهم العظيم منه بهذا الدعاء.

وحسن الخلق كلمة جامعة، يندرج تحتها كل خلق كريم يجمِّل الإنسان، ويزكِّيه ويسمو به، كالحياء والحلم والرفق والعفو والسماحة والبِشرُ والصدق والأمانة والنصيحة والاستقامة وصفاء السريرة، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

بيد أن الباحث المستقصي نصوص التوجيه الاجتماعي في الإسلام، يجد نفسه أمام حشد كبير جداً من النصوص التي تحضّ على كل خلق من

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال أبي يعلى ثقات. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٢.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٥٠٢، ورجاله ثقات.

(٣) رواه أحمد ١/ ٤٠٣، ورجاله رجال الصحيح.

(٤) القلم: ٤.

هذه الأخلاق الاجتماعية الرفيعة، مما يدل على غاية الإسلام البالغة في تكوين شخصية الإنسان المسلم الاجتماعية تكويناً دقيقاً، لا يكتفي بالعموميات، بل يقف عند كل جزئية من الجزئيات الخلقية التي تكوّن جانباً من جوانب الشخصية الاجتماعية المتكاملة، وهذا الاستيعاب والشمول لم يتوافر في منهج من مناهج التربية الاجتماعية توافرهما في منهج هذا الدين.

ولا مناص للباحث المتصدّي لتجلية شخصية المرأة المسلمة من الوقوف عند هذه النصوص جميعاً، والإلمام بما تضمنته من هَدْي وتوجيه وتشريع، ليستطيع تجلية الشخصية الاجتماعية الراقية التي تميَّز بها الإنسان المسلم، رجلاً كان أو امرأة، ويحدِّد طابع تلك الشخصية المتميّزة وصفاتها، ومنها أنها:

صـادِقَـةٌ:

فالمرأة المسلمة صادقة مع الناس جميعاً، لأنها لَقِنَتْ مبادىء الإسلام التي تحضّ على الصدق، وتصوّره رأسَ الفضائل وأسَّ مكارم الأخلاق وتنهى عن الكذب، وتعدّه منبع الرذائل والمفاسد وأعمال السوء، ولأن المرأة المسلمة تعتقد أن الصدق يقود إلى البرّ المفضي بصاحبه إلى الجنة، وأن الكذب يدفع إلى الفجور المفضي بصاحبه إلى النار، كما أخبر بذلك الرسول الكريم:

«إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجَنَّةِ. وإنَّ الرجلَ لَيَصْدُقُ حتّى يُكْتَبَ عندَ اللّهِ صِدّيقاً، وإنّ الكذبَ يَهْدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهْدي إلى النَّارِ. وإنَّ الرجلَ لَيَكْذِبُ حتّى يُكْتَبَ عندَ اللّهِ كذّاباً»[1].

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٥٠ باب الصدق.

ومن هنا كانت المرأة المسلمة حريصة على أن تكون صِدِّيقة، تتحرّى الصدق، وتلتزم به في أقوالها وأفعالها، وإنها لمرتبة سامقة عالية تبلغها المرأة المسلمة التقيّة بصدقها ونقاء سريرتها، فتُكْتَب عند ربّها صدِّيقة مكرَّمة.

لا تَشْهَـدُ الـزُّور:

والمرأة المسلمة النقيّة التي صاغت شخصيتَها تعاليمُ الإسلام وهَدْيُه الرفيع، لا تشهد الزُّور؛ لأن شهادة الزُّور حرام في شِرْعة الإسلام:

«واجْتَنِبوا قَوْلَ الزُّورِ»[١].

وشهادة الزور إلى جانب تحريمها تزري بالأمانة، وتخلّ بالشرف، وتجرح شخصية صاحبها، وتبرزه ملتوياً وضيعاً تافهاً في أعين الناس. ولذلك نفى القرآن الكريم هذه الصفة نفياً قاطعاً عن عباد الرحمن، المصطفَيْن الأخيار، من الرجال والنساء على السواء، فيما نفى عنهم من كبائر، إذ قال:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾[٢].

وليس أدل على فداحة هذه المعصية من أن رسول الله ﷺ ساقها بعد أكبر كبيرتين في سلّم المعاصي التى تعرّي الإنسان من نعمة الإيمان: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم كرّرها على مسامع المسلمين محذّراً منبّهاً من الارتكاس فيها، وهو في أشدّ حالات الانفعال، إذ قال:

---

(١) الحج: ٣٠.

(٢) الفرقان: ٧٢.

«أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يا رسولَ الله، قالَ: الإِشْراكُ بالله، وعُقوقُ الوالِدَيْنِ، وكانَ مُتَكِئاً فَجَلَسَ، فقالَ: أَلَا وقَوْلُ الزُّورِ وَشَهادَةُ الزُّوْرِ، فما زالَ يُكَرِّرُها حتّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ»[١].

نـاصِـحَـةٌ:

والمرأة المسلمة الواعية التقيّة لا تكتفي ببقاء نفسها من الصفات الذميمة، بل تبذل النصح لكل امرأة تصل إليها، من النساء اللواتي شردن عن هَدْي الله. وكم من امرأة في المجتمعات النسائية أسرفت على نفسها، فهي بحاجة إلى مَنْ ينصحها، ويلفت نظرها إلى الجادة المستقيمة التي أمر الله بسلوكها.

وإسداء النصيحة عند المرأة المسلمة الراشدة ليس تطوعاً وتفضلاً وتكرماً منها، وإنما هو واجب حضّ عليه الدين، بل إن الدين هو النصيحة بعينها، كما أخبر الرسول الكريم بقوله:

الدِّينُ النَّصيحةُ. قلنا: لِمَنْ؟ قالَ: «لِلَّهِ، ولِكتابِهِ، ولِرَسولِهِ، ولِأَئِمّةِ المُسْلِمينَ وعامَّتِهِمْ»[٢].

وكان الصحابة الكرام يبايعون الرسول ﷺ على الصلاة والزكاة والنصيحة لكل مسلم، يشهد لذلك قول جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

«بايَعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ على إقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٣].

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٦٨٩ باب غلظ تحريم شهادة الزور.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٣٧ كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٩٢ كتاب البر والصلة: باب النصيحة.

وما أروع تعبير الرسول الكريم عن النصيحة بقوله: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، فقد أوجز الدين كله وجمعه في كلمة واحدة هي النصيحة، إشعاراً منه لكل مسلم بقيمة النصيحة وأثرها الكبير في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات؛ فما فَشَت النصيحةُ في قوم إلاّ هُدُوا إلى الطريق المستقيم، وما اختفت النصيحة في قوم إلاَّ ضلّوا ضلالاً كبيراً.

ولذلك كانت النصيحة من أمهات القضايا التي يبايع عليها المسلمُ النبيَّ ﷺ، فتأتي بعد الصلاة والزكاة، كما في حديث جرير بن عبد الله السالف الذكر.

إن في اقتران النصيحة بالصلاة والزكاة في بيعة هذا الصحابي الجليل لرسول الله ﷺ لدليلاً على أهميتها في ميزان أعمال الإنسان المسلم، وخطورتها في تقرير مصيره في آخرته، ومن هنا كانت خليقة أصيلة من خلائق المسلم الصادق التقي، الحريص على حسن عاقبته يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وإذا ما علمنا أن المسؤولية في الإسلام عامَّةٌ شاملةٌ الرجالَ والنساء، كُلاًّ في دائرته الاجتماعية التي بيّنها الرسول الكريم في قوله:

«كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، الإمامُ راعٍ ومَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أَهْلِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِها ومَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]، إذا ما علمنا ذلك أدركنا مسؤولية المرأة في تقديم النصح لكلّ مَنْ ينتفع بنصحها في المحيط الذي تعيش فيه.

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/٦١ كتاب الإمارة والقضاء: باب الراعي مسؤول عن رعيته.

تَدُلُّ على الخَيْرِ:

والمرأة المسلمة التقيّة التي هذَّب الإسلام نفسها، ونقّاها من أدران الأنانية وحب الظهور، تدل على الخير متى علمت به، ليخرج إلى النور، وينتفع الناس به، وسِيّانِ لديها أَتَمَّ فعلُ الخير على يديها أم على يَدَيْ غيرها؛ لأنها تعلم أن مَنْ دلَّ على الخير فله مثل أجر فاعله، كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله:

«مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فاعِلِهِ»(١).

إن المرأة المسلمة بعيدة عن احتجان الخير لنفسها، لتتباهى بفعله أمام الناس، شأن الأنانيات المبتليات بحب الظهور والمباهاة. وحسب المرأة المسلمة الدالة على فعل الخير أن أجرها عند الله ثابت في الحالين، وثواب الله لدى المرأة المسلمة التقية أكبر وأعظم من السمعة والشهرة وحب الظهور. وفي ذلك إشاعة للخير في المجتمع، ليقوم كل فرد بما يسَّر الله له منه.

وكم حجبت هذه الآفاتُ النفسيةُ القاتلةُ الخيرَ عن المجتمعات؛ لأن أصحابها يودّون أن يقوموا هم دون سواهم بفعل الخير، ولكن ظروفهم لا تمكنهم من القيام به، فيبقى الخيرُ مَوْءُوداً، والمصالحُ معطَّلةً، والمجتمعاتُ محرومةً من ذلك الخير الذي دار في بعض الرؤوس، فكتَمتْه وسكتَتْ عنه انتظاراً لفرصة تسنح تمكّنهم من تنفيذه، وقد لا تسنح هذه الفرصة، وينتهي العمر، ويبقى الخيرُ حَبيسَ الرؤوس المظلمة.

والمسلمون، من الرجال والنساء، المتطلّعون إلى رضوان ربهم ومثوبته

---

(١) صحيح مسلم ١٣/٣٨ كتاب الإمارة: باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله.

بُرَآءُ من هذه الآفات، يدلّون على الخير فور علمهم به، ويحظون بثواب ربهم كفاعل الخير سواء.

لا تَغُشُّ ولا تَخْدَعُ ولا تَغْدِرُ:

والمرأة المسلمة الصادقة التي ألفت الصدق، وأصبح سجيّة من سجاياها وخليقة من خلائقها، لا تغش الناس، ولا تخدعهم، ولا تغدر بهم؛ لأن الغشّ والخداع والغدر خلائق وضيعة، تُنافي الصدق ولا تلائمه؛ ذلك أن الصدق يستدعي النصيحة والاستقامة والوفاء والإنصاف والعدل، ويتجافى عن المخاتلة والكذب والمداورة والغشّ والخداع.

وإن فطرة المرأة المسلمة الصادقة، المتشبّعة بهَدْي الإسلام الحنيف لَتنفر من الغشّ والخداع والغدر، وترى في هذه الأخلاق السيئة أمارة على انسلاخ صاحبها من الانتساب للإسلام، كما قرّر الرسول ﷺ بقوله في الحديث الذي رواه مسلم:

«مَنْ حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنّا، ومَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنّا»[(١)].

وفي رواية لمسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ[(٢)] طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعُه بَلَلاً، فقال:

«ما هذا يا صاحبَ الطَّعامِ؟» قالَ: أصابَتْهُ السَّماءُ[(٣)] يا رسولَ اللّهِ. قالَ: «أَفَلا جَعَلْتَهُ فوقَ الطَّعامِ حتّى يَراهُ النّاسُ! مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنّي»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم ٢/١٠٨ كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا.

(٢) أي كومة.

(٣) أي المطر.

(٤) صحيح مسلم ٢/١٠٩ كتاب الإيمان: باب من غشنا فليس منا.

ذلك أن مجتمع المسلمين قائم على نظافة المشاعر الإنسانية، وعلى النصيحة لكل مسلم، وعلى الوفاء بالعهد لكل فرد من أفراده، فإذا ما وُجِدَ فيهم غشّاش مخادع غدّار، فإنما هو دخيل على هذا المجتمع، غريب عن أفراده، مجانب لسجاياهم الغرّ وخلائقهم الحِسان.

ولقد عدّ الإسلام الغشّ والخديعة والغدر من الجرائم البشعة التي تزري بصاحبها في الدنيا، وتسوّد وجهه في الآخرة، إذ أعلن رسول الله ﷺ أن كل غادر سيحشر يوم القيامة، وهو يحمل لواء غدرته، والمنادي ينادي على رؤوس الأشهاد، دالاً عليه، لافتاً إلى غدرته الأنظار:

«لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يومَ القِيامَةِ، يُقالُ: هذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ»[1].

فيا لَخَجْلَةِ الغَدّارين والغَدّارات الذين حسبوا أن غَدَراتهم طوتها الأيام، فإذا هي تُنْشَر يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وألويتها مرفوعة بأيديهم.

وإن خجلتهم لَتزداد سوءاً وخِزْياً يوم القيامة، حين يجدون رسول الله ﷺ، وهو المُؤَمَّل المُرَجَّى للشفاعة في هذا الموقف الرهيب، يعلن أن ربّ العزّة يقف خصماً لهم؛ لأنهم اقترفوا جريمة الغدر الفادحة، وإنها لجريمة كبرى، تحجب عن صاحبها رحمة الله، وتحرمه شفاعة رسوله الكريم:

«قال الله تعالى: ثَلاثَةٌ أَنا خَصْمُهُمْ يومَ القِيامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بي ثمّ غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حُرّاً فأكَلَ ثَمَنَهُ، ورجلٌ اسْتأْجَرَ أَجيراً فَاسْتَوْفَى منهُ ولم يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[2].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/٧١ ـ ٧٣ كتاب الإمارة والقضاء: باب وعيد الغدر، ورياض الصالحين: ٧٠٥ باب تحريم الغدر.

(٢) فتح الباري ٤/٤١٧ كتاب البيوع: باب إثم من باع حراً.

إن المرأة المسلمة الصادقة التي ارتوت من هَدْي دينها الحق لَتبتعدُ عن خلائق الغشّ والخديعة والغدر بكل صورها وأشكالها، وإنها لكثيرةٌ في عالم المرأة المعاصرة، وتربأ بنفسها أن تَسْلُكَها في زمرة الغشّاشات المخادعات الغادرات اللواتي عدّهنّ رسول الله ﷺ من المنافقات:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافِقاً خالِصاً، ومَنْ كانَتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانَ فيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتّى يَدَعَها: إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ»[١].

مُوفِيَـةٌ بالوَعْـدِ:

ومن خلائق المرأة المسلمة الصادقة وشمائلها الرفيعة: خلق الوفاء بالوعد؛ إذ هو قرين الصدق، ونتيجةٌ طَبَعِيّةٌ من نتائجه، وثمرةٌ يانعةٌ من ثمراته الكثيرة.

والوفاء بالوعد خصلة حميدة، تدل على رقيّ المرأة التي تحلّت بها، وتعينها على النجاح في حياتها، وتكسبها محبة الناس واحترامهم وتقديرهم.

ولا يخفى أثر خلق الوفاء بالوعد في غرس الفضائل الخلقية والنفسية في الأبناء والبنات حين يجدون أمهاتهم يتحلّين به، فيضربن بذلك المثل الأعلى، ويقدمن الأسوة الحسنة.

وخلق الوفاء بالوعد عند المرأة المسلمة ليس حِلْيَةً اجتماعيةً، تباهي بها قريناتها ولداتها وصويحباتها، وإنما هو خُلُقٌ من آصل الأخلاق الإسلامية، ومن أكثرها دلالة على صحة الإيمان وصدق الإسلام. وقد

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/ ٧٤ كتاب الإيمان: باب علامات النفاق.

وردت في تأصيله والحضّ على التحلّي به نصوصٌ كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾[(١)].

﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤ ﴾[(٢)].

إنه أمر ربّاني قاطع لعباده المؤمنين والمؤمنات بالوفاء بالعهد ومستلزماته وفاءً عملياً، لا مجال للتملّص والتّخلّص والانسلال منه؛ فما يليق بالمسلمين والمسلمات إذا قطعوا عهداً على أنفسهم أن يتنصّلوا منه، بل يجب عليهم الوفاء به. وقد أضيف العهد في بعض الآيات إلى الله عز وجل، دلالة على قدسيته وجلاله ووجوب الوفاء به:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾[(٣)].

ذلك أن الإسلام يمقت الثرثارين والثرثارات، والمتبجّحين بالوعود والمتبجّحات، والقوّالين والقوّالات، من غير أفعال ولا وفاء ولا إنجاز:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[(٤)].

لقد كره الله لعباده المؤمنين والمؤمنات أن يسفّوا إلى دَرْك الثرثرة الفارغة والوعود الطائرة الفضفاضة، فيخلفون وعودهم، ويتحلّلون من

(١) المائدة: ١.

(٢) الإسراء: ٣٤.

(٣) النحل: ٩١.

(٤) الصف: ٢، ٣.

عهودهم، ويتنصّلون من التزاماتهم؛ لأن ذلك لا يليق بالمؤمنين والمؤمنات. وقد جاء الاستفهام الإنكاري في صدر الآية معبّراً عن ذلك المقت السيّىء الكبير الذي يكره الله لعباده المؤمنين أن يرتكسوا فيه، إذ يقولون ما لا يفعلون.

ويقول الرسول ﷺ:

«آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»(١). وفي رواية لمسلم: «وإن صامَ وصَلَّى وزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»(٢).

إن حسن إسلام المرأة المسلمة ليس في القيام بالعبادات فحسب، وإنما بانفعال نفسيتها بتعاليم الإسلام وأخلاقه الرفيعة وقِيَمه العليا أيضاً، بحيث لا يصدر عنها إلاَّ ما يرضي الله عز وجل؛ فلا إخلافَ بالوعد، ولا غشَّ في التعامل، ولا خيانةَ للعهود والمواثيق في حياة المرأة المسلمة الصادقة المتفهّمة تعاليم دينها الحنيف، المنفعلة بهَدْيه اللألاء؛ لأن ذلك كلّه منافٍ لأخلاق الإسلام وأهله، ولا يوجد إلاَّ في أخلاق المنافقين والمنافقات.

ألا فَلْتَعْلَمْ تلك الحقيقةَ النسوةُ اللائي يكذبْنَ على أولادهنّ، ويعدنهم ثم يخلفن وعودهنّ، فيغرسن بأفعالهنّ هذه في نفوس أولادهنّ بذور الكذب والإخلاف بالوعد، ولْتَعْلَمْ النسوة اللائي يضربن بالوعود والعهود عرض الحائط، ولا يقمن وزناً لكلمة الشرف التي قطعنها على أنفسهنّ، ليعلمن أنهنّ باستهتارهنّ هذا بالوفاء بالعهد دخلن في زمرة المنافقات، وجزاء المنافق كما هو معروف الدّرك الأسفل من النار.

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/ ٧٢ كتاب الإيمان: باب علامات النفاق.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٤٨ كتاب الإيمان: باب بيان خصال المنافق.

تَجْتَنِبُ النِّفَاقَ:

والمرأة المسلمة الصادقة الراشدة صريحة واضحة في أقوالها وأحكامها، بعيدة كل البعد عن النفاق والمداهنة والمجاملة المحرَّمة والمديح الكاذب؛ لأنها تعلم من هَدْي دينها أن النفاق حرام، وغير لائق بالشخصية المسلمة الصادقة.

لقد وضع لنا رسول الله ﷺ صُوَى النجاة من هذا السقوط المريع في حمأة النفاق والمداهنة، إذ قال لبني عامر الذين أقبلوا يمدحونه بقولهم: أنتَ سيّدُنا، فقال: «السَّيِّدُ اللَّهُ»، وقالوا: وأفضلُنا فضلاً، وأعظمُنا طَوْلاً، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ[1] الشَّيْطانُ. إنّي لا أُريدُ أنْ تَرفَعوني فوقَ مَنْزِلتي التي أَنْزَلَنِيها اللَّهُ تَعالى، أنا محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ، عَبْدُهُ ورَسُولُه»[2].

لقد قطع رسول الله ﷺ الطريق على المادحين أن يسترسلوا في كيل المديح للناس، وفيهم مَنْ لا يستحق المديح، حين نهى مادحيه عن وصفه بالسيادة والفضل والطَّوْل، وهو سيد المرسلين وأعظم المسلمين وأفضلهم لا ريب؛ لأنه كان يعلم أن باب المديح إذا فُتح على مصراعيه أدّى إلى مزالق خطيرة من النفاق، لا تستسيغها روح الإسلام الصافية النقية البريئة، ولا يقبلها الحق الذي قام عليه هذا الدين، وكان ينهى الصحابة عن مدح الإنسان في وجهه، لئلا يُسْتَجَرَّ المادحُ إلى النفاق، ولكيلا تأخذَ الممدوحَ نشوةُ التِّيهِ والاختيال والاستعلاء والإعجاب بالنفس.

---

(١) لا يستجرينكم: من الجَرِيّ، وهو الوكيل، يقول: تكلموا بما يحضركم، ولا تتنطّعوا، ولا تتكلّفوا، كأنكم وكلاء الشيطان ورسله، كأنما تنطقون بلسانه.

(٢) حياة الصحابة ٣/٩٩.

أخرج الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: أَثْنَى رجلٌ على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ، مراراً».

ثم قال: «إِذَا كانَ أَحَدُكُمْ مادِحاً صَاحِبَهُ لا مَحالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحسِبُ فلاناً، واللَّهُ حَسِيبُهُ، ولا أُزَكّي على اللَّهِ أَحَداً، أَحسِبُهُ، إنْ كانَ يَعْلَمُ ذاكَ كذا وكَذا»(١).

فالمديح إذا كان لا بد منه فينبغي أن يكون صادقاً منطبقاً على واقع الممدوح، وينبغي أن يكون معتدلاً متحفظاً لا غلوَّ فيه ولا شططَ ولا مغالاة، وبذلك وحده ينقى المجتمع من أوباء النفاق والكذب والمخاتلة والتزلّف والرياء والمجاراة.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن رجاء عن مِحْجَن الأَسْلَمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ومحجناً كانا في المسجد، فرأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي ويسجد ويركع، فقال الرسول ﷺ: «من هذا؟» فأخذ محجن يُطْريه، ويقول: يا رسول الله هذا فلان، وهذا فلان، فقال: «أَمْسِكْ، لا تُسْمِعْهُ، فَتُهْلِكَهُ!»(٢).

وفي رواية لأحمد: يا نبيَّ الله، هذا فلانٌ من أحسن أهل المدينة، أو قال: أكثرُ أهل المدينة صلاةً. قال: «لا تُسْمِعْهُ، فَتُهْلِكَهُ ـ مرتين أو ثلاثاً ـ إنكُمْ أُمَّةٌ أُريدَ بِكُمُ اليُسْرُ»(٣).

---

(١) فتح الباري ١٠/٤٧٦ كتاب الأدب: باب ما يكره من التمادح، وصحيح مسلم ١٨/١٢٦ كتاب الزهد: باب النهي عن الإفراط في المدح.

(٢) انظر الأدب المفرد ١/ ٤٣٣ باب يُحثَى في وجوه المدّاحين.

(٣) رواه أحمد ٥/ ٣٢، وإسناده صحيح.

لقد سَمَّى الرسول الكريم إسماع المديح إهلاكاً، لما له من آثار نفسية عميقة في النفس البشرية المجبولة على حبّ سماعه، فإذا الممدوح يتيه على الناس، ويشمخ بأنفه، ويصعّر خدّه لهم، وإذا تكرر ذلك من المدّاحين المنافقين الكَذَبة الخدّاعين، وما أكثرهم حول المتنفّذين وأصحاب المناصب والسلطات، صار ذلك عادة له، يلبّي رغبة جيّاشة في نفسه، ومن هنا يكره سماع النصيحة والنقد، ولا يقبل إلاَّ التقريظ والثناء والإشادة وحرق البخور، ولا عجبَ بعد ذلك إذا ضاع الحق، وقُتل العدل، ووُئِدت الفضيلة، وفَسَدَ المجتمع.

ومن أجل ذلك أمر رسول الله ﷺ صحابته أن يحثوا التراب في وجه المدّاحين، لكيلا يكثر سوادهم في المجتمع الإسلامي، وبكثرتهم يفشو النفاق، ويكثر التزلّف، ويعم البلاء.

وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتحرّجون من المديح يكيله لهم هؤلاء المدّاحون، مع أنهم أحقُّ به وأهلُه، اتقاء مزالقه، وخشية هلكته، وتحلّياً بالخلق الإسلامي الأصيل البعيد عن هذه المظاهر الرخيصة الفارغة. فعن نافع رضي الله عنه وغيره أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنه: يا خيرَ الناس! أو يا ابنَ خيرِ الناس! فقال ابن عمر: ما أنا بِخَيْرِ النّاس ولا ابنِ خيرِ الناس، ولكني عبدٌ من عباد الله، أرجو الله تعالى وأخافُه، والله لن تَزالوا بالرجل حتى تُهْلِكوه[١].

وإنها لَقالةٌ حكيمةٌ من صحابي جليل، مرهف الحسّ الإسلامي، وقّافٍ عند هَدْي النبي ﷺ، مُتَحَلٍّ به، في سرّه وعلانيته.

---

(١) حياة الصحابة ٣/١٠٣.

لقد فَقِهَ الصحابة الكرام هذا الملحظ الدقيق الذي ما فتىء الرسول الكريم يرشد إليه في الأعمال والأقوال وسلامتها من النفاق، وتوضَّحَ لديهم الفرقُ الكبير بين ما هو حق خالص لوجه الله، وما هو نفاق ومداهَنة.

فعن ابن عمر رضي الله عنه أن ناساً قالوا له: إنا ندخل على سلاطيننا، فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال ابن عمر: «كُنَّا نَعُدُّ هذا نِفاقاً على عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ»[1].

والمرأة المسلمة الصادقة لها من هَدْي دينها ما يعصمها من التردّي في منزلق النفاق الخطير الذي تقع فيه كثيرات من النساء في هذا العصر، إذ يحسَبْنَ أنهنّ لم يتعدَّيْنَ حدود المجاملة. وما درينَ أن هناك مجاملة محرَّمة، يهوين بها من حيث لا يشعرن إلى قرار سحيق من النفاق المهلك الممقوت، وذلك حين يسكتنَ عن تبيان الحق، أو يَكِلْنَ المديح لمن لا يستحقه من الناس.

مُتَّصِفَـةٌ بِالْحَيـاءِ:

من البَدَهيّ أن من طبيعة المرأة الحياء. والحياء الذي أعنيه هنا، وكما عرّفه العلماء: هو الخلق النبيل الباعث دوماً على ترك القبيح، والابتعاد عن التقصير في حق أصحاب الحقوق. وقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الحياء، كما وصفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخُدري:

«كانَ رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراء في خِدْرِها، فإذا رأى شيئاً يَكْرَهُهُ عَرَفْناهُ في وَجْهِهِ»[2].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٧٠ كتاب الأحكام: باب ما يكره من ثناء السلطان.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٦٤ كتاب الأدب: باب في الحياء وفضله.

وقد أشاد الرسول الكريم بخلق الحياء في عدد من الأحاديث الشريفة، مبيناً أنه خير محض على صاحبه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه.

فعن ابن عمران حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحَياءُ لا يَأْتي إلاَّ بخَيْرٍ»(١). وفي رواية لمسلم: «الحَياءُ خيرٌ كُلُّهُ. أو قال: الحَياءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعونَ شُعْبَةً، أَوْ بِضْعٌ وسِتّون شُعْبَةً، فأَفْضَلُها قولُ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وأدْناها إماطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّريقِ، والحَياءُ شُعْبَةٌ من الإيمانِ»(٣).

إن المرأة المسلمة الصادقة التقية حيِيّة مهذّبة دَمِثة مرهفة الشعور، لا يصدر عنها قول أو فعل يؤذي الناس. أو يخدش كراماتهم.

ذلك أن خلق الحياء المتأصّل في طبيعتها المعزَّز بمفهوم الحياء الإسلامي يحجبها عن كل مخالفة شرعية، ويَذودها عن كل انحراف في معاملتها للناس، لا حياءً وخجلاً منهم فحسب، وإنما حياءً من الله تعالى، وتحرّجاً أن تَلْبِسَ إيمانَها بظلم، إذ الحياء شعبة من شعب الإيمان. وهذا أرقى ما وصلت إليه المرأة من تخلّق بالحياء. ومن هنا كان تميّز المرأة المسلمة المتصفة بالحياء عن المرأة الغربية التي خلعت كل براقعه.

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٦٣ كتاب الأدب: باب في الحياء وفضله.

(٢) صحيح مسلم ٢/٧ كتاب الإيمان: باب الحياء شعبة من الإيمان.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٦٣ كتاب الأدب: باب ٣٦٣.

عَفِيفَةٌ عَزِيزَةُ النَّفْسِ:

ومما تتميّز به المرأة المسلمة التي ارتوت من هَذْي دينها: العفّة وعزّة النفس. فإذا ما ألمّ بها ضيق، ودهمتها فاقة، تذرعت بالصبر، واعتصمت بالعفّة وعزّة النفس، وضاعفت جهدها للخروج من أزمة الفاقة التي تعانيها، ولا تفكر إطلاقاً في أن تقف موقف المسألة والاستجداء؛ ذلك أن الإسلام يربأ بالمسلمة الصادقة أن تضع نفسها في هذا الموقف، ويهيب بها أن تستعفّ وتستغني وتصبر. وسيعينها الله، ويثبّتها على الصبر والغنى والعفاف.

«مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ. ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيْراً وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(١).

إن المرأة المستنيرة بهَذْي دينها لتعلم أن الإسلام الذي جعل في أموال الأغنياء حقاً للفقراء، يتقاضونه بغير منّة ولا أذى ولا غضاضة، أراد للفقراء في الوقت نفسه أن يستغنوا عن هذا الحق، وأعلن أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن على المسلمين، رجالاً ونساءً، أن يعملوا على ألا تكون أيديهم السفلى؛ ذلك أجدر بهم وأليق وأكرم، وفي ذلك دفع للمقلّين والمقلّات أن يضاعفوا من جهودهم، وألا يتكلوا على الصدقة والعطاء، وفيه حفظ لماء وجوههم، وصون لكراماتهم، أن تتعرض يوماً لأذى، ومن هنا كان رسول الله ﷺ يعلن من على المنبر، وهو يذكر الصدقة والتعفّف عن المسألة، أن «اليدَ العُلْيا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، واليَدُ العُلْيا هيَ المُنفِقَةُ، والسُّفْلَى هي السَّائِلَةُ»(٢).

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٥ باب الصبر.

(٢) صحيح مسلم ٧/ ١٢٤ كتاب الزكاة: باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

لا تَتَدَخَّلُ فيما لا يَعْنِيها:

والمرأة المسلمة الواعية ذكية حصيفة، لا تتدخّل فيما لا يعنيها، ولا تمدّ عينيها إلى مَنْ حولها من النساء، مُنَقِّبةً باحثة عن خصوصياتهنّ، ولا تدسّ أنفها في شؤونهنّ الخاصة، ولا تحشر نفسها في أمر يخصّ غيرها ولا يهمها من قريب أو بعيد، وقد يعود عليها بالإثم والمؤاخذة. وهي إذ تجتنب إقحام نفسها فيما لا يعنيها، وتصون نفسها عن الثرثرة الفارغة واللغو الأهوج، إنما تستمسك بخلق دينها الرَّصين الذي رفع الإنسان المسلم عن التفاهات، وزوّده بمكارم الأخلاق، وأرشده إلى أحسن السبل في معاملة الناس:

«مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ»(١).

وعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله تَعالَى يَرْضَى لكمْ ثَلاثاً ويَكْرَهُ لكمْ ثَلاثاً. يَرْضَى لكمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً، وأنْ تَعْتَصِموا بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا. ويَكْرَهُ لكمْ: قِيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضاعَةَ المالِ»(٢).

إن المجتمع الرّبّاني الذي ينشئه الإسلام، لا مجال فيه لقيلَ وقالَ، وكَثْرَةِ السؤال، والتدخّل في شؤون الناس الخاصة؛ لأن أفراده من رجال ونساء مشغولون بما هو أجلّ وأكبر، إنهم مشغولون بأداء رسالتهم في الحياة، كُلٌّ في محيطه وفي دائرة اختصاصه، بحيث تصبّ جهودهم جميعاً في تحقيق

---

(١) أخرجه الترمذي ٣/ ٣٨٢ أبواب الزهد: ٨، وابن ماجه ٢/ ١٣١٦ كتاب الفتن: باب كف اللسان عن الفتنة.

(٢) صحيح مسلم ١٢/ ١٠ كتاب الأقضية: باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

كلمة الله في الأرض، ونشر قِيَم الإسلام بين الناس، والذين ينهضون بهذه الأعمال الجسام، لا يجدون وقتاً للخوض في تلك الآثام.

تَبْتَعِدُ عَنِ الخَوْضِ في الأَعْراضِ وتَتَبُّعِ العَوْراتِ:

تنزّه المرأة المسلمة التقيّة لسانها عن تتبّع عورات الناس والخوض في أعراضهم، وتكره أن تشيع مثل هذه الأحاديث في المجتمع الإسلامي، عملاً بتوجيهات القرآن الكريم والسنة المطهّرة التي اشتدت في وعيد أولئك المفسدين والمفسدات والوالغين والوالغات في أعراض الناس بأشدّ العذاب في الدنيا والآخرة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾(١).

ذلك أن الذي يخوض في أعراض الناس، وينشر أخبار الفاحشة في المجتمع كفاعل الفاحشة سواء، كما يقول علي بن أبـي طالب رضي الله عنه:

«القائِلُ الفاحِشَةَ والذي يشيعُ بها في الإثْمِ سَواءٌ»(٢).

إن المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها لتدرك أن معالجة الضعف البشري لدى بعض المتساهلات والمقصّرات، لا يكون بتتبّع عوراتهنّ وعيوبهنّ والتشهير بهنّ بنشرها على الألسنة في المجتمع، وإنما يكون بحسن عرض الموعظة على أسماعهنّ، وتزيين طاعة الله عز وجل لهنّ، وتكريه المعصية إلى نفوسهنّ، دونما تصريح ولا تجريح ولا مواجهة أو مجابهة؛

---

(١) النور: ١٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/٤١٩ باب من سمع بفاحشة فأفشاها.

فبالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة وحسن التأتّي في عرض الحق على الأسماع تنفتح مغاليق القلوب، وتنقاد النفوس، وتخشع الجوارح. ولهذا نهى الله تعالى عن التجسّس وتتبّع عورات المسلمين والمسلمات بقوله:

«ولا تجسَّسوا»[١].

ذلك أن التشهير بالمقصّرين والمقصّرات، وتتبّع عوراتهم، والتجسّس عليهم، والخوض في الأحاديث عنهم، لا يرتدّ هذا كله بالأذى عليهم فحسب، وإنما يؤذي المجتمع الكبير الذي يعيشون فيه. ومن هنا اشتدّ القرآن الكريم في وعيد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع؛ فما شاعت الفاحشة في مجتمع، وكثر فيه الخوض في الأعراض، وكثرت الشائعات والأقاويل والظنون إلاَّ دبّ فيه داء الانحلال، وهان وقع المعصية على النفوس، وتقطّعت وشائج الأخوّة، وسرت بين أفراده العداوة والبغضاء والكيد والشحناء وعمّ الفساد. وإلى هذا يشير الرسول ﷺ بقوله:

«إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْراتِ المُسْلِمينَ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»[٢].

ولهذا كلّه اشتد رسول الله ﷺ في النهي عن الولوغ في الأعراض والتنقيب عن العورات، وهدّد مَنْ يتهاون في ذلك بهتك الستر عنه وفضحه، ولو كان معتصماً في جوف بيته.

«لا تُؤْذُوا عِبادَ اللَّهِ، ولا تُعَيِّروهُمْ، ولا تَطلُبوا عَوْراتِهِمْ، فإنَّهُ مَنْ تَطَلَّبَ عَوْرَةَ أخيهِ المُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حتى يَفْضَحَهُ في بَيْتِهِ»[٣].

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٣٧٥ كتاب الأدب: باب في النهي عن التجسس، بإسناد صحيح.

(٣) رواه أحمد ٥/ ٢٧٩، وإسناده حسن.

لقد كان رسول الله ﷺ يتألم جداً من أصحاب الفضول والظنون والشكوك والتطاول على سمعة الناس وأعراضهم، وتنفعل نفسُه الشريفة كلما بلغه عن هؤلاء المعتدين نبأٌ يؤذي الآخرين. وقد صوّر ابن عباس رضي الله عنه انفعال الرسول الكريم وشدّته على هؤلاء الوالغين والوالغات في الأعراض بقوله:

«خطبَ رسولُ اللَّهِ ﷺ خطبةً حتى أسمعَ العَواتِقَ في خُدورهنَّ، فقالَ: يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ، ولمْ يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، لا تُؤْذُوا المُؤْمِنينَ، ولا تَتَبَّعُوا عَوْراتِهِمْ؛ فإنّه مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخيهِ المُسْلِمِ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ، ومَنْ يَتَتَبَّعْ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، ولَوْ في جَوْفِ بَيْتِهِ»[١].

إنها خطبة ناريّة، تأجّجت فيها نفس الرسول الكريم حتى أسمع العواتق في خدورهنّ، وقد استهلّها بهذه العبارة الخطيرة: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ ولمْ يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ». فما أفدحه من خطأ! وما أكبره من إثم! جعل رسول الله ﷺ يعرّي هؤلاء المتطاولين والمتطاولات على أعراض الناس من نعمة الإيمان!

بَعِيدةٌ عن الرِّياءِ:

لا تنزلق المرأة المسلمة البصيرة الراشدة إلى مستنقع الرياء والتفاخر والمباهاة، لأن لها من وعيها بهَدْي دينها منجاة وعصمة؛ إذ تعلّمت منه أن لبّ لباب هذا الدين الإخلاص لله تعالى في القول والعمل، وأن أي أثارة من مراءاة تحبط الأجر، وتمحق العمل، وتجلب لصاحبتها الخزي يوم القيامة.

---

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٩٤.

ذلك أن عبادة الله هي الهدف من خلق الإنس والجنّ، كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وهذه العبادة لا يقبلها الله إلاَّ إذا كانت خالصة لوجهه الكريم:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ(١) ﴾(٢).

ومتى شاب عمل المرأة المسلمة شائبة من رياء، أو حب ظهور وطلب لسمعة، أو ثناء وشهرة، بطل عملها. ومُحِقَ ثوابها، وباءت صاحبته بالخسران المبين، مصداق ذلك التحذير القرآني الصريح الحاسم لأولئك المنفقين أموالهم، والمتبعين نفقتهم بالمنّ والأذى، يجرحون بهما كرامة الآخذين من المحتاجين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ(٣) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ(٤) فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ(٥) لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾(٦).

لقد أودت كلمة المنّ على المحتاجين بثواب هذه الصدقات، كما يودي الماء المنسكب على الحجر الأملس بما عليه من تراب، ويأتي التعقيب

---

(١) أي مائلين إلى الحق مستقيمين مخلصين.
(٢) البينة: ٥.
(٣) أي حجر أملس ناعم.
(٤) أي مطر غزير.
(٥) أي أملس.
(٦) البقرة: ٢٦٤.

المخيف المروّع في آخر الآية مبيناً أن أولئك المرائين لا يستحقون هُدى الله، وأنهم معدودون في زمرة الكافرين.

ذلك أن شأن هؤلاء المرائين التظاهرُ أمام الناس بالعمل الصالح، وليس همُّهم مرضاةَ الله عز وجل، وقد حكى الله تعالى شأنهم هذا بقوله:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[١].

ومن هنا كان عملهم مردوداً عليهم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيرَه، والله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان خالصاً مَحْضاً لوجهه الكريم، كما جاء في حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله تعالى: أَنا أَغْنَى الشُّركاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيهِ معي غَيْري، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»[٢].

إن المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها لتحذر في أعمالها الخيِّرة هذا المنزلق الخطير الذي تهوي فيه كثيرات من العاملات في الحقول الخيِّرة من حيث لا يدرين، إذ يتطلعن أحياناً إلى التنويه بجهودهنّ وذكر أسمائهنّ والإشادة بهنّ في المناسبات. ومن هنا يكون المنزلق والسقوط المريع.

وقد بسط رسول الله ﷺ القول في هذه المسألة بَسْطاً وافياً شاملاً، وبَيّنَ الخزيَ الشّنيعَ الذي يلقاه المراءون يوم العرض الكبير، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، وذلك في حديث أبي هريرة أيضاً الذي يقول فيه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) صحيح مسلم ١٨/ ١١٥ كتاب الزهد: باب تحريم الرياء.

«إنَّ أوّلَ النّاس يُقْضَى يومَ القِيامةِ عليهِ رجلٌ اسْتُشْهِدَ فأُتِيَ بِهِ، فعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فعَرَفَها. قالَ: فما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فيكَ حتّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كذبتَ، ولكنّكَ قاتَلْتَ لِأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النّارِ. ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ، وقرَأَ القُرْآنَ، فأُتِيَ بِهِ، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها، قالَ: فما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وعَلَّمْتُهُ، وقَرَأْتُ فيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولكنّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: قارِيءٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النّارِ. ورَجُلٌ وَسَّعَ اللّهُ عليهِ، وأَعْطاهُ مِنْ أَصْنافِ المالِ، فأُتِيَ بهِ، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فعَرَفَها، قالَ: فما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلاَّ أَنْفَقْتُ فيها لَكَ، قالَ: كذبتَ، ولكنّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: جَوادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النّارِ»[1].

إن المرأة المسلمة النابهة التي استروحت نسمات الهداية الربانية من كتاب ربها وسنة نبيه ﷺ، لَتَنْأَى بنفسها أن تنزلق إلى الرياء في أي شكل من أشكاله، وتزداد حرصاً على التجرد لله في جميع أعمالها، مبتغية بها وجهه الكريم، مستهدية بقول الرسول ﷺ كلما لاح أمام ناظريها شبح الرياء المخيف:

«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللّهُ بِهِ[2]، ومَنْ يُرائي يُرائي اللّهُ بِهِ[3]»[4].

---

(١) صحيح مسلم ١٣/ ٥٠ كتاب الإمارة: باب من قاتل للرياء والسمعة.

(٢) أي مَنْ أظهر عملَه للناس رياءً فضحه ﷻ يوم القيامة.

(٣) أي مَنْ أظهر للناس عملَه ليعظم عندهم أظهر الله سريرته على رؤوس الخلائق.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/ ٣٢٣ كتاب الرقاق: باب الرياء والسمعة.

عادِلَةٌ في حُكْمِها:

قد تضع الأَقدارُ المرأةَ المسلمة في موضع يُطْلَبُ منها أن تقول رأياً أو تصدر حكماً فيه. وهنا يتجلّى إيمانُ المرأة المسلمة ورشدُها وتقواها. فالمرأة المسلمة الراشدة تحكم بالعدل. لا تجور، ولا تتحيّز، ولا تميل مع الهوى، مهما كانت الظروف والأحوال؛ لأنها تعلم من هَدْي دينها أن العدل ومجانبة الظلم من لب الدين وصميمه، نطقت به النصوص الصريحة القاطعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأمرت به أمراً لا مجال للترخّص أو الاجتهاد فيه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[1].

والعدل الذي فَقِهتْ كُنهَه المرأةُ المسلمةُ من هَدْي دينها عدلٌ محض مجرَّد دقيق خالص، لا يُميلُ ميزانَه الحبُّ والبغض، ولا يؤثّر في نصاعته ودٌّ أو قرابة أو نسب أو ميل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ[2] عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ﴾[4].

(١) النساء: ٥٨.

(٢) أي بغضهم.

(٣) المائدة: ٨.

(٤) الأنعام: ١٥٢.

ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في العدل حينما جاء أسامة بن زيـد يستشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، وعزم رسول الله ﷺ على قطع يدها: فقال له:

«أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدودِ اللَّهِ؟ وايمُ اللَّهِ لَوْ أنَّ فاطِمَةَ بنتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها»[١].

إنه العدل العام المطلق الذي يُطَبَّق على الكبير والصغير، والأمير والسُّوقة، والمسلم وغير المسلم. ولا يفلت من قبضته أحد. وهذا مفرق الطريق بين العدل في المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات.

ومما وعاه التاريخ، وأنصتَتْ له بإجلال محافلُ العدل في العالم كله عبر القرون وَقْفَةُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجانب خصمه اليهودي الذي سرق درعه أمام القاضي شُرَيْح، الذي لم يمنعه إكباره وإجلاله لأمير المؤمنين أن يطلب منه البَيِّنَةَ على سرقة اليهودي درعَه. ولما لم يجد أميرُ المؤمنين البيِّنة حكم القاضي لليهودي على أمير المؤمنين. والتاريخ الإسلامي حافل بأمثال هذه الأخبار الدالة على سيادة الحق والعدل في المجتمع الإسلامي.

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الملتزمة بتعاليم دينها عادلة في أقوالها وأفعالها، يعزِّز هذه الخليقة فيها أن الحقّ قديم في تراثها، والعدل عريق في أمتها. والحَيْدَة عن الحق والعدل حرام في شريعتها.

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/٣٢٨ كتاب الحدود: باب قطع يد الشريف والمرأة والشفاعة في الحدّ.

لا تَـظْـلِـمْ:

وبقدر حرص المرأة المسلمة التقية على العدل في أقوالها وأفعالها، تجتنب فيهما الظلم؛ إذ الظلم ظلمات يوم القيامة، يتخبّط بها الظالمون والظالمات، كما بيّن الهَدْي النبوي الكريم:

«اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ»(١).

ولقد حرّم الله الظلم تحريماً قاطعاً، لا مجال للاجتهاد أو التأويل فيه، وذلك في الحديث القدسي:

«يا عِبادِي، إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسي، وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فلا تَظالَموا»(٢).

وإذا كان الله الخالق الملك العزيز الجبار المتكبِّر قد حرّم الظلم على نفسه، وجعله مُحَرَّماً بين العباد، أفيسوغ للعبد الضعيف الفاني بعد ذلك أن يقع منه ظلم على أخيه الإنسان؟

لقد نفى الرسول الكريم وقوع الظلم من المسلمين والمسلمات على إخوان العقيدة والدين، مهما تكن الدواعي والأسباب والظروف؛ إذ لا يتصور وقوع الظلم من إنسان مسلم مستمسك بعروة دينه الوثقى:

«المُسْلِمُ أَخو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ(٣)، ومَنْ كانَ في حاجَةِ أَخيهِ كانَ اللّهُ في حاجَتِهِ، ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللّهُ عنهُ كُرْبَةً مِنْ

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٣٤ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم.

(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٣٢ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم.

(٣) أي لا يخذله.

كُرُباتِ يَوْمِ القِيامَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ»(١).

لم يكتفِ رسول الله ﷺ بنفي الظلم عن الإنسان المسلم، رجلاً كان أو امرأة، بل نفى خذلانه لأخيه أيضاً؛ ففي هذا الخذلان ظلم وأي ظلم، ورغّب في قضاء حاجة أخيه وتفريج كربته وستره، وكأنه يشير إلى أن التقاعس عن هذه الفضائل ظلمٌ وتقصيرٌ وإجحافٌ في حق الأخوّة التي تربط بين المسلم وأخيه.

ولقد رأينا النصوص في الفقرة السابقة تحضّ على العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه حب أو بغض أو ميل أو قرابة أو نسب، ورأينا النصوص في هذه الفقرة تنهى عن الظلم المطلق أيضاً، وهذا يعني تطبيق العدل على كل إنسان، واجتناب الظلم لكل إنسان، ولو كان من غير المسلمين؛ فاللَّه تعالى يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والإساءة لكل الناس:

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ ﴾(٢).

تُنْصِفُ مَنْ لا تُحِبُّ:

وقد تفرض الحياةُ على المرأة المسلمة عِشْرَةَ مَنْ لا تحب من النساء، كأن يجمعها بيت واحد بامرأة من بيت حَمِيها أو غيرها من النساء، لم يُؤْدَم بينهما، ولم ينفتح قلبها لها. وهذا أمر واقع في كثير من البيوت، ولا سبيل إلى إنكاره، فَالأَرْواحُ جُنودٌ مُجَنَّدة، فما تَعارفَ منها ائْتَلفَ، وما تَنَاكَرَ منها

---

(١) فتح الباري ٥/ ٩٧ كتاب المظالم: باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسْلِمُهُ.

(٢) الممتحنة: ٨.

اختلَفَ، كما بيّن رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته. فكيف تكون المرأة المسلمة التي ربّاها الإسلام على هَدْيه في مثل هذه الحالة؟

أتكون سلبية في تصرفاتها ومواقفها وردود أفعالها؟ أم تكون رفيقة آلفة مألوفة دمثة منصفة متعقّلة، حتى مع مَنْ لا تحب؟

والجواب أن المرأة المسلمة التي استنارت بهَدْي الإسلام، وتلقت روحُها إشعاعاتِه السمحةَ الغراء، تكون منصفة متعقّلة لبقة دمثة، لا تُظْهِر ما في نفسها لمن تكره، ولا يندّ عنها تصرّف أو موقف أو ردّ فعل يَشي بما يعتمل في نفسها من شعور بارد نحو المرأة التي لا تحب، بل إنها لتظهر بمظهر يخفي ما في نفسها من شعور الكراهية أو عدم المحبة والارتياح، فتبشّ في وجه تلك المرأة، وتتلطف معها، وتلين لها القول. وهذا هو الخلق الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الأكرمون؛ فعن أبـي الدرداء رضي الله عنه قال:

«إنّا لَنَكْشِرُ في وُجوهِ أقْوامٍ، وإنّ قُلوبَنا لَتَلْعَنُهُمْ»[(١)].

وعن عروة بن الزبير أن عائشةَ أخبرته أنّه استأذنَ على النبـي ﷺ رجلٌ، فقال: «ائذَنوا له، فبئسَ ابنُ العَشيرةِ، أو بئسَ أخو العَشيرَةِ»، فلما دخل ألانَ له الكلام، فقلتُ: يا رسولَ الله، قلتَ ما قلتَ، ثم ألنتَ له في القول، فقالَ: «أَيْ عائِشَةُ، إنَّ شَرَّ النّاسِ مَنْزِلةً عندَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ ــ أَوْ وَدَعَهُ ــ النّاسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ»[(٢)].

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٢٧ كتاب الأدب: باب المداراة مع الناس.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٢٨ كتاب الأدب: باب المداراة مع الناس.

ذلك أن مداراة الناس وتألّفهم والرفق بهم من أخلاق المؤمنين والمؤمنات، وخفض الجناح ولين الكلام وترك الإغلاظ للناس في الكلام من أهم أسباب الألفة والتحابب والتقارب التي حضّ عليها الإسلام، وأوصى المسلمين والمسلمات بالأخذ بها في معاملتهم للناس.

فالمسلمة التي صاغها الإسلام لا تنساق وراء عاطفتها في حب أو كره، بل تكون معتدلة موضوعية عادلة واقعية منصفة في مواقفها وأحكامها على مَنْ لا تحبّ من النساء، تحكّم في ذلك كله عقلها ودينها ومروءتها وخلقها، فلا تشهد إلاَّ بالحق، ولا تحكم إلاَّ بالقسط، ولا تدلي إلاَّ بالإنصاف، متأسّيةً في مواقفها وأحكامها بأمهات المؤمنين اللواتي كنّ في قمة الإنصاف والعدل والتقوى في حكم بعضهنّ على بعض.

فقد كانت السيدة عائشة أقرب زوجات النبي ﷺ إلى قلبه، تنافسها في ذلك أم المؤمنين زينب بنت جحش، فكان من الطبيعي أن يكون بينهما غَيْرَة، ولكن هذه الغَيْرَة لم تمنع إحداهما من أن تشهد شهادة الحق، فتصف أختها بالصفات التي كانت عليها، لا تنقص منها شيئاً عُرِفت به، ولا تحجب عنها فضيلة اتصفت بها.

ففي صحيح مسلم تقول السيدة عائشة عن زينب: «هي التي كانت تُساميني[1] في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خيراً في الدِّينِ مِنْ زَينبَ، وأتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ لِلرَّحِمِ، وأعظمَ صدقةً، وأشدَّ ابتذالاً لنفسِها في العمل الذي تَصَدَّقُ بِه وتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللَّهِ تَعالَى، ما

(١) أي تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة.

عَدا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ[١] كانَتْ فيها، تُسْرِعُ مِنْها الفَيْئَةَ[٢]»[٣].

وفي صحيح البخاري تقول السيدة عائشة في سياق حديثها عن الإفك الذي برّأها اللّه فيه من كل سوء، منوّهةً بشهادة زينب فيها:

«وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يسألُ زينبَ بنتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْري، فقالَ: يا زينبُ، ما عَلِمْتِ؟ ما رَأَيْتِ؟ فقالَتْ: يا رسولَ اللّهِ، أَحْمي سَمْعي وبَصَري، واللّهِ ما علمتُ عليها إلاّ خيراً». ثم قالَتْ السّيدةُ عائشةُ: «وهي التي كانت تُساميني، فَعَصَمَها اللّهُ بالوَرَعِ»[٤].

ومَنْ يطالع كتب السير والطبقات يجد أقوالاً عديدة لأمهات المؤمنين، فيها إنصاف وثناء من الضَّرَّة على ضَرّتها.

ومن هذه الأقوال ما روي عن أم سَلَمة في زينب: «كانت زينب لرسول الله ﷺ مُعْجِبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوّامة صوّامة، صَناعاً، وتتصدّق بذلك كله على المساكين»، وما روي عن عائشة في زينب حين بلغها نعيها: «لقد ذهبَتْ حميدةً متعبّدةً مَفْزَعَ اليَتامَى والأرامل»[٥]، وقول عائشة في ميمونة: «ذهبَتْ واللّهِ ميمونة... أما إنّها واللّهِ كانت مِنْ أَتْقانا وأَوصَلِنا لِلرَّحِم»[٦].

---

(١) أي شدّة خلق وسرعة غضب.

(٢) أي الرجوع عن الحدّة وعدم الإصرار عليها.

(٣) صحيح مسلم ١٥/ ٢٠٦ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أم المؤمنين عائشة.

(٤) فتح الباري ٨/ ٤٥٥ كتاب التفسير: باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً.

(٥) السمط الثمين: ١١٠، والاستيعاب ٤/ ١٨٥١، والإصابة ٨/ ٩٣.

(٦) الإصابة: ٨/ ١٩٢.

كان هذا الخلق والإنصاف والعدل من أمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ مع الضَّرائر، وبينهنّ ما بينهنّ من غَيْرة وتنافس وحساسية. ولنا أن نتصوَّرَ كَمْ كانت أخلاقُهنَّ ساميةً مع غير ضرائرهنَّ من النساء. إنهنَّ ليضعن بسيرتهنّ المثلى هذه للنساء المسلمات منهج التعايش الإنساني الراقي الذي يمتص الكراهية بتوسيع أفق العقل، ويحدّ من غلواء الغَيْرة ـ إنْ وُجِدَتْ ـ بتغليب الإنصاف والإحسان والتسامي، وبذلك تغدو المرأة المسلمة منصفةً مَنْ لا تحب من النساء، أيّاً كانت درجة قرابتها لها، أو علاقتها بها، عادلةً في حكمها عليها، رزينةً مُتَعَقِّلَةً دَمِثَةً في معاملتها إيّاها.

لا تَشْمَتُ بِأَحَدٍ:

والمسلمة الصادقة التقيّة التي أُشْرِبَتْ روحُها هَدْيَ الإسلام الحنيف، وتخلقت بأخلاقه السمحة الغرّاء، لا تشمت بأحد من الناس؛ إذ الشماتة خلقٌ وضيعٌ مؤذٍ جارحٌ لا يكون في المرأة التقية العارفة هَدْي دينها. وقد نهى عنه النبي ﷺ وحذّر من الارتكاس فيه بقوله:

«لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لِأَخِيكَ، فَيَرْحَمَه اللَّهُ ويَبْتَلِيكَ»[(١)].

إن المرأة المسلمة التي هذّبها الإسلام لا مكان للشماتة في نفسها، بل إنها لتعطف على اللواتي ابتُلِينَ، وترثي لحالهنّ، وتسارع إلى التخفيف عنهنّ، وتألم لألمهنّ؛ فالشماتة لا تظهر في النفوس المهتدية بهَدْي الإسلام، المستنيرة بنوره الوضّاء، وإنما تظهر في النفوس المظلمة الصَّلْدة القاسية المتحجّرة الحَقود، المجبولة على الكيد والتشفّي والحقد وحبّ الوقيعة

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٦٦٢ في كتاب صفة القيامة: ٥٤، وقال: حديث حسن صحيح.

والأذى والانتقام. والمرأة المسلمة التقيّة من هذا كله بريئة كل البراءة، بعيدة كل البعد.

تَجْتَنِبُ ظَنَّ السَّوْءِ:

ومن خلائق المرأة المسلمة الصادقة أنها لا تظن بالناس ظناً لا يقوم على دليل، بل إنها لتجتنب كثيراً من الظنّ، كما أمر الله في محكم كتابه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[١].

ذلك أنها تدرك أن رجم الناس بالظن قد يوقع الظانّ بالإثم، ولا سيما إذا أطلق هذا الظانّ لخياله عنان التصورات والأوهام والاحتمالات، فإذا هو يصم الناس بالعيب، ويلصق بهم تهماً، هم منها برآء، وهذا هو ظنّ السوء المحرَّم في الإسلام.

ولهذا اشتد رسول الله ﷺ في التحذير من الظنّ ورجم الناس بالغيب بعيداً عن الحقيقة واليقين، فقال:

«إيّاكُمْ وَالظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَديثِ»[٢].

لقد عدّ النبي ﷺ الظنّ أكذب الحديث، والمسلمة الصادقة التقيّة تتحرَّى الصدق في أقوالها، فلا يجري على لسانها حديث فيه أثارة من كذب، فكيف تقع في أكذب الحديث؟

والهَديُ النبوي العالي، إذ يحذر من الظنّ، ويعدّه أكذب الحديث، يوجه المسلمين والمسلمات إلى الأخذ بالظاهر من أعمال الناس، والبعد عن

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/١٠٩ كتاب البر والصلة: باب ما لا يجوز من الظن.

رميهم بالظنون والشكوك والأقاويل والأوهام، فليس من خلق الإنسان المسلم ولا من شأنه أن يكشف عن سرائر الناس ويغوصَ في خصوصياتهم، ويخوضَ في أعراضهم، فالسرائر يعلم خَبيئَها، ويكشف عنها، ويحاسب عليها الإلّه الذي يعلم السرَّ وأخفى. أما الإنسان فليس له من أخيه إلاَّ الظاهر من عمله، وهذا ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين استروحوا نسمات هذا الهَدْي نقيّة صافية من كل شائبة وكدر.

أخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قال: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن ناساً كانوا يُؤْخَذون بالوَحْي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أَمِنّاهُ وقرّبناه، وليس إلينا من سريرته شيءٌ، اللَّهُ يحاسِبُه على سريرته، ومن أظهر لنا شرّاً لم نَأْمَنْهُ ولم نُصَدِّقْهُ، وإن قال: إنّ سريرتَه حسنةٌ»(١).

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الواعية هَدْيَ دينها، الآخذة بأسباب التقوى والعمل الصالح، متحرّزةً متحفّظة في كلّ كلمة تتفوّه بها تمسّ أختها المسلمة من قريب أو بعيد، متثبّتةً من كل حكم تطلقه في حق الناس، ذاكرةً دوماً قولَه تعالى:

﴿ وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾(٢)، فإذا هي وقّافة عند هذا النهي القاطع الحكيم، لا تتكلم إلاَّ بعلم، ولا تطلق حكماً إلاَّ بيقين.

---

(١) حياة الصحابة ٢/ ٨٥.

(٢) الإسراء: ٣٦.

وإن المرأة المسلمة التقيّة لَتستشعر دوماً ذلك الملَكَ الرقيبَ العتيدَ الموكَّلَ بإحصاء كل كلمة تندّ عن لسانها، وكل حكم يصدر عنها، فتزداد فزعاً وخشية من الوقوع في إثم الرجم بالظنّ:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾(١).

إن المرأة المسلمة النابهة لتقدّر مسؤولية الكلمة التي تتفوّه بها؛ لأنها تعلم أن هذه الكلمة التي تطلقها قد ترفعها إلى مقام رضوان الله عز وجلّ، أو تهوي بها إلى دَرْك سَخَطِهِ وغضبه، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللَّهِ، ما كان يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لهُ بِها رِضْوانَهُ إلى يوم يَلْقَاهُ، وإنَّ الرَّجلَ لَيَتكلّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، ما كانَ يظنُّ أنْ تبلغَ ما بَلَغَتْ، يكتبُ اللَّهُ لهُ بِها سَخَطَهُ إلى يومِ القِيامَةِ»(٢).

فما أعظمَ مسؤوليةَ الكلمة! وما أكبرَ الآثارَ المترتبةَ على ما تقذف به الألسنة الثرثارة من أقاويل!

إن المرأة المسلمة التقيّة الذكيّة لا تلقي بالاً لأكثر ما يدور في المجالس من أقاويل وإشاعات وظنون وتخيلات، ولا سيما مجالس النساء الفارغات المتساهلات، ولا ترضى لنفسها أن تحمل هذا الهَذَرَ من الأقاويل والشائعات والظنون، فتروي شيئاً منه إذا لم يقم لديها دليل يرجح لديها الصحة والثبوت واليقين، بل إنها لتعدّ نقل ما تسمع من هذه الأقاويل قبل التثبّت من صحته

---

(١) قٓ: ١٨.

(٢) حديث صحيح رواه مالك في الموطأ ٢/٩٨٥ كتاب الكلام: باب ما يؤمر به من التحفظ في الكلام.

من الكذب المحرَّم الذي نصّ عليه رسول الله ﷺ بقوله:

«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ»(١).

تُمْسِكُ لِسانَها عَنِ الغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ:

والمرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها تقيّة، تخشى الله في السّرّ والعلانية، حريصة على ألاّ ينِدّ من لسانها كلمة فيها غِيبة أو نميمة، تغضب بها ربَّها، وتجعلها في زمرة المغتابات النمّامات، اللواتي اشتدّت نصوص الإسلام في وعيدهنّ.

إنها لتقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾(٢)، فتحسّ جريمةَ الغيبة بَشِعةً مستكرَهَةً؛ إذ تتمثّل بأكل لحم أختها ميّتةً، فإذا هي تسارع إلى التوبة التي ذيّل الله بها الآية، وتلجأ إلى الاستغفار من ذنبها، إن زلّ لسانُها بشيء من غِيبة لأحد.

وتصغي إلى الهَدْي النبوي الكريم يقول: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مَنْ لِسانِهِ ويَدِهِ»(٣)، فتحسّ أن الغِيبة ذنب لا يليق بالمسلمة التي نطقت بالشهادتين، وأن من اعتادت الغِيبة في مجالسها ليست في عداد المسلمات الصالحات.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبكَ مِن صَفيّةَ

---

(١) صحيح مسلم ١/٧٣ المقدمة: باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) صحيح مسلم ٢/١٢ كتاب الإيمان: باب بيان تفاضل الإسلام.

كذا وكذا ــ قال بعضُ الرواة: تعني أنها قصيرة ــ فقال: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِماءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ[(١)]»[(٢)].

وتستمع المرأة المسلمة إلى بيان السبع الموبقات التي دعا الرسول الكريم إلى اجتنابها، فتجد أن هناك ما هو أشدّ من الغِيبة وأخطر، وهو قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، مما يقع فيه بعض النساء في مجتمعاتهنّ:

«اِجْتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قيلَ: يا رسولَ اللّهِ، وما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ باللّهِ، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرّمَ اللّهُ إلاّ بالحقّ، وأَكْلُ مالِ اليَتيم، وأَكْلُ الرِّبا، والتَّولّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ»[(٣)].

إن المرأة المسلمة البصيرة المستوعبة هذا التوجيه العالي لتقف من الغيبة موقفاً جاداً، فلا تتورط بالوقوع في شكل من أشكالها، ولا تسمح لأحد أن يغتاب في مجلسها، بل تذبّ عن أخواتها ألسنة البغي والعدوان، وتدفع عنهنّ قالةَ السوء، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخيهِ بِالغَيْبَةِ كانَ حَقّاً على اللّهِ أنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النّارِ»[(٤)].

والمرأة المسلمة التقيّة تحفظ لسانها عن النميمة أيضاً، وإنها لتدرك

---

(١) أي لخلطته وكدّرته.

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٣٧١ كتاب الأدب: باب في الغيبة، والترمذي ٤/ ٦٦٠ كتاب صفة القيامة: ٥١، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/ ٨٦ كتاب الإيمان: باب الكبائر.

(٤) رواه أحمد ٦/ ٤٦١ بإسناد حسن.

خطورة النميمة في فشوّ الشرّ والسوء والفساد في المجتمع، وتقطيع عرى المحبة والتوادّ بين أفراده، كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«خِيارُ عِبادِ اللَّهِ الذينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ، وشِرارُ عِبادِ اللَّهِ المَشّاؤونَ بِالنَّميمةِ المُفَرِّقونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الباغُونَ لِلْبُرَآءِ العَنَتَ»(١).

وحسب المرأة النمّامة المفسدة بين الأحبة، الساعية في ذات البين، حسبها خزياً في الحياة الدنيا وسوءَ عاقبة في الآخرة، إن هي ظلّت سادرة في غيّها وضلالها ومشيها بالنميمة بين الناس، هذا الحديثُ الصحيح القاطع الذي يحرم كلّ نمّام نعيم الجنة:

«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمّامٌ»(٢).

ومما تنهلع له النفس المؤمنة، وتمتلىء رعباً وفزعاً من عواقب النميمة الوخيمة، أن عذاب الله ينصبّ على كلّ نمّام منذ أن يوسّد في قبره، نجد ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه:

قال: «مَرَّ رسولُ اللَّهِ على قَبْرَيْنِ، فقالَ: أَما إنّهما لَيُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كَبيرٍ. أمّا أَحَدُهُما فكانَ يَمْشي بالنَّميمَةِ، وأمّا الآخَرُ فكانَ لا يَسْتَبْرِىءُ مِنْ بَوْلِهِ. قالَ: فَدَعا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ(٣)، فَشَقَّهُ اثْنَيْنِ، ثمّ غَرَسَ على هذا واحِداً، وعلى هذا واحِداً، ثمّ قالَ: لعلّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهما ما لَمْ يَيْبَسا»(٤).

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٢٢٧ بإسناد صحيح.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ١٤٧ كتاب البر والصلة: باب وعيد النمام.

(٣) أي غصن أخضر من النخل.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/ ٣٧٠ كتاب الطهارة: باب الاستتار عند قضاء الحاجة.

تَجَنّبُ السِّبابَ والكَلامَ البَذِيءَ:

والمرأة المسلمة التي هذّبها الإسلام لا يجري على لسانها هُجْرٌ من القول، أو بذيء من الكلام، ولا تنال أحداً بسباب أو شتيمة؛ لأنها تعلم أن توجيهات الإسلام الخلقية نفّرت من ذلك تنفيراً شديداً، وجعلت السباب فسوقاً يقدح في حسن إسلام المرء، وصوّرت الفاحش البذيء مكروهاً ممقوتاً من الله عز وجل:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سِبابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُهُ كُفْرٌ»[١].

وقال: «إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ فاحِشٍ مُتَفَحِّشٍ»[٢].

وقال: «إنَّ اللَّهَ تَعالى يُبْغِضُ الفاحِشَ البَذيءَ»[٣].

إنها صفات لا تليق بالمرأة المسلمة التي استروحت نسمات الهداية الربانية من هَدْي الإسلام، وخالطت بشاشةُ الإيمان قلبَها، وهذّبت تعاليم الشريعة السمحة لسانها ومشاعرها. ومن هنا كانت بعيدة عن كل مهاترة أو مشاحنة رخيصة تُتَقاذَف فيها الشتائم والكلام الرخيص، وتزداد المرأة المسلمة النابهة بعداً عن هذا التردّي والانحطاط الخلقي كلما تجسّدت لها الأسوة الحسنة في أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وسيرته العطرة؛ فقد عُرِف عنه أنه لم تندّ عنه يوماً كلمة جارحة، تؤذي مشاعر إنسان، أو تخدش سمعه، أو تمسّ كرامته بسوء.

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١/ ٧٦ كتاب الإيمان: باب علامات النفاق.

(٢) رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٦٤.

(٣) رواه الطبراني ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٦٤.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه الذي كان ملازماً للرسول الكريم سنين طويلة:

«لَمْ يَكُنْ النبـي ﷺ سَبّاباً ولا فَحّاشاً ولا لَعّاناً، كان يقولُ عندَ المَعْتَبَةِ: مالَهُ؟ تَرِبَ جَبِينُه»[(١)].

بل إن رسول الله ﷺ نزّه لسانه عن لعن المشركين الذين أعرضوا عنه، وأوصدوا قلوبهم عن سماع دعوته، فلم ينلهم بأذى، ولم يوجه إليهم كلمة جارحة، أخبر بذلك الصحابي الجليل أبو هريرة، إذ قال: قيل: يا رسول الله. ادعُ على المشركين، قال: «إنّي لَمْ أُبْعَثْ لَعّاناً، وإنّما بُعِثْتُ رَحْمَةً»[(٢)].

ويسمو رسول الله ﷺ في اجتثاث شأفة الشرّ واستئصال جذور الحقد والعدوان من النفوس حتى يبلغ الذروة، إذ يصور للمسلمين أن الذي أطلق للسانه العِنان في العدوان على الناس وأعراضهم وأموالهم هو المفلس الحقيقي الذي خسر الدنيا والآخرة، إذ محقت اعتداءاته الرعناء على الناس ما حصّله في حياته من حسنات، وأحبطت عمله كلّه، وتركته يوم الحساب الرهيب مكشوفاً لا عاصم له من النار:

يقول رسول الله ﷺ: «أَتَدْرونَ مَا المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ ولا مَتاعَ، فقالَ: إنّ المُفلِسَ مِنْ أُمّتي يَأْتي يومَ القِيامَةِ بِصَلاةٍ وصِيامٍ وزَكاةٍ، يَأْتي وقَدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا مِنْ حَسَناتِهِ، وهذا مِنْ حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٥٢ كتاب الأدب: باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً.

(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٥٠ كتاب البر والصلة والآداب: باب من لعنه النبـي ﷺ.

حَسَناتُهُ قبلَ أنْ يَقْضي ما عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطاياهُمْ، فَطُرِحَتْ عليهِ، ثمّ طُرِحَ في النّارِ»[١].

لا جرم أن تنتفي من حياة المسلمات الصادقات اللواتي ارتوين من نبع الإسلام الصافي النمير هذه التفاهات الفارغة، وتختفي المشاحنات والخصومات المؤدّية إلى السّباب والشتائم في المجتمع الإسلامي النسوي القائم على الفضيلة والتهذيب واحترام المشاعر الإنسانية، والرقي الاجتماعي في التعامل والخِطاب.

لا تَسْخَرُ مِنْ أَحَدٍ:

إن شخصية المرأة المسلمة التي أُشْرِبَت حب التواضع، والبعد عن التكبّر والخيلاء، لا يمكن أن تسخر من أحد؛ ذلك أن الهَدْي القرآني الذي غرس فيها حب التواضع وكراهية الكِبْر، هو هو الذي عصمها من السخرية بالنساء واحتقارهنّ والاستهزاء بهنّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ[٢] وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ[٣]، بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[٤].

ومن مناهل الهَدْي النبوي تمتاح أيضاً خلق التواضع ولين الجانب، وتتجافى عن الكبر والسخرية واحتقار الناس؛ إذ تطالع قول الرسول ﷺ فيما

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٣٥ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم.

(٢) أي لا يَعِبْ بعضُكم بعضاً.

(٣) أي لا يَدْعُ بعضُكم بعضاً باللقب السوء.

(٤) الحجرات: ١١.

يرويه مسلم أن احتقار المسلمات شرٌّ محض:

«بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ»[(١)].

رَفِيقَةٌ بالنّاسِ:

من طبيعة المرأة أن تكون رقيقة رفيقة لطيفة دَمِثَة؛ ذلك أليق بخِلْقة المرأة وتكوينها. ومن هنا جاءت تسمية النساء بالجنس اللطيف.

والمرأة المسلمة التي ارتوت من هَدْي دينها الحنيف هي أكثر رفقاً بمن في محيطها من النساء، وأشدّ دماثة ولطفاً في معاشرتهنّ، لأن اللطف والرفق والأناة خصال يحبها الله في عباده المؤمنين، إذ تجعل مَنْ تحلّى بها قريباً من النفوس، محبَّباً إلى القلوب:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[(٢)].

ولقد جاءت النصوص متضافرة متتابعة، تُحبِّبُ في الرفق، وتحضّ عليه، وتؤكد أنه خلقٌ عالٍ ينبغي أن يسود مجتمع المسلمين، ويتصف به كلّ إنسان مسلم عاش في هذا المجتمع، ووعى أحكام دينه، واستنار بهَدْيه اللألاء. وحسب المرأة المسلمة أن تعلم أن الرفق من صفات الله تعالى العليا التي أحبها لعباده في الأمور كلها:

«إنّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّه»[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم ١٦/١٢١ كتاب البر: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.

(٢) فصلت: ٣٤، ٣٥.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٤٠ باب الحلم والأناة والرفق.

وإنه لخلق عظيم يثيب الله عليه من عطائه الجزل ما لا يثيبه على خلق آخر: «إنّ اللّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْق، ويُعْطي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطي على العُنُفِ، وما لا يُعْطي على ما سِواهُ»[1].

ويشيد الهدي النبوي العالي بالرفق، فيجعله زينة كل شيء، ما حلّ في شيء إلاّ زانه وحبّبه إلى النفوس والأبصار، وما نُزِع من شيء إلاّ شانه ونفّر منه القلوب والأرواح:

«إنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شَيْءٍ إلاَّ زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شانَهُ»[2].

وكان الرسول الكريم صلوات الله عليه يعلّم المسلمين الرفق في معاملة الناس، ويسدّدهم إلى التصرّف اللبق الأمثل الذي يليق بالمسلم الداعية إلى دين الله الرحيم الرفيق بالعباد، مهما كان الموقف مثيراً للحفائظ، داعياً إلى الغضب والاشمئزاز.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قامَ أعرابيٌّ فَبالَ في المَسْجِدِ، فتناولَهُ الناسُ، فقالَ لهم النبيُّ ﷺ: «دَعوهُ وهَريقُوا على بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ ماءٍ أو ذَنوباً[3] مِنْ ماءٍ، فإنّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرينَ، ولَمْ تُبْعَثوا مُعَسِّرينَ»[4].

فبالرفق والتيسير واللّين والسّماحة تُفتح مغاليق القلوب، ويدعى الناس إلى الحق، لا بالعنف والتعسير والشدّة والمؤاخذة والزجر، ولهذا كان من هَدْي الرسول الكريم في هذا الباب:

(١) صحيح مسلم ١٦/١٤٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الرفق.
(٢) صحيح مسلم ١٦/١٤٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الرفق.
(٣) السجل: الدلو الممتلئة، وكذلك الذّنوب.
(٤) فتح الباري ١/٣٢٣ كتاب الوضوء: باب صب الماء على البول في المسجد.

«بَشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعسِّروا»[١].

ذلك أن الناس ينفرون بطبائعهم من الفظاظة والخشونة والعنف، ويألفون الرقة والدماثة واللّين والرفق، ومن هنا كان قول الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٢].

وإنه لقول خالد، ودستور مقيم ثابت، لكل امرأة داعية تصدّت لدعوة النساء إلى الهدى؛ إذ عليها أن تحسن الدخول إلى قلوبهنّ، وتسلك في سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الرفق واللباقة والدّماثة واللّين، ولو لاقت من المدعوّات الصدّ والمجافاة والإعراض؛ فالكلمة الطيبة اللّينة الوَدود لا بد من أن تأخذ سبيلها إلى منعرجات النفس ومسالكها، ولا بد من أن تحدث أثرها المرجو في نفوس المخاطَبات. وهذا ما أوصى به الله نبيه موسى عليه السلام وأخاه هارون حين أرسلهما إلى الطاغية العاتي المتغطرس فرعون:

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ ﴾[٣].

فلا بدع أن يكون الرفق في هَدْي هذا الدين هوالخيرَ كلَّه، مَنْ أوتيه فقد حاز الخير كله، ومن حُرِمَه حُرِمَ الخيرَ كلَّه، وذلك في الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ»[٤].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٠/ ٦٧ كتاب الإمارة والقضاء: باب ما على الولاة من التيسير.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) طه: ٤٣، ٤٤.

(٤) صحيح مسلم ١٦/ ١٤٥ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الرفق.

ولقد بيّن الهَدْي النبوي العالي أن هذا الخير ينصبّ على الأفراد والبيوت والأقوام إذا ساد حياتهم الرفق، وكان من خلائقهم الغرّ الحسان، نجد ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها الذي قال فيه الرسول ﷺ لها:

«يا عائِشَةُ ارْفِقي فإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْراً دَلَّهُمْ عَلَى الرِّفْقِ»(١).

وفي رواية: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خيْراً أَدْخَلَ عليهمُ الرِّفْقَ»(٢).

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «إذا أرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْراً أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ»(٣).

وأي خير أعظم من خليقة يتخلق بها الإنسان، فتكون له وقاية من النار؟ كما أخبر بذلك الرسول الكريم في حديث آخر فقال:

«ألا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ على النّار، أو بِمَنْ تَحْرُمُ عليهِ النّارُ؟ تَحْرُمُ على كُلِّ قَريبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ»(٤).

ويسمو الهدي النبوي الكريم بالإنسان، وهو يغرس فيه خلق الرفق، فيطالبه بالرفق حتى بالحيوان الذبيح، ويعدّ ذلك من الإحسان، أعلى المراتب التي يرقى إليها الأتقياء الصالحون:

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ، فَإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنوا الذِّبْحَةَ، ولْيُحِدَّ أحدُكمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ»(٥).

---

(١) رواه أحمد ٦/ ١٠٤، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أحمد ٦/ ١٠٤، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨ باب ما جاء في الرفق.

(٤) رواه الترمذي ٤/ ٦٥٤ في كتاب صفة القيامة: ٤٥، وقال: حديث حسن.

(٥) صحيح مسلم ١٣/ ١٠٦ كتاب الصيد: باب الأمر بإحسان الذبح.

ذلك أن الرفق بالحيوان الأعجم الذبيح دليل على رقة نفس الإنسان الذي يذبحه، وعلى تمثّلها الرحمة بكل ذي روح. ومن وَقَرَتْ في نفسه هذه المعاني في معاملته لذوي الأرواح، كان بالإنسان أرفق وألطف.

وتستطيع المرأة المسلمة التقيّة أن تتصوّر مدى شمول توجيهات الإسلام لبني الإنسان بالرفق، حتى إنها لتشمل الرفق بالحيوان.

رَحِيمَةٌ:

والمرأة المسلمة التي ارتوت نفسُها من هَدْي دينها السمح رحيمةٌ، تتفجّر ينابيع الرحمة والحنان من قلبها الكبير ونفسها الطيبة؛ إذ تدرك أن رحمتها مَنْ حولها من الناس سببٌ لانسكاب الرحمة عليها من السماء، وأن مَنْ لا يرحم الناسَ لا تناله رحمةٌ من الله، وأن رحمة الله ما حُجِبَتْ عن إنسان إلاَّ كان في زمرة الأشقياء المحرومين الخاسرين، كما جاء في هَدْي الرسول الكريم:

«اِرْحَمْ مَنْ في الأَرضِ يَرْحَمْكَ مَنْ في السَّماءِ»(١).

«مَنْ لَمْ يَرْحَمِ النَّاسَ لمْ يَرْحَمْهُ اللَّهُ»(٢).

«لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ»(٣).

ولا تقتصر الرحمة في نفس المرأة المسلمة التقيّة على أهلها وأولادها وذوي قرابتها ورَحِمِها، بل تتسع دائرة الرحمة في نفسها حتى تشمل عامة

---

(١) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/١٨٧ باب رحمة الناس.

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧ باب رحمة الناس.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٦٦ باب ارحم من في الأرض.

الناس؛ إذ تسمع الهَدْي النبويّ يعمّ بها الناس جميعاً، ويجعلها شرطاً من شروط الإيمان:

«لَنْ تُؤْمِنوا حتّى تَراحَموا، قالوا: يا رسولَ اللّهِ، كُلُّنا رَحيمٌ، قالَ: إنّه ليسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكمْ صاحِبَهُ، ولكنّها رحمةُ النّاسِ، رحمةُ العامَّةِ»[1].

إنها الرحمة العامّة الشاملة، فجّر ينابيعها الإسلام في قلب المسلمين والمسلمات، وجعلها صفة من صفاتهم المميّزة، ليغدو المجتمع الإسلامي برجاله ونسائه، وأغنيائه وفقرائه، وسائر أفراده، مجتمعاً متكافلاً متراحماً، تموج الرحمة في جنباته، وتشيع الأخوّة في أرجائه، ويسود التعاطف أجواءه.

ولقد كان رسول الله ﷺ مثالاً فذّاً فريداً للرحمة الخالصة المرهفة، حتى إنه كان إذا سمع بكاء طفل، وهو يؤمّ الناس، أوجز في صلاته، تقديراً لشعور الأم الوَلْهَى على ابنها.

يروي الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنّي لأَدْخُلُ في الصَّلاةِ، وأنا أُريدُ إطالَتَها، فأَسْمَعُ بُكاءَ الصَّبِيِّ، فأَتَجوَّزُ في صَلاتي مِمّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكائِهِ»[2].

وجاءَ أعرابٌ إلى النبي ﷺ، فقال رجلٌ منهمْ: يا رسولَ الله، أَتُقَبِّلونَ الصِّبْيانَ؟ واللّهِ ما نُقَبِّلُهمْ. فقالَ رسولُ الله ﷺ:

---

(١) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٦ باب رحمة الناس.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٣/ ٤١٠ كتاب الصلاة: باب التخفيف لأمر يحدث.

«أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟»[١].

وقبّل الرسول الكريم الحسنَ بنَ عليّ رضي الله عنه، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال:

«مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[٢].

وأراد عمر رضي الله عنه أن يولّي رجلاً على المسلمين، فسمعه يقول قولة الأقرع بن حابس: إنه لا يقبّل صبيانه، فَعَدَلَ عمر عن توليته قائلاً: إذا كانت نفسك لا تبضّ بالرحمة لأولادك، فكيف تكون رحيماً بالناس؟ والله لا أولّيك أبداً، ثم مزّق الكتاب الذي أعدّه لتوليته.

ولقد وسّع الرسول الكريم دائرة الرحمة في نفوس المسلمين والمسلمات؛ إذ جعلها لا تقتصر على رحمة الإنسان، بل تشمل الحيوان أيضاً، وذلك في عديد من الأحاديث الصحيحة، ومنها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَما رجلٌ يَمْشي بِطَرِيقٍ اشتَدَّ عليه العَطَشُ، فوجدَ بِئْراً، فنزلَ فيها فشربَ، ثمّ خرجَ، فإذا كلبٌ يَلْهَثُ، يأكلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فقالَ الرجلُ: لقد بَلَغَ هذا الكلبَ مِنَ العَطَشِ مثلُ الذي كانَ بَلَغَ منّي، فنزلَ البئرَ، فملأَ خُفَّهُ ماءً، ثمّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، حتّى رَقِيَ فَسَقَى الكلبَ، فشكرَ اللَّهُ لهُ، فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: وإنّ لَنا في البَهائِمِ لأَجْراً؟ قالَ: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[٣].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٣٤ كتاب البر والصلة: باب رحمة الولد وتقبيله.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٣٤ كتاب البر والصلة: باب رحمة الولد وتقبيله.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٢/ ٢٢٩ كتاب الصلاة: باب فضل صلاة العشاء والفجر =

وروى الشيخان أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«عُذِّبَتْ امرأةٌ في هِرّةٍ حَبَسَتْها حتى ماتَتْ جوعاً، فدخلَتْ فيها النّارَ. قال: فقالوا: ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: لا أنتِ أَطْعَمْتِها ولا سَقَيْتِها حين حَبَسْتِها، ولا أنتِ أَرْسَلْتِها، فأكلَتْ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ»(١).

ويسمو رسول الله ﷺ في معارج الرحمة الوضاء حتى يبلغ شأوها، إذ نزل منزلاً، فجاءت حُمَّرَةٌ ترفّ على رأسه الشريف، وكأنها تلوذ به شاكيةً له ظلمَ رجلٍ أخذَ بيضتَها فقالَ: «أَيُّكُمْ فَجَعَ هذه بِبَيْضَتِها؟ فقالَ: رجلٌ يا رسول الله، أنا أخذتُ بيضتَها، فقال النبيُّ ﷺ: «أُرْدُدْها رحمةً لَها»(٢).

لقد أراد الرسول الكريم بتوجيهه هذا أن يغرس في نفوس المسلمين والمسلمات حسّ الرحمة العميق الواسع الشامل، ليغدو كلُّ مَنْ نطقَ بالشهادتين رحيماً بطبعه وفطرته، حتى بالحيوان، ومتى كان للإنسان قلب رحيم يحنو حتى على الحيوان، فإنه لا يمكن أن يقسو على أخيه الإنسان.

ولقد كان صلوات الله عليه ذوب رحمة للإنسان والحيوان، وكان لا يفتأ في كثير من توجيهاته السامية يرغّب بالرحمة بين الناس، ويعمّقها في نفوس المسلمين والمسلمات، مؤكّداً أنها مفتاح رحمة الله بعباده، وسببٌ من أسباب صفحه ومثوبته ومغفرته للرحماء، ولو كانوا من العصاة المذنبين.

= في جماعة.

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٧١ كتاب الزكاة: باب فضل سقي الماء.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٧٢ باب أخذ البيض من الحمَّرة.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «بَيْنَما كلبٌ يُطيفُ بِرَكِيَّةٍ[١]، قَدْ كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغايا بني إسْرائيلَ، فنزَعَتْ مُوقَها[٢] فاستقَتْ لهُ بِهِ، فسقَتْهُ إيّاهُ، فَغُفِرَ لَها بهِ»[٣].

فَيا لَلرَّحْمَةِ! ما أعظمَ بركتَها على الإنسان! ويا لَلرَّحْمَةِ! ما أجملها خليقةً يتخلّق بها الإنسان! وحسبها شرفاً ورفعة وفضلاً أن رب العزة والجلال اتخذ له منها اسماً، فكان الرحيم الرحمن!

تَعْمَلُ على نَفْعِ النّاسِ ودَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ:

تحرص المرأة المسلمة الصادقة التي ارتوت نفسها من هَدْي دينها الحق على أن تكون عنصر بناء ونفع وخير، لا لنفسها فحسب، بل للناس جميعاً، فهي تفتّش دوماً عن فرص عمل الخير، وتبادر إلى فعله، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، عملاً بقوله تعالى:

﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾[٤].

إنها لتدرك أن فعل الخير للناس عبادة، ما دامت تبتغي به وجه الله تعالى. وأبواب فعل الخير مفتَّحة أمام المسلمين جميعاً، يستطيعون أن يلجوها متى شاءوا، فيفوزوا برحمة من الله ورضوان. ووجوه البرّ والخير والمعروف كثيرة متعددة، وساحاتها واسعة ممتدة رحيبة، تتسع لكل العاملين في سبيل الله، وأيّ عملٍ خَيْرٍ يحتسبونه لله يُسَجَّل لهم صدقةً في سجل أعمالهم:

---

(١) أي بئر.

(٢) أي خُفّها.

(٣) صحيح مسلم ١٤/ ٢٤٢ كتاب قتل الحيات ونحوها: باب فضل سقي البهائم.

(٤) الحج: ٧٧.

«كُلُّ مَعْروفٍ صَدَقَةٌ»[١]. و «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»[٢].

بل إن رحمة الله الواسعة تشمل كل مسلمة صَفَتْ سريرتُها وأخلَصَتْ نيَّتَها لله، فتدركها إن عملت خيراً، وإن لم تعمل خيراً، شريطة أن تنوي الإمساك عن الشّر:

فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «على كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، قالوا: يا رسول الله، أرأيتَ إنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: «يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ ويَتَصَدَّقُ»، قَالوا: أرأيتَ إنْ لم يستطعْ أو لم يفعل؟ قالَ: «يُعينُ ذا الحاجَةِ المَلْهوفَ» قالوا: «أرأيتَ إنْ لم يفعلْ؟ قالَ: «يَأْمُرُ بالمَعْروفِ أو بالخَيْرِ»، قالوا: أرأيتَ إنْ لم يفعلْ؟ قالَ: «يُمْسِكُ عن الشَّرِّ فإنّها له صَدَقَةٌ»[٣].

لقد استهل الرسول الكريم حديثه بقوله: «على كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، ثم راح يعدّد ألوان البرّ والخير والمعروف التي يستطيع كل مسلم ومسلمة أن يجني منها أجور تلك الصدقات؛ فالمرأة المسلمة إذاً عليها صدقة، أي عليها أن تقوم بالأعمال البنّاءة الخيِّرة في مجتمعها، فإن عجزت، أو لم تفعل لسبب من الأسباب، فلا أقلّ من أن تكفّ لسانها وجوارحها عن فعل الشّرّ، ففي ذلك أيضاً صدقة. وإيجابيات المسلمين والمسلمات وسلبياتهم كلّها موجّهة في خدمة الحق الذي يسود مجتمع المسلمين والمسلمات. والإنسان

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤٢ كتاب الزكاة: باب كل معروف صدقة.

(٢) من حديث متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤٥ كتاب الزكاة: باب كل معروف صدقة.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤٣ كتاب الزكاة: باب كل معروف صدقة.

المسلم: «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ»[١].

ومن هنا تتطلع المرأة المسلمة دوماً إلى فعل الخير، وتسعى إليه، وترجو أن يتم على يديها، وتعرض عن الشرّ، وتتجنّبه، وتصمّم على ألا تتورط فيه، فتكون بذلك من خير المسلمين والمسلمات في المجتمع الإسلامي، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ فيما رواه عنه الإمام أحمد أن النبي ﷺ وقف على ناس جلوس، فقال:

«أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ؟»، فسكتَ القومُ، فأعادَها ثلاثَ مرّات، فقالَ رجلٌ من القوم: بلَى يا رسولَ الله، قالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ، ويُؤْمَنُ شَرُّهُ، وشَرُّكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ، ولا يُؤْمَنُ شَرُّهُ»[٢].

والمرأة المسلمة التي وعت إسلامها، وارتوت من معين هَدْيه الطَّهور، من الصنف الذي يُرْجى خيرُه، ويؤمن شرُّه. وإنها إذ تقبل على فعل الخير في الدنيا توقن أن جهدها لن يضيع، وأن مسعاها لن يخيب، وأن معروفها ستكافأ عليه في الدنيا والآخرة:

«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيا نَفَّسَ اللَّهُ عنهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يومِ القِيامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عليهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ»[٣].

ولا تألو المرأة المسلمة جهداً في فعل الخير متى قدرت عليه، وكيف

---

(١) فتح الباري ١/ ٥٣ كتاب الإيمان: باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٣ باب فيمن يرجى خيره.

(٣) صحيح مسلم ١٧/ ٢١ كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

لا تكون كذلك؟ وإنها لتعلم من هَدْي الرسول الكريم أن التقاعس عن فعل الخير مع القدرة عليه مُهدِّد النِّعَمَ بالزوال:

«ما مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عليهِ نِعْمَةً فَأَسْبَغَها عليهِ، ثمّ جُعِلَ مِنْ حَوائِجِ النّاسِ فَتَبَرَّمَ، فقدْ عَرَّضَ تلكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوالِ»(١).

ولا تحقر المرأة المسلمة عمل الخير مهما صَغُر، ما دامت تصحبه النيّة الصادقة والإخلاص لله تعالى فيه. وقد يكون فعل الخير في دفع الأذى عن المسلمين والمسلمات، وهذا ما صورته بعض الأحاديث الصحيحة تصويراً رائعاً. ومنها قوله ﷺ:

«لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ في الجَنَّةِ في شَجَرَةٍ قَطَعَها مِنْ ظَهْرِ الطَّريقِ، كانَتْ تُؤْذي الناس»(٢).

إن للخير وجهين، على المسلمين والمسلمات أن يعملوا فيهما، ويتسابقوا إلى مرضاة الله عز وجل بفعلهما: تقديم الخير والنفع للناس، ودفع الأذى والضرّ عنهم.

ذلك أن دفع الأذى والضرّ عن المسلمين لا يقل عن تقديم الخير والنفع لهم، فكلاهما من العمل الصالح الذي يؤجر فاعله ويُثاب عليه. والمجتمعات في كل زمان ومكان بحاجة إلى العملين معاً؛ إذ بهما يشيع الخير والمعروف في المجتمع، وتتوطّد أواصر المودّة بين أفراده، ويحسّون

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٩٢ باب فضل قضاء الحوائج.

(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٧١ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل إزالة الأذى عن الطريق.

بجمال الحياة وهناءة العيش، وهذا ما يهدف الإسلام إلى تحقيقه من حضّه الدائم على تقديم الخير والنفع للناس ودفع الضرّ عنهم.

ومن توجيهات الإسلام العالية في دفع الأذى والضرّ عن المسلمين والمسلمات ما يرويه أبو برزة، قال: قلت: يا نبي الله، علّمني شيئاً أنتفع به، قال:

«اِعْزِلِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ المُسْلِمينَ»(١).

وفي رواية: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال:

«أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطّرِيقِ فهو لكَ صَدَقَةٌ»(٢).

فأيّ مجتمع مهذَّب راقٍ هذا المجتمع الذي يبنيه الإسلام، إذ يلقي في حسّ كل فرد فيه أن من الأعمال الصالحة التي تقرّب من الله، وتدخل صاحبَها الجنة، إماطةَ الأذى عن طريق الناس؟

إن الإنسانية اليوم لفي أمس الحاجة إلى هذا المجتمع المهذَّب الراقي الذي يبنيه الإسلام؛ ففيه يحسّ كلّ فرد أن مشاركته في فعل الخير وترقية المجتمع تقرّبه من الله، وتدخله الجنة، ولو لم يَعْدُ عملُه أن يكون إماطة الأذى عن الطريق. وشتان بين مجتمع يصوغ مثل هذه النفوس الحسّاسة التي لا تطيق أن ترى التفلّت والتخلّف واللامبالاة في المجتمع، وبين مجتمع لا يعبأ بصياغة نفوس أفراده، فتراهم لا يبالون بإلقاء الأذى والفضلات والقاذورات في الطريق، غير عابئين بإيذاء الناس، فتضطر السلطة في هذا

(١) صحيح مسلم ١٧١/١٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل إزالة الأذى عن الطريق.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد ٤٢٣/٤.

المجتمع المتفلّت إلى إصدار القوانين والأنظمة التي تعاقب المخالفين.

وما أعظمَ الفرقَ بين مجتمع اهتدى بهَدْي هذا الدين، فسارع الأفراد فيه لإماطة الأذى عن الطريق امتثالاً لأمر الله، وطمعاً في مثوبته، وبين مجتمع شرد عن هَدْي الله، فإذا أفراده لا يبالون على مَنْ تسقط فضَلاتهم التي يُلْقونها من فوق الشرفات والنوافذ وأسطحة المنازل!

وإذا كان العالم الغربيّ المتمدِّن قد وصل في مثل هذه الأمور إلى مستوى عالٍ من التنظيم، بتعويد أفراده على احترام النظام، وتطبيقه بدقة وصرامة، فإن الإسلام سبقه إلى هذا التنظيم قبل خمسة عشر قرناً، مع فارق كبير جداً، وهو أن الفرد المسلم يندفع لتطبيق النظام بإخلاص وصدق؛ لأنه يعتقد أنّ تفلّته منه وخروجه عنه عصيان لله، يعاقَب عليه يوم القيامة، على حين لا يرى الغربي في مخالفة النظام أكثر من ذنب مدني، قد يؤنبه ضميره عليه، أو لا يؤنبه، ثم ينتهي الأمر، ولا سيما إذا كان في نجوة من مراقبة أعين الناس، وغفلة عن أعين السلطة.

تُنَفِّسُ عَنِ المُعْسِرَةِ:

تتميّز المرأة المسلمة التقية بطبيعة تكوينها الخلقي والنفسي، وتتسم شخصيتها بالتسامح والخلق الرضيّ، وحسن المعاملة. فإذا ما كان لها حق على أختها وأزف موعد أدائه، وكانت الأخت المدينة معسرة، أَنْظَرَتْها إلى أجل آخر، حتى تذهب عُسْرَتُها، وتخرج منها إلى مَيْسَرَة، عملاً بقوله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾[1].

(١) البقرة: ٢٨٠.

ذلك أن إِنْظار المعسر خلق كريم، حضّ عليه الإسلام؛ لأن فيه تحقيقاً لإنسانية الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان، ولو كان صاحبَ حق.

والمرأة المسلمة إذ تتمثل هذه المعاني الإنسانية السامية في إنظارها أختها المعسرة، إنما تمتثل أمر ربها، وتقدم بين يديها عملاً صالحاً، ينجيها من كرب يوم القيامة، ويظلّها بظلّ العرش العظيم، يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه:

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَرَّهُ أنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يومِ القِيامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ[١]، أو يَضَعْ عَنْهُ[٢]»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً، أو وَضَعَ لَهُ، أَظَلَّهُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ تحتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ»[٤].

وتستطيع المرأة المسلمة الصادقة أن تسمو في هذه المعارج الوِضاء، إن كانت موسِرَة ذات سعة، فتتنازل لأختها المدينة عن الدَّيْن، أو عن جزء منه، فتعفيها من أدائه، فتظفر بثواب عظيم، إذ يعوضها الله بتجاوزها عن دين أختها تجاوزاً أكبر وأغنم وأعظم، يجبر تقصيرها، ويُقيلُها زلّتها، وينجّيها من هول يوم القيامة:

---

(١) أي يفرج عنه كربه بتأخير دفع الدين إن كان دائناً، أو بدفع الدين عنه.

(٢) أي من الدين.

(٣) صحيح مسلم ١٠/ ٢٢٧ كتاب المساقاة والمزارعة: باب فضل إنظار المعسر.

(٤) حديث حسن صحيح، رواه الترمذي ٣/ ٥٩٠ في كتاب البيوع: باب ما جاء في إنظار المعسر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانَ رجلٌ يُداينُ النَّاس، فكانَ يقولُ لِفتاهُ: إذا جِئْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عنهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتجاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»(١).

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فلمْ يُوجَدْ لهُ مِنَ الخَيْرِ شَيْءٌ إلاَّ أنَّهُ كانَ يُخَالِطُ النَّاسَ(٢)، وكانَ مُوسِراً، فكانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتجاوَزوا عَنِ المُعْسِرِ. قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ: «نحنُ أَحَقُّ بذلكَ مِنْهُ، تَجاوَزوا عَنْهُ»(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه قالَ: أُتِيَ اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبادِهِ آتاهُ اللَّهُ مالاً، فقالَ لهُ: ماذا عَمِلْتَ في الدُّنْيا؟ قالَ: ــ ولا يَكْتُمونَ اللَّهَ حديثاً ــ قالَ: يا رَبِّ آتَيْتَني مالَكَ، فكنتُ أُبايِعُ النّاسَ، وكانَ مِنْ خُلُقي الجَوازُ، فكنتُ أَتَيَسَّرُ على المُوسِرِ، وأُنْظِرُ المُعْسِرَ. فقالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿أَنا أَحَقُّ بِذا مِنْكَ. تَجاوَزوا عَنْ عَبْدي﴾، فقال عُقْبَةُ بنُ عامرٍ، وأبو مَسْعود الأَنْصاري رضي الله عنهما: «هكذا سَمِعْناهُ مِنْ فِي رَسولِ اللَّهِ ﷺ»(٤).

كَـرِيـمَـةٌ سَـخِـيَّـةٌ:

ومن صفات المرأة المسلمة الملتزمة بأحكام دينها، المتخلّقة بأخلاقه السمحة الغراء: السخاء والجود والكرم والبذل، فهي كريمة، يداها مبسوطتان للمعسرين وذوي الحاجة، تهميان بالعطاء، وتسحّان بالخير، كلما دعا الداعي إلى البذل، وجاءت مناسبة يُحمَد فيها السخاء.

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٨/ ١٩٦ كتاب البيوع: باب ثواب من أنظر معسراً.

(٢) أي يعاملهم بالبيوع والمداينة.

(٣) صحيح مسلم ١٠/ ٢٢٦ كتاب المساقاة والمزارعة: باب فضل إنظار المعسر.

(٤) صحيح مسلم ١٠/ ٢٢٥ كتاب المساقاة والمزارعة: باب فضل إنظار المعسر.

وهي واثقة كل الثقة أن ما تُقدِّم من خير لن يضيع عند الله، بل هو باقٍ محفوظٌ لدى حكيم عليم:

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۝٢٧٣﴾(١).

وإنها لَمؤمنةٌ كل الإيمان أن ما تنفقه في سبيل الله سيعوّضها الله عنه أضعافاً مضاعفة؛ إذ تفوز بشرف عظيم في الدنيا، وثواب عميم في الآخرة:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾(٢).

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ﴾(٣).

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٢﴾(٤).

وإنها لَتدركُ أيضاً أنها إن لم تُوقَ شُحَّ نفسها، وغلبها حرصُها على جمع المال وكنزه، فستصاب بتلف مالها ونقصانه وتبديده، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ:

«ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبادُ فيهِ إلاَّ مَلَكانِ يَنْزِلانِ، فيقولُ أَحَدُهما: اللّهمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخَرُ: اللّهمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»(٥).

وفي الحديث القدسي:

---

(١) البقرة: ٢٧٣.

(٢) البقرة: ٢٦١.

(٣) سبأ: ٣٩.

(٤) البقرة: ٢٧٢.

(٥) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/١٥٥ كتاب الزكاة: باب ما يكره من إمساك المال.

«أَنْفِقْ يا ابنَ آدَمَ يُنْفَقْ عليكَ»[١].

والمرأة المسلمة الصادقة توقن أن إنفاقها المالَ في سبيل الله لا يُنْقِصُ من مالها شيئاً، بل ينمّيه ويزكّيه ويباركه؛ إذ أكّد ذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مالٍ...»[٢].

بل إنها لَتعتقدُ أن ما أنفقت من مالٍ في سبيل الله هو الباقي حقيقةً؛ لأنه سُجِّل في صحيفة عملها، وما عداه زائلٌ. وقد لفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين والمسلمات إلى هذا المعنى العالي في البذل والسخاء والجود حين سأل السيدة عائشة رضي الله عنها عما بقي من الشاة المذبوحة: «ما بقي منها؟» قالت: ما بقي منها إلاَّ كَتِفُها، فقال: «بَقِيَ كُلُّها غيرَ كَتِفِها»[٣].

لهذا كلّه كانت المرأة المسلمة البصيرة بأحكام دينها مسارعةً إلى البذل، مندفعةً إلى العطاء، سبّاقةً إلى الجود بما تصل إليه يدها من ممتلكات ومقتنيات، متى سمعت دعوة الداعي إلى البذل والعطاء.

ومن صور السخاء الذي عرفت به المرأة المسلمة ما رواه الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «خرجَ النبيُّ ﷺ يومَ عيد، فصلَّى ركعتين لم يصلِّ قبلُ ولا بعدُ، ثم أَتَى النساءَ فأمرهنَّ بالصَّدقةِ، فجعلتِ

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٠١ باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير.

(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٤١ كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ٤/ ٦٤٤ في كتاب صفة القيامة: ٣٣.

المرأةُ تَصدَّقُ بِخُرْصِها[١] وسِخابِها»[٢].

وفي رواية للبخاري أيضاً: «فَأَتَى النِّساءَ فأمرهنَّ بالصَّدقةِ فَجَعلْنَ يُلْقِينَ الفَتَخَ[٣] والخَواتِيمَ في ثَوْبِ بلال»[٤].

وفي رواية ثالثة للبخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ صلى يوم العيد ركعتين لم يصلِّ قبلهما ولا بعدهما، ثم أَتَى النّساءَ، ومعه بلالٌ، فأمَرَهنَّ بالصَّدَقَةِ، فجعلتِ المرأةُ تُلْقي قُرْطَها[٥]»[٦].

ولقد ضربت أمهات المؤمنين ونساء السلف المثلَ الأعلى في السخاء والجود والبذل، وسجّل التاريخ لهنّ ذلك بأحرف من نور.

فمما رواه الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء[٧] في ترجمته لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بسبعين ألف درهم، وإنها لترقع جانب درعها.

وبعث معاوية إليها بمئة ألف درهم، فما أمست حتى فرّقتها، فقالت لها مولاتها: لو اشتريتِ لنا منها بدرهم لحماً، فقالت: ألا قلتِ لي.

وبعث معاوية أيضاً إليها بقلادة بمئة ألف، فقسمتها بين أمهات المؤمنين.

---

(١) الخُرْص: حلقة صغيرة من ذهب أو فضة. والسِّخاب: القلادة.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٣٣٠ كتاب اللباس: باب القلائد والسخاب للنساء.

(٣) أي الخواتيم التي لا فصوص لها.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٣٣٠ كتاب اللباس: باب الخاتم للنساء.

(٥) القُرط: ما تُحلَّى به الأُذُنُ، ذهباً كان أو فضة، صِرْفاً أو مع لؤلؤ وغيره.

(٦) فتح الباري ١٠/ ٣٣١ كتاب اللباس: باب القرط للنساء.

(٧) ٢/ ١٨٧.

وبعث ابن الزبير إليها بمال في غِرارتين[١]، يكون مئة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس. فلما أمست قالت: هاتي يا جارية فَطوري، فقد كانت رضي الله عنها تصوم الدهر، فقالت الجارية: يا أم المؤمنين، أما استطعتِ أن تشتري لنا لحماً بدرهم؟ قالت: لا تُعَنِّفيني، لو أَذْكَرْتني لَفَعَلْتُ.

وكانت أختها أسماء لا تقل جوداً عنها؛ فقد أخبر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف. أما عائشة، فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها قسمت. وأما أسماء، فكانت لا تمسك شيئاً لغد.

وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش تعمل بيدها وتتصدق، فكانت أطول أمهات المؤمنين يداً في الصدقة والبذل وفعل الخير، وفيها قال رسول الله ﷺ لزوجاته في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها: «أَسْرَعُكُنَّ لَحاقاً بي أَطْوَلُكُنَّ يَداً. قالت عائشةُ: فكنَّ يَتَطَاوَلْنَ، أَيتُهنَّ أطولُ يَداً، فكانَتْ أَطْوَلَنا يَداً زينبُ؛ لأنّها كانَتْ تعملُ بيدِها وتَتَصَدَّقُ»[٢].

وأرسل إليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عطاءها، فلما أُدْخِلَ عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني. قالوا: هذا كُلُّهُ لكِ. قالت: سبحان الله! صُبّوه واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت لِبَرْزَة بنت رافع راوية هذا الخبر: أدخلي يَدَكِ فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان، وبني فلان من أهل رَحِمها وأيتامها، حتى بقيت بقية تحت الثوب، فقالت لها بَرْزَةُ بنت رافع: غفر الله لكِ يا أم المؤمنين، والله لقد كان

---

(١) الغِرارة: وعاء من الخيش ونحوه.

(٢) صحيح مسلم ٨/١٦ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أم المؤمنين زينب.

لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها إلى السماء، فقالت: اللهم لا يدركني عطاءٌ لعمر بعد عامي هذا، فماتت قبله[١].

وروى ابن سعد أنه لما حُمِل إلى زينب المال جعلت تقول: اللهم لا يدركني قابلٍ هذا المال، فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رَحِمها وفي أهل الحاجة حتى أتت عليه، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال: هذه امرأة يُراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام، وقال: قد بلغني ما فرّقتِ، فأرسل إليها بألف درهم تستبقيها، فسلكت بها طريق ذلك المال، وما تركت درهماً ولا ديناراً.

ومن النساء اللواتي شهد التاريخ بجودهنّ وسخائهنّ: سكينة بنت الحسين التي كانت تجود بما ملكت يداها، فإن لم تجد المال نزعت من معصمها الحليّ وقدّمته للعفاة والمحرومين.

ومنهنّ عاتكة بنت يزيد بن معاوية التي نزلت عن مالها كلّه لفقراء آل أبـي سفيان.

ومنهنّ أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز، فقد كانت آية في الكرم والسخاء، تقول: لكل قوم نَهْمَةٌ[٢] في شيء، ونَهْمتي في الإعطاء، وكانت تُعتِق كلّ جمعة رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله عز وجل، وتقول: أُفٍّ للبخل، لو كان قيمصاً ما لبستُه، ولو كان طريقاً ما سلكتُه[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/١٠٩، ١١٠، وصفة الصفوة ٢/٤٨، ٤٩، وسير أعلام النبلاء ٢/٢١٢.

(٢) أي شهوة وولَع.

(٣) أحكام النساء لابن الجوزي: ٤٤٦.

ومنهنّ زُبَيْدَة امرأة الخليفة هارون الرشيد التي حفرت لأهل مكة وللحجاج نهراً جارياً متصلاً بمنابع الماء ومساقط المطر، سُمِّي بعين زبيدة، التي تعدّ من عجائب الدنيا في ذلك العصر. ولما استكثر خازنها تكاليف هذا المشروع العظيم قالت كلمتها الخالدة: «اعملْ ولو كَلَّفَتْكَ ضربةُ الفأس ديناراً».

ولو رحنا نستعرض أعلام السخاء والجود من النساء في تاريخنا لضاق بنا المجال، وحسبنا أن نعلم أن هذه النماذج من السيدات المؤمنات السخيّات المتصدقات الباذلات لم تغب عن حياة المجتمعات الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى أيامنا هذه، بل كان لها في كل زمان ومكان من أرجاء العالم الإسلامي وجودٌ متميِّزٌ بارزٌ ظاهرٌ، يشهد لهنّ بالخير والسخاء، في الأوقاف الكثيرة، والمبرّات العظيمة، والمدارس والمساجد والمستشفيات، وغيرها من أعمال البرّ والإحسان؛ فقد تفقّدن بإحسانهنّ مواطن الحاجة العامة، فأغدقن من عطائهنّ لإقامة المشروعات الخيّرة التي تنفع المسلمين والمسلمات، وتحرّين مواطن البؤس والفاقة والشقاء والحرمان، فرقأن عَبْرَة اليتيم[1]، وَبَرَدْنَ لوعة المسكين، ونَفَّسْنَ كربة المكروب، وسترنَ جسد العاري، وجَبَرْنَ كسرَ المَهيض.

والمرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها لا تحقر الصدقة مهما قلّت، بل تنفق حسب قدرتها واستطاعتها، وهي واثقة من ثواب الله عز وجل مهما كان عطاؤها قليلاً، مسترشدة بقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها﴾، وعاملةً بقول الرسول ﷺ: «اتّقوا النّارَ ولَوْ بِشَقِّ تَمْرَةٍ»[2].

---

(١) أي مَسَحْنَها وجَفَّفْنَها.

(٢) انظر فتح الباري ٣/ ٢٨٣ كتاب الزكاة: باب اتقوا النار ولو بشق تمرة.

وقوله: «يا عائِشَةُ، اسْتَتِري مِنَ النّارِ، ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ؛ فإنّها تَسُدُّ مِنَ الجائِعِ مَسَدَّها مِنَ الشَّبْعانِ»[1].

وللمرأة المسلمة أن تتصدق مما في حوزتها من طعام بيتها أو مال زوجها، متى آنست منه رضاً بالصدقة والعطاء، فيكون لها بذلك أجرٌ بما أنفقت، ولزوجها أجرٌ بما كسب، وللخازن أيضاً أجرُه، كما جاء في عديد من الأحاديث رواها البخاري ومسلم وغيرهما، ومنها:

«إذا أَنفَقَتِ المرأةُ مِنْ طَعامِ بَيْتِها ـ وفي رواية لمسلم: من بيت زَوْجِها ـ غيرَ مُفْسِدَةٍ كانَ لها أجرُها بما أنفقَتْ، ولزوجها أجرُه بما كَسَبَ، وللخازن مثلُ ذلك، لا ينقُصُ بعضُهمْ أجرَ بَعْضٍ شيئاً»[2].

لقد أراد الإسلام للمسلمين والمسلمات أن يكونوا عناصر بناء وخير ورفد وعون في مجتمعاتهم، يفيض خيرهم دوماً على العفاة والمحرومين حسب قدراتهم وإمكاناتهم، وجعل لهم في فعل كل خير صدقة، كما قرر رسول الله ﷺ بقوله:

«على كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فقالوا: يا نَبِـيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: يعملُ بِيَدِهِ، فينفعُ نفسَهُ ويتصدَّقُ. قالوا: فإنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: يُعينُ ذا الحاجَةِ المَلْهوفَ. قالوا: فإنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْروفِ، ويُمسِكْ عن الشرِّ، فإنَّ لَهُ صَدَقَةً»[3].

لقد فتح الإسلام الأبواب على مصاريعها لفعل الخير، فتحها للرجال

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح ٦/ ٧٩.

(٢) فتح الباري ٣/ ٢٩٣ كتاب الزكاة: باب من أمر خادمه بالصدقة.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤٣ كتاب الزكاة: باب كل معروف صدقة.

وللنساء، للأغنياء والفقراء، ليلجوها جميعاً، وأوجب على كلّ من نطق بالشهادتين أن يفعل الخير، وسماه صدقة، كيلا يشعرَ الفقيرُ المُعْدِمُ أنه محروم من المشاركة الاجتماعية الخيِّرة لصَفَرِ يده[١] من المال، وبذلك فتح له أبواب هذه المشاركة، وجعل فعل كلّ خير ومعروف صدقة، يثاب عليها الفقير بفعله، كما يثاب عليها الغني بإنفاقه وبذله: «كُلُّ مَعْروفٍ صَدَقَةٌ»[٢].

بذلك حقّق الإسلام مشاركة أفراد المجتمع جميعاً في فعل الخير، وبناء المجتمع وتنميته وتطويره وتحسينه، وأدخل على قلوبهم جميعاً الراحة والطمأنينة والبهجة والسرور بهذه المشاركة التي تُشْعِرُ الإنسانَ بإنسانيته، وتحفظ كرامته، وتضعه أمام مسؤوليته في هذه الحياة، وتحقّق مثوبته.

والمسلمة الكريمة السخية تخصّ بعطائها الفئات الفقيرة والمحرومة من المساكين المتعفّفين الذين لا يسألون الناس إلحافاً، ويحسبهم الناس أغنياء من التعفّف، فتتحرّاهم ما أمكنها ذلك؛ فهم أولى الناس بالرفد والعطاء والبذل والعطف والرعاية؛ وهم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله:

«ليسَ المِسْكينُ الذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرتانِ، ولا اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ، إنّما المِسْكينُ الذي يَتَعَفَّفُ»[٣].

وفي رواية في الصحيحين:

«ليسَ المِسْكينُ الذي يَطوفُ على النّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرتانِ، ولكنَّ المِسكينَ الذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنيهِ، ولا يُفْطَنُ بِهِ فيُتَصَدَّقَ

---

(١) أي لخلوّها.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ٦/ ١٤٢ كتاب الزكاة: باب كل معروف صدقة.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ١٦٧ باب ملاطفة اليتيم والمساكين.

عَلَيْهِ، ولا يَقومُ فَيَسْألُ النّاسَ»[١].

وتخص المرأة المسلمة الواعية بعطائها اليتيم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فتكفله إن كانت ذات يسار وسَعة، وتقوم على تربيته والنفقة عليه، والعناية بشؤونه، محتسبةً نفقتها الثمينة هذه عند الله الذي أعدّ لكافل اليتيم منزلة عالية، ومقاماً كريماً، وشرفاً عظيماً، إذ منحه جوار الرسول ﷺ في الجنة، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ بقوله:

«أنا وكافِلُ اليَتيمِ[٢] في الجَنَّةِ هكذا» وأشارَ بالسَّبَّابَةِ والوُسْطَى، وفَرَّجَ بَيْنَهما شيئاً»[٣].

كما تخص المرأةُ المسلمةُ التقيةُ المحسنةُ بعطائها الأرملةَ والمسكينَ، اللذين حضّ على الإحسان إليهما هَدْيُ هذا الدين الحنيف، ووعد مَنْ أحسن إليهما بثواب جزيل، يضاهي أجر الصائم القائم، أو المجاهد في سبيل الله، كما أخبر بذلك الرسول الكريم:

«السّاعي على الأَرْمَلَةِ والمِسْكينِ كالمجاهِدِ في سَبيلِ اللّهِ» وأَحْسَبُهُ قالَ: «وكالقائِمِ لا يَفْتُرُ، وكالصائِمِ لا يُفْطِرُ»[٤].

ذلك أن الإحسان إلى الأرملة والمسكين، وكفالة اليتيم وتعهدّه من أشرف الأعمال، وأنبل المبرّات الإنسانية التي تناسب شخصية المرأة المسلمة، وتزيدها رقة وإنسانية وتزكية ونبلاً.

---

(١) رواه الشيخان. انظر رياض الصالحين: ١٦٧ باب ملاطفة اليتيم والمساكين.

(٢) أي القائم بأموره.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/٤٣ كتاب البر والصلة: باب ثواب كافل اليتيم.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/٤٥ كتاب البر والصلة: باب الساعي على الأرملة.

لا تَمُنُّ على مَنْ تُعْطِيهِمْ:

إذا ما وفّق الله المرأة المسلمة السمحة الجواد يوماً للعطاء والبذل في سبيل الله، فإنها لا ترتكس في مستنقع المنّ والأذى، بل تحرص على أن يكون عطاؤها نقياً خالصاً لوجه الله، وتكون ممّن صحّ فيهم قولُه تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

ولا يخفى على المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها أنْ لا شيء يمحق ثواب الصدقة مثل المنّ والأذى، بل إن نداء الله تبارك وتعالى للمؤمنين والمؤمنات بالنهي والتحذير من المنّ المحبط للعمل، الماحق أجر الصدقة، ليملأ سمعها ويهزّ كيانها، ويجعلها لا تفكّر في كلمة فيها رائحة من مَنٍّ أو أذى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[2].

إن المنّ على الإنسان الفقير الذي ألجأته الحاجة إلى الأخذ إهانة لإنسانيته، وامتهان لكرامته، وحطّ من قدره. وهذا كله محرَّم في شرعة الإسلام التي تعدّ المعطي والآخذ أخوَيْن، لا فرق بينهما إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، والأخ لا يمنّ على أخيه، ولا يؤذيه في نفسه وكرامته. ومن هنا اشتد الوعيد للمنّان في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر، إذ صنّفه رسول الله ﷺ في زمرة الأشقياء الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم، فقال:

---

(١) البقرة: ٢٦٢.

(٢) البقرة: ٢٦٤.

«ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يومَ القِيامةِ، ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولهمْ عَذابٌ أليمٌ، قَرَأَها رسولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، قالَ أبو ذَرّ: خابوا وخَسِروا، مَنْ هُمْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «المُسْبِلُ[1]، والمَنّانُ، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ»[2].

حَلِيمَةٌ:

والمرأة المسلمة الراشدة التي ارتوت نفسها من نبع الإسلام الفيّاض، وتشبّعت بأخلاقه العالية السمحة، تأخذ نفسها بالحِلْم، وتروضها على كظم الغيظ، وتدرّبها على العفو والدفع بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3].

وقوله:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[4].

ذلك أن ضبط النفس عند الغضب، وأخذها بالحلم والأناة وكظم الغيظ، من أجمل خلائق المسلمين والمسلمات التي يحبها الله لعباده المؤمنين، وهذا ما أكده رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس:

---

(١) أي المُسْبِلُ إزاره وثوبه أسفلَ من الكعبين للخُيَلاء.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١١٤ كتاب الإيمان: باب تحريم إسبال الإزار والمنّ بالعطيّة.

(٣) آل عمران: ١٣٤.

(٤) فصلت: ٣٤، ٣٥.

«إنّ فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللَّهُ: الحِلْمُ والأَناةُ»[١].

ومن هنا كانت توصية الرسول ﷺ للرجل الذي جاءه يستوصيه كلمة واحدة: «لا تَغْضَبْ»، وردّد الرجل مراراً قوله: أوصني، وكان جواب الرسول الكريم في كل مرة هذه الكلمة الجامعة لمكارم الأخلاق: «لا تَغْضَبْ»[٢].

إن المرأة المسلمة قد تغضب أحياناً، ولكن غضبتها تكون لله، لا لنفسها. إنها لَتغضبُ حينما تجد في المجتمعات النسائية استهتاراً بقِيَم الإسلام، وتحلّلاً من تعاليمه وأحكامه، وجرأة وَقِحة على الدين. وحُقَّ لها في مثل هذه المواقف أن تغضب، وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ، فيما يرويه البخاري ومسلم عنه:

«ما انْتَقَمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إلاَّ أنْ تُنْتَهكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِها»[٣].

لقد كان صلوات الله عليه يغضب، ويتلون وجهه الشريف حين يجد إساءة لسمعة الدين، أو خطأ في تطبيق أحكامه، أو تساهلاً في إقامة حدوده.

غضب يوم جاءه رجل فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فلم يُرَ النبـي الكريم غضب في موعظة قطُّ أشدَّ مما غضب يومئذ، فقال:

---

(١) صحيح مسلم ١/١٨٩ كتاب الإيمان: باب مبايعة وفد عبد القيس.

(٢) فتح الباري ١٠/٥١٩ كتاب الأدب: باب الحذر من الغضب.

(٣) فتح الباري ٦/٥٦٦ كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ، وصحيح مسلم ١٥/٨٣ كتاب الفضائل: باب مباعدته ﷺ للآثام.

«يا أَيُّها النّاسُ، إنَّ منكمْ مُنفِّرينَ، فأَيُّكُمْ أَمَّ النّاسَ فَلْيُوجِزْ، فإنَّ مِنْ وَرائِهِ الكَبيرَ والصَّغيرَ وذا الحاجَةِ»[١].

وغضب يوم قَدِمَ من سفره على عائشة فرأى في بيتها ستراً رقيقاً فيه تماثيل، فلما رآه هَتَكَهُ وتَلَوَّنَ وجهُه، وقال: «يا عائِشَةُ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذاباً عندَ اللَّهِ يومَ القِيامَةِ الذينَ يُضاهونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»[٢].

وغضب يوم كلّمه أسامة بن زيد في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، وعزم رسول الله ﷺ على أن يقيم عليها الحدّ، فقالوا: مَنْ يُكلِّمُ فيها رسول الله ﷺ فقالوا: مَنْ يَجْتَرِىء عليه إلاّ أسامةُ بنُ زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ فكلّمه أسامةُ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضَباً: «أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدودِ اللَّهِ تَعالى؟ ثمّ قامَ، فَاخْتَطَبَ، ثمّ قالَ: «إنّما أَهْلَكَ الذِينَ قَبْلَكُمْ أنّهمْ كانوا إذا سَرَقَ فيهمُ الشَّريفُ تَرَكوهُ، وإذا سَرَقَ فيهمُ الضَّعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ! وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها»[٣].

هكذا كان الغضب عند رسول الله ﷺ، وهذه هي مسوّغاته في شِرْعة الإسلام؛ أن يكون لله، لا للنفس.

والمرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها، المؤتسية بأخلاق الرسول تضع

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٤٠٩/٣ كتاب الصلاة: باب الإمام يخفف الصلاة، واللفظ لمسلم.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٢٨/١٢ كتاب اللباس: باب التصاوير، واللفظ لمسلم.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٣٢٨/١٠ كتاب الحدود: باب قطع يد الشريف والمرأة والشفاعة في الحد.

نصب عينيها توجيهاته وتصرّفاته وأفعاله، فتملك نفسها عند الغضب من الناس، ولا يكون غضبها إلاَّ لله ولدينه ولحرماتهِ.

مُتَسامِحَةٌ لا تَحْقِدُ ولا تَضْطَغِنُ:

لا تحمل المرأة المسلمة الحقد، ولا تعرف الضغينة إلى قلبها سبيلاً؛ ذلك أن الإسلام العظيم استلّ من قلبها سخيمة الحقد، وأطفأ نار الضغينة، وطهّر نفسها من الغلّ، وزرع فيها بذور الإخاء والودّ والتسامح والعفو والمغفرة.

لقد أعلنها الإسلام حرباً لا هوادة فيها على الجهالة والعصبية والحقد والثأر والعداوة والانتقام، وحبّب إلى نفوس المسلمين والمسلمات العفو والصفح والتوادّ والإحسان، فقال تعالى:

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1].

إنها الإشادة بالكاظمين الغيظ الذين لم يحقدوا ولم يضطغنوا، بل ارتفعوا إلى أفق العفو والتسامح والغفران، وإنه لأفقٌ عالٍ وضيءٌ، ومرتقىً سامٍ صعبٌ، لا يستطيع بلوغه إلاَّ مَنْ صفت نفوسهم، ونبذت نزعة العدوان والانتقام والكراهية والحقد، فاستحقوا بذلك أن يبلغوا مرتبة الإحسان، والله يحب المحسنين.

ولقد استطاع الإسلام بهذا الهَدْي الرفيع أن يتغلغل في أعماق النفوس، فيطهّرها وينقّيها، ويحوّل القلوب التي رانت عليها المَوْجِدَة والعداوة والحقد إلى قلوب تخفق بالمحبّة والنصرة والولاء.

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

ومن أبرز الشواهد على ذلك التحوّلُ العجيب ما طرأ على قلب هند بنت عتبة، فقد كان قلبها قبل إسلامها مفعماً بسموم الحقد ونيران العداوة لرسول الله ﷺ وآل بيته وصحبه، حتى إن رسول الله ﷺ أهدر دمها يوم فتح مكة جزاء تمثيلها بجثمان عمه حمزة رضي الله عنه يوم أحد. فلما أسلمت وتغلغل الإسلام في مسارب نفسها، جاءت رسول الله ﷺ تقول: يا رسولَ اللَّهِ ما كانَ على ظهرِ الأرضِ مِنْ أهلِ خِباءٍ أحبُّ إليَّ أن يَذِلّوا من أهلِ خِبائكَ، ثمّ ما أصبحَ اليومَ على ظهرِ الأرضِ أهلُ خِباءٍ أحبُّ إليَّ أن يَعِزُّوا مِنْ أهلِ خِبائِكَ[1].

ففي سبيل الله، وفي سبيل دينه الحق، تغسل الدماء، وتزول الوحشة، وتأتلف نوافر القلوب، وتُستأصل قرحة الغلّ، وتجتثّ نزعة الحقد.

ولقد سلك القرآن الكريم أبرع الأساليب في رفع النفس الإنسانية إلى ذلك المرتقى العالي الصعب، إذ قرر أن مَنْ أصابه البغي له أن ينتصر لنفسه ويردّ عنها العدوان؛ لأن جزاء السيئة سيئة مثلها، ولكنه لم يدع الإنسان المُعْتَدَى عليه لعاطفة التشفّي والانتقام، وإنما أخذ بيده برفق إلى مرتقى العفو والتسامح والغفران، وحبّب إليه هذا المرتقى، إذ قرر أنه من عزم الأمور:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٤١ كتاب مناقب الأنصار: باب ذكر هند بنت عتبة.

(٢) الشورى: ٣٩ ــ ٤٣.

ولما غشيت موجة الحزن نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حديث الإفك، تلوكه بعض الألسنة الآثمة، فتنال من ابنته الصّدّيقة الطاهرة، آلى على نفسه أن يقطع عونه ورفده عن أولئك الذين خاضوا فيه ممّن كان يحسن إليهم ويتعهّدهم بالعطاء والبذل؛ إذ رآهم في غمرة حزنه وانفعاله جاحدين للفضل، غير مستحقّين للمعروف. ولكن الله تعالى العالم صدق طويّة أبي بكر، وتجرّده لله ولرسوله، لم يدعه لعاطفة التشفّي والانتقام العارضة التي هجست في نفسه، فردّه إلى جوهره الأصيل، ونقاء نفسه المؤمنة، ودفع به إلى معارج الصفح والتسامح والغفران، فأنزل قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(١).

إن المجتمع الرباني القائم على أخوة الإيمان لا تقوم المعاملة بين أفراده على المحاسبة ورصد الأخطاء والتشفّي والانتقام والانتصار للذات، وإنما تقوم على التآخي والتغاضي والتسامح وتناسي الأخطاء، وهذا ما دعا إليه الإسلام، وحضّت عليه أخوّة الإيمان.

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾(٢).

ذلك أن السيئة إذا قوبلت دوماً بالسيئة أشعلت بين الناس نيران العداوة والبغضاء والشحناء، وأرّثت الأحقاد والضغائن والكراهية. أما إذا قوبلت السيئة بالحسنة أطفأت نيران العداوة، وأسكتت صوت الغضب، وفثأت ثورة

---

(١) النور: ٢٢.

(٢) فصلت: ٣٤، ٣٥.

النفس، وغسلت أدران الضغينة، وأخمدت نأمات الكيد، فإذا المتعاديتان تصبحان صديقتين حميمتين، بكلمة طيبة، أو بسمة مشرقة من إحداهما، ولعمري إنه لفوز عظيم، أن تدفع المرأةُ السيئةَ بالحسنة، فتقلب العداوة صداقة، والكراهية محبة، ولا تنال هذا الفوز العظيم إلاَّ صاحبة الحظ العظيم الذي أشارت إليه الآية الكريمة، بشيء من الصبر وضبط الأعصاب، ومقابلة السيئة بالتي هي أحسن.

هذا هو خلق المؤمنات الصادقات في المجتمع الرباني المسلم الذي قام على المحبة والتوادّ والتسامح، تضافرت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف على تأصيله في النفوس، وتدريبها دوماً على الصفح الجميل الذي لا يترك وراءه أثراً لضغينة أو حقد أو كراهية:

﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله ترجمة حيّة لهذا الخلق الإنساني العالي النبيل، خلق التسامح والعفو، والحضّ على التحلّي به.

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما ضربَ رسولُ الله ﷺ شيئاً قطُّ بِيَدِه، ولا امْرأَةً ولا خادِماً، إلاَّ أنْ يُجاهدَ في سبيلِ اللَّهِ، وما نِيلَ منهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ من صاحبِهِ، إلاَّ أنْ يُنْتَهَكَ شيءٌ مِنْ مَحارِمِ اللَّهِ تَعالى، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ تَعالى»[2].

كان صلوات الله عليه يتمثل توجيه ربّ العزة له:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[3].

---

(١) الحجر: ٨٥.

(٢) صحيح مسلم ١٥/ ٨٤ كتاب الفضائل: باب مباعدته ﷺ للآثام.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

ويتمثل قوله تعالى:

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[(١)]، فإذا هو آية فريدة من آيات الخلق الرباني، يسع الناس بخلقه العظيم، فلا يقابل إساءتهم بإساءة، بل يقابلها بخلق العفو والعرف والإعراض عن الجاهلين، ويدفعها بالتي هي أحسن:

فعن أنس رضي الله عنه قال: كنتُ أمْشي معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأَدْرَكَهُ أعرابيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شديدةً، فنظرتُ إلى صَفْحَةِ عاتِقِ النَّبيِّ ﷺ وقد أثَّرَتْ بها حاشِيَةُ البُرد من شدّة جَبْذَتِهِ، ثم قالَ: يا محمدُ مُرْ لي مِنْ مالِ اللَّهِ الذي عندَكَ، فالتفَتَ إليهِ، فضَحِكَ، ثمّ أَمَرَ له بِعطاءٍ»[(٢)].

وبلغ من أصالة خلق العفو وعمقه في نفسه الشريفة أنه عفا عن المرأة اليهودية التي أهدت إليه شاة مسمومة، وذلك فيما رواه الشيخان أن امرأة يهودية أهدت رسول الله ﷺ شاة مسمومة، فأكل منها رسول الله ﷺ وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «أَمْسِكوا فإنّها مَسْمومَةٌ». وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فقال لها: «ما حَمَلَكِ على ما صَنَعْتِ؟» قالت: أردتُ أن أعلمَ إن كنتَ نبياً فسَيُطْلِعُكَ اللَّهُ عليه، ولن تَضُرَّكَ. وإن لم تكنْ نبياً استرَحْنا منكَ، قالوا: ألا نقتلُها؟ قال: «لا»، وعفا عنها[(٣)].

ولما عصَتْ دَوْسٌ، وأبت الإذعان لأمر الله ورسوله، جاء الطفيل بن

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٤٤ باب العفو والإعراض عن الجاهلين.

(٣) رواه الشيخان بنحو هذا اللفظ. انظر فتح الباري ٧/ ٤٩٧ كتاب المغازي: باب الشاة المسمومة، و ٥/ ٢٣٠ كتاب الهبة: باب قبول الهدية من المشركين، وصحيح مسلم ١٤/ ١٧٨ كتاب السلام: باب السم.

عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: إنّ دوساً قد عصت وأبت، فادعُ الله عليهم، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه، فقال الناس: هلكت دوس، ولكن رسول الله ﷺ الرحيمَ الحاني السمحَ المشفقَ على العباد أن يمسَّهم عذابُ الله راح يدعو لدوس قائلاً: «اللّهمّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بهمْ، اللّهمّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بهمْ، اللّهمّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بهمْ»[(١)].

وكان صلوات الله عليه يغرس في نفوس المسلمين والمسلمات خلق العفو والتسامح، وإن قوبلوا بالإساءة والصّدّ والإعراض والقطيعة، إذ كان يدرك بثاقب نظرته التربوية التي زوّده الله بها أن الناس يستجيبون باللّين والرّفق والتسامح أكثر مما يستجيبون بالعنف والشدّة والمؤاخذة، ومن هنا كان من هَدْيه القويم لعقبة بن عامر حين سأله قائلاً: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ». وفي رواية: «واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[(٢)].

وقد سرى هذا الخلق العالي إلى أمهات المؤمنين رضوان الله عليهنّ، ومما يروى في هذا الشأن أن جارية لصفيّة أم المؤمنين رضي الله عنها أتت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقالت: يا أمير المؤمنين، إن صفيّة تحب السبت وتصل اليهود. فبعث عمر إلى صفية يسألها عن ذلك، فأجابت: أما السبت فإني لم أحبّه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود، فإن لي فيهم رَحِماً، فأنا أَصِلُها. ثم انثنت إلى جاريتها فسألتها عما حملها على هذه

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٥/ ١٥٠ كتاب الدعوات: باب الدعاء للكفار بالهداية.

(٢) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٨ باب مكارم الأخلاق.

الوشاية والافتراء، فأجابت الجارية: الشيطان. وهنا ارتقت صفية إلى خلق دفع هذه السيئة بالتي هي أحسن، فقالت لجاريتها: اذهبي فأنتِ حرّة[١].

لا جرم أن أم المؤمنين صفيّة رضي الله عنها كانت ممّن صحّ فيهنّ قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ ﴾[٢]، فكانت بحق من ذوات الحظ العظيم.

مُيَسِّرَةٌ غيرُ مُعَسِّرَةٍ:

والمرأة الواعية هَدْي دينها ميسِّرة غير معسِّرة؛ لأن التيسير هو الخلق الأفضل الذي ارتضاه اللهُ تبارك وتعالى لعباده المؤمنين:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[٣].

ومن هنا جاء الهَدْي النبوي الكريم حاضّاً المسلمين والمسلمات على التيسير، ناهياً إياهم عن التعسير:

«عَلِّموا ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»[٤].

إن التي تلجأ للتعسير وتعقيد الأمور بعد أن استبان لها هَدْي الإسلام ليست امرأة تقيّة ولا سويّة؛ فما تلجأ إلى التعسير، وقد حبّب الشرع الحنيف إليها التيسير إلاَّ امرأة في خلقها التواء، وفي نفسيتها تعقيد، وفي شخصيتها

---

(١) الاستيعاب ٤/ ١٨٧٢، والإصابة ٨/ ١٢٧.

(٢) فصلت: ٣٤، ٣٥.

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٤٢ باب العفو والصفح عن الناس..

خلل، وفي تربيتها نقص، وفي طبعها كزازة. أما المرأة المسلمة السويّة الطائعة ربَّها المتمثّلة هَدْي دينها، فلا تعرف التعسير ولا التعقيد، ولا تلجأ إلى عرقلة الأمور وتصعيبها، مستهدية في ذلك بخلق الرسول الكريم الذي أخبرت به أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها:

«ما خُيِّرَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ بينَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إلاَّ اختارَ أَيْسَرَهُما ما لَمْ يَكُنْ إثْماً، فإنْ كان إثْماً كانَ أبعدَ النَّاسِ مِنْهُ، وما انْتَقَمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ في شيء قَطُّ إلاَّ أَنْ تُنْتَهكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ تَعالى»[1].

والمرأة المسلمة التقيّة الواعية وقّافةٌ عند هَدْي الرسول ﷺ لا تتعدّاه، ولا تخالف عن أمره.

لا تَحْسُدُ:

وما أكثر ما تقع المرأة العادية في الحسد، إذ ترى كثيرات ممن هنّ دونها جمالاً وعلماً وعقلاً، قد غرقن في الثراء والنعمة والنعيم، ولم تحظ هي بقليل مما في حياتهنّ وأيديهنّ. ولكن المرأة المسلمة النابهة الرشيدة بمنجاة من هذا المنزلق الخلقي وعصمة، بما لَقِنَتْ من أحكام دينها الحق الذي علّمها أن كل شيء في هذه الحياة يجري بقضاء وقدر، وأن متاع الحياة الدنيا مهما بلغ فهو قليل، بجانب ما أعدّه الله للمؤمنات القانعات الراضيات بما قسم الله لهنّ، وأن قيمة المرأة الحقيقية برجحان كفتها في ميزان التقوى والعمل الصالح، وليس فيما حازته من أعراض الحياة الدنيا المؤقتة الزائلة. وكلّما تعزّزت هذه القِيَم في نفس المرأة ازدادت نفسها صفاءً ونقاءً وطمأنينة، وكانت من أهل الجنة الفائزات برضوان ربّها، ولو لم تكن من المكثرات من

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ٢٦٠/١٣ كتاب الفضائل: باب اختياره أيسر الأمرين ﷺ.

العبادة؛ فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يَطْلُعُ الآن عليكمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» فطلعَ رجلٌ من الأنصار[١]، تَنْطِفُ لحيتُهُ مِنْ وَضوئه[٢]، قد علَّقَ نعليْه بيدِهِ الشِّمال، فلما كانَ الغدُ قالَ النبيُّ ﷺ مثلَ ذلك، فطلعَ ذلك الرجلُ مثلَ المرّة الأولى، فلما كان اليومُ الثّالثُ قالَ النبيُّ ﷺ مثلَ مقالتِه أيضاً، فطلعَ ذلك الرجلُ على مثلِ حالِه الأولى. فلما قام النبي ﷺ تَبِعَه[٣] عبدُ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقال: إني لاحَيْتُ[٤] أبـي فأقسَمْتُ إني لا أدخلُ عليه ثلاثاً، فإنْ رأيتَ أنْ تؤوِيَني إليكَ حتى تمضيَ فعلتُ، قال: نعمْ، قال أنس: فكان عبدُ الله يحدِّث أنه باتَ معه تلك الثلاث الليالي فلم يرَه يقومُ من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعارّ[٥] وتقلَّبَ على فراشه ذكر الله عز وجل وكبَّر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قالَ عبدُ الله: غيرَ أني لم أسْمعه يقولُ إلاّ خَيْراً. فلما مضت الثلاث الليالي وكدتُ أحتقرُ عملَه قلتُ: يا عبدَ الله، لم يكنْ بيني وبين أبـي غضبٌ ولا هجرةٌ، ولكنْ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ثلاثَ مرات: «يَطْلُعُ عليكمْ الآنَ رجلٌ مِنْ أهلِ الجَنّة»، فطلعتَ أنتَ الثلاث مرات، فأردتُ أن آويَ إليك فأنظرَ ما عملُكَ فأَقْتَدِي بك، فلم أرَكَ عملتَ كبيرَ عمل، فما الذي بلغَ بكَ ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلاّ ما

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص كما جاء مصرَّحاً باسمه في البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٧٤.

(٢) أي من الماء الذي يتوضّأ به.

(٣) أي تبع الرجل.

(٤) أي خاصمت.

(٥) أي استيقظ من نومه.

رأيتَ، فلما ولّيتُ دعاني فقال: ما هو إلاَّ ما رأيتَ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشّاً ولا أَحْسُدُ أحداً على خير أعطاه الله إيّاه، فقال عبدُ الله: هذه التي بلغَتْ بكَ، وهي التي لا نُطيقُ»[١].

إن هذا الحديث الشريف ليدلّ على أثر صفاء النفس من الحقد والحسد، وسلامة الصدر من الضغينة والغدر في تقرير مصير الإنسان في آخرته، ورفع مكانته عند الله، وتقبّل عمله، ولو قلّ. وإن هذا الأثر ليبدو واضحاً جداً بمقارنة هذا الرجل الذي لم يأتِ من العبادة إلاَّ بالقليل، ودخل الجنة بصفاء سريرته وسلامة الناس من أذاه، بالمرأة التي سئل رسول الله ﷺ عنها، وهي امرأة تقوم الليل وتصوم النهار، ولكنها تؤذي جيرانها، فقال: «لاَ خَيرَ فيها، هِيَ من أهل النّارِ»[٢].

ذلك أن الإنسان الذي ترجح كفته دوماً في ميزان الإسلام، هو الإنسان الذي صفَتْ سريرتُه، ونَقِيَتْ نفسُه من الغلّ والحقد والحسد والضغينة، ولو قلّت عبادته.

أما الإنسان الذي يكثر من العبادة، ونفسه مليئة بمشاعر الغيظ والحسد والغلّ، فإن عبادته آلية شكلية، لم تستند إلى قاعدة صلبة من الإيمان، ولذلك لم تحدث أثراً في تنقية نفسه من الحسد الذي أخبر الرسول الكريم أنه لا يجتمع والإيمان في قلب إنسان:

«لا يَجْتَمِـعُ في جَوْفِ عبدِ الإيمانُ والحَسَدُ»[٣].

---

(١) مسند أحمد ٣/١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٢١٠ باب لا يؤذي جاره.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (١٠) ٤٦٦ كتاب السير: باب فضل الجهاد.

وعن ضَمْرَةَ بن ثعلبة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:
«لا يَزالُ النَّاسُ بخيرٍ ما لمْ يَتَحاسَدوا»(١).

والمرأة المسلمة الواعية الحصيفة هي التي تجمع بين حسن العبادة، وصفاء النفس من كدر الحسد وأوشاب الغلّ وعكر الضغينة، وبذلك تسمو المرأة إلى أعلى مراتب التقوى، فتنال عند ربها الدرجات العُلى، وتفوز في دنياها بحب الناس وتقديرهم وإعزازهم، وتكون لبنة صلبة نظيفة في بناء المجتمع الإسلامي النظيف المتماسك الراقي الجدير بحمل رسالة ربّه للناس.

بَعِيدَةٌ عَنِ المُباهاةِ وحُبِّ الظُّهورِ:

من صفات المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها، المتخلّقة بأخلاقه السمحة، أنها متواضعة واقعية صادقة، لا تعرف الاستعلاء ولا الغرور ولا الكذب، فهي لا تتكثّر بما ليس عندها، ولا تدّعي ما ليس لها، ولا تنتفش بالباطل أمام أترابها ولِداتها؛ وإنها لتجتنب هذه الخليقة القبيحة الذميمة، لأنها لا تلائم نفسيتها التي كونتها قِيَمُ الإسلام ومبادئُه. فقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تسأله أن تقول: إن زوجها أعطاها ما لم يعطها، تريد بذلك المفاخرة والإدلال والمباهاة، فأجابها الرسول ﷺ:
«المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَـيْ زُورٍ»(٢).

---

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ٧٨/٨ باب ما جاء في الحسد والظن.

(٢) صحيح مسلم ١١٠/١٤ كتاب اللباس والزينة: باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره.

إن الإسلام دين يقوم على الصدق والنقاء والتواضع والواقعية، ويكره الكذب والغش والتشامخ والتكبر والخيلاء والادعاء بالباطل. ومن هنا كره لأبنائه وبناته خلق التفاخر بالباطل، والتشامخ على العباد، والزهو والتكاثر وحب الظهور، واشتدّ في ذمّ الإنسان المتخلِّق بهذا الخلق، كما يُذَمُّ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَـيْ زُورٍ.

تَجْتَنِبُ التَّنَطُّعَ والتَّكلُّفَ:

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الراشدة طبعيّة في خلقها وتصرفاتها وأعمالها، لا تتنطّع في كلامها، ولا تتكلّف النطق المتصنَّع جلباً للانتباه وحباً بالظهور، فالتكلّف ممقوت في كل شيء، والتنطّع ممجوج لدى ذوي الفطر السليمة. وما تتنطّع امرأة في كلامها، أو تتكلّف وتتصنّع في تصرّفاتها، إلاّ وفي طبيعتها خلل، وفي فطرتها التواء، وفي تكوينها الخلقي والنفسي نقص. ولذلك اشتدّ رسول الله ﷺ على المتنطّعين والمتنطّعات، وتابعه في هذه الشدّة من بعده صاحباه الجليلان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حتى إن عبد الله بن مسعود يقول:

«والذي لا إلَهَ إلاَّ هو ما رأيتُ أَحَداً كانَ أشدَّ على المُتَنطِّعين مِنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ولا رأيتُ أحَداً أشدَّ عليهمْ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ أبـي بَكْرٍ، وانّي لأَظُنُّ عُمَرَ كانَ أشدَّ أهلِ الأَرْضِ خَوْفاً عَلَيْهِمْ، أَوْ لَهُمْ»[١].

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني، ورجالهما ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٠/٢٥١ باب ما جاء في المتنعّمين والمتنطّعين.

شَخصِيَّتُها مُحَبَّبَةٌ لِلنَّاسِ:

تحرص المرأة المسلمة على أن تكون محبَّبة للناس، بما تقوم به من عمل صالح، وبما تتركه في أوساطهم من أثر نافع، وما تشيعه في مجتمعاتهم من سمعة حسنة.

ومحبّة الناس لها دليل على محبة الله؛ إذ وضع لها القبول في الأرض، فإذا قلوب الناس تنفتح مغاليقها لها، وإذا هي محبوبة لكل من عرفها أو سمع بها من الناس، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ.

«إنَّ اللَّهَ إذا أحبَّ عَبْداً دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فلاناً فأَحِبَّهُ، فيُحِبُّه جِبْرِيلُ، ثُمّ يُنادي في السَّماء فيقول: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاناً فأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أهلُ السَّماءِ، ثُمّ يُوضَعُ له القَبولُ في الأَرْض. وإذا أَبْغَضَ عَبْداً دعَا جِبْرِيلَ، فيقولُ: إنّي أُبْغِضُ فُلاناً فأَبْغِضْهُ، فيُبْغِضُه جِبْرِيلُ، ثم يُنادي في أهْلِ السَّماءِ: إنّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضوهُ، قالَ: فَيُبْغِضونَهُ، ثمّ تُوضَع لهُ البَغْضاءُ في الأَرْضِ»[١].

هذا هو السرّ الإلّهي الغيبـي فيما يتمتع به بعض المسلمين والمسلمات من محبّة الناس لهم. إنها محبة الله التي أشاعها في أهل السماء والأرض، تضع لهم القبول في الأرض. أو هي بغضاؤه، تضع لهم البغضاء في الأرض.

ولا يظفر بمحبة الله إلاَّ من أقبل عليه يبتغي رضاه، ولا يبوء ببغضائه إلاَّ مَنْ أعرض عن هَدْيه وعصاه.

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٨٤ كتاب البر والصلة والآداب: باب إذا أحب الله عبداً.

ولن تكون البشرى بمحبة الله ورضوانه إلاَّ للمؤمنين والمؤمنات، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وحمدهم الناس على أعمالهم، فهؤلاء يُعجِّل الله لهم البشرى بالخير في حياتهم، فيحمدهم الناس ويحبّونهم، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي ذر، قال: قيلَ لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخير، ويَحْمَدُهُ الناسُ عليه؟ قال: «تِلْكَ عاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ». وفي رواية لمسلم أيضاً: «ويُحِبُّهُ النّاسُ عَلَيْهِ»[١].

والمرأة المسلمة المتحلّية بمكارم الأخلاق، الواقفة عند حدود الله، المتبعة ما أمر به، والمنتهية عما نهى عنه، هي المرأة الجديرة بعاجل البشرى هذه، وهي المحبَّبة إلى مَنْ عرفها أو سمع عن أعمالها الصالحات، من تسامح وإعراض عن الجاهلات، ومقابلة السيئة بالحسنة، وعطف على البائسات والمحرومات، وحب الخير للناس، وإيثار على النفس، وقول المعروف، والإيجاز في القول، والعدل في الحكم، والإنصاف في المعاملة، وتجنّب الغِيبة والنميمة وتجريح الناس، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي حضّ عليها الإسلام، وجعلها حلية ثمينة يزدان بها جيد كل امرأة مسلمة، فقهت أحكام دينها، ووعَتْ هَدْيَه العظيم، فكسبت محبّة الناس في الدنيا، ورضوان الله وجناته في الآخرة.

آلِفَــةٌ مَأْلُوفَــةٌ:

والمرأة المسلمة الحصيفة اللبقة آلفة مألوفة، تألف النساء، وتخالطهنّ وتوادّهن، ويألفْنَها ويخالطْنَها ويوادِدنَها، لما تتمتع به شخصيتها من دماثة

---

(١) صحيح مسلم ١٦/١٨٩ كتاب البر والصلة والآداب: باب إذا أُثني على الصالح فهي بشرى.

وجاذبية ورقة وحسن عشرة. وهذا أرقى ما تصل إليه المرأة من صفات اجتماعية، تؤهلها للاتصال بالمجتمعات النسائية، وكسب ثقتها والتأثير فيها؛ ذلك أن هذه المجتمعات لا تسمع إلاَّ لمن تألفها من النساء، وتثق بها، وتطمئن إليها. ولا تقتنع بكلام إلاَّ إذا صدر من امرأة تحمل لها هذه المجتمعات شيئاً من الثقة والودّ والاحترام والتقدير.

ومن هنا جاءت النصوص تعلي من شأن هذه الفئة الدّمثة المختارة التي تألف وتؤلف، سواء أكانت من الرجال أم النساء، وتجعلها من أحب الفئات إلى نفس رسول الله ﷺ، ومن أقربها منه مجالس يوم القيامة:

«ألا أُخبِرُكُم بأَحَبّكُمْ إليّ، وأَقْرَبِكُمْ منّي مَجْلِساً يومَ القِيامَةِ؟ فأَعادَها ثَلاثاً أو مَرّتَيْنِ، قالوا: نعمْ يا رسولَ اللَّهِ، قالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً»[1]. وزادت بعض الروايات: «المُوَطَّأُون أكْنافاً الذينَ يَأْلَفون ويُؤْلَفونَ».

إن من أهم صفات المرأة المسلمة أن تكون محبوبة آلفة مألوفة، تحب النساء ويحببنها، ويقبلن عليها كلما أتيحت لهنّ فرصة لِيَعْبُبْنَ من حديثها الطليّ، وتوجيهها الشائق، وعلمها النافع. ومثل هذه المرأة المسلمة المتألقة تستطيع أن تؤدّي رسالة، وتسدي نفعاً، وتُرَجّى لنهضة، وتقوم بتوعية. وهذا شأن المرأة المسلمة الواعية المستنيرة بهَدْي دينها، آلفة مألوفة، ومن لم تكن كذلك فلا خير فيها، كما جاء في الحديث الشريف:

«المُؤْمِنُ يَأْلَفُ ويُؤْلَفُ، ولا خيرَ فيمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ»[2].

---

(١) رواه أحمد وإسناده جيد ٢/ ١٨٥.

(٢) رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٨٧ باب المؤمن يألف ويؤلف.

ولقد ضرب الرسول الكريم لأمته المثل الأعلى في حسن سلوكه مع الناس، وبراعته في تأليف القلوب، ودعاها للتأسّي به في القول والعمل والسلوك، ورسم لها السبيل القصد في كيفية التسرب إلى قلوب الناس، والوصول إلى حبهم وإعجابهم ومودّتهم؛ فقد كان صلوات الله عليه دائمَ البِشْر، سهلَ الخلق، ليّنَ الجانب، ليس بفظّ، إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كلّ جلسائه نصيبَه، لا يحسَبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه، مَنْ سأله حاجةً لم يردّه إلاّ بها، أو بميسور من القول، قد وسِعَ الناسَ منه بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصار لهم أباً وصاروا له عنده في الحق سواءً، الناسُ في مجلسه مُتعادلون، يتفاضلون بالتقوى، متواضِعون، يوقِّرون الكبيرَ ويرحمون الصغيرَ، يُؤْثِرونَ ذا الحاجة، ويحفظون الغريبَ.

وكان صلوات الله عليه لا يُوئِسُ منه راجيه، ولا يخيبُ فيه، قد ترك نفسَه من ثلاث: المراء، والإكثار، ومالا يَعْنِيه، وترك من الناس ثلاثاً: كان لا يذمُّ أحداً، ولا يُعيِّرُهُ، ولا يطلب عورتَه، ولا يتكلم إلاَّ فيما يرجو ثوابَه، إذا تكلّمَ أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إنْ كان أصحابُه لَيَسْتَحْلِبونَهُ في المنطِق، ويقول: إذا رأيتم صاحبَ حاجة فَارْفِدوه[١]، ولا يقبلُ الثناءَ إلاّ من مُكافِىء، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزَه فيقطعَه بانتهاء أو قِيام[٢].

---

(١) أي أعينوه.

(٢) انظر حياة الصحابة ١/ ٢٢، ٢٣.

وتحدثنا السيدة عائشة أنه كان يتقي شرار الناس، ويستميلهم بلين الكلام وحسن المعاملة؛ فقد استأذن رجل عليه فقال: «ائْذَنوا لَهُ: بئسَ أَخو العَشِيرَة، أو ابن العَشِيرة»، فلما دخلَ ألانَ له الكلامَ، فقالت عائشةُ: يا رسولَ الله، قلتَ الذي قلتَ، ثم ألنتَ لهُ الكلامَ! قال: «أيْ عائشةُ، إنّ شَرَّ النّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النّاسُ (أو وَدَعَهُ النّاسُ) اتّقاءَ فُحْشِهِ»[1].

ولا ريب أن المرأة المسلمة الناضجة المتفتّحة على هَدْي النبوة، تترسّم خطا نبيّها الأمين صلوات الله عليه، في معاملته الناسَ، صالحَهم وطالحَهم، فتكون محبوبة مألوفة مقبولة مقدَّرة في المجتمعات النسائية التي عرفتها أو سَمِعَتْ عنها.

تَحْفَظُ السِّرَّ:

لا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية الناضجة أن حفظ السرّ من أجمل الخلائق والسجايا التي يتحلى بها الإنسان، رجلاً كان أو امرأة؛ ذلك أن حفظ السرّ يدل على نضج الشخصية، ومتانة الخلق، ورزانة المسلك، ورجاحة العقل.. ومن هنا كانت المرأة المسلمة التي ارتشفت رحيق هَدْي الإسلام حافظة للسرّ الذي دعا الإسلام إلى حفظه، وتجسّد في صفوة شخصيات الإسلام خلقاً بارزاً فيهم، وسجيةً من أجمل سجاياهم.

ومن أبرز الشواهد على تحلّي الصحابة الأولين بفضيلة حفظ السرّ وإصرارهم على التمسك بهذه الفضيلة: موقف أبـي بكر وعثمان من عمر

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٧١ كتاب الأدب: باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والرِّيَب، وصحيح مسلم ١٦/ ١٤٤ كتاب البر والصلة والآداب: باب مداراة من يُتقى فحشه.

حين عرض عليهما الزواج من ابنته حفصة بعد أن تَأَيَّمتْ(١)، وكتمانهما سرَّ رسول الله ﷺ عليه.

يروي الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تَأَيَّمَتْ بنتُه حفصة قال: «لَقِيتُ عثمانَ بنَ عفّان رضي الله عنه فعرضتُ عليه حفصة، فقلتُ: إنْ شئتَ أنكحتُكَ حفصةَ بنتَ عمر. قال: سأنظر في أمري. فلبثتُ لياليَ، ثم لَقِيَني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، فلَقِيتُ أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقلتُ: إنْ شئتَ أنكحتُكَ حفصةَ بنتَ عمر. فصمَتَ أبو بكر رضي الله عنه، فلم يَرجع إليّ شيئاً، فكنتُ عليه أَوْجَدَ(٢) مني على عثمان. فلبثتُ لياليَ. ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وَجَدْتَ(٣) عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصةَ فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلتُ: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أَرجعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ إلاَّ أنني كنتُ علمتُ أن النبي ﷺ ذكرَها، فلم أكن لِأُفْشِيَ سِرَّ رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقَبلتُها»(٤).

ولم تقتصر فضيلة حفظ السرّ على الرجال من السلف، بل شملت النساء والأطفال الذين عَبُّوا مِنْ هَذْي الإسلام، واستنارت قلوبهم وعقولهم بنوره اللألاء، ونجد ذلك فيما يرويه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال:

---

(١) أي توفي عنها زوجها.

(٢) أي أشدّ غضباً.

(٣) أي غضبت.

(٤) فتح الباري ٩/ ١٧٥ كتاب النكاح و ٧/ ٣١٧ كتاب المغازي: باب عرض الإنسان ابنته على أهل الخير.

«أتَى عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وأنا ألعبُ مع الغلمان، فسلّم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأتُ على أمّي. فلما جئتُ قالت: ما حَبَسَكَ؟ فقلتُ: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالَتْ: ما حاجتُه؟ قلتُ: إنها سرّ. قالَتْ: لا تُخْبِرَنَّ بسرّ رسول الله ﷺ أحداً. قال أنس: واللَّهِ لو حَدّثْتُ بِهِ أحداً لحَدّثْتُكَ به يا ثابت»[1].

لقد رأت أم أنس ابنها حريصاً على حفظ سرّ رسول الله ﷺ، فعزّزَتْ فيه هذا الحِرْصَ، إذ طلبت منه ألاّ يخبر بسرّ رسول الله ﷺ أحداً، فلمْ يحدّث به أحداً حتى التابعيّ ثابت البُناني الذي روى عنه الحديث، ولم يدفعها حبّ الاطلاع إلى استدراج ابنها الصغير، لتعرف ذلك السرّ الذي طواه عنها، وهذه هي تربية الإسلام، وهذا هو المستوى الرفيع الذي رفعت إليه الإنسان، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً.

وإذا كان إفشاء الأسرار من أسوأ العادات التي يُبْتَلى بها الإنسان، فإنّ أبشع أنواع إفشاء الأسرار ما كان من متعلقات الحياة الزوجية، وإن المُبْتَلى بهذه العادة القبيحة لَمِنْ شرار الناس منزلة يوم القيامة، كما بين رسول الله ﷺ بقوله:

«إنَّ مِنْ أَشَرِّ النّاس[2] عندَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يومَ القِيامَةِ الرَّجلَ يُفْضي إلى المَرْأَةِ، وتُفْضي إليه، ثمّ يَنْشُرُ سِرَّها»[3].

---

(١) صحيح مسلم ٤١/١٦ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أنس. وثابت: هو التابعي الذي روى الحديث عن أنس.

(٢) هكذا جاءت الرواية (أشرّ). والنحاة يقولون: لا يجوز أشرّ وأخير، وإنما يقال: هو خير منه وشرّ منه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالوجهين.

(٣) صحيح مسلم ٨/١٠ كتاب النكاح: باب تحريم إفشاء سر المرأة.

ذلك أن الخصوصيات ينبغي أن تبقى في كِنٍّ كَنِينٍ وحِرْزٍ حَرِيزٍ، مَطْوِيَّةً، لا يعلمها إلاَّ أصحابها، وما ينشر خصوصياته على الناس إلاَّ إنسان في عقله لُوثة من جنون، وفي خلقه وصمة من طيش، وفي شخصيته ضرب من مُيوعَة ودُيوثَة وتفاهة. والمسلمون والمسلمات في نجوة من هذا كله وعصمة بما لَقِنوا من هَدْي دينهم، وما تحلَّوْا به من خلائقه الغرّ الحِسان.

طَلْقَةُ الوَجْهِ:

لا يخفى على المرأة المسلمة النبيهة أن من أهم عوامل نجاحها في حياتها الخاصة مع زوجها، وحياتها الاجتماعية العامة: أن تكون طلقة الوجه، مفترّة الأسارير، تعلو الابتسامة محيّاها، ويطفح البشر من ثغرها؛ فهذا كله مما يجعلها محبَّبة للناس، قريبة من قلوبهم. وهو أيضاً من حسن الخلق، وجمال الشخصية، وجاذبية الخِلْقة، ومن المعروف الذي حضّ عليه الإسلام.

ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قالَ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْروفِ شَيْئاً، ولَوْ أَنْ تَلْقَى أَخاكَ بِوَجْهٍ طَليقٍ»[1].

ولقد كان من هَدْي الرسول الكريم أن يبشّ الإنسان المسلم في وجه أخيه، وكان صلوات الله عليه لا يكاد يلقى أحداً من أصحابه إلاَّ وهو مبتسم باشّ الوجه، كما في الحديث الذي رواه الشيخان عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله أنه قال: «ما حجبني رسولُ الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلاَّ تبسّم في وجهي»[2].

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٧٧ كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب طلاقة الوجه.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٠٤ كتاب الأدب: باب التبسم والضحك، وصحيح مسلم ١٦/ ٣٥ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل جرير بن عبد الله.

إن المرأة المفترّة الثغر، المنبسطة الأسارير، لَتدخل البهجة إلى قلب زوجها كلما وقعَتْ عينُه عليها، فتزداد لديه محبّةً وإعزازاً وتكريماً. وهذا شأنها في المجتمع النسوي الذي تعيش فيه أيضاً؛ إذ ما من شيء يشيع المودّة والتعاطف والتحابب في المجتمع مثل الوجه الباشّ، والنفس المنشرحة المفتوحة، والخلق العالي الرضيّ، وإنها لَسِماتٌ وخصائصُ وصفاتٌ أليق ما تكون بالمرأة المسلمة الدَّمِثَة الداعية؛ ذلك أنها بهذه السمات والخصائص والصفات تستطيع النّفاذ إلى القلوب، والتغلغل في مسارب النفوس.

خَفِيفَـةُ الظِّـلِّ:

والمرأة المسلمة النابهة خفيفة الظلّ، رقيقة المعشر، عذبة الحديث، لا تأنف من ممازحة أخواتها وصديقاتها في أوقات يحسن المزاح، وتلطف المداعبة، ويُسْتَحبّ الترفيه عن النفوس.

على أن مزاح المرأة المسلمة يتميّز بالصبغة الإسلامية المشروعة السمحة التي لا تهبط بها إلى التفاهة والسخف والابتذال.

ولقد كان الرسول ﷺ يداعب صحابته الكرام، ولكنه لا يخرج في مزاحه ومداعبته عن دائرة الحق، وقد أُثِرَ عن الصحابة قولهم للرسول الكريم: إنك تداعبنا، فقال: «إنّي لا أَقولُ إلاَّ حقّاً»[(١)].

وكذلك كان الصحابة الكرام، ولهم في الممازحة والمداعبة أخبار طريفة ممتعة، كانت تجري بينهم وبين الرسول الكريم.

من هذه الأخبار ما روته كتب الحديث والسِّيَر من أن رسول الله ﷺ كان

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣٦٥ باب المزاح.

يمازح طفلاً صغيراً من أبناء الصحابة يكنى أبا عُمَيْر، له طائر يلعب فيه. وفي ذات يوم رآه حزيناً، فقال: ما لي أرى أبا عُمَيْر حزيناً؟ قالوا: مات نُغَرُه الذي كان يلعب به يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ يقول مداعباً الطفل: «أَبا عُمير، ما فعل النُّغَيْر[(١)]؟»[(٢)].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمله، فقال له النبي ﷺ ممازحاً: «أنا حامِلُكَ على وَلَدِ ناقَةٍ»، فقال: يا رسول الله، ما أصنعُ بوَلَدِ ناقة؟ فقال الرسول ﷺ: «وهل تَلِدُ الإبلَ إلاَّ النُّوقُ؟»[(٣)].

وأخرج الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي النبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: «إن زاهراً بادِيَتُنا ونحن حاضِروهُ». وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه رسول الله ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، ولا يبصره الرجل، فقال: أَرْسِلْني! مَنْ هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يشتري العَبْدَ»؟ فقال: يا رسول الله، إذن والله تجدني كاسِداً، فقال رسول الله ﷺ: «لكنْ عندَ اللَّهِ لستَ بكاسِدٍ»، أو قال: «لكنْ عندَ اللَّهِ أنتَ غالٍ»[(٤)].

---

(١) النُّغَيْر: تصغير النُّغَر، وهو طائر يشبه العصفور.

(٢) حياة الصحابة ٣/١٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/٣٦٦ باب المزاح.

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٩/٣٦٨ باب ما جاء في زاهر بن حزام.

وأتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، اُدْعُ اللَّهَ أن يدخلني الجنّةَ. فقال مداعِباً: «يا أُمَّ فُلانٍ، إنَّ الجَنَّةَ لا تَدْخُلُها عَجوزٌ»، فولَّتِ العجوزُ تبكي، فقال: «أَخْبِروها أنها لا تدخلها، وهي عجوز، إنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾»[1].

ومن الأحاديث الدالّة على نفسية الرسول المرحة المحبة للمداعبة والمزاح ما أخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدُن، فقال للناس: «تقدّموا»، فتقدَّموا، ثم قال لي: «تعالَيْ حتى أُسابِقَكِ»، فسابَقْتُه فسبَقْتُه، فسكت عني حتى إذا حملتُ اللحمَ، وبَدُنْتُ، ونسيتُ، خرَجتُ معه في بعض أسفاره، فقال للنّاس: «تقدَّموا»، فتقدّموا، ثم قال لي: تَعالَيْ حتى أُسابِقَكِ»، فسابقتُه فسبقني، فجعلَ يضحكُ ويقول: «هذه بِتلْكَ»[2].

لقد كان الرسول ﷺ، وهو إمام المسلمين وقائدهم ومعلمهم، يمزح أحياناً، ويمرح أحياناً أخرى، وما كانت تشغله الأعباء القيادية الجسام التي ينهض بها لإنشاء أمة الإسلام وإقامة دولته، وتوجيه كتائب الجهاد، وغير ذلك من الأعمال الجليلة، ما كان يشغله هذا كله عن المداعبة اللطيفة، والممازحة الممتعة، يدخل بها السرور على نفوس أصحابه أحياناً، وعلى نفوس زوجاته أحياناً أخرى.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل: ١١١، وهو حسن بشواهده.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد ٦/ ٢٦٤، وأبو داود ٣/ ٤١ كتاب الجهاد: باب في السبق على الرجل.

فمن ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: «أتيتُ النبيَّ ﷺ بِحَريرة قد طبختُها له، فقلتُ لسَوْدَة رضي الله عنها، والنبي ﷺ بيني وبينها: كُلي، فأبَتْ، فقلتُ: لتَأْكُلِنَّ، أو لأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فأبَتْ، فوضعتُ يدي في الحَرِيرَة، فطلَيْتُ وجهَها، فَضحكَ النبي ﷺ، فوضع بيده لها، وقال لها: الطخي وجهها... وفي رواية: فخفضَ لها ركبتَهُ لِتَسْتَقِيدَ منّي، فتناولَتْ من الصفحة شيئاً، فمسحت به وجهي، ورسول الله ﷺ يضحكُ»[1].

وبعد، فإن هذه الشواهد والآثار لدليلاً ناصعاً على سماحة الإسلام وأهله، وعلى ما يريده الإسلام لأبنائه وبناته من خفّة ظلّ، ومرح نفس، وعذوبة روح، وإنها لصفات محبّبة للمرأة المسلمة المعاصرة الجادّة، تضفي على شخصيتها مزيداً من الجاذبية والجمال والتأثير.

تُدْخِلُ السُّرورَ على القُلوبِ:

تحرص المرأة المسلمة الراشدة في أحاديثها ومناقشاتها للنساء على نشر المسرّة في أوساطهنّ، وإشاعة الحيوية والبهجة والنشاط في نفوسهنّ، بما تزجي إليهنّ من أخبار مفرحة، وما تسوق من دعابات طريفة ممتعة، فإدخال السرور على القلوب في إطار ما أحلّ الله مطلب إسلامي حضّ عليه الشرع الحنيف، ورغّب في فعله، لتبقى أجواء المؤمنين والمؤمنات عامرة بالمودّة، نديّة بأنسام المسرّة، مترعة بالبشر والتفاؤل، مهيّأة لتقبّل العمل الجادّ وما يتطلب من تضحيات وتكاليف.

---

(١) رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، خلا محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن. انظر مجمع الزوائد ٤/٣١٦.

ومن أجل ذلك كافأ الإسلام مَنْ يدخل السرور على قلوب المسلمين والمسلمات أن يظفر بسرور أكبر، يدخله الله عز وجل على قلبه يوم القيامة:

«مَنْ لَقِيَ أَخاهُ المُسْلِمَ بما يُحِبُّ اللَّهُ لِيَسُرَّهُ بذلكَ، سَرَّهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ يومَ القِيامَةِ»(١).

إن المرأة المسلمة الذكية اللبقة لتجدُ ضروباً من المسرّات الحلال تستطيع أن تدخلها على قلوب أخواتها، بالتحية الحارّة، والكلمة الطيبة، واللفتة الذكية، والنكتة البارعة، والبشرى السارّة، والبسمة الوَدود، والزيارة الخالصة، والهدية المفرحة، والصلة الدائمة، والرِّفْد الصادق، والمواساة المسلية، مما يفتح مغاليق القلوب، ويلقي بذور المحبّة، ويصل حبل الودّ، ويمتّن وشائج الأخوة.

غَيْرُ مُتَزَمِّتَةٍ:

ومن صفات المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها أنها غير متزمّتة، لا تتشدّد في أمور أباحها الشرع الحنيف، ورخّص بها في المناسبات، كالغناء المُباح في الأعياد والأعراس والأفراح، وشهود بعض الألعاب المرفّهة التي لا يصاحبها فساد ولا تنجم عنها فتنة.

وهي إذ تأخذ بشيء من اللهو المباح في مناسبات معينة، ولا تجعل اللهو همَّها وديدنها، تكون متّبعةً لهدي دينها الذي رخّص باللهو في بعض الأحيان؛ إذ جاء بذلك عديد من الأحاديث الصحاح.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٩٣ باب فضل قضاء الحوائج.

ففي صحيح البخاري أن السيدة عائشة أم المؤمنين زَفَّتْ امرأةً، كانت يتيمةً في حجرها، إلى رجل من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائِشَةُ، ما كان معكمْ لَهْوٌ، فإنَّ الأَنْصارَ يُعْجِبُهُم اللَّهْوُ»[١].

ويروي الإمام البخاري عن السيدة عائشة أيضاً قولها: «دخلَ عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وعندي جاريتانِ تُغنّيانِ بغناء بُعاثَ[٢]، فَاضْطَجَعَ على الفِراشِ، وحَوَّلَ وجهَهُ. ودخلَ أبو بكر، فانتهرَني وقالَ: مِزْمارَةُ الشَّيْطانِ عندَ النبيِّ ﷺ! فأقبلَ عليه رسولُ الله ﷺ فقالَ: دَعْهُما. فلّما غَفَلَ غَمَزْتُهما فَخرَجَتا»[٣].

وفي رواية للبخاري أيضاً: فقالَ رسولُ الله ﷺ: يا أبا بكرٍ، إنّ لِكُلِّ قَوْمٍ عيداً، وهذا عِيدُنا»[٤].

وروى البخاري قول السيدة عائشة أيضاً: «وكانَ يومَ عيدٍ يلعبُ فيه السُّودانُ بالدَّرَقِ[٥] والحِرابِ، فإمّا سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ وإمّا قالَ: تَشْتَهينَ تَنْظُرِينَ؟ فقلتُ: نَعَمْ. فَأَقامَني وراءَهُ، خَدُّهُ على خَدّي، وهو يقولُ: دُونَكُمْ يا بَني أَرْفِدَةَ[٦]. حتّى إذا مَلِلْتُ قالَ: حَسْبُكِ؟ قلتُ: نَعَمْ. قالَ: فَاذْهَبي»[٧].

---

(١) فتح الباري ٩/ ٢٢٥ كتاب النكاح: باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها.

(٢) بُعاث: موضع في نواحي المدينة دارت فيه حرب بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، وسميت بيوم بُعاث، وللشعراء فيه شعر كثير يُغَنَّى.

(٣) فتح الباري ٢/ ٤٤٠ كتاب العيدين: باب الحِراب والدَّرَق يوم العيد.

(٤) فتح الباري ٢/ ٤٤٥ كتاب العيدين: باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

(٥) الدَّرَق: جمع دَرَقَة، وهي التُّرْس.

(٦) هو لقب للحبشة.

(٧) فتح الباري ٢/ ٤٤٠ كتاب العيدين: باب الحِراب والدَّرَق يوم العيد.

وقد أورد ابن حجر عدداً من الروايات لهذا الحديث عن عائشة، منها رواية الزهري: «حتى أكونَ أنا الذي أَسْأَمُ»(١).

ومنها رواية مسلم من طريق الزهري: «ثم يقومُ من أَجْلي حتّى أكونَ أنا الذي أَنْصَرِفُ»(٢).

ومنها رواية يزيد بن رومان عند النسائي: يقول الرسول ﷺ: «أما شبعتِ أما شبعتِ؟ قالَتْ: فَجَعْلتُ أقولُ: لا، لِأَنْظُرَ مَنْزِلتي عندَه»(٣).

وللنسائي من رواية أبـي سلمة عن عائشة: «قلتُ يا رسولَ اللّهِ لا تَعْجَلْ، فقامَ لي ثم قالَ: حَسْبُكِ؟ قلتُ: لا تعجلْ. قالَتْ: وما بـي حبُّ النَّظرِ إليهِمْ، ولكنْ أحببتُ أنْ يبلغَ النساءَ مقامُه لي ومكاني منهُ». وزاد في باب النكاح في رواية الزّهري: «فَاقْدُروا قَدْرَ الجارِيَةِ الحَديثةِ السِّنِّ، الحريصةِ على الَّلهْوِ»(٤).

وفي فتح الباري(٥): روى السراج من طريق أبـي الزناد عن عروة عن عائشة أنه ﷺ قال يومئذٍ: لِتَعْلَمَ يَهودُ أنَّ في دِينِنا فُسْحَةً، إنّي بُعِثْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ».

ويروي الترمذي في سننه عن عائشة قولها:

«كان رسول الله ﷺ جالساً، فَسَمِعْنا لَغَطاً، وصوتَ الصِّبْيان، فقامَ

---

(١) فتح الباري ٢/ ٤٤٤ كتاب العيدين: باب الحِراب والدَّرَق يوم العيد.

(٢) فتح الباري ٢/ ٤٤٤ كتاب العيدين: باب الحِراب والدَّرَق يوم العيد.

(٣) فتح الباري ٢/ ٤٤٤ كتاب العيدين: باب الحِراب والدَّرَق يوم العيد.

(٤) انظر الروايات في فتح الباري ٢/ ٤٤٤.

(٥) ٢/ ٤٤٤ كتاب العيدين: باب الحراب والدرق يوم العيد.

رسولُ الله ﷺ فإذا حبشيّةٌ تَزْفِنُ(١)، والصِّبيانُ حولَها، فقالَ: «يا عائشةُ، تَعالَيْ، فَانْظُري»، فجئتُ، فوضعتُ ذَقَني على مَنْكِبِ رسولِ اللّه ﷺ، فجعلتُ أنظرُ إليها ما بينَ المنكِب إلى رأسِه، فقالَ لي: «أما شَبِعْتِ؟» فجعلتُ أقولُ: لا، لِأَنْظُرَ منزلَتي عندَه، إذْ طلعَ عمرُ، فارفضَّ الناسُ عنها، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّي لأَنْظُرُ إلى شياطينِ الجنِّ والإنسِ قد فَرُّوا مِنْ عُمَرَ». قالَتْ: فَرَجَعْتُ»(٢).

إن هذه النصوص وأمثالها، مما وعته كتب الحديث، لَهي شواهد واضحة على حسن خلق الرسول الزوج صلوات الله عليه، وتلطّفه بزوجته، وحرصه على سعادتها وسرورها، وهي شواهد أيضاً على سماحة الإسلام وفسحته ويسره، وحفاوته بالمرأة إذ أباح لها الاستمتاع بشيء من اللهو، مما يعدّه بعض المتزمّتين اليوم جريمة نكراء، تُعاقَب عليها المرأة بالحبس الشديد.

إن من شأن المرأة المسلمة الواعية البصيرة بهَدْي دينها: أن تكون في أغلب أحوالها جادة، منصرفة إلى معالي الأمور، معرضة عن سفسافها. ولكن هذا لا يمنع أن تلهو في مناسبات، أباحها الشرع الحنيف، وجعل فيها للمسلمين والمسلمات فُسْحةً وسَعَةً؛ ذلك أن المشرِّع الحكيم يعلم جِبِلّاتِ النفوس، وميلَها إلى التخفّف والترويح والتسلية والترفيه بين الحين والحين، لتعود بعد ذلك إلى الجدّ، وهي أوفر نشاطاً، وأمضى عزيمةً، وأكثر استعداداً

---

(١) أي ترقص.

(٢) أخرجه الترمذي في مناقب عمر، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ٥/ ٦٢١ كتاب المناقب: ١٨.

لتحمّل الأعباء والنهوض بالمسؤوليات. وهذا ما حقّقه الإسلام للإنسان في منهجه المتوازن المعتدل الشامل الحكيم.

لا تتكبّر:

والمسلمة الصادقة الواعية لا تتكبّر، ولا تشمخ بأنفها استعلاءً على غيرها من النساء، ممن دونها جمالاً، أو مالاً، أو نسباً، أو مقاماً؛ لأن المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها تعلم أن التكبّر والاستعلاء والتشامخ في الدنيا يحرم صاحبته من نعيم الآخرة التي حرّم اللّهُ نعيمَها على المتكبّرين والمتكبّرات، وجعله للذين لا يريدون الاستعلاء والانتفاش والاستكبار في الأرض:

«تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدونَ عُلُوّاً في الأرْضِ ولا فساداً، والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[1].

وتعلم أيضاً أن الله لا يحب كل مختال فخور:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ﴾[2].

ومن يتأمّل نصوص السنة المطهّرة يدهش لشدّة عناية الرسول ﷺ باستئصال شأفة الكِبْر من النفوس، بِنَهْيِه عنه وتنفير الناس منه، وبتحذير المبتلين والمبتليات بدائه من أن يخسروا آخرتهم كلها، إن تسرّب إلى نفوسهم مثقال ذرّة من كِبْر، ينفثها الشيطان في رُوعهم، فإذا هم من المتكبّرين الذين حرّم الله عليهم دخول الجنان، كما في الحديث الذي رواه مسلم:

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) لقمان: ١٨.

«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، فقالَ رجلٌ: إنَّ الرجلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً. قالَ: «إنَّ اللَّهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[1]، وغَمْطُ النَّاسِ[2]»[3].

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ[4]، جوّاظٍ[5]، مُسْتَكْبِرٍ»[6].

وحسب المتكبرات المستعليات المختالات على قريناتهنّ المهانة المعنوية التي أعدّها الله لهنَّ في الآخرة، بحرمانهنّ من نظر الله إليهنّ، ومن تكليمه إياهنّ، وتزكيتهنّ، وإنها لَمهانة ما بعدها مهانة:

يقول رسول الله ﷺ: «لا يَنْظُرُ اللَّهُ يومَ القِيامةِ إلى مَنْ جَرَّ إزارَهُ بَطَراً»[7].

ويقول: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولا يَنْظُرُ إليهِمْ، ولَهمْ عَذابٌ أَليمٌ: شَيْخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كَذّابٌ، وعائِلٌ[8] مُسْتَكْبِرٌ»[9].

---

(١) أي دفعه.

(٢) أي احتقارهم.

(٣) صحيح مسلم ٢/٨٩ كتاب الإيمان: باب تحريم الكبر.

(٤) أي غليظ شديد.

(٥) أي مختال في مشيته.

(٦) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٣٤ باب تحريم الكبر والإعجاب.

(٧) متفق عليه. انظر شرح السنة ٩/١٢ كتاب اللباس: باب تقصير الثياب.

(٨) أي فقير.

(٩) صحيح مسلم ٢/١١٥ كتاب الإيمان: باب بيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة.

ذلك أن الكبرياء من شأن الإلّه عز وجل، وليس من شأن العباد المخلوقين الضعفاء، وإن كل بشر تسوّل له النفس التكبّر يعتدي على مقام الألوهية، وينازع الخالق العظيم في صفة من صفاته العليا، ويبوء بالخزي والعذاب الشديد في الآخرة، كما في الحديث الذي رواه مسلم:

«قال الله عز وجل: العِزُّ إزاري، والكِبْرِياءُ رِدائي، فَمَنْ نازَعَني بِشَيْءٍ مِنْهما عَذَّبْتُهُ»(١).

ومن هنا جاءت نصوص السنة المطهّرة متتابعة متوالية محذِّرة المؤمنين والمؤمنات من أن تلابسهم نزوةٌ من كِبْر في لحظة من لحظات الغفلة والضعف البشري، ليبقوا في منجاة من التلبّس بهذه الخليقة الممقوتة، وعصمة من الانزلاق إليها.

ومن تلك النصوص المحذِّرة المنبِّهة:

«مَنْ تَعَظَّمَ في نَفْسِهِ، أو اخْتالَ في مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ، وهُوَ عليهِ غَضْبانُ»(٢).

مُتَواضِعَةٌ:

لا غروَ أن تكون المرأة المسلمة المحيطة بشيء من هَدْي دينها متواضعةً، ليّنةَ الجانب، سمحةَ النفس، رقيقةَ المعشر؛ ذلك أنها تجد في مقابل تلك النصوص المهدِّدة المتوعِّدة المتكبّرين والمتكبّرات، تجد نصوصاً مرغِّبةً حاضَّةً محبِّبةً بالتواضع وخفض الجناح، تَعِدُ كل مَنْ تواضع لله بالرفعة

---

(١) صحيح مسلم ١٦/١٧٣ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الكبر، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/٩ باب الكبر.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/٧ باب الكبر.

والعزّة والسموّ، كما في قول الرسول ﷺ الذي رواه مسلم:

«ما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلاّ رَفَعَهُ اللَّهُ»[١].

وقوله:

«إنّ اللَّهَ أَوْحَى إليَّ أنْ تَواضَعوا حتّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يَبْغي أَحَدٌ على أَحَدٍ»[٢].

وتجد المرأةُ المسلمةُ المتأملةُ سيرةَ المصطفى ﷺ شخصيتَه العظيمةَ مثالاً حيّاً فريداً في التواضع وخفض الجناح ولين الجانب وعفوية التبسّط وكرم الخلق وسماحة النفس، حتى إنه كان إذا مرّ بالصبيان يلعبون، وقف عليهم مسلِّماً متبسِّطاً مُمازِحاً، لا يَحْجُبُه عن هذا التواضعِ العظيمِ مقامُ النبوّة، ولا جلالُ القيادة، ولا رفعةُ المنزلة.

فقد ذكر أنس رضي الله عنه أنه مرّ على الصبيان فسلّم عليهم، وقال: «كانَ النبيُّ ﷺ يَفْعَلُ ذلكَ»[٣].

ويروي أنس رضي الله عنه من تواضع النبي ﷺ أن الأَمَةَ من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت، يقضي لها حاجتها[٤].

---

(١) صحيح مسلم ١٤١/١٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع.

(٢) صحيح مسلم ٢٠٠/١٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب الصفات التي يُعْرَفُ بها في الدنيا أهل الجنة.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٣١ باب التواضع.

(٤) فتح الباري ٤٨٩/١٠ كتاب الأدب: باب الكبر.

ويقدمُ تميم بن أُسَيْد إلى المدينة، ليسأل عن أحكام الإسلام، فلا يجد هذا الرجلُ الغريبُ الراغبُ بمقابلة رسولِ الله ﷺ الرجلِ الأول في الدولة الإسلامية، لا يجد أسْلاكاً ولا حُرّاساً ولا حجّاباً، وإنما يرى الرسول الكريم ﷺ على المنبر يخطب في الناس، فيتقدّم إليه سائلاً مستفسراً، فيقبل عليه الرسول الكريم بكل بساطة وتواضع وحنوّ، ويجيبه إلى سُؤْله. ولْنَدَعْ تميماً يحدّثنا عن ذلك كله، فيما رواه عنه الإمام مسلم، قال:

«انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتِيَ بكرسي، فقعد عليه وجعل يعلّمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته فأتمّ آخرَها»[1].

وكان صلوات الله عليه يغرس في نفوس الصحابة خلق التواضع المبني على السماحة ولين الجانب ودماثة الطبع، ضارباً المثل بنفسه في قبوله دعوةَ الناس البسطاء وهداياهم، مهما كانت متواضعة بسيطة، كما في الحديث الذي رواه البخاري:

«لَوْ دُعِيتُ إلى ذراع أو كُراعٍ[2] لأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إليّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لَقَبِلْتُ»[3].

فيا لَلتواضع في أجلى صوره! ويا لَلعظمة الإنسانية في أسمى معانيها!

مُعْتَدِلَةٌ في لِباسِها ومَظْهَرِها:

---

(١) صحيح مسلم ٦/١٦٥ كتاب الجمعة: باب التعليم في الخطبة.

(٢) الكراع من الدابة: ما بين الركبة إلى الساق.

(٣) فتح الباري ٥/١٩٩ كتاب الهبة: باب القليل من الهبة.

تلزم المرأةُ المسلمةُ الواعيةُ هَدْيَ دينها الاعتدالَ في كلّ شيء، وبخاصة في لباسها ومظهرها، فتحرص على حسن مظهرها، بلا سرف ولا مبالغة ولا خيلاء. فهي لا تجري وراء كلّ ناعق وناعقة في الإسراف والمبالغة في تغيير الملابس الجديدة وطرحها بعد ارتدائها مرة واحدة، لاهثة وراء تقليعات (الموضة) التي لا تقف عند حد، كما تفعل بعض النسوة المسرفات الفارغات الجاهلات، ولا هي تهمل مظهرها وملابسها وأناقتها المعتدلة المحبَّبة.

إنها لتقف في ذلك كله عند حدود الاعتدال الذي بيَّنه القرآن الكريم، وجعله من صفات عباد الرحمن من المؤمنين والمؤمنات:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[(١)].

وتحذر المرأة المسلمة أن تقع فريسة لعبودية (الموضة) التي تتحكم بها دور الأزياء ومن يقف وراءها، ممن لا يرجون لله وقاراً، ولا يريدون بالمرأة خيراً، وبخاصة المرأة المسلمة. تحذر هذه العبودية التي حذّر منها رسول الله ﷺ، وجعلها مصدر تعاسة وبلاء وخسران:

«تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ والدِّرْهمِ والقَطِيفَةِ والخَمِيصَةِ[(٢)]، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[(٣)].

ذلك أن للمرأة المسلمة من هَدْي دينها ما يعصمها من الانزلاق في مهاوي التبختر والخيلاء والإعجاب بالمظهر الحسن وغير ذلك من المهلكات، مما أخبر عنه رسول الله ﷺ إذ قال:

---

(١) الفرقان: ٦٧.

(٢) الخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلَم، وكان من لباس الناس قديماً.

(٣) فتح الباري ٦/ ٨١ كتاب الجهاد: باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

«بَيْنَما رجلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي في بُرْدَيْهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللَّهُ به الأرضَ، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يومِ القِيامَةِ»[١].

إن المرأة المسلمة لتأخذ بالزينة الحلال وبالأناقة المشروعة، وترتدي الملابس الثمينة الجميلة الأنيقة، وهذا كلّه من الطيبات التي أحلّها الله، دون أن تنحرف إلى التردّي في المبالغة والإسراف والشّطط، وهذا هو الاعتدال الذي دعا إليه الإسلام وحضّ عليه، وشتان بين المرأة المعتدلة الحكيمة الرّزان، وبين المرأة المسرفة السخيفة الفارغة الرعناء.

إن المرأة المسلمة الواعية بعيدة في ملبسها ومظهرها عن الإفراط والتفريط: فهي ليست مُفْرِطة مسرفة في زينتها وملبسها وهيئتها، ولا مفرّطة مقتّرة في شكلها وثيابها ومظهرها إلى حدّ البخل، أو الزهد في الزينة والأناقة والمظهر الحسن، ظنّاً منها أنها بذلك الزهد تتعبّد ربّها وتفوز برضاه.

ذلك أن المرأة التي ترتدي الملابس الجميلة فخراً وزهواً وخيلاء وتيهاً على قريناتها هي آثمة؛ لأن الله لا يحب كل مختال فخور. أما التي ترتديها إظهاراً لنعمة الله، واستعانة على طاعته، فهي طائعة مأجورة.

والتي تعزُف عن جميل الثياب، وتتركها بخلاً بالمال، فلا مكانة لها ولا احترام في نفوس الناس، ولا أجر لها عند الله، أما التي تترك الملابس الجميلة زهداً، وهي تظن أنها تتعبّد ربّها بتحريم المباحات على نفسها، فهي آثمة أيضاً، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]. وملاك سعادة المرأة في دينها ودنياها: القصد والتوسّط والاعتدال. وهذا شأن المرأة

---

(١) صحيح مسلم ١٤/ ٦٤ كتاب اللباس والزينة: باب تحريم التبختر في المشي.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ١٣٨، ١٣٩.

المسلمة الواعية هَدْيَ دينها، الملتزمة بأحكامه السمحة الغراء؛ فلباسها نظيف جميل أنيق مرتّب لائق بأمثالها، مظهرٌ نعمةَ الله عليها، من غير سَرَفٍ ولا زَهْو ولا مباهاة.

تَهْتَمُّ بِمَعالي الأُمورِ:

والمرأة المسلمة التي وعت هَدْي دينها لا تهتم إلاَّ بمعالي الأمور، وتنأى بنفسها عن الأمور السخيفة التافهة الرخيصة التي لا تستحق من الإنسان الراقي الجادّ العناية والاهتمام، وتبني علاقاتها بالنساء على هذا الأساس من سموّ الاهتمامات ونبل المقاصد والأهداف، فلا مكان في حياتها لصداقة الفارغات الثرثارات التافهات، ولا الانشغال بصغير الأمور وتافهها وسفسافها، ولا وقتَ لديها لتَمْضِيَتِهِ في التفاهة واللغو والفراغ والهبوط، وهذا ما يحبه الله تبارك وتعالى في عباده المؤمنين والمؤمنات، كما أخبر بذلك الرسول الكريم بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكُرَماءَ، ويُحِبُّ مَعالي الأُمورِ ويَكْرَهُ سَفْسافَها»[1].

تَهْتَمُّ بِأَمْرِ المُسْلِمينَ:

لا يقتصر اهتمام المرأة المسلمة الواعية أحكام دينها على بيتها وزوجها وأولادها فحسب، بل تهتمّ بأمر المسلمين أيضاً، وتتتبّع أخبارهم، عملاً بهَدْي هذا الدين العظيم الذي عدّ المسلمين جميعاً إخوةً، وشبههم في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم بالجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٨٨/٨ باب مكارم الأخلاق.

الجسد بالسهر والحمّى[١]. وشبّه جمعهم بالبنيان يشدّ بعضه بعضاً[٢].

ومن هنا كان اهتمام المرأة المسلمة المعاصرة الواعية بأمر الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والأمة الإسلامية نابعاً من شخصيتها المسلمة المتشبّعة بروح الإسلام، الواقفة على هَدْيه وأحكامه، ونظرته للإنسان والحياة والكون، ومن شعورها بالمسؤولية التي ناطها الإسلام بكل مسلم ومسلمة في إبلاغه وتبيان أحكامه للناس.

وفي تاريخ المرأة المسلمة نماذج كثيرة من فضليات النساء، عُرِفْنَ باهتمامهنّ في شؤون المسلمين والمسلمات، أفراداً وجماعات. ومن تلك النماذج ما رواه الإمام مسلم عن سالم مولى شدّاد، قال: دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ يوم توفي سعد بن أبي وقاص، فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر، فتوضأ عندها، فقالت: يا عبد الرحمن أسبغِ الوضوءَ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ من النّارِ»[٣].

لقد لفت نظر السيدة عائشة أن أخاها عبد الرحمن لم يحسن غسلَ عقبيه في الوضوء، فلم تسكت على ما رأت، بل نبّهته إلى وجوب إسباغ الوضوء، كما سمعت من رسول الله ﷺ، وهذا من الاهتمام المحمود، بل الواجب على كل مسلم ومسلمة، كلما دعا إليه داعٍ من أمر بمعروف أو نهي عن منكر.

---

(١) صحيح مسلم ١٤٠/١٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

(٢) صحيح مسلم ١٣٩/١٦ كتاب البر والصلة والآداب: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

(٣) صحيح مسلم ١٢٨/٣ كتاب الطهارة: باب وجوب غسل الرجلين.

ولما طُعِنَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأحسّ بقرب منيّته، قال لابنه عبد الله: اذهب إلى عائشة، وأَقْرِئْها السَّلامَ، واسْتَأْذِنْها أن أُقْبَرَ في بيتِها مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر، فأتاها عبد الله، فأعلمها، فقالت: نعم وكرامة، ثم قالت: يا بنيّ، أَبْلِغْ عمر سلامي، وقل له: لا تَدَعْ أمّةَ محمد بلا راعٍ، استخلِفْ عليهم، ولا تَدَعْهم بعدَك هَمَلاً، فإنّي أخشى عليهم الفِتْنَةَ[1].

إنها النظرة السديدة البعيدة الراشدة لأمر الأمة، والإشفاق عليها أن تبقى بلا راعٍ يرعاها، ويتولى أمرها، ويحفظ وحدتها وأمنها.

والمرأة المسلمة المعاصرة لها من كلمات أم المؤمنين السيدة عائشة نبراس تهتدي به في فهمها جوهر الإسلام، ومنارات تهتدي بها في فهم مسؤوليتها عن دينها وأمتها، وأهمية اهتمامها بأمر المسلمين، لتنطلق على بصيرة في أداء واجبها في العمل على النهوض بالمسلمين والمسلمات، ودعوتهم إلى أن يعودوا كما أراد لهم ربهم خير أمة أخرجت للناس.

تُكْرِمُ الضَّيْفَ:

تهشّ المرأة المسلمة الصادقة لاستقبال الضيف، وتسارع إلى إكرامه، مستجيبة في ذلك إلى نداء إيمانها بالله واليوم الآخر، كما وصفه الرسول الكريم بقوله:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[2].

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٦٣.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٤/ ٣١٢ كتاب الرقاق: باب حفظ اللسان.

فالمرأة المسلمة إذ تكرم الضيف تؤكد إيمانها بالله واليوم الآخر، وتقوم بواجب الضيافة التي نصّ عليها حديث رسول الله ﷺ، وسمّاها جائزة، وكأنها شكر للضيف على ما أتاح للمضيف من عمل صالح، يثبت فيه إيمانه ويرضي ربّه:

«مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جائِزَتَهُ». قالوا: وما جائِزَتُهُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «يَوْمُهُ ولَيْلَتُهُ، والضِّيافَةُ ثَلاثَةُ أَيّامٍ، فما كانَ وراءَ ذلك فهوَ صَدَقَةٌ»[1].

ومن هنا كان إكرام الضيف عملاً عزيزاً محبَّباً إلى كل مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر، تثاب عليه من الله، وتكسب حسن الأُحْدوثَة وجميل الذكر بين الناس، وقد نظّم الإسلام الضيافة، ووضع لها حدوداً. فجائزة الضيف يوم وليلة، ثم يأتي واجب الضيافة، ومدته ثلاثة أيام، وما زاد على ذلك فهو صدقة تُثْبَتُ في صحيفة المرأة الكريمة المِضْياف.

وليس إكرام الضيف في الإسلام أمراً اختيارياً يتبع الأمزجة والنفسيات والاجتهادات الشخصية، وإنما هو واجب على كل مسلم ومسلمة، عليهما أن يبادرا إلى تأديته إذا ما قرع بابهما طارق، أو نزل بفنائهما ضيف:

«لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ واجِبٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ، فمَنْ أصبحَ بِفِنائِهِ فهوَ دَيْنٌ عليهِ، فإنْ شاءَ اقْتَضاهُ، وإنْ شاءَ تَرَكَهُ»[2].

أما الذين يضيقون ذرعاً باستقبال الضيف، ويغلقون دونه الأبواب، فلا خيرَ فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ:

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٧٩ كتاب الأدب: باب إكرام الضيف.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/٢٠٧ باب جائزة الضيف.

«لا خيرَ فيمَنْ لا يُضيفُ»[١].

لقد أوجب الإسلام الضيافة على كل مسلم ومسلمة، وعدّها حقّاً مفروضاً للضيف، لا ينبغي أن يقصّر في أدائه إنسان مسلم. فإن استحكم شحّ النفوس في قوم، وبلغ بهم أن يمنعوا الضيف حقّه، فإن الإسلام أَذِنَ للضيف أن يأخذ حقه منهم، وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن عقبة بن عامر، قالَ: قلتُ: يا رسولَ الله، إنك تبعثُنا فننزل بقوم فلا يُقْرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال:

«إنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأُمِرَ لكمْ بما يَنْبَغي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلوا، فإنْ لَمْ يَفْعلوا فَخُذوا منهمْ حَقَّ الضَّيْفِ الذي يَنْبَغي لهمْ»[٢].

إن إكرام الضيف خلق إسلامي أصيل، ومن هنا لا تجد مسلمةً حَسُنَ إسلامُها بَخيلةً ممسِكةً ممتنِعةً عن إكرام الضيف، أو مُخَذِّلةً زوجَها عن استقباله وإكرامه، مهما كانت حالتها وحالة زوجها؛ ذلك أن طعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة، وأن لا خوف البتّة من طروق الضيف المفاجىء؛ فعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«طَعامُ الاثْنَيْنِ كافي الثَّلاثَةِ، وطَعامُ الثَّلاثَةِ كافي الأَرْبَعَةِ»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه الإمام أحمد ٤/ ١٥٥، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الشيخان وغيرهما. انظر الأدب المفرد ٢/ ٢١٠ باب إذا أصبح الضيف محروماً.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١١/ ٣٢٠ كتاب الأطعمة: باب طعام الاثنين يكفي الثلاثة.

«طعامُ الواحِدِ يَكْفي الاثْنَيْنِ، وطعامُ الاثْنَيْنِ يَكفي الأَرْبَعَةَ، وطَعامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفي الثَّمانِيَةَ»(١).

إن المرأة المسلمة التي صاغ نفسيتها الإسلام، وهذّب طباعَها هَدْيُه العالي لا تخاف كثرة الأيدي على الطعام، شأن المرأة الغربية التي لا تستقبل ضيفاً لم تعدّ له طعاماً من قبل، بل إن المرأة المسلمة لتستقبل ضيوفها ولو فاجأوها في زيارتهم، وترحّب في مشاركتهم طعامَها وطعامَ أسرتها، وما عليها إن نقص حظّ معدتها لقيمات معدودات؛ لأن الجوع أهون عند المسلمة الصادقة من الإعراض عن الضيف الذي أمر الله ورسوله بإكرامه، بل إنها لتعتقد أن الله يبارك في طعام الواحد، فإذا هو يكفي الاثنين، ويبارك في طعام الاثنين، فإذا هو يكفي الأربعة، وهكذا... ولا داعي لذلك الجفاف المقيت الذي مُنِيَ به الإنسان الغربيُّ، ربيبُ المدنية المادية في الشرق والغرب سواء.

ولقد ضرب سلفنا الصالح المثل الأعلى في إكرام الضيف، حتى إن الله تبارك وتعالى عجب من صنيع بعضهم في إكرام الضيف، ونجد ذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما عندنا إلاّ الماء. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟» فقال رجلٌ من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيفَ رسولِ الله ﷺ، فقالتْ ما عندنا إلاّ قوتُ الصِّبيان، فقال هيِّئي طعامَكِ، وأَصْلحي سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبْيانكِ إذا أَرادوا عَشاءً، فهيّأت طعَامَها، وأَصْلَحَتْ سِراجَها، ونَوَّمتْ صِبْيانَها، ثم

---

(١) صحيح مسلم ١٤/ ٢٢ كتاب الأشربة: باب فضيلة المواساة في الطعام القليل.

قامَتْ كأنّها تُصْلِحُ سِراجَها فَأَطْفَأَتْهُ، وجَعَلا يُرِيانِه أنّهما يأْكُلانِ، وباتا طاوِيَيْنِ. فلمّا أصبحَ غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنيعِكُما بِضَيْفِكما اللَّيْلَةَ»، وأنزلَ الله تَعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾[1].

إن المرأة المسلمة كريمةٌ مضيافٌ، ترحّب بالضيف في أي وقت جاء، ولا تخشى من طروقه المفاجىء، وهي بذلك خير معوان لزوجها على أن يكون أيضاً كريماً مِضْيافاً مثلها، يهشّ للضيف، ويسارع إلى إكرامه بوجه طلق ضاحك خَصِيب، كما قال الشاعر[2]:

أُضاحِكُ ضَيْفِي قبلَ إنْزالِ رَحْلِهِ ... ويُخْصِبُ عِنْدي والزَّمانُ جَدِيبُ
وَما الْخِصْبُ لِلأَضْيافِ أَنْ يَكْثُرَ القِرَى ... ولكنَّما وَجْهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ

تُؤْثِرُ على نَفْسِها:

والمرأة المسلمة التي ارتوت من هَدْي الإسلام الحنيف تؤثر على نفسها، ولو كانت مقلّةً لا تملك المال الوفير؛ ذلك أن الإيثار خليقة نبيلة سامية محبَّبة، أشاد بها الإسلام، ورغّب في التخلّق بها. لتكون سمة يتميّز بها الإنسان المسلم الصادق النبيل.

ولقد كان الأنصار رضوان الله عليهم الرُّوّادَ الأوائل للإيثار بعد الرسول الكريم، إذ نزل فيهم قرآن يُتْلَى، يشيد بإيثارهم الفريد على وجه الزمان، الذي جعلهم منارة خالدة للأجيال الإنسانية، تعلّمها كيف يكون الجود،

---

(١) الحشر: ٩. فتح الباري ٨/٦٣١ كتاب التفسير: باب ويؤثرون على أنفسهم، وصحيح مسلم ٤/١٢ كتاب الأشربة: باب إكرام الضيف.

(٢) هو حاتم الطائي كما في العقد الفريد ١/٢٣٦.

وكيف يكون الإيثار، وذلك حين استقبلوا إخوانهم المهاجرين الذين لا يملكون شيئاً، فأعطوهم كل شيء:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾[١].

ولقد كانت حياة النبي ﷺ حافلة بالإيثار، وبذلك أصّله في نفوس المسلمين الأوائل، وركّزه في طباعهم وعاداتهم. فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأةً جاءَتْ إلى رسول الله ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنسوجَةٍ، فقالَتْ: نَسَجْتُها بِيَدَيَّ لِأَكْسُوَكَها، فَأَخَذَها النبي ﷺ مُحْتاجاً إليها، فَخَرَجَ إلينا وإنّها إزارُهُ، فقالَ فلانٌ: اكْسُنِيها، ما أَحْسَنَها! فقالَ: «نعمْ»، فجلَسَ النبيُّ ﷺ في المجلس، ثمّ رَجَعَ فَطَواها، ثم أرسلَ بها إليه. فقال له القومُ: ما أَحْسَنْتَ! لَبِسَها النبيُّ ﷺ مُحْتاجاً إليها، ثم سَأَلْتَهُ وعَلِمْتَ أَنّهُ لا يَرُدُّ سائلاً، فقال: إنّي واللّهِ ما سألْتُه لِأَلْبَسَها، إنّما سألْتُهُ لتكونَ كَفَني. قال سَهلٌ: فكانَتْ كَفَنَهُ»[٢].

وكان صلوات الله عليه تطيب نفسه وتقرّ عينه، إذ يرى ثمرات غرسه في الإيثار تؤتي أُكُلَها في حياة المسلمين، إذا ما دعا إليه داعٍ من جدب أو إقلال، فيعبر عن ذلك بقوله:

«إنّ الأشْعَرِيِّين إذا أَرْمَلُوا في الغَزْوِ، أو قَلَّ طَعامُ عِيالِهِمْ بالمَدينَةِ جَمَعوا ما كان عندَهمْ في ثَوْبٍ واحِدٍ، ثم اقْتَسَموهُ بينَهمْ في إناءٍ واحِدٍ

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) فتح الباري ٣/١٤٣ كتاب الجنائز: باب من استعد الكفن، و ٤/٣١٨ كتاب البيوع: باب النسّاج.

بالسَّوِيَّةِ، فهمْ منّي وأَنا مِنْهُم»[١].

فما أجمل الإيثار الذي عرفته الإنسانية عن الأنصار! وعرفته أيضاً عن الأشعريّين وأمثالهم من أجيال الإسلام! وما أعظم فضل الرسول الكريم الذي غرس بذوره في نفوس الجيل الأول من المسلمين والمسلمات، وتوارثته عنهم الأجيال المسلمة، حتى أصبح خليقة أصيلة من خلائق المجتمع الإسلامي.

تُخْضِعُ عاداتِها لِمَقاييسِ الإسْلامِ:

لا تخضع المرأة المسلمة البصيرة بأحكام دينها إلى كل عادة مألوفة، درج الناس عليها؛ فقد تكون العادة من الموروثات الجاهلية القديمة أو الحديثة التي لا يقرّها الإسلام، فهي غير مقبولة في نظر المسلمة، ولو أطبق الناس على الأخذ بها.

فالمرأة المسلمة لا تزيّن بيتها بالتماثيل ولا بتعليق الصّور، ولا تقتني الكلب في البيت إلّا لحراسة؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك، واشتدّت النصوص الصحيحة التي رُوِيَتْ عنه في تحريم ذلك كلّه تحريماً لا مجال للتساهل أو الترخّص فيه.

فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قالَ: «إنَّ الذينَ يَصْنَعونَ هذه الصُّوَرَ يُعَذَّبونَ يومَ القيامَةِ، يُقالُ لهمْ: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ»[٢].

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣١٠ باب الإيثار والمواساة.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٧٤١ كتاب الأمور المنهي عنها: باب تحريم الصور.

وعن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: قَدِمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً[١] لي بِقِرامٍ[٢] فيه تَماثيلُ، فلمّا رآهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ تَلَوَّنَ وَجْهُهُ! وقالَ: «يا عائِشَةُ، أَشَدُّ النّاس عَذاباً عندَ اللَّهِ يومَ القِيامَةِ الذينَ يُضاهونَ بِخَلْقِ اللَّهِ!» قالتْ: فَقَطَعْناهُ، فَجَعَلْنا مِنْهُ وِسادَةً أوْ وِسادَتَيْنِ»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ مُصَوِّرٍ في النّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَها نَفْسٌ، فَيُعذِّبُهُ في جَهَنَّمَ». قال ابن عباس: فإن كنتَ لا بدّ فاعلاً فاصْنَعِ الشَّجَرَ وما لا رُوحَ فيهِ[٤].

وعن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتاً فيهِ كَلْبٌ ولا صُورَةٌ»[٥].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: واعَدَ رسولَ الله ﷺ جِبْريلُ عليه السّلام في ساعةٍ يَأْتِيهِ فيها فجاءَتْ تلك الساعةُ ولم يَأْتِهِ! قالَتْ: وكانَ بِيَدِهِ عَصاً فَطَرَحَها مِنْ يَدِهِ، وهو يقولُ: «ما يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ولا رُسُلُهُ»، ثم التفَتَ، فإذا جَرْوُ كَلْبٍ تحتَ سَريره. فقالَ: «مَتَى دَخَلَ هذا الكَلْبُ؟» فَقُلْتُ: واللَّهِ ما دَرَيْتُ بهِ، فَأَمَرَ بِهِ فأُخْرِجَ، فجاءَهُ جِبْريلُ عليه السّلامُ، فقال

---

(١) أي نافذة صغيرة.

(٢) أي سِتْر.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٧٤٢ كتاب الأمور المنهي عنها: باب تحريم الصور.

(٤) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٧٤٢ كتاب الأمور المنهي عنها: باب تحريم الصور.

(٥) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٧٤٣ كتاب الأمور المنهي عنها: باب تحريم الصور.

رسولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَدْتَني فجلَسْتُ لكَ، ولمْ تأْتِني»، فقالَ: «مَنَعَني الكَلْبُ الذي كانَ في بيتِكَ، إنّا لا نَدْخُلُ بيْتاً فيهِ كَلْبٌ ولا صُورَةٌ»(١).

والنصوص في ذلك كثيرة، وكلها تحرّم نشر الصور ونصب التماثيل. ولقد كشفت الأيام عن حكمة ذلك التحريم، وبخاصة في هذا العصر الذي يسارع فيه المنافقون والمنافقات والمتزلفون والمتزلفات وأصحاب المطامع والشهوات إلى الطغاة يزيّنون لهم التمادي في طغيانهم، ومن ذلك إقامة التماثيل لهم في حياتهم أو بعد مماتهم، ليجعلوا منهم آلهة أو أنصاف آلهة، يتربّعون على عرش العظمة، ويلهبون ظهور المستضعفين والمستضعفات بالسِّياط.

إن الإسلام الذي جاء بعقيدة التوحيد، وحطّم أوثان الشرك والجاهلية منذ خمسة عشر قرناً، لَيَأْبى لهذه الأوثان أن تعود مرة أخرى إلى حياة المسلمين والمسلمات، باسم تخليد الزعيم الفلاني تارة، وباسم تكريم الفنّان الفلاني تارة أخرى، وباسم تعظيم العالم أو الشاعر أو الأديب الفلاني تارة ثالثة. والمجتمع الإسلامي مجتمع موحِّد، لا يعرف التعظيم والتقديس والتبجيل إلاّ لله، ومن هنا لا مكان فيه لمثل هذه الأوثان والأنصاب.

أما اقتناء الكلب، فلا مانع منه إذا كان لصيد أو ماشية أو أرض، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنِ اقْتَنَى كَلْباً إلاّ كَلْبَ صَيْدٍ أوْ ماشِيَةٍ، فإنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيراطانِ»(٢).

---

(١) صحيح مسلم ١٤/٨١ كتاب اللباس والزينة: باب تحريم تصوير الحيوان.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٧٤٤ كتاب الأمور المنهي عنها: باب تحريم اتخاذ الكلب إلاّ لصيد أو ماشية.

وأما اقتناء الكلاب على الطريقة الغربية في البيوت، والعناية بها وتدليلها، وتخصيص أطعمة وصابون (شامبو) لها، وإنشاء حمامات خاصة بها، إلى غير ذلك مما ينفق عليه الغرب والولايات المتحدة ملايين الدولارات في العام، فليس من الإسلام وعاداته السمحة في شيء. وإذا كانت ظروف القوم النفسية في الغرب، والحياة المادية الجافة التي يحيونها انحرفت بهم إلى هذا التطرّف في تربية الكلاب، ليعوّضوا بها عن عاطفة الحب الإنساني التي فقدوها في حياتهم الاجتماعية، فإن الحياة الاجتماعية في الإسلام ريّا بالعاطفة الإنسانية، ولا حاجة بها لمثل هذا الانحراف[١].

والمرأة المسلمة الواعية أحكام دينها لا تأكل ولا تشرب في آنية الذهب والفضة، مهما كانت ترفل في أذيال الغنى والسَّعَة والنعيم؛ لأن استعمال آنية الذهب والفضة حرام في شِرْعة الإسلام، نجد ذلك التحريم في عديد من أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة القاطعة.

فعن أم سَلَمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«الذي يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ إنّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نارَ جَهَنَّمَ»[٢].

وفي رواية لمسلم:

«إنّ الذي يأكلُ أو يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ»[٣]، وفي رواية

---

(١) انظر تحليلاً لهذا الانحراف ص: ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٧٨٨ كتاب الأمور المنهي عنها: باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة.

(٣) صحيح مسلم ١٤/٢٩ كتاب اللباس والزينة: باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة.

أيضاً: «مَنْ شَرِبَ في إناءٍ مَنْ ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، فإنَّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ ناراً مِنْ جَهَنَّمَ»(١).

إن المرأة المسلمة الواعية في كل مكان تعرض كل عادة من العادات المألوفة في مجتمعها على حكم الإسلام وقِيَمه ومفاهيمه، فما وافقه منها قبلته، وما خالفه اطّرحته ونبذته، سواءٌ أكان ذلك في الخطبة والزواج، أم في حياة البيت والأسرة والمجتمعات؛ فالعادات في الشعوب والأقطار الإسلامية كثيرة متباينة، والعبرة في مشروعية العادة وموافقتها للإسلام، لا في شيوعها وسريانها بين الأنام.

تَأْخُذُ بِأَدَبِ الإسْلامِ في الطَّعامِ والشَّرابِ:

تتميّز المرأة المسلمة النابهة بحرصها على الأخذ بأدب الإسلام في الطعام والشراب، فإذا ما رأيتَها على المائدة تتناول طعامها، أو رأيت ترتيبها لمائدتها، عرفتَها من الآداب الإسلامية التي أخذت نفسها بها في طعامها وشرابها وترتيب مائدتها.

فهي لا تبدأ الطعام إلاّ بعد أن تسمّي الله، وتأكل بيمينها، ومما يليها، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«سَمِّ اللَّهَ، وكُلْ بِيَمينكَ، وكُلْ مِمّا يَليكَ»(٢).

وإذا أُنْسِيَتْ أن تذكر اسم الله تعالى في أول طعامها استدركت ما فاتها،

---

(١) صحيح مسلم ١٤/ ٣٠ كتاب اللباس والزينة: باب تحريم استعمال أواني الذهب والفضة.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٩٤ كتاب آداب الطعام: باب التسمية في أوله والحمد في آخره.

فقالت: بسم الله أولَه وآخرَه، كما في الحديث الذي روته السيدة عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إذا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تعالى، فإنْ نَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعالَى في أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَه وآخِرَه»[١].

أما المسألة الثانية، فهي أكلها بيمينها، فالمسلمة المتأدبة بأدب الإسلام تأكل بيمينها، ولا تأكل بِشمالها. وقد جاء الأمر بالأكل باليمين، والنهي عن الأكل بالشِّمال، واضِحَيْنِ صَريحَيْنِ في أحاديث كثيرة، منها قولُ الرسول ﷺ:

«إذا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمينِهِ؛ وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمينِهِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يأكلُ بِشمالِهِ ويَشْرَبُ بِشمالِهِ»[٢].

وقولُه:

«لا يَأْكُلَنَّ أحدُكُمْ بِشمالِهِ، ولا يَشْرَبَنَّ بِشمالِهِ؛ فإن الشَّيطانَ يأكلُ بِشمالِهِ ويَشْرَبُ بِها»[٣].

وكان نافع يزيد فيها: «ولا يَأْخُذْ بِها ولا يُعْطِ بِها»[٤].

وكان الرسول ﷺ إذا رأى أحداً يأكل بِشماله نهاه ووعظه وأدّبه، وربما اشتدّ ودعا عليه إذا رأى منه كِبْراً وإصراراً على فعلته:

---

(١) رواه أبو داود ٣/٤٧٥ كتاب الأطعمة: باب التسمية، والترمذي ٤/٢٨٨ كتاب الأطعمة: باب ما جاء في التسمية على الطعام، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم ١٣/ ١٩١ كتاب الأشربة: باب آداب الطعام والشراب.

(٣) صحيح مسلم ١٣/ ١٩٢ كتاب الأشربة: باب آداب الطعام والشراب.

(٤) صحيح مسلم ١٣/ ١٩٢ كتاب الأشربة: باب آداب الطعام والشراب.

فعن سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكلَ عندَ رسولِ الله ﷺ بِشماله، فقال: «كُلْ بِيَمينِكَ». قالَ: لا أستطيعُ. قال: «لا استَطَعْتَ»! ما منَعَه إلاَّ الكِبْرُ! فما رَفَعها إلى فِيهِ[١].

ذلك أن الرسول الكريم كان يحب التيامن في كل شيء، ويحضّ علىٰ الأخذ به. وفي ذلك يروي الشيخان والإمام مالك عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بلبن قد شِيبَ بماء من البئر، وعن يمينه أعرابـي وعن يساره أبو بكر الصديق، فشرب، ثم أعطى الأعرابـي، وقال: «الأَيْمَنَ فَالأَيْمَنَ»[٢].

وأُتِيَ مرة بشراب، وكان عن يمينه غلام[٣]، وعن يساره أشياخ، فشرب ثم قال للغلام: الشَّرْبَةُ لك، فهل تتنازل عنها لهؤلاء الأشياخ؟ فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بسؤرك أحداً يا رسول الله، والحديث المروي في هذا عن سهيل بن سعد رضي الله عنه، ونصه:

«أُتِيَ رسول الله ﷺ بِشَرابٍ، فَشَرِب منهُ، وعن يمينه غلامٌ وعن يسارِهِ أَشْياخٌ، فقالَ لِلْغُلامِ: «أَتَأْذَنُ لي أَنْ أُعْطِيَ هؤلاءِ؟» فقال الغُلامُ: لا واللَّهِ، لا أُوثِرُ بِنَصِيبِـي منكَ أحداً، فَتَلَّهُ[٤] رسولُ اللَّهِ ﷺ في يَدِهِ»[٥].

إن هذه الشواهد والنصوصَ، وأمثالُها كثيرٌ، لَتَدُلُّ دلالة قاطعة على أن التَّيامُنَ أدبٌ هام جداً من آداب الإسلام، يأخذ الإنسان المسلم الحق به نفسه

---

(١) صحيح مسلم ١٣/ ١٩٢ كتاب الأشربة: باب آداب الطعام والشراب.

(٢) متفق عليه. انظر شرح السنة ١١/ ٣٨٥ كتاب الأشربة: باب البداءة بالأيمن.

(٣) هو ابن عباس.

(٤) أي وضعه.

(٥) متفق عليه. انظر شرح السنة ١١/ ٣٨٦ كتاب الأشربة: باب البداءة بالأيمن.

دونما تساهل أو ترخّص أو تراخٍ، وهذا ما كان عليه الصحابة والتابعون، لا يشذّ عن ذلك منهم أحد. ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعير هذا التيامن أهمية كبرى، ولا يتغاضى عمن يتساهل فيه. وفي إحدى جولاته على الرعية متفقداً أحوالهم رأى رجلاً يأكل بشماله، فقال له: يا عبد الله كل بيمينك، ورآه مرة ثانية يأكل بشِماله، فخفقه بالدِّرَّة، وقال له: يا عبد الله كل بيمينك، ورآه مرة ثالثة يأكل بشِماله، فخفقه بالدِّرَّة، وقال له بحدّة: يا عبد الله كل بيمينك، فأجاب الرجل: يا أمير المؤمنين إنها مشغولة، فقال عمر: وما شغلها؟ قال: شَغَلَها يومُ مُؤْتَةَ[1]، فبكى عمر، وأقبل على الرجل معتذراً مواسياً قائلاً له: مَنْ يُوَضِّئُكَ؟ من يقوم بحاجاتك؟ من يعينك على أمورك؟ ثم أمر بإنصافه ورعايته.

إن اهتمامَ أميرِ المؤمنين عمر رضي الله عنه بهذه الجزئية في سلوك رجل من الرعية ليؤكد أهميةَ هذه الجزئية، ودلالتَها الكبيرةَ على شخصية الإنسان المسلم، وتعبيرها عن هويته المتميّزة، وحرصَ عمر الشديدَ على تطبيقها في حياة المسلمين والمسلمات. ومن هنا لا يجوز التساهل فيها أو التغاضي عنها.

وأحب أن أسوق هذا الكلام إلى السيدات المسلمات اللواتي أخذن بنظام المائدة الغربية القاضي بجعل الشوكةِ على اليسار، والسّكّين على اليمين، ليقطع الآكلُ بيمينه، ويتناول اللقمة بيساره، فاتَّبعْنَهُ، دونما تعديل، فإذا هنّ يأكلن بيسارهنّ مخالفات بذلك هَدْي دينهنَّ، ولم يُكلّفْنَ أنفسَهنَّ أن يَنْقُلْنَ الشوكةَ إلى اليمين، والسكّين إلى اليسار، ليأكلن بأَيْمانِهنَّ خشية أن

(١) أي قُطِعَتْ في غزوة مؤتة.

يُخْدَشَ (الإتيكيت) الغربـي. وهذا لون من ألوان الهزيمة النفسية التي مُنِيَتْ بها أمتُنا أمام ما يَفِد إلينا من أشياء مستحدثة، نعكف على تطبيقها دونما تعديل أو تكييف يوائم شخصيتنا ودينَنا وقِيَمنا الأصيلة. والمرأة المسلمة الواعية بعيدة عن هذا التقليد الببغاوي الأعمى التافه الهزيل.

إن المرأةَ المسلمةَ الواعيةَ البصيرةَ المعتزّةَ بهَدْي دينها القويم وأدبه العالي الرفيع لَتعْمَد إلى الأكل باليمين، داعيةً النساء إلى ذلك، ولا تخجل أن تجهر به في المحافل والمجتمعات التي لا تزال تتمسّك بحرفية ما جاءنا من الغرب، حتى يتنبّه الغافلون والغافلات واللاّمبالون واللاّمباليات، ويثوبون جميعاً إلى رشدهم في اتباع هَدْي السنة النبوية المطهّرة في التيامن في الطعام والشراب.

أما المسألة الثالثة، فهي أكلها مما يليها، عملاً بأدب الإسلام في تناول الطعام. وقد جاء به الأمر النبوي أيضاً صريحاً واضحاً مع التسمية والأكل باليمين في أحاديث كثيرة، ومنها قوله فيما رواه عمر بن أبـي سلمة رضي الله عنه قال: كنتُ غلاماً في حجر رسول الله ﷺ(١)، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفَة(٢)، فقال لي رسول الله ﷺ:

«يا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وكُلْ بِيَمِينِكَ، وكُلْ مِمّا يَلِيكَ»(٣).

واللائق بالمرأة المسلمة الواعية المهذبة إذا تناولت طعامها بيدها، أن تتناوله برفق ولطف وتؤدة، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، إذ كان يتناول

---

(١) أي تحت نظره.

(٢) أي تتحرك وتمتد إلى نواحي الصحفة، وهي الإناء.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٩٩ كتاب آداب الطعام: باب الأكل مما يليه.

طعامه بأصابع ثلاث، ولا يغمس يده كلها في الطعام على نحو تشمئز منه الأنظار وتنفر النفوس، وهذا ما حكاه كعب بن مالك رضي الله عنه، قال:

«رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يأْكُلُ بِثَلاثِ أَصابِعَ، فإذا فَرَغَ لَعِقَها»[١].

وكان ﷺ يأمر بلَعْق الأصابع وسَلْت الصَّحْفَة[٢]، وذلك فيما يُرْوَى عن جابر رضي الله عنه من أن رسول الله ﷺ أمر بلَعْق الأصابع والصَّحْفَة وقال:

«إنَّكُمْ لا تَدْرُون في أَيِّ طَعامِكُمُ البَرَكَة»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا أكلَ طَعاماً لَعِقَ أصابعَه الثلاثَ، وقال: «إذا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْها، ولْيُمِطْ عَنْها الأذَى، ولْيَأْكُلْها، ولا يَدَعْها لِلشَّيْطانِ» وأَمَرَنا أن نَسْلُتَ القَصْعَةَ وقالَ: «إنكمْ لا تَدْرونَ في أيِّ طَعامِكُمُ البَرَكَة»[٤].

وفي هذا الهَدْي النبوي الكريم، فضلاً عن التماس البركة، حضٌّ على نظافة الأيدي والآنية، ومَسْحُها من بقايا الأطعمة أليقُ بالإنسان المهذَّب النظيف، وأدلّ على نظافته وترتيبه وذوقه المرهف. وقد وصل الغرب اليوم إلى الأخذ بهذه العادة الحسنة التي قررها الرسول الكريم منذ خمسة عشر قرناً؛ فالأوربيون اليوم يمسحون الصحون، ولا يَدَعون فيها شيئاً.

وبَدَهِيٌّ أن المرأةَ المسلمةَ المهذَّبةَ المرهفةَ الحِسِّ المتأدبةَ بأدب الإسلام لا تتمطَّق في أكلها، ولا تشخر، ولا تنفخ أثناء مضغها الطعام،

---

(١) صحيح مسلم ١٣/ ٢٠٤ كتاب الأشربة: باب استحباب لعق الأصابع.

(٢) أي مسحها.

(٣) صحيح مسلم ١٣/ ٢٠٧ كتاب الأشربة: باب استحباب لعق الأصابع.

(٤) صحيح مسلم ١٣/ ٢٠٧ كتاب الأشربة: باب استحباب لعق الأصابع.

مُحدِثةً أصواتاً مُنفِّرةً مزعجةً، ولا تكبرّ اللقمة بحيث يصبح منظر فمها منتفخاً مزرياً قبيحاً مخلاً بجمال الأنوثة ورقتها ولطفها.

حتى إذا فرغت من طعامها، لهج لسانها بالحمد لله عز وجل بالصيغة الرائعة التي علّمنا إياها الرسول الكريم، شاكرةً لله نعمته، ملتمسةً منه أجر الحامدين ومثوبة الشاكرين.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال:

«الحمدُ لِلَّهِ كَثيراً طَيِّباً مُبارَكاً فيهِ، غيرَ مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنىً عَنْهُ، ربَّنا»(١).

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قَالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ أَكَلَ طَعاماً فقالَ: الحمدُ لِلَّهِ الذي أَطْعَمني هذا ورَزَقَنيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ منّي ولا قُوّةٍ، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

ولا تعيب المرأة المسلمة المتأدّبة بأدب الإسلام الطعام مهما كان، أَخْذاً بالهَدْي النبوي في ذلك، وجَرْياً على فعل الرسول ﷺ حين يأتيه الطعام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عابَ رسولُ اللَّهِ ﷺ طَعاماً قَطُّ: إنِ اشْتَهاهُ أَكَلَهُ، وإنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ»(٣).

وأما آدابها في الشراب فمستمدّة أيضاً من أدب الإسلام الذي أدّب الإنسان، فأحسن تأديبه في كلّ شأن من شؤون الحياة.

---

(١) فتح الباري ٩/ ٥٨٠ كتاب الأطعمة: باب ما يقول إذا فرغ من طعامه.

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٦٣ كتاب اللباس باب (١) والترمذي ٥/ ٥٠٨ كتاب الدعوات: ٥٦، وقال: حديث حسن.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١١/ ٢٩٠ كتاب الأطعمة: باب لا يعيب الطعام.

فهي تشرب على دفعتين أو ثلاث، بعد التسمية، ولا تتنفّس في الإناء، ولا تشرب من فم السقاء ما أمكنها ذلك، ولا تنفخ في الشراب، وتشرب قاعدة إن استطاعت.

أما الشرب على دفعتين أو ثلاث، فهو ما كان عليه الرسول الكريم، كما أخبر بذلك أنس رضي الله عنه بقوله: «كان رسول الله ﷺ يتنفّس في الشراب(١) ثلاثاً»(٢).

ولقد نهى الرسول الكريم عن الشراب دفعة واحدة بقوله:

«لا تَشْرَبوا واحِداً كَشُرْبِ البَعيرِ، ولكن اشْرَبوا مَثْنَى وثُلاثَ، وسَمُّوا إذا أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ، واحْمَدوا إذا أَنْتُمْ رَفَعْتُمْ»(٣).

ونهى عن النفخ في الشراب، وجاء ذلك في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ نَهَى عن النَّفْخِ في الشَّراب، فقال رجلٌ: أَرَى القَذاةَ فيه، قالَ النبيُّ ﷺ: «فأَهْرِقْها»، قالَ: إني لا أَرْوَى مِنْ نَفَسٍ واحِدٍ، فقالَ الرسولُ ﷺ: «فَأَبِنِ القَدَحَ عَنْ فِيكَ ثمّ تَنَفَّسْ»(٤).

ومن استعراض الأحاديث الواردة في أدب الشراب يتبين أن الأحسنَ صنعاً والأمثلَ طريقةً ألا تشرب المسلمة من فم السقاء ما أمكنها ذلك، وأن تشرب قاعدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فذلك أمثل وأكمل وأفضل، كما

---

(١) أي يتنفّس خارج الإناء.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٠٦ كتاب آداب الطعام: باب في آداب الشراب.

(٣) رواه الترمذي ٤/ ٣٠٢ كتاب الأشربة: ١٣، وقال: حديث حسن.

(٤) رواه الترمذي ٤/ ٣٠٤ كتاب الأشربة: ١٥، وقال: حديث حسن صحيح.

تدلّ على ذلك الأحاديث الواردة في هذا الموضوع، وإن كان الشرب من فم السقاء وفي حالة القيام جائزين؛ لأن الرسول ﷺ شرب في هذه الحالات جميعاً.

تَلْتَزِمُ بِتَحِيَّةِ الإِسْلامِ:

ومن آداب المرأة المسلمة التي تتميّز بها: التزامها بتحية الإسلام، تلقيها على مَنْ تلقى من المسلمين والمسلمات، حسب قواعد السلام التي نظّمها الإسلام، إذ أمر بإفشاء السلام في عديد من النصوص من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

وإفشاء السلام في الإسلام أدب إسلامي أصيل مُحَدَّد منظَّم، أَمَرَ به ربُّ العزة في كتابه الكريم، ونظّمه ووضع أصوله وقواعده رسولُه الأمين في أحاديثه الثّرّة الغزيرة التي أفردها المحدِّثون بباب مستقلّ سموه «كتاب السلام»، أو «باب السلام».

لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالسلام في محكم كتابه فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾[١].

وأمر بردّ التحية بأحسن منها أو بمثلها، ومن ثَمّ كان واجباً على كل من سمع تحية أن يردّها ولا يتجاهلها أو يتهاون في ردّها:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾[٢].

---

(١) النور: ٢٧.

(٢) النساء: ٨٦.

وجاء الهَدْي النبوي ثرّاً غزيراً يحضّ بحرارة على إفشاء الإسلام وإسماعه مَنْ نعرف ومَنْ لا نعرف؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ الإسلامِ خَيْرٌ؟ قال:

«تُطْعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرَأُ السَّلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[١].

وكان السلام إحدى الوصايا السبع التي أمر رسول الله ﷺ صحابته بها، ليلتزموها في حياتهم الاجتماعية، وتلتزمها الأمة الإسلامية من بعدهم، وهي كما عدّدها البراء بن عازب رضي الله عنه، قال:

«أَمَرَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ: بِعِيادَةِ المَرِيضِ، واتِّباعِ الجَنائِزِ، وتَشْمِيتِ العاطِسِ، ونَصْرِ الضَّعِيفِ، وعَوْنِ المَظْلومِ، وإفْشاءِ السَّلامِ، وإبْرارِ المُقْسِمِ»[٢].

لقد أعطى الرسول الكريم قضية السلام جانباً كبيراً من اهتمامه، وحضّ على تطبيقه، وحبّب فيه، في قسم كبير من أحاديثه، لما كان يعلم من أثره الكبير في تفجير ينابيع الحب في النفوس، وتوثيق عرى القلوب، وإحكام وشائج الودّ والتقارب والتصافي بين الأفراد والجماعات، حتى إنه جعله سبب المحبة التي تفضي إلى الإيمان، الموصل إلى الجنة، وذلك في قوله:

«والذي نَفْسي بِيَدِهِ لا تَدْخُلون الجَنَّةَ حتّى تُؤْمِنوا، ولا تُؤْمِنوا حتى تَحابّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُموهُ تَحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»[٣].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٢/ ٢٦٠ كتاب الاستئذان: باب فضل السلام.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٣٧ كتاب السلام: باب فضل السلام، واللفظ من إحدى روايات البخاري.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٣٥ كتاب الإيمان: باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلاَّ المؤمنون.

وجعل أَوْلَى الناس بالله ومرضاته ونعمه وخيراته مَنْ يبدأ الناسَ بالسلام: «إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلامِ»[١].

ولذلك كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يغدو إلى السوق فلا يمر على أحد إلاَّ سلَّم عليه. وسئل يوماً: ما تصنع في السوق، وأنت لا تقف على البَيْع، ولا تسأل عن السِّلَع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السّوق؟ فقال: «إنّما نَغْدو من أَجْلِ السَّلام على مَنْ لَقِينا»[٢].

والسلام في الإسلام ليس تقليداً اجتماعياً، تعاور على وضعه وتنظيمه البشر في عصورهم وبيئاتهم المختلفة، فهو يتغير ويتطور تبعاً للبيئة الاجتماعية أو العصر الذي وُضِع فيه، وإنما هو أدب إسلامي محدَّد في صيغته وقواعده وأصوله، كما سلف القول، وله صيغة واحدة يلتزمها المسلمون والمسلمات الواعون آداب دينهم، الحريصون على تطبيق هَدْيه المتميّز الأصيل، وهي: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، يقولها المبتدىء أو المبتدئة بالسلام هكذا بضمير الجمع، ولو كان المسلَّم عليه واحداً أو واحدة، ويقول المجيب أو المجيبة: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

والمرأة المسلمة الحريصة على تميّز شخصيتها المسلمة تستمسك بصيغة هذه التحية المباركة، وتحية الإسلام الأصيلة، ولا تبغي عنها بديلاً.

ولا يغني عن هذه الصيغة الشرعية الأصيلة صِيَغٌ أخرى قديمة مثل عِمْ

---

(١) رواه أبو داود بإسناد جيد ٥/ ٣٨٠ كتاب الأدب: باب في فضل من بدأ السلام.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/ ٤٦٥ باب من خرج يسلِّم ويسلَّم عليه.

صَباحاً، أو صِيَغٌ مستحدَثَة كصباح الخير، التي هي ترجمة حرفية لـ Good morning بالإنكليزية، أو Bonjour بالفرنسية، وما إلى ذلك من صيغ تفشّت في مجتمعات المسلمين المتخلِّفين عن هَدْي دينهم القويم.

إن تحية الإسلام هذه هي التحية التي اصطفاها الله تعالى لخلقه منذ خلق آدم، علّمه إيّاها، وأمره أن يحيّـي بها الملائكة، وأراد لذريته على مدى عصورها واختلاف أمصارها أن تتمسّك بها، لما تحمل من معنى السلام، أحبِّ شيء للإنسان في كل زمان ومكان. ولم تُبْقِ على هذه التحية الرّبانية الأصيلة سوى أمة الإسلام التي بقيت على المِلّة الحنيفيّة السمحة، لم تُغيِّر فيها ولم تُبَدِّل، ولم تنحرف عن هَدْيها ولم تَمِلْ، وفي ذلك يقولُ الرسولُ ﷺ:

«لمّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ﷺ قال: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولئِكَ ـ نَفَرٍ مِنَ المَلائكةِ جُلوسٍ ـ فَاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ، فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتحيّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فقالَ: السَّلامُ عليكمْ، فَقالوا: السَّلامُ عليكَ ورحمةُ اللَّهِ، فَزادُوهُ: ورَحْمَةُ اللَّهِ»(١).

لا بدع إذاً أن تكون هذه الصيغةُ هي التحيةَ المباركة الطيبة؛ لأنها جاءتنا من عند الله تعالى، وأمرنا أن نتخذها تحيتنا، ولا نعدل عنها إلى سواها:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾(٢).

ومن أجل ذلك التزم بصيغتها جبريلُ عليه السلام حين قرأ عائشة

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٣٧ كتاب السلام: باب في فضل السلام.

(٢) النور: ٦١.

السلام، وكذلك التزمت السيدة عائشة رضي الله عنها بصيغة الردّ، كما جاء في الحديث المتفق عليه:

«عن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «هذا جِبْريلُ يَقْرأُ عليكِ السَّلامَ قالَتْ: قلتُ: وعليهِ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكاتُهُ»[١].

وللسلام في الإسلام قواعد أيضاً، تحرص المسلمة الملتزمة بهَدْي دينها على إتقانها وتطبيقها بدقة في حياتها الاجتماعية، وتتلخص هذه القواعد في الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ على الماشي، والماشي على القاعِدِ، والقَليلُ على الكَثيرِ»[٢]. وفي رواية للبخاري: «والصَّغيرُ على الكَبيرِ»[٣].

والسلام يكون على الرجال وعلى النساء أيضاً، يشهد لذلك حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ مَرَّ في المسجد يوماً، وعُصْبَةٌ من النِّساءِ قُعودٌ فأَلْوَى بيدِهِ بِالتَّسْليمِ»[٤].

ويكون السلام أيضاً على الصِّبْيان، تعويداً لهم على آداب التحية والسلام؛ فعن أنس رضي الله عنه أنه مَرَّ على صِبْيان فسَلَّمَ عليهم، وقال: «كان رسولُ الله ﷺ يفعلُه»[٥].

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٣٩ كتاب السلام: باب كيفية السلام.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٠ كتاب السلام: باب في آداب السلام.

(٣) رواه البخاري. انظر رياض الصالحين: ٤٤٠ كتاب السلام: باب في آداب السلام.

(٤) رواه الترمذي ٥/٥٨ في كتاب الاستئذان: باب ما جاء في التسليم على النساء، وقال: حديث حسن.

(٥) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٢ كتاب السلام: باب السلام على الصبيان.

ومن قواعد السلام وآدابه في الإسلام أن يُلْقَى في الليل برِفْق وتُؤَدَة وخَفْض صوت، بحيث يسمعه اليقظان، ولا يُوقِظ الوَسْنان، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ فيما يرويه المقداد رضي الله عنه في حديثه الطويل، قال:

«كُنّا نَرْفَعُ لِلنَّبيِّ ﷺ نَصيبَهُ من اللَّبَنِ، فَيَجيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْليماً لا يُوقِظُ نائِماً، ويُسْمِعُ اليَقْظانَ، فجاءَ النبيُّ ﷺ فَسَلَّمَ كما كانَ يُسَلِّمُ»(١).

ويكون السلام عند الدخول إلى المجلس وحين القيام منه. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«إذا انْتَهى أَحَدُكُمْ إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فإذا أَرادَ أَنْ يَقومَ فَلْيُسَلِّمْ، فلَيْسَتِ الأولى بِأحقَّ مِنَ الآخِرَة»(٢).

والمرأة المسلمة الواعية المتميزة بخلقها الإسلامي الأصيل تستوعب هذا التوجيه النبوي العالي في السلام وآدابه، وتطبّقه بدقة في حياتها الخاصة والعامة، وتحضّ على تطبيقه والالتزام بقواعده.

لا تَدْخُلُ غيرَ بَيْتِها إلاَّ باسْتِئْذانٍ:

إن المرأة المسلمة التي نهلت من معين الإسلام الصافي النمير لا تدخل بيتاً غير بيتها قبل أن تستأذن، وتسلّم على أهل ذلك البيت. وهذا الاستئذان أمر ربّاني، لا يجوز التهاون أو التساهل في شأنه أو التغاضي عنه:

---

(١) صحيح مسلم ١٤/١٤ كتاب الأشربة: باب إكرام الضيف. وانظر رياض الصالحين: ٤٣٩..

(٢) رواه أبو داود ٥/٣٨٦ في كتاب الأدب: باب في السلام، والترمذي ٥/٦٢ في كتاب الاستئذان: ١٥، وقال: حديث حسن.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ(١) وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٢٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾(٢).

ولا يدور في خَلَد المرأة المسلمة أن تستأذن للدخول إلى بيت لا يجوز لها الدخول إليه، كأن يكون بيتاً ليس فيه سوى رجال أجانب. فاستئذانها يكون للدخول إلى النساء، أو إلى مَنْ يجوز له رؤيتها من الرجال، ولا بد منه، تنفيذاً لأمر الله ورسوله.

وللاستئذان آداب حرص الإسلام على تجليتها للمسلمين والمسلمات، وأمرهم بالتحلّي بها كلما قادتهم أقدامهم إلى زيارة إنسان.

وأولها: ألا تقف المستأذنة أمام الباب، بل تأخذ يمنة أو يسرة، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ؛ فعن عبد الله بن بُسْر، صاحب النبي ﷺ: «أنَّ النبيَّ ﷺ إذا أتَى باباً يريدُ أن يستأذنَ لم يَسْتَقْبِلْهُ، جاءَ يَميناً أو شِمالاً، فإن أُذِنَ له، وإلاّ انْصَرَفَ»(٣).

ذلك أن الاستئذان جُعِلَ من أجل البصر، كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما جُعِلَ الاسْتِئْذان مِنْ أَجْلِ البَصَرِ»(٤).

---

(١) أي تستأذنوا.

(٢) النور: ٢٧، ٢٨، ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/٥١٣ باب كيف يقوم عند الباب.

(٤) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٥ كتاب السلام: باب الاستئذان وآدابه.

ومن هنا لا يجوز للمستأذن، رجلاً كان أو امرأة، أن يقف في مواجهة الباب حيث ينصبّ البصر حين فَتْحِه.

وثانيها: السلام فالاستئذان، ولا يصح الاستئذان قبل السلام؛ بهذا جاء الهَدْي النبوي العالي في حديث رِبْعيّ بن حِراش، قال: «حدّثنا رجلٌ من بني عامر أنه استأذنَ على النبيِّ ﷺ، وهو في بيتٍ، فقالَ: أَأَلِجُ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لِخادِمِه: «اُخْرُجْ إلى هذا فَعَلِّمْهُ الاستِئْذانَ، فقُلْ لهُ: قُلْ: السَّلامُ عليكمْ، أَأَدْخُلُ؟» فَسَمِعَهُ الرجلُ فقالَ: السَّلامُ عليكمْ، أَأَدْخُلُ؟ فأَذِنَ له النبيُّ ﷺ، فَدَخَلَ»[١].

وثالثها: أن تُسَمِّيَ نفسَها بما تُعْرَفُ به من اسم أو كنية، إذا قيل لها: مَنْ أنتِ؟ ولا تقول كلمة غامضة مثل: أنا، ونحوها؛ فقد كره النبي ﷺ أن يجيب الطارق بكلمة أنا التي لا تفصح عن هوية صاحبها وشخصيته، وأمر بذكر الاسم الصريح عند السؤال.

عن جابر رضي الله عنه قال: أتيتُ النبي ﷺ، فَدَقَقْتُ البابَ، فقال: «مَنْ هذا؟» فقلتُ: أنا، فقال: أنا أنا؟! كأنّهُ كَرِهَها»[٢].

لقد علّمنا الرسول الكريم بذلك أن السنة في أدب الاستئذان ذكرُ الاسم الصريح، وهذا ما كان عليه هو وصحابته الأكرمون من الرجال والنساء.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: خرجتُ ليلةً من اللّيالي، فإذا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/٥١٨ باب إذا قال: أدخلُ؟ ولم يسلّم. وانظر رياض الصالحين: ٤٤٥.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٧ كتاب السلام: باب في بيان أن السنة أن يسمي المستأذن نفسه.

رسولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشي وَحْدَهُ، فجعلتُ أَمْشي في ظِلِّ القَمَرِ، فالتَفَتَ فرآني، فقالَ: : «مَنْ هذا؟» فقلتُ: أبو ذَرّ»[١].

وعن أمّ هانِيء رضي الله عنها قالتْ: أتيتُ النبيَّ ﷺ، وهو يغتسلُ، وفاطمةُ تَسْتُرُهُ، فقالَ: «مَنْ هذهِ؟» فقلتُ: «أنا أُمُّ هانِيء»[٢].

ورابعها: أن يرجع إذا قيل له: ارجع، دون أن يجد في نفسه شيئاً من غضاضة؛ إذ بذلك جاء أمر الله في كتابه العزيز:

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[٣].

وبذلك أيضاً جاء الهَدْي النبوي العالي، مبيناً أن الاستئذان ثلاثٌ، فإن أُذِنَ للمستأذن دخل، وإلاّ رجع، وذلك في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الاسْتِئْذانُ ثَلاثٌ، فإنْ أُذِنَ لَكَ[٤]، وإلاّ فَارْجِعْ»[٥].

واستأذن أبو موسى الأشعري مرة على عمر فلم يأذن، فانصرف، فأرسل إليه عمر، ودار بين الاثنين حديث حول الاستئذان والرجوع، من المفيد إيرادُه بنصّه، ليطّلع القارىء على دِقَّةِ الصحابة الكرام في تقصّي هَدْي الرسول الكريم، وحِرْصِهِمْ على وَضْعِه موضعَ التطبيق، قال أبو موسى:

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٧ كتاب السلام: باب في بيان أن السنة أن يسمي المستأذن نفسه.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٧ كتاب السلام: باب في بيان أن السنة أن يسمي المستأذن نفسه.

(٣) النور: ٢٨.

(٤) أي فإن أُذِنَ لك فَادْخُلْ.

(٥) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٥ كتاب السلام: باب في الاستئذان وآدابه.

«استأذنتُ على عُمَرَ فلم يُؤْذَنْ لي ــ ثلاثاً ــ فأدْبَرْتُ، فأرسلَ إليَّ، فقالَ: يا عبدَ اللَّهِ، اشتدَّ عليكَ أن تَحْتَبِسَ على بابي؟ اعْلَمْ أنَّ النّاسَ كذلكَ يشتدُّ عليهِمْ أن يَحْتَبِسوا على بابِكَ، فقلتُ: بلِ اسْتَأْذَنْتُ عليكَ ثلاثاً، فلم يُؤْذَنْ لي، فرجعتُ [وكُنّا نُؤْمَرُ بذلكَ]. فقالَ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هذا؟ فقلتُ: سمعتُه من النبيِّ ﷺ، فقال: أَسَمِعْتَ من النبيِّ ﷺ ما لم نسمعْ؟ لَئِنْ لَمْ تأْتِني على هذا بِبَيِّنَةٍ لأَجْعَلَنَّكَ نكالاً، فخرجتُ حتى أتيتُ نَفَراً من الأَنْصار جُلوساً في المسجدِ، فسألتُهم، فقالوا: أَوَيَشُكُّ في هذا أحدٌ؟ فأخبرتُهمْ ما قالَ عمرُ، فقالوا: لا يقومُ معكَ إلاَّ أَصْغَرُنا. فقامَ معي أبو سَعيد الخُدْرِيّ ــ أو أبو مسعود ــ إلى عمرَ، فقالَ: خَرَجْنا مع النبيِّ ﷺ، وهو يُريدُ سَعْدَ بنَ عُبادَة، حتى أتاه، فسلَّمَ، فلم يُؤْذَنْ لهُ، ثم سَلَّمَ الثّانيةَ ثم الثّالثةَ، فلم يُؤْذَنْ لَهُ، فقالَ: قَضَيْنا ما عَلَيْنا. ثم رَجَعَ، فأدركَهُ سعد، فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ ما سلّمتَ مِنْ مَرّةٍ إلاَّ وأَنا أسمعُ وأَرُدُّ عليكَ، ولكنْ أَحْبَبْتُ أنْ تُكْثِرَ من السَّلامِ عليَّ وعلى أهلِ بيْتي. فقالَ أبو موسى: واللَّهِ إنْ كنتُ لأَميناً على حديثِ رسولِ الله ﷺ، فقال: أَجَلْ، ولكنْ أَحْبَبْتُ أنْ أَسْتَثْبتَ»[1].

وفي رواية لمسلم أيضاً أن عمر قال معاتباً نفسَه حين ثبت له الحديث: «خَفِيَ عَلَيَّ هذا مِنْ أَمْرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. أَلْهاني عنه الصَّفْقُ بالأَسْواقِ». يعني الخروجَ إلى التِّجارة في الأسواق[2].

---

(١) فتح الباري ١١/٢٦ كتاب الاستئذان: باب التسليم والاستئذان، وصحيح مسلم ١٤/١٣٠ كتاب الآداب: باب الاستئذان، وانظر: الأدب المفرد، الحديث ١٠٧٣.

(٢) صحيح مسلم ١٤/١٣٤ كتاب الآداب: باب الاستئذان.

هذه هي آداب الاستئذان وقواعده في الإسلام، ولا ريب أن المرأة المسلمة النابهة الحريصة على التأدب بأدب الإسلام تتمثّلها، وتطبقّها في واقع حياتها كلما طرقت باباً، تستأذن للدخول على أهله، وتعلّم هذه الآداب أبناءها وبناتها أيضاً.

تَجْلِسُ حَيْثُ يَنْتَهِي بِها المَجْلِسُ:

ومن أدب المرأة المسلمة التي استنارت بهَدْى الإسلام: جلوسُها حيث ينتهي بها المجلس، كلما غَشِيَتْ مجلساً، فيه جالسات سبقنها إليه. وإنه لأدب اجتماعي عالٍ مُسْتَقىً من هَدْي الرسول الكريم القولي والعملي، يجعل كل مَنْ تَحلَّى به آية في الذوق المرهف والرقي الاجتماعي والدماثة الخلقية.

إن المرأة المسلمة المهذَّبة بهذا الأدب الراقي لا تتخطَّى الجالسات، ولا تزاحمهنّ في مجالسهنّ، ليفسحن لها مكاناً بينهنّ، وهي في ذلك تتبع السنة الاجتماعية القويمة التي علّمها رسول الله ﷺ صحابته الكرام حين كانوا يغشون مجلسه الكريم.

فعن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه، قال: «كنا إذا أتينا النبيَّ ﷺ جلس أَحَدُنا حيث ينتهي»(١).

والمرأة المسلمة النبيهة تتحاشى إقحام نفسها بين اثنتين، تفرّق بينهما إلاَّ إذا دعت إلى ذلك ضرورة، وبإذنهما؛ ذلك أن التفريق بينهما بغير إذنهما مما نهى عنه الرسول الكريم وحذّر منه:

---

(١) رواه أبو داود ٥/١٦٤ في كتاب الاستئذان: ١٦، والترمذي ٥/٧٣ كتاب الاستئذان: ٢٩، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أنْ يُفَرِّقَ بينَ اثْنَيْنِ إلاَّ بِإِذْنِهِما»[١].

إن إقحام المرأة نفسها بين اثنتين، سواءٌ أكان ذلك في مجلس أم في غير مجلس، من الأمور المستكرهة المستهجنة التي اشتدّ الإسلام في تبيان قبحها، والتنبيه إلى تجنّبها. والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة جداً، وقد وردت في صيغة التذكير طبعاً، لتنبيه الرجال إلى هذه الآداب التي وضعها رسول الله ﷺ، وهو معهم. ولكنها جميعاً تنسحب على النساء أيضاً؛ فتشريعه صلوات الله عليه للمسلمين جميعاً، رجالاً ونساءً على السواء، كما هو معروف، وجميعهم مكلّفون بتنفيذ أمره، والأخذ بهَدْيه الشريف.

من هذه الأحاديث ما يرويه سعيد المقبريّ، يقول: «مررتُ على ابن عمرَ ومعه رجلٌ يتحدّث، فقمتُ إليهما، فَلَطَمَ في صَدْري فقال: إذا وَجَدْتَ اثْنَيْنِ يتحدّثان فلا تَقُمْ مَعَهما، ولا تجلسْ معَهما، حتى تستأذِنَهما، فقلتُ: أَصْلَحَكَ اللّهُ يا أبا عبدِ الرحمن، إنّما رجوتُ أنْ أسمعَ منكما خيراً»[٢].

وقد تقوم للقادمة إحدى الجالسات لتجلسها مكانها، فالأكرم والأفضل والأمثل ألاّ توافق القادمة على الجلوس فيه وهو أشبه بما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يُقيمَنَّ أحدُكمْ رجلاً من مَجْلِسِه، ثمّ يَجْلِس فيه، ولكنْ تَوَسَّعوا

---

(١) رواه أبو داود ٥/١٧٥ كتاب الأدب: ٢٤، والترمذي ٥/٤٤ كتاب الأدب: ١١، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/ ٥٨٠ باب إذا رأى قوماً يتناجون فلا يدخل معهم.

وتَفَسَّحوا»[١]. وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه[٢].

والمرأة المسلمة تتحرى في مثل هذه المواقف والمناسبات هَدْي الإسلام الحنيف، وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فتفوز بالأدب الاجتماعي العالي المحبَّب للناس، وتغنم ثواب الله عز وجل باتباعها سنة رسوله الأمين ﷺ.

لا تُناجي امرأةٌ ثانيةً إذا كُنَّ ثلاثاً:

لقد جاءت تعاليم الإسلام لتصوغ الإنسان الراقي المرهف الحسّ، الدقيق الملاحظة، المقدّر شعورَ الآخرين. وقد وضع المشرِّع الحكيم لتحقيق ذلك القواعد الأخلاقية والأساليب الاجتماعية، وجعلها من صلب الدين وصميمه، وأمر بالتحلّي بها وتطبيقها في واقع الحياة.

ومن تلك القواعد والأساليب التي رسمها رسول الله ﷺ: ألا يتناجى اثنان وبينهما ثالث:

«إذا كُنْتُمْ ثَلاثَةً، فلا يَتَناجَ اثْنانِ دونَ الآخَر، حتّى تخْتَلِطوا بالنّاسِ، مِنْ أَجْلِ أنَّ ذلك يُحْزِنُهُ»[٣].

---

(١) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٢/٢٩٦، ٢٩٧ كتاب الاستئذان: باب لا يقيم الرجل من مجلسه إذا حضر.

(٢) صحيح مسلم ١٤/١٦١ كتاب السلام: باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٩٠ كتاب البر والصلة: باب لا يتناجى اثنان دون الثالث.

ومن هنا فإن المرأة المسلمة التي أرهف الإسلام مشاعرها، وربّى فيها الذوق الاجتماعي العالي، لا تُقْبِلُ على واحدة، فتخصّها بالحديث، وبينهما ثالثة، تقف منفردة مستوحشة متضايقة، بل تحرص على شعور هذه الأخت الثالثة، وتضعه في حسابها، مهما تكن الظروف. فإن كان هناك داعٍ للحديث بين الاثنتين، استأذنت الثالثة، وأوجزت في الحديث، واعتذرت إليها.

هذا هو خلق المرأة المسلمة التي عبّت من هَدْيِ الإسلام الحنيف، فتزودت بالحصافة والكياسة واللباقة، وهذا هو أسلوبها الاجتماعي الراقي في التعامل مع الأخريات، اكتسبته من هَدْيِ دينها ومن سِيَر وأخبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين تغلغل الإسلام في حنايا نفوسهم، وخالطت بشاشتُه وأخلاقُه دماءهم، حتى أصبحوا لا يغفلون عن مثل هذه الأمور الحساسة في تعاملهم مع الناس، تشهد لذلك الآثار الكثيرة التي تصف سلوكهم الاجتماعي الراقي، ومراعاتهم للمشاعر الإنسانية. ومنها ما رواه الإمام مالك في الموطّأ عن عبد الله بن دينار، قال:

«كنتُ أنا وابنُ عُمَرَ عندَ دارِ خالدِ بنِ عُقْبَةَ التي في السُّوق، فجاءَ رجلٌ يريد أن يُناجِيَه، وليسَ معَ ابنِ عمرَ أحدٌ غَيْري، فَدَعا ابنُ عمرَ رَجُلاً آخر، حتّى كنّا أربعةً، فقالَ لي ولِلرَّجلِ الثالثِ الذي دَعا: اسْتَأْخِرا شَيْئاً، فإنّي سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «لا يَتَناجَ اثْنانِ دونَ واحِدٍ»[1].

إن المرأة المسلمة المتتبّعة هَدْيَ دينها وتطبيقاته الراقية في خير القرون لتقف متمثّلة صنيع ابن عمر رضي الله عنه، فإنه لم يرض أن يستمع إلى رجل جاء يناجيه من عُرْض الطريق فجأة، إذ وجد نفسه أمام ثالث قد يتأذّى من

(١) الموطّأ ٢/٩٨٨ كتاب الكلام (٦).

إقصائه عنهما، لم يرضَ أن يستمع إلى سائله حتى استدعى رابعاً، وأفهم الجميع أن هذه سنّةُ رسول الله ﷺ، مردّداً على مسامعهم الحديث الشريف، تأكيداً للسامعين أن هذا هو الموقف الذي ينبغي أن يقفوه في مثل هذه الحالة، حرصاً على مشاعر الناس، واتباعاً لسنّة النبي ﷺ.

فما أرقى هذا الأدبَ الاجتماعيَّ الذي حضّ عليه الإسلام! وما أعظمَ تكريمَ الإسلام للإنسان! وما أدقَّ احترامَه لمشاعره وأحاسيسه!

تُجِلُّ الكَبيرةَ وصاحِبَةَ الفَضْلِ:

لقد جاءت تعاليم الإسلام بطائفة كبيرة من القواعد الأخلاقية الراقية التي تغرس في شخصية الإنسان المروءة والنبل والأدب والتهذيب. ومن أبرز هذه القواعد الأخلاقية: إجلالُ الكبير وتقديره، وإعطاءُ ذي الفضل حقَّه من الاحترام والتوقير.

والمرأة المسلمة النابهة المغترفة دوماً من هَدْي دينها لا يفوتها الأخذ بهذه القواعد والأصول الإسلامية العريقة التي تعطي للمسلمة هويّتها الأصيلة في المجتمع الإسلامي، ومَنْ فقدتها انسلخت عن عضوية هذا المجتمع، وجُرِّدَتْ من شرف الانتساب لأمة الإسلام، كما قرر ذلك رسول الله ﷺ:

«ليسَ مِنْ أُمّتي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبيرَنا، ويَرْحَمْ صَغيرَنا، ويَعْرِفْ لِعالِمِنا حَقَّه»[(١)].

ذلك أن احترامَ السيدات الكبيرات في سنّهنّ أو مقامهنّ، وتقديمَهنَّ على مَنْ هنّ أصغر منهنّ، دليلٌ على رقيّ المجتمع، وعلى أخذِ أعضائه

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن. انظر مجمع الزوائد ٨/١٤ باب توقير الكبير ورحمة الصغير.

بتوجيهات الإسلام الخلقية، والسّيرِ حسَبَ آدابه الاجتماعية، وعلامةٌ على سموّ نفوس أعضاء ذلك المجتمع وتهذيبها، سواءٌ أكانوا رجالاً أم نساءً.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على تعميق هذا المعنى في نفوس المسلمين والمسلمات، وهو يرفع قواعد المجتمع الإسلامي، ويرسي دعائم الأخلاق فيه.

ومن شواهد حرصه على هذا المعنى: قولُه لعبد الرحمن بن سهل إذ رآه يتكلم، وكان أصغر القوم في الوفد الماثل بين يدي الرسول: «كَبِّرْ، كَبِّرْ»[١]، فسكت عبد الرحمن، وتكلم مَنْ هو أكبر منه[٢].

والمرأة المسلمة المعاصرة إذ تجلّ السيدة الكبيرة المسنّة، وتكرم صاحبة الفضل، إنما تقوم بعمل أخلاقي جليل، وتؤدي بعملها هذا عبادة؛ لأن إجلال الكبار وأصحاب الفضل من إجلال الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ من إجْلالِ اللَّهِ تَعالَى إكْرامَ ذي الشَّيْبةِ المُسْلِم، وحامِلِ القُرآنِ غيرِ الغالي فيه والجافي عنهُ[٣]، وإكرامَ ذي السُّلْطانِ المُقْسِطِ[٤]»[٥].

وإنها لتنفّذ بعملها الاجتماعي هذا أمر رسول الله ﷺ بإنزال الناس منازلهم في المجتمع الإسلامي، وقد ذكر هذا الإمام مسلم في أول صحيحه، فقال:

---

(١) أي ليتكلم الأكبر.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٢٠٧ باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل.

(٣) أي التارك له، البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه.

(٤) أي العادل.

(٥) حديث حسن رواه أبو داود ٥/ ١٧٤ كتاب الأدب: ٢٣.

«وذُكِرَ عنْ عائِشَةَ رضي الله عنها، قالَتْ: «أَمَرَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ نُنَزِّلَ النّاسَ مَنازِلَهُمْ»[١].

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة النابهة أن إنزال الناس منازلهم يعني معرفة أقدارهم وتقديمهم، فيُقَدَّم الكبار والعلماء وحملة القرآن وأصحاب العقول الراجحة وأهل الفضل، سواءٌ أكانوا من الرجال أم من النساء.

لا تُحِدُّ نَظَرَها في بَيْتِ غَيْرِها:

ومن شمائل المرأة المسلمة الرصينة المهذَّبة: أنها لا تنقّل بصرها في بيت غيرها، منقِّبةً متفحِّصةً محتوياته، فهذا ليس من الخلق الحميد الملائم للمسلمة المؤدَّبة الرَّزان، بل إنه من الخلق الممقوت المستهجَن المذموم. وقد توعّد الرسولُ ﷺ أصحابَ العيون المتنقِّلة في المجالس، المنقِّبة عن عوراتها وثغراتها، وأحلَّ فَقْءَ عيونهم إذ قال:

«مَنِ اطَّلَعَ في بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لهمْ أنْ يَفْقَؤوا عَيْنَهُ»[٢].

تَجْتَنِبُ التَّثاؤُبَ في المَجْلِسِ ما استطاعَتْ:

ومن لباقة المرأة المسلمة الواعية وفطنتها لآداب المجالس: أنها لا تتثاءب في مجلسها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وإذا ما دهمها التثاؤب وغلبها على أمرها، حاولت دفعه ما أمكنها ذلك، وهذا ما أرشد الرسول الكريم إليه بقوله:

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٥.

(٢) صحيح مسلم ١٤/ ١٣٨ كتاب الآداب: باب تحريم النظر في بيت غيره.

«إذا تَثاءَبَ أَحدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ ما اسْتَطَاعَ»[١].

أما إذا كان التثاؤب أقوى من أن يُكْظَم أو يُدْفَع، فَلْتَضَعْ يدَها على فمها، وبهذا أمر الرسول الكريم بقوله:

«إذا تَثاءَبَ أَحدُكُمْ فلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ على فِيهِ، فإنَّ الشَّيْطانَ يَدْخُلُ»[٢].

إن التثاؤب قبيح منفِّر، لا يليق بالإنسان المهذَّب. ومن هنا لا بد من دفعه أو تحاشيه بستر الفم الفاغر المتثائب باليد، وحجب منظره عن الجالسين، بذلك جاء الهَدْي النبوي الكريم معلِّماً المسلمين والمسلمات التصرف الاجتماعي اللبق الذي لا ينفِّر الجالسين والجالسات، ولا يشعرهم بملل الشخص المتثائب من مجالستهم، ورغبته في انصرافه عنهم أو انصرافهم عنه. وهذا ما تفعله المرأة المسلمة المتأدّبة بأدب الإسلام.

تأْخُذُ بِأَدَبِ الإِسْلامِ عندَ العُطاسِ:

لا يخفى على المرأة المسلمة المطّلعة على أحكام دينها أن الإسلام الذي وضع أدباً للتثاؤب في المجالس، وضع أدباً للعُطاس، فعلّم المسلمين والمسلمات ما يفعلون إذا دهمهم العُطاس، وما يقولون، وما يُقال لهم على سبيل الدعاء، وهو ما يُسَمَّى بالتَّشْميت.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العُطاسَ ويَكْرَهُ التَّثاؤُبَ، فإذا عَطَس أَحَدُكُمْ، وحَمِدَ اللَّهَ تَعالَى، كانَ حقّاً على كلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أنْ يقولَ لهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ. وأمّا

---

(١) فتح الباري ١٠/٦١١ كتاب الأدب: باب إذا تثاءب فليضع يده على فيه، وصحيح مسلم ١٨/١٢٣ كتاب الزهد: باب كراهة التثاؤب.

(٢) صحيح مسلم ١٨/١٢٢ كتاب الزهد: باب كراهة التثاؤب.

التَّثاؤُبُ فإنّما هُوَ مِنَ الشَّيْطانِ، فإذا تَثاءَبَ أحدُكمْ فَلْيَرُدَّهُ ما اسْتَطاعَ، فإنَّ أحدَكُمْ إذا تَثاءَبَ ضَحِكَ منه الشَّيطانُ»(١).

إن هذا الحادث الانعكاسي البسيط لا يمر في حياة الإنسان المسلم دون أن يكون له ضوابط وقواعد وآداب، تجعل المسلمين والمسلمات يحسّون في أعماقهم أن هذا الدين جاء لصلاح أمرهم كلّه، فلم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ نظّمها، ووضَعَ لها الصِّيَغ الخاصة بها التي تربط الإنسان المسلم دوماً بالله رب العالمين.

فإذا ما عطست المرأة المسلمة فعليها أن تقول: الحمد لله، وعلى مَنْ سمعها أن يقول: يَرْحَمُكِ اللَّهُ، وعليها أن تجيب على ذلك بدعاء: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ ويُصْلِحُ بالَكُمْ. وهذا ما أرشد إليه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري:

«إذا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحمدُ للَّهِ، ولْيَقُلْ لهُ أَخوهُ أَوْ صاحبُه: يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فإذا قالَ لهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَلْيَقُلْ: يَهْديكُمُ اللَّهُ ويُصْلِحُ بالَكُمْ»(٢).

وصيغة هذا الدعاء: «يرْحَمُكَ اللَّهُ» تُسَمَّى التشميت، وتُقالُ للعاطس على سبيل الاستحباب إذا حَمِد اللَّهَ تعالى، فإن لم يحمَدِ الله فلا يُشَمَّتْ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

«إذا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ، فإنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فَلا تُشَمِّتُوهُ»(٣).

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٦١١ كتاب الأدب: باب إذا تثاءب فليضع يده على فيه.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٦٠٨ كتاب الأدب: باب إذا عطس كيف يشمّت.

(٣) صحيح مسلم ١٨/ ١٢١ كتاب الزهد: باب تشميت العاطس.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «عطس رجلان عند النبي ﷺ فشَمَّتَ أحدَهما، ولم يُشَمِّت الآخَرَ، فقال الذي لَمْ يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فُلانٌ فَشَمَّتَّهُ، وعَطَسْتُ فلمْ تُشَمِّتْني؟ فقال: «هذا حَمِدَ اللَّهَ، وإنَّكَ لمْ تَحْمَدِ اللَّهَ»[١].

ومن استعراض هذه الصيغ التي حضّ النبيّ ﷺ على قولها في العُطاس يبرز الغرض الكبير منها في ذكر الله وحمده، وتعزيز وشائج الإخاء والمودّة والتصافي بين المسلمين والمسلمات؛ فالإنسان العاطس يحمد الله على تفريج ما اعتمل في رأسه من تحسّسات وتفاعلات وتهيّجات، والسامع يدعو له بالرحمة إذا سمعه يحمد لله، وحامد الله يستحق دوماً رحمةَ الله، فيقابل العاطسُ دعاءَ مشمِّته بدعاء أطول وأشمل، يفيض بمعاني الخير والمحبة والودّ والإيناس.

وهكذا يوجّه الإسلام الحوادث العفوية العابرة في حياة المسلمين والمسلمات ليتخذ منها مناسبات تذكرهم بربهم، وتطلق ألسنتهم بحمده، وتعزّز في نفوسهم وشائج الأخوّة والمودّة والتراحم.

ومن أدب العُطاس أن يضع الإنسان يده على فمه، ويخفض صوته ما استطاع، وهذا ما كان يفعله الرسول الكريم حين العُطاس.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أوْ ثَوْبَهُ على فِيهِ، وخَفَضَ ـ أو غَضَّ ـ بِها صَوْتَهُ. شَكَّ الرّاوي»[٢].

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٤٨ كتاب السلام: باب استحباب تشميت العاطس.

(٢) رواه أبو داود ٥/٢٨٨ كتاب الأدب: ٩٨، والترمذي ٥/٨٦ كتاب الأدب: ٦، وقال: حديث حسن صحيح.

والمرأة المسلمة الواعية المؤدَّبة بأدب الإسلام لا تنسى في مثل هذه الحالات التي تفاجىء الإنسان أن تتصرّف التصرّف الذي رسمه رسول الله ﷺ للمسلمين والمسلمات، وتحفظ الصِّيَغ المأثورة عن الرسول الكريم بنصِّها، لتقولها إن دهمها العُطاس، أو دهم غيرها، أو لتجيب أختها التي تشمِّتها، طبقاً لتوجيهات الرسول الكريم ﷺ في أدب الإسلام عند العُطاس.

لا تَتَطَلَّعُ إلى طَلاقِ غَيْرِها لِتَحُلَّ مَحَلَّها:

تشعر المسلمة الواعية التقيّة أنها تعيش في مجتمع مسلم، أفراده إخوة لها وأخوات، وفي هذا المجتمع الرّبّاني يُحرَّم الغشّ والمخاتلة والغدر، وغير ذلك من الأخلاق الوضيعة المستفحلة في مجتمعات البشر التي لا تهتدي بهَدْي الله عز وجلّ.

ومن أبشع هذه الأخلاق تطلّع المرأة إلى رجل متزوج، بغية خَطْفِه من زوجته بعد تطليقها، ليفرغ للمرأة الخاطفة، ويعود خيره كلّه عليها وحدها. والمرأة المسلمة التقيّة بعيدة كل البعد عن هذه الخليقة السيئة الوضيعة التي نهى عنها رسول الله ﷺ في سياق نَهْيه عن عدد من مثيلاتها من الأخلاق والعادات القبيحة، وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تَناجَشُوا[١]، ولا يَبِعِ المَرْءُ على بَيْعِ أَخيهِ[٢]، ولا يَبِعْ حاضِرٌ لبادٍ[٣]، ولا يَخْطُبِ المَرْءُ على خِطْبَةِ أخيه، ولا تسألِ المرأةُ طَلاقَ الأُخْرَى

(١) التناجش: أن يزيد المرء في السلعة ولا رغبة له في شرائها، بل ليغرّ غيره في شرائها.

(٢) أي لا يطلب ممن اشترى شيئاً فسخ البيع ليبيعه هذا الشيء بأرخص من ثمنه.

(٣) أي لا يكن له سمساراً يتحكّم في الأسعار بما يضرّ.

لِتَكْتَفِىءَ ما في إنائِها[(١)]»[(٢)].

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة أيضاً: «لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تَسْأَلُ طَلاقَ أُخْتِها، لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَها[(٣)]، فإنما لها ما قُدِّرَ لَها»[(٤)].

ذلك أن المسلمة أخت المسلمة، وهي مؤمنة بأن ما قدّره الله لها لا بد أن يصيبها، وأنها لا تكون مؤمنة بحق إلاَّ أن تحب لأختها ما تحبه لنفسها، كما قرر رسول الله ﷺ بقوله: «لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى يحبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[(٥)].

ومن هنا كان لها من وعيها وإيمانها ما يعصمها عن الوقوع في شَرَك هذه الخطيئة، والتلوّث في حمأة هذا الإثم، وهي إذ تعصم نفسها من الوقوع في هذا المنزلق البشع، إنما تفعل ذلك طاعةً لله ولرسوله واستجابةً لأمرهما، ونزولاً عند القِيَم الإنسانية الرفيعة التي طبع الإسلام بها شخصيتها، وليس تحرّزاً من الفضيحة الاجتماعية التي تلحق المرأة من جرّاء تلك الفِعْلة الشنيعة، فقد تستطيع المرأة أن تخفي فعلتها وتدبيرها، وتنجو من المآخذ

---

(١) أي لا تسأل رجلاً طلاق امرأته ليتزوجها هي، فيصير لها من نفقته ومعروفه ومعاشرته ما كان للمطلّقة.

(٢) فتح الباري ٤/٣٥٢، ٣٥٣ كتاب البيوع: باب لا يبيع على بيع أخيه، وصحيح مسلم ٩/١٩٨ كتاب النكاح: باب تحريم خطبة الرجل على خطبة أخيه، واللفظ لمسلم.

(٣) أي إناءها.

(٤) فتح الباري ٩/٢١٩ كتاب النكاح: باب الشروط التي لا تحلّ في النكاح.

(٥) متفق عليه. انظر شرح السنة ١٣/ ٦٠ كتاب البر والصلة: باب يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

الاجتماعي، ولكنها لا تستطيع أن تفلت من يدي رب العزة الذي يعلم السِّرَّ وأَخْفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

تَخْتارُ العملَ المُناسِبَ لِأُنوثَتِها:

لقد رفع الإسلام عن كاهل المرأة المسلمة عبء العمل لتنفق على نفسها، وكَلَّفَ أباها أو أخاها أو زوجها أو أحد أقاربها بالإنفاق عليها. ولهذا لا تتطلّع المرأة المسلمة الواعية إلى العمل خارج بيتها إلاَّ إذا كانت بحاجة إلى الكسب؛ إذ لا معيل لها يضمن لها العيش الحرّ الكريم، أو كان مجتمعها بحاجة إليها لتقوم بعمل تخصّصت فيه، يلائم أنوثتها، ويحفظ كرامتها، ويصون دينها وأخلاقها.

ذلك أن الإسلام كلّف الرجل بالإنفاق على الأسرة، وحمّله مسؤولية العيش وتكاليفه، لتتفرّغ المرأة للحياة الزوجية والأمومة، فتكون ريحانة البيت، وأنسه، وجماله، وعطره وبشاشته، وتكون العقل المنظِّم لشؤونه، والعاطفة السارية في أرجائه، والروح المرفرفة حول فِلَذ الأكباد.

هذه نظرة الإسلام للمرأة والأسرة، وهذه هي فلسفته في الحياة الزوجية والأسرية.

وعلى النقيض من ذلك تقوم فلسفة الغرب في شأن المرأة والبيت والأسرة والأولاد؛ فالبنت متى بلغت سنّاً معينة، هي في الغالب سبع عشرة سنة، لا يُلْزَم أبوها أو أخوها أو أحد أقاربها بالإنفاق عليها، بل عليها أن تفتّش عن عمل لتنفق على نفسها، وتدّخر منه ما تقدّمه لزوجها المرتقب، وهو ما يسمى (دوطة). فإذا تزوجت، كان عليها أن تشارك زوجها في نفقة البيت والأولاد. فإذا شاخت، وكانت لا تزال قادرة على الكسب، وجب

عليها أن تستمر في العمل لكسب قوتها، ولو كان لديها أولاد أغنياء.

ولا ريب أن المرأة المسلمة الراشدة تدرك البون الشاسع والفرق الكبير بين حالة المرأة المسلمة وحالة المرأة في الغرب. ففي الأولى تكريم المرأة وصونها وضمان معيشتها العزيزة الكريمة، وفي الثانية إجهاد المرأة وإرهاقها وكَدْحها وامتهانها، وبخاصة عندما تبلغ سنّ الشيخوخة.

ولقد تتابعت شكوى المفكرين الغربيين مما آلت إليه حالة المرأة الغربية من سوء، منذ أواخر القرن الماضي، وراحوا ينذرون أقوامهم بانهيار حضارة الغرب، إذا ما استمرت الأخطاء الناشئة عن خروج المرأة من بيتها، وتفكك الأسرة، وتشرّد الأولاد.

وقد جمع الداعية الإسلامي الكبير الدكتور مصطفى السباعي، رحمه الله، في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون)، طائفة من أقوال المفكرين الغربيين في هذا الموضوع، تعكس السخط الشديد والألم العميق الذي أحسّه هؤلاء المفكّرون مما وصلت إليه حالة المرأة في الغرب. وها أنذا أعرض بعضاً من هذه الأقوال لما فيها من تصوير حي لحالة المرأة في الغرب.

يقول الفيلسوف الاقتصادي الفرنسي (جول سيمون): «النساء قد صرن نسّاجات وطبّاعات.. إلخ، وقد استخدمتهنّ الحكومة في معاملها، وبهذا فقد اكتسبن بضعة دريهمات، ولكنهنّ في مقابل ذلك قد قوّضن دعائم أسرهنّ تقويضاً. نعم إن الرجل صار يستفيد من كسب امرأته، ولكن بإزاء ذلك قلّ كَسْبُه لمزاحمتها له في عمله.

ويقول أيضاً: هناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر، وفي محلات التجارات، ويُسْتَخْدَمْنَ في الحكومة في وظيفة التعليم، وبينهنّ

عديدات في التلغرافات والبوسطات والسكك الحديدية وبنك فرنسا، ولكن هذه الوظائف قد سلختهنّ من أسرهنّ سلخاً»[١].

ويقول أيضاً: «يجب أن تبقى المرأة امرأة، فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها وأن تهبها لسواها. فَلْنُصْلِحْ حال النساء، ولكن لا نغيّرها، وَلْنَحْذَرْ من قلبهنّ رجالاً؛ لأنهنّ بذلك يفقدن خيراً كثيراً، ونفقد نحن كل شيء؛ فإن الطبيعة قد أتقنت كل ما صنعته[٢]، فَلْندرسْها ولْنَسْعَ في تحسينها، وَلْنَخْشَ كلّ ما يبعد عن قوانينها وأمثلتها»[٣].

وتقول الكاتبة الإنكليزية الشهيرة (أني رورد): «لأن تشتغل بناتنا في البيوت خوادم، أو كالخوادم، خير وأخفّ بلاءً من اشتغالهنّ في المعامل، حيث تصبح البنت ملوّثة بأدران، تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء. الخادمة والرقيق يتنعمان بأرغد عيش، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تُمَسّ الأعراض بسوء. نعم إنه لَعارٌ على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال. فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت، وترك أعمال الرجال للرجال سلامةً لشرفها؟!»[٤].

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون: ١٧٦.

(٢) هذا تعبير الغرب الملحد: (الطبيعة) بدلاً من الله الخالق عز وجل، بعد أن أدار الغرب ظهره للدين.

(٣) المرأة بين الفقه والقانون: ١٧٨.

(٤) المصدر السابق: ١٧٩.

إن المرأة الغربية لتغبط المرأة المسلمة، وتتمنّى أن تحظى ببعض ما تحظى به المرأة المسلمة من حقوق وتكريم وصون وضمان واستقرار، والشواهد على ذلك كثيرة، وقد تقدم بعضها(١)، ومنها ما قالته فتاة إيطالية تدرس الحقوق في جامعة أكسفورد بعد أن سمعت شيئاً عن حقوق المرأة في الإسلام، وكيف وفّر لها الإسلام كل مظاهر الاحترام حين أعفاها من مؤونة العيش، وفرّغها لأداء رسالتها الزوجية والأسرية، قالت: إنني أغبط المرأة المسلمة، وأتمنى أن لو كنت مولودة في بلادكم(٢).

ولقد استقرت هذه الحقيقة في أذهان زعيمات الحركة النسائية في البلاد العربية، ولا سيما المنصفات منهنّ، فها هي ذي السيدة سلمى الحفار الكزبري التي زارت أوروبا وأمريكا أكثر من مرة تكتب في جريدة الأيام الدمشقية الصادرة في ٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢م معلقةً على كلام الأستاذ شفيق جبري في كتابه (أرض السحر) حول شقاء المرأة الأمريكية:

«يلاحظ الأديب الرحّالة مثلاً أن الأمريكان يوجهون أطفالهم منذ نعومة أظفارهم لحب الآلة والبطولة في ألعابهم، كما يلاحظ أن النساء أصبحن يمارسن أعمال الرجال في مصانع السيارات، وتنظيف الطرقات، فيتألم لشقاء المرأة في صرف شبابها وعمرها في غير ما يناسب الأنوثة والطبيعة والمزاج. ولقد أسعدني ما قاله الأستاذ جبري لأنني عدت من رحلتي للولايات المتحدة منذ خمسة أعوام، وأنا أرثي لحال المرأة التي جرفها تيار المساواة الأعمى، فأصبحت شقية في كفاحها لكسب العيش، وفقدت حتى حريتها، هذه الحرية

(١) انظر ص: ٨٨.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون: ١٨١.

المطلقة التي سعت طويلاً لنيلها؛ إذ أمست أسيرة للآلة وللدقيقة. لقد أصبح التراجع أمراً صعباً، ومن المؤسف حقاً أن تفقد المرأة أعز وأسمى ما منحتها إياه الطبيعة، وأعني أنوثتها، ثم سعادتها؛ لأن العمل المستمر المضني قد أفقدها الجنات الصغيرات التي هي الملجأ الطبيعي للمرأة والرجل على حد سواء، والتي لا يمكن أن تتفتح براعمها ويفوح شذاها بغير المرأة وربة البيت، ففي الدُّور وبين أحضان الأسرة سعادة المجتمع والأفراد، ومصدر الإلهام وينبوع الخير والإبداع».

إن زجّ المرأة في أتون العمل وفي قلب معترك الحياة، تزاحم الرجال، لتحتل أماكنهم، أو تشاركهم فيها، من غير حاجة إليها تقتضيها المصلحة العامة، لَهو الضلال بعينه، ولَهو التخبّط المقيت الذي تُصاب به الأمم والشعوب في عهود الانتكاس والفتنة والشرود والضلال. والمرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي كتاب ربّها وسنة رسوله ﷺ لا ترضى أن تُزَجَّ في ذلك الأتون المستَعِر، وتأنف أن تكون سلعة رخيصة يتهافت على ابتلاعها الجشعون من أصحاب رؤوس الأموال، أو دمية برّاقة يتسلّى بصحبتها الرُّقعاء من أشباه الرجال، وترفض بكل إباء وشمم تلك التقدّمية المزيّفة الخرقاء الداعية إلى خروج المرأة متكشّفةً كاسية عارية متبرّجة، لتعمل إلى جانب الرجل في مكاتب التوظيف، وإنها بموقفها المشرّف الرصين العاقل الحكيم تؤدّي لبلادها ومجتمعها وأمتها خدمة كبرى، بدعوتها إلى إلغاء هذه المهزلة الكبيرة في مزاحمة المرأة للرجال في أعمالهم. وإنَّ ما يتبع هذه المهزلة من فساد في الأخلاق، وإهمال للأسرة، وتبديد للمال، لَهو أكبر مما تقدمه المرأة من منافع في عملها، يدل على ذلك ما قاله حاكم كوريا الشمالية في مؤتمر الاتحاد النسائي في بلاده سنة ١٩٧١ : «إننا نجعل النساء يدخلن المجتمع»

وليس مردّ هذا قطعاً إلى النقص في اليد العاملة، وإذا ما قلناها صراحة، فإن ما تتحمله الدولة الآن من أعباء النساء هو أكبر ما تقدمه النساء من المنافع للدولة عن طريق المشاركة في العمل بعد دخولهنّ المجتمع، ثم قال: وإذن لماذا نريد أن تنشط النساء في انطلاقهنّ إلى المجتمع؟ ذلك لأن انطلاقهنّ يستهدف بوجه رئيسي تثوير النساء، وتحويلهنّ على نمط الطبقة العاملة من خلال الحياة الاجتماعية، يشجع حزبنا انطلاق النساء إلى المجتمع بنشاط من أجل تثوير النساء وتحويلهنّ على نمط الطبقة العاملة، مهما ثقلت أعباء الدولة».

ولا ريب أن المرأة المسلمة الواعية الراشدة قد عرفت طريقها، وعرفت موطىء قدمها، بعد أن رأت الفرق الكبير بين حكم الله وحكم الجاهلية، فاختارت حكم الله غير عابئة ولا ملتفتة لصيحات الجاهلية الرعناء المنبعثة بين الحين والحين من هنا ومن هناك:

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

لا تَتَشَبَّهُ بِالرِّجالِ:

إن المرأة المعتزّة بشخصيتها المسلمة لا تتشبه بالرجال البتة؛ لأنها تعلم أن تشبّه المرأة بالرجال، وتشبّه الرجال بالمرأة حرام في شِرْعَة الإسلام.

ذلك أن حكمة الله وسنته الخالدة في الكون والحياة والإنسان قضتا أن للرجل شخصيته المتميّزة عن المرأة، وللمرأة شخصيتها المتميّزة عن الرجل. وهذا التميّز ضروري لكلّ من الجنسين؛ لأنّ كُلاًّ منهما له دوره المتميّز عن الآخر في الحياة، وهذا التميّز بوظيفة الجنس الأساسية ومهمته في الحياة،

---

(١) المائدة: ٥٠.

مرتبط كل الارتباط بتميّز شخصية الجنس، أي بتميّز شخصية الرجل عن المرأة، وتميّز شخصية المرأة عن الرجل.

وقد وضع الإسلام الأمور في نصابها حين حدّد لكل من الرجل والمرأة مهمته في الحياة، ويسَّره لما خُلِقَ له. ومن هنا كان أي خروج على هذا التحديد الربّاني خروجاً على سنن الفطرة التي فطر اللَّهُ الناسَ عليها، وتزويراً لطبيعة الإنسان وانحرافاً بها عن الأصالة الخَلْقيّة الثابتة، وهذا ما يمقته كلا الجنسين، وليس أدل على ذلك من أن المرأة تكره الرجل المخنَّث المتهالك المتشبّه بالنساء، والرجل يكره المرأة الخشنة المسترجِلة المتشبِّهة بالرجال. وعمارة الكون وسعادة البشرية لا يتمّان على الوجه الصحيح إلاَّ بتميّز كلٍّ من الجنسين، واستمتاع كلٍّ منهما بميّزات الجنس الآخر، وتعاونهما معاً على إعمار الكون وإسعاد البشرية.

لهذا كله، جاءت نصوص الإسلام شديدة قاطعة في وعيد الرجال المتشبهين بالنساء، ووعيد النساء المتشبهات بالرجال.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لعنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المُتَشَبِّهينَ من الرِّجالِ بالنِّساءِ، والمُتَشَبِّهاتِ منَ النّساءِ بالرِّجالِ»(١).

وعن ابن عباس أيضاً قال: «لعنَ النبيُّ ﷺ المخنَّثينَ من الرِّجال، والمُتَرَجِّلات من النساء، وقالَ: «أَخْرِجوهُمْ مِنْ بُيوتِكُمْ»، قالَ: فأخرجَ النبيُّ ﷺ فلاناً، وأخرج عمرُ فلانةً»(٢).

---

(١) انظر فتح الباري ١٠/٣٣٢ كتاب اللباس: باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال.

(٢) انظر فتح الباري ١٠/٣٣٣ كتاب اللباس: باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لعنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ الرجلَ يلبسَ لِبْسَةَ المرأةِ، والمرأةَ تلبسُ لِبْسَةَ الرَّجلِ»[١].

ويوم كان المسلمون في عافية، تحكمهم شريعة الله، وتستضيء مجتمعاتهم بنور الإسلام، ما كان هناك أثر لمشكلة تشبّه النساء بالرجال، وتشبّه الرجال بالنساء. أما اليوم، وبعد أن انحسر ظل الإسلام عن المسلمين، وخبا نورهُ في مجتمعاتهم، أصبحنا نجد في كثير من تلك المجتمعات فتيات يلبسن البنطالات الضيّقة المجسّمة، والقمصان المشتركة بين الرجال والنساء، وقد كشَفْن رؤوسَهنّ، وحَسَرْنَ عن سواعدهنّ، حتى غدون كالشبان من الرجال، كما نجد نفراً من الشباب المخنَّث المائع، قد علّق في عنقه سلسلة من ذهب، تدلّت على صدره المكشوف، وقد أطال شعره ورجّله، بحيث غدا رأسُه كرأس الفتاة، حتى إنه ليصعب التمييز بينهما.

إن هذه المشاهد المزرية في بعض البلاد الإسلامية التي مُنِيَتْ بالغزو الفكري، وأصيب كثير من شبابها بالهزيمة الروحية، لهي مشاهد دخيلة على الأمة الإسلامية ومجتمعاتها وقِيَمها وأعرافها الإسلامية، وفَدَتْ إليها من الغرب الفاجر والشرق الكافر سواء، حيث انتشرت موجات الهيبيّة والوجوديّة والعبثيّة والعدميّة، وما إلى ذلك من ضلالات، زاغت بها البشرية، وشقيت شقاء كبيراً، إذ جرفتها بعيداً عن فطرتها السليمة إلى شذوذات وانحرافات، عادت على تلك الشعوب بأوخم العواقب، وأفدح العلل، وأخطر الأمراض.

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود ٤/ ٨٦ كتاب اللباس: ٣١، وابن حبان (١٣) ٦٣ كتاب الحظر والإباحة: باب اللعن.

وقد أصابنا من هذا كله شُواظٌ ودُخان، عمّ حياة الشاردين والشاردات عن هَدْي الله في بعض بلاد المسلمين، بعد انفراط عقد الخلافة الإسلامية، وتمزّق وحدة الأمة، واهتزاز كثير من قِيَمها في بعض مجتمعات المسلمين، فبدا هؤلاء الشاذّون والشاذّات غرباءَ عن جسم الأمة الإسلامية، خارجين عن نهجها الأصيل، وقِيَمها الثابتة، وشخصيتها المتميّزة.

تَدْعو إلى الحَقّ:

تدرك المرأة المسلمة الواعية هَدْي دينها أن الإنسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً، وإنما خُلِقَ ليؤدّي رسالة، ويحمل أمانة، ويقوم بفريضة، هي عبادة الله عز وجل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1].

وعبادة الله تتمثّل في كل حركة من حركات الإنسان الإيجابية البنّاءة، لإعمار الكون، وتحقيق كلمة الله في الأرض، وتطبيق منهجه في الحياة. وهذا كلّه من الحق الذي يجب على المسلمين والمسلمات أن يدعوا الناس إليه.

ومن هنا تحسّ المرأة المسلمة الصادقة بواجبها في دعوة من تستطيع من النساء إلى الحق الذي آمَنَتْ به، مبتغيةً بذلك الثواب الجزيل الذي وعد الله به الدعاة إلى الله، كما جاء في حديث النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه:

«فوالله لأنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بكَ رجلاً واحِداً خيرٌ من أن يكون لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[2].

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) فتح الباري ٧/ ٤٧٦ كتاب المغازي: باب غزوة خيبر.

إن كلمة طيبة تلقيها المرأة المسلمة في مجتمع من النساء غافل، أو في أذن امرأة شاردة عن هَدْي الله، فتفعل فعلَها في النفوس، تعود على الأخت الداعية بثواب جزل عظيم، يفوق حُمْرَ النَّعَم، أنفسَ الأموال التي كان يتطلّع إليها العرب آنذاك، ويضاف إلى هذا الثواب مثلُ أجر المرأة التي اهتدت على يدها، كما أخبر بذلك الرسول الكريم:

«مَنْ دَعا إلى هُدىً كانَ لهُ مِنَ الأَجْرِ مثلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ أُجورِهِمْ شيئاً»(١).

ولا تستصغر المرأة المسلمة الداعية بضاعتها من العلم حين تدعو النساء إلى الله، فحسبها أن تبلّغ ما حصّلته من العلم، أو ما وصل إلى سمعها من الموعظة والهداية، ولو كان آية واحدة من كتاب الله، وهذا ما أوصى به النبي ﷺ أصحابه:

«بلِّغوا عنّي ولَوْ آيَةً..»(٢).

فقد تصادف هذه الآية، أو الكلمة من كلمات الداعية، مكمناً من مكامن الإيمان، فإذا شرارة الهداية تنقدح في نفس المرأة السامعة، فتقبل على الحق، وتستضيء حياتها كلها بنوره الوهّاج.

ومن هنا لا تألو المرأة المسلمة الداعية جهداً في دعوة النساء إلى الحق، وما أحوجهنّ في هذا العصر إلى الدعوة إليه، مبتغيةً وجه الله، مُشيعةً الوعيّ في صفوف النساء اللواتي لم يكتب لهنّ اكتساب الوعي والثقافة

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ٢٢٧ كتاب العلم: باب من سنّ سنّة حسنة.

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٩٦ كتاب أحاديث الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

والتوجيه، مقدمةً الدليل على أنها المؤمنة التي تحب لأختها ما تحب لنفسها، وهذه هي أخلاق الداعية المتميّزة عن النساء العاديّات، وإنها لأخلاق عالية سامية، نوّه بها رسول الله ﷺ، وأثنى عليها، ودعا لها بقوله:

«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كما سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سامعٍ»(١).

إن المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي الكتاب والسنة كَالمِصْباح المنير، الذي يضيء الطريق للسالكات في الليلة الحالكة السواد، ولا يمكن أن تحجب نورها عن أخواتها المتخبّطات في عَتَمَةِ الليل البهيم، بعد أن رأت الثواب العظيم الذي أعدّه الله للداعيات المخلصات الصادقات.

تَأْمُرُ بِالمَعْروفِ وتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ:

لا يقتصر واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الرجل، وإنما يشمل الرجل والمرأة على السواء، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾(٢).

لقد بوّأ الإسلامُ المرأةَ مكانة اجتماعية عالية إذ كلفها بهذا الواجب الاجتماعي العظيم، واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ جعلها لأول مرة في التاريخ آمرة، وما كانت تُعرَف في غير دنيا الإسلام إلاّ مأمورة.

---

(١) رواه الترمذي ٥/ ٣٤ في كتاب العلم: ٧، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) التوبة: ٧١.

وإزاء هذا التكليف الذي هو في حقيقته تشريف، تنهض المرأة المسلمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحدود والأوساط التي تلائم أنوثتها، وتدخل في نطاق مجالها وتخصصها، فتتصدّى للمنكر، وهو غير قليل في دنيا النساء، إن رأته، فتنهى عنه بعقل ورويّة وحكمة ودماثة وحسن تأتٍّ، فتزيله بيدها إن استطاعت ولم يترتب على إزالته فتنة أشد، فإن لم تستطع إزالته بيدها، بيَّنَتْ وجه الحق بلسانها وبيانها، فإن لم تستطع، أنكرت الباطل بقلبها، وراحت تفكر بالوسائل والأسباب المؤدية إلى إزالته واستئصاله من جذوره. وهذا الأسلوب في إزالة المنكر هو الذي أمر به الرسول ﷺ بقوله:

«مَنْ رَأَى منكمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسانِهِ، فإنْ لم يستطعْ فَبِقلبِه، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»[١].

والمرأة المسلمة النابهة إذ تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما تكون ناصحة لأخواتها المسلمات الغافلات أو المقصِّرات في اتباع هَدْي الإسلام الحنيف، والدين النصيحة، كما قرر رسول الله ﷺ في إيجاز شديد وبلاغة آسرة، إذ أخبر عن الدين كلّه بكلمة واحدة هي النصيحة. وإذا كان الدين النصيحة، فلا بد من القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتتحقق النصيحة التي ذكرها رسول الله ﷺ، وبها قوام الدين:

«الدّينُ النَّصيحةُ» قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: «لِلَّهِ ولِكتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئمّةِ المُسْلمينَ وعامّتِهِمْ»[٢].

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٢٢ كتاب الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٣٧ كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة.

إن جهر المرأة المسلمة الواعية الراشدة بالنصيحة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأوساط النسائية سيؤدّيان إلى تقويم كثير من الأمور والأوضاع السائدة عند بعض النساء، والقائمة على التقليد والعادة والاستمرار، على مخالفتها لهَدْي الإسلام وحكمه، وما أكثرَها في أوساط النساء الغافلات الشاردات، والمرأة المسلمة إذ تتصدّى لتقويم هذه العادات، وتبيان رأي الإسلام فيها، تُسْدي لمجتمعها وأمتها خير عمل، وتكون هي من خيار الناس:

قامَ رجلٌ إلى النبيّ ﷺ، وهو على المنبر، فقالَ: يا رسولَ اللّهِ، أيُّ النّاس خيرٌ؟ قالَ: «خَيْرُ النّاس أَقرَؤُهُمْ وأَتقاهُمْ، وآمَرُهُمْ بالمَعْروفِ، وأنْهاهُمْ عن المُنْكَرِ، وأَوْصَلُهمْ لِلرَّحِمِ»(١).

هكذا تكون المرأة المسلمة النابهة، صاحبة قضية، لا تسكت عن باطل، ولا تقعد عن تبيان الحق، ولا ترضى بالانحراف. إنها لتعمل دوماً على نفع أخواتها في المجتمع الإسلامي، وانتشالهنّ مما هنّ فيه من تقصير وتخلّف وجهل وانحراف، وهي تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، امتثالاً لأمر الله ورسوله، ودفعاً لعقاب الله الذي يعم المجتمعات التي لا ترتفع فيها الأصوات، آمرةً بالمعروف، ناهيةً عن المنكر.

لما ولي أبو بكر رضي الله عنه صعد المنبر، فحمد الله، ثم قال: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: «يا أَيُّها الذينَ آمَنوا عليكمْ أنفسَكمْ، لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ». وإنّكم تَضَعونَها في غيرِ مَواضِعِها. وإنّي

---

(١) رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات. انظر مجمع الزوائد ٧/٢٦٣ باب في أهل المعروف وأهل المنكر.

سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ الناسَ إذا رأَوُا المُنكَرَ ولا يُغَيِّرونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعقابٍ»[1].

إن المسلمةَ الصادقةَ في إسلامها، النابضَ إيمانُها، المتفتحَ عقلُها بنور الهداية الربانية، لتتحرك دوماً في سبيل الخير، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتُسْدي النصيحة، وتصحح الأوضاع الفاسدة، ولا ترضى لنفسها السلبية والجمود واللامبالاة والميوعة، ولا تتهاون أبداً في قضية من القضايا تمسّ الدين وشعائره، وتجانب هَذْيَهُ وروحَهُ؛ فأمور الدين والعقيدة جدٌّ لا هزلَ فيها، ولا يجوز السكوت عن أي انحراف أو خطأ فيها، وإلاّ وقعنا فيما وقع فيه اليهود يوم غضب الله عليهم؛ إذ رأى منهم التراخي والقعود واللامبالاة في أمور دينهم:

«إنّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنْ بني إسْرائيلَ إذا عَمِلَ فيهمُ العامِلُ الخَطيئَةَ، فَنَهاهُ النّاهي تَعْذيراً، فإذا كانَ من الغَدِ جالَسَهُ وَواكَلَهُ وشارَبَهُ، كأنَّهُ لَمْ يَرَهُ على خَطيئَتِهِ بالأَمْسِ. فلمّا رَأَى اللَّهُ تَعالَى ذلكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ قلوبَ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ على لِسانِ داود وعيسى بنِ مَرْيَمَ، ذلكَ بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدونَ. والّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْروفِ، ولَتَنْهُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ على أَيْدي المُسيءِ، ولَتَأْطُرُنَّه على الحقِّ أَطْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلوبِ بَعْضِكُمْ على بَعْضٍ، ويَلْعَنَكُمْ كَما لَعَنَهُمْ»[2].

لَبِقَة حَكيمةٌ في دَعْوَتِها:

والمرأة المسلمة الداعية لَبِقةٌ كَيِّسَةٌ فَطِنَةٌ في دعوتها، حكيمةٌ مُتَّئِدةٌ في

---

(١) حياة الصحابة ٣/ ٢٣٣.

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ١٠/ ١٤٦.

مخاطبتها للمدعوّات، مُقَدِّرةً مستواهنّ الفكري والاجتماعي، تحسن الدخول إلى قلوبهنّ وعقولهنّ بحكمتها وحسن موعظتها، كما أوصى القرآن الكريم:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[١].

وتحذر الأخت الداعية من الإطالة والإملال والإثقال على المستمعات، فلا تطيل في حديثها، ولا تضمنه المسائل العويصة العسيرة الفهم، وإنما تقدّم لهنّ الفكرة التي تريد إبلاغها بإيجاز واضح غير مخلّ، وبأسلوب طليّ مشرق غير مملّ، وعلى دفعات، بحيث تستوعب المدعوّة الفكرة المعروضة وتتمثّلها بيسر ورضا وتشوّق. وهذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله حينما يعظ الناس، كما أخبرنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ فقد كان عبد الله بن مسعود يتعهد الناس بالموعظة كل يوم خميس، فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن: لَوَدِدْتُ أنك ذكّرتَنا كل يوم، فقال: «أما إنَّهُ يَمْنَعُني من ذلك أنّي أكرهُ أنْ أُمِلَّكُمْ، وإني أَتخَوَّلُكمْ بالمَوْعِظَةِ[٢] كما كان رسولُ الله ﷺ يَتخوّلُنا بِها مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا»[٣].

ومن ألزم مستلزمات الداعية اللَّبِقة الفَطِنَة الحكيمة أن تترفّق بمَنْ تدعوهنّ، فتصبرَ على قصور فهم بعضهنّ، وعلى جهلهنّ بكثير من قضايا الدين، وعلى أخطائهنّ المتكررة، وعلى أسئلتهنّ المملّة الكثيرة، متأسّيةً في ذلك كله بسيّد الدعاة والداعيات، رسول الله ﷺ، الذي كان آيةً في الصبر

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) أي أتعهدكم بها في أيام متفرّقة.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٣٧٤ كتاب الأدب: باب في الوعظ والاقتصاد فيه.

والأناة والحِلْم واللطف وسَعة الصدر، والإقبالِ على السّائلين إقبال المرشد المحبّ المؤنس، والمعلِّم المسدِّد المصلح، لا يضيق ذرعاً ببطء فهمهم، ولا يملّ من كثرة أسئلتهم، ولا من تكرار إجابته عنها، حتى يفهموها، وينصرفوا راضين فاهمين مقتنعين مغتبطين.

ومن شواهد ذلك ما يرويه الصحابي معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه، قال: «بَيْنا أنا أُصَلِّي معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذْ عَطَسَ رجلٌ من القوم[١] فقلتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَماني القومُ بأَبْصارِهِمْ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّياهُ، ما شَأْنُكُمْ تَنْظُرونَ إليَّ؟ فجعلوا يضربونَ بأَيْديهِمْ على أَفخاذِهِمْ، فلمّا رأيتُهمْ يُصَمِّتُونَني[٢] لكنّني سَكَتُّ. فلمّا صلّى رسولُ اللهِ ﷺ، فَبِأبـي هُوَ وأُمّي[٣]، ما رأيتُ مُعَلِّماً قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليماً منه. فواللَّهِ ما كَهَرَني ولا ضَرَبَني ولا شَتَمَني، قالَ: «إنَّ هذهِ الصّلاةَ لا يصلُحُ فيها شيءٌ مِنْ كَلامِ النّاسِ، إنّما هي التسبيحُ والتكبيرُ، وقراءةُ القرآنِ» أو كما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ. قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ إنّي حَديثُ عَهْدٍ بِجاهِلِيّةٍ، وقد جاءَ اللَّهُ بالإسلام، وإنّ منّا رِجالاً يَأْتونَ الكُهّانَ[٤]! قالَ: «فَلاَ تَأْتِهِمْ». قلتُ: ومِنّا رِجالٌ يَتَطَيَّرونَ![٥] قالَ: «ذاكَ شيءٌ يَجدونَهُ في صُدورِهِمْ فلا يَصُدَّنَّهُمْ[٦]»[٧].

---

(١) أي من المصلّين.

(٢) أي يسكّتونني غضبت.

(٣) أي أفديه بهما.

(٤) الكُهّان: جمع كاهن، وهو رجل يدّعي معرفة الضمير ويخبر عن المستقبل.

(٥) أي يتشاءمون.

(٦) أي فلا يمنعهم ذلك عن وجهتهم فإنه لا يؤثر نفعاً ولا ضراً.

(٧) صحيح مسلم ٥/ ٢٠ كتاب المساجد: باب تحريم الكلام في الصلاة.

ومن أخلاق الداعية الحكيمة الناجحة وأسلوبها المؤثّر الجذّاب: أنها لا تجبه المسيئات بإساءاتهنّ، ولا المقصّرات بتقصيرهنّ، بل تتلطّف وتحسن التأتّي في مخاطبتهنّ، ملمّحةً غيرَ مصرِّحة بإساءاتهنّ وتقصيرهنّ، طالبةً منهنّ بلباقة وحكمة أن يتخلَّصْنَ مما هنّ فيه من إساءة أو تقصير، وذلك حرصاً على مشاعرهنّ أن تخدش، وعلى نفوسهنّ أن تنفر من الدعوة. وهذا الأسلوب اللَّبِق الحكيم أوقع في النفوس، وأكثر تأثيراً في القلوب، وأنجح في مداواة العلل والأمراض النفسية والخلقيّة والاجتماعية، وهو الأسلوب الذي كان يتبعه رسول الله ﷺ في وعظه:

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كانَ النبيُّ ﷺ إذا بَلَغَهُ عن رجلٍ شَيْءٌ لَمْ يَقُلْ: ما بالُ فُلانٍ يقولُ؟ ولكنْ يقولُ: ما بالُ أَقْوامٍ يَقولونَ كذا وكذا»[١].

ومن صفات الداعية المهمة الكفيلة بنجاحها في دعوتها: الإبانةُ والوضوحُ والتكرارُ غير المملّ، بحيث يغلب على الظنّ أن المخاطبات قد استوعَبْنَ الكلام الذي سَمِعْنَهُ، وتغلغل في قلوبهنّ، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ أيضاً، كما يقول أنس رضي الله عنه:

«كانَ رسولُ الله ﷺ إذا تَكَلَّمَ بِكَلِمةٍ أَعادَها ثَلاثاً، حتّى تُفْهَمَ عنهُ، وإذا أَتَى على قومٍ فَسَلَّمَ عليهمْ سَلَّمَ عليهمْ ثلاثاً»[٢].

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

---

(١) حياة الصحابة ٣/١٢٩.

(٢) فتح الباري ١/١٨٨ كتاب العلم: باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه.

«كان كَلامُ رسولِ اللَّهِ ﷺ كَلاماً فَصْلاً[١]، يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ»[٢].

تُعاشِرُ النِّساءَ الصّالِحاتِ:

تَتَحرَّى المرأة المسلمة في علاقاتها بالنساء اختيار الصالحات منهنّ، ليكنّ أخوات لها وصديقات، تأنس بصداقتهنّ، وتتعاون معهنّ على البرّ والتقوى والعمل الصالح، وترشيد النساء في البيئات التي ينقصها الوعي الإسلامي، وتوعيتهنّ؛ ذلك أن معاشرة الصالحات من النساء ومجالستهنّ، تنضح دوماً بالخير والنفع والثواب العميم، وتزيد النسوة في مجتمعاتهنّ سداداً في الرأي، وتفقهاً في الدين، وإقبالاً على الحق؛ ولذا جاء الحضّ عليها في الهَدْي القرآني العظيم:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾[٣].

والمرأة المسلمة الصادقة لا تألف إلاّ الصالحات التقيّات الفاضلات الكريمات:

بِعِشْـرَتِـكَ الكِـرامَ تُعَـدُّ مِنْهُـمْ فَـلا تُـرِيَـنْ لِغَيْـرِهِـمُ أُلُـوفـا

ولا تجد المرأة المسلمة الواعية المستنيرة غضاضة من معاشرة الصالحات من النساء، ولو كنّ في الظاهر دون مستواها الاجتماعي

---

(١) أي بيّناً ظاهراً.

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٣٦٠ كتاب الأدب: ٢١، وإسناده صحيح.

(٣) الكهف: ٢٨.

أو المادي؛ فالعبرة بجوهر الشخصية، لا بمظهرها وشكلها وثرائها؛ فقد سعى نبيُّ الله موسى عليه السلام وراءَ العبد الصالح ليتعلم منه، قائلاً له بكل تواضع وأدب: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[(١)]. وعندما أجابه العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾[(٢)]، قال له موسى عليه السلام بودّ بالغ وأدب جمّ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾[(٣)].

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية، وهي تختار صديقاتها من صالحات النساء، أن الناس كالمعادن، منها النفيس ومنها الخسيس، وكذلك الناس، بذلك أخبر الرسول الكريم في تصنيفهم وتبيان معادنهم:

«النّاسُ مَعادِنُ كَمعادِنِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ، خِيارُهُمْ في الجاهِلّيةِ خِيارُهُمْ في الإسلام إذا فَقُهوا، والأَرْواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعارَفَ منها ائْتَلَفَ، وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ»[(٤)].

وإنها لتعلم من هَدْي دينها أن الجليسات صنفان: جليسة صالحة، وجليسة سوء، فالجليسة الصالحة كحاملة المسك، تهب جليستها الشَّذَى والطِّيبَ والعَبيرَ الفَوّاح، وجليسة السوء كنافخ الكير، لا تجلب لجليستها إلاّ الشُّواظَ والدُّخانَ واللَّهَبَ والنَّتْنَ والكآبَةَ. وقد مثّل ذلك رسول الله ﷺ أروع تمثيل بقوله:

---

(١) الكهف: ٦٦.

(٢) الكهف: ٦٧.

(٣) الكهف: ٦٩.

(٤) صحيح مسلم ١٦/ ١٨٥ كتاب البر والصلة والآداب: باب الأرواح جنود مجنّدة.

«إنّما مَثَلُ الجَليسِ الصّالح وجَليس السُّوءِ: كَحامِلِ المِسْكِ ونافخ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ: إمّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإما أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإمّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً. ونافِخُ الكِيرِ: إمّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً مُنْتِنَةً»[١].

ومن هنا كان الصحابة الكرام يحرصون على زيارة أهل الخير من الصالحين والصالحات الذين يذكّرون بالله واليوم الآخر، ويرقّقون القلوب، ويستدرّون دموع الخشية والعظة والاعتبار من المآقي. وفي ذلك يروي أنس رضي الله عنه هذه القصة الواقعة:

«قالَ أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي ﷺ: انطلقْ بِنا إلى أُمِّ أَيْمَنَ[٢] نَزورُها كما كانَ رسولُ الله ﷺ يزورها. فلما انتهيا إليها بَكَتْ، فقالا لها: ما يُبكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لِرسولِ الله ﷺ، فقالَتْ: ما أَبْكِي أَنْ لا أكونَ أَعْلَمُ أنَّ ما عندَ اللَّهِ خيرٌ لِرسولِ الله ﷺ، ولكنْ أَبْكي أَنَّ الوَحْيَ قدِ انقطعَ من السَّماءِ، فَهَيَّجَتْهُما على البُكاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيانِ مَعَها»[٣].

إن مجالس الصالحات من النساء التي يُذكَر فيها الله، وتدور الأحاديث النافعة الجادة، تحفّها الملائكة، ويظلّلها المولى سبحانه برحمته؛ وبمثل هذه المجالس تزكو النفوس، وتنجلي العقول، وتُصْقَل الأرواح؛ فخليق بالنسوة المؤمنات الصالحات أن يكثرن منها، ويجنين ثمارها اليانعة، نفعاً وفائدةً في الدنيا، ومقاماً محموداً في الآخرة.

---

(١) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٢١١ باب زيارة أهل الخير ومجالستهم.

(٢) هي حاضنة رسول الله وخادمته في طفولته، أعتقها النبي ﷺ حين كبر، وزوّجها زيد بن حارثة وكان يكرمها، ويبرّها، ويقول: «أم أيمن أمي».

(٣) صحيح مسلم ١٦/ ٩ كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أم أيمن.

تَسْعَى بِالصُّلْحِ بينَ المُسْلِماتِ:

يتميّز المجتمع الإسلامي بأنه المجتمع الذي تسوده الأخوّة، وتعمره المودّة، ويشيع فيه التواصل والتفاهم والتسامح والصفاء.

على أن هذا المجتمع على فضله وتميّزه، يبقى مجتمعاً بشرياً، لا يخلو في بعض الأحيان من المنازعات والمشاحنات، تدب بين بعض أفراده، فيكون الشقاق والتخاصم والمقاطعة.

بيد أن هذه المنازعات التي تذرّ قرنها أحياناً في المجتمع الإسلامي لا تلبث أن تزول، بما يتلقّى أفراد هذا المجتمع من هَدْي سماوي محكم، يؤصّل الأخوة والمودّة والتقارب، ويجتثّ شأفة العَداء والكراهية والتقاطع، وبفضل المساعي الخيّرة التي حضّ الإسلام أبناءه على القيام بها للصلح بين المسلمين والمسلمات، كلما ذرّ قرن الفتنة بين الأخلّاء، ونزغ الشيطان بين الإخوة، وحدث بينهم تقاطع وخصام. ولقد رأينا فيما سبق أن الإسلام حرّم على المسلمَيْنِ المتنازعَيْنِ أن يتقاطعا أكثر من ثلاثة أيام:

«لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أنْ يَهْجُرَ مُؤْمِناً فوقَ ثلاثَةِ أيّام، فإذا مرَّتْ ثَلاثةُ أيّام فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عليهِ، فإنْ رَدَّ عليه السَّلامَ فقد اشْتَركا في الأَجْرِ، وإنْ لم يَرُدَّ عليهِ فَقَدْ بَرِىءَ المُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَةِ[١]»[٢].

وأمر المسلمين والمسلمات أن يصلحوا بين الطائفتين المتنازعتين:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ

---

(١) أي من إثم الهجرة.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٥٠٥ باب إن السلام يجزىء من الصرم.

فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾(١).

ذلك أن مجتمع المؤمنين والمؤمنات ينبغي أن يسوده العدل والحب والوئام، وترفّ فيه الأخوّة بنداها العطر:

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(٢).

ومن هنا كانت المرأة مطالبة بالإصلاح بين الأخوات المتنازعات المتخاصمات، عملاً بهَدْي الإسلام الحنيف. وقد رخّص الإسلام لها أن تتزيّد في أقوالها ابتغاء استمالة النفوس المتخاصمة المتنافرة، وتليين القلوب المتصلّبة المتحجّرة، ولم يعدّ هذا الترخّص من الكذب الحرام الآثم قائلُه. ونجد هذا في حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط رضي الله عنهما، قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليسَ الكَذّابُ الذي يُصلِحُ بينَ النّاسِ، فَيَنْمي خَيْراً(٣)، أو يقولُ خيراً»(٤). وفي رواية لمسلم زادت: «ولم أسمعه يُرَخِّصُ في شيء مما يقُوله الناسُ إلاّ في ثَلاث: تعني الحربَ والإصلاحَ بين الناس وحديثَ الرجل امرأتَه، وحديثَ المرأة زوجَها»(٥).

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) أي يبلغ خبراً فيه خير.

(٤) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٦٨٧ كتاب الأمور المنهي عنها: باب بيان ما يجوز من الكذب.

(٥) صحيح مسلم ١٦/١٥٧ كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه.

تُخالِطُ النِّساءَ وتَصْبِرُ على أذاهُنَّ:

والمرأة المسلمة الصادقة العاملة صاحبة قضيّة، وحاملة رسالة، ورائدة دعوة؛ ومَنْ تَصدَّى لهذه المهمات الجسام فعليه أن يوطّن نفسه على الصبر والثبات والتضحية في سبيلها.

لا بد للمرأة المسلمة العاملة من الصبر على مواقفِ بعض النساء وردودِ أفعالهنّ الفجّة، وسوءِ تقديرهنّ لمهمتها النبيلة، وسخريةِ بعضهنّ من الدعوة إلى الالتزام بآداب الإسلام وأحكامه، وخَطَلِ آرائهنّ وسطحيّة تفكيرهنّ، وبطْءِ استجابتهنّ إلى الحق، ودورانِهنّ حول ذواتهنّ ومصالحهنّ، واهتماماتِهنّ السّخيفة الرعناء، وانصرافِهنّ إلى الدنيا وما فيها من لهو ولعب، دون حساب للآخرة ولا وقوف عند أوامر الدّين، إلى غير ذلك مما قد يبدر من البشر من تفاهات، تضيق لها صدور الداعيات، فإذا أنفسهنّ تحدثهنّ في لحظات الضّيق والسَّأَم والإعياء بالاعتزال والانزواء وترك العمل في سبيل الله. هذا ما يواجهه الدعاة من رجال ونساء في كل زمان ومكان.

لهذا، كان رسول الله ﷺ يشدّ من عزمات الدعاة العاملين، ويربط على قلوبهم، ويثبّت منهم الأقدام، فيعلن أن الصابرين والصّابرات في درب الدعوة الشائك الطويل خيرٌ من الذين لا يصبرون في ميزان التقوى والعمل الصالح:

«المُؤْمِنُ الذي يُخالِطُ النّاسَ ويَصْبِرُ على أَذاهمْ خيرٌ مِنَ الذي لا يُخالِطُ النّاسَ ولا يَصْبِرُ على أَذاهُمْ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٤٧٨/١ باب الذي يصبر على أذى الناس.

كان رسولُ الله ﷺ والأنبياء من قبله آية في الصبر على رعونات الناس وتخرّصاتهم وتفاهاتهم، ما أحوجَ الدعاةَ من الرجال والنساء إلى الوقوف عندها، كلما نَفِدَ صبرُهم، وضاقت صدورهم، بما يلقون من الناس من جحود وأذًى وكفران.

ومن نماذج ذلك الصبر الكبير ما رواه الشيخان من أن النبي ﷺ قسم قِسْمةً كبعض ما كان يقسم، فقال رجلٌ من الأنصار: واللَّهِ إنها لَقِسْمَةٌ ما أُريدَ بها وجهُ الله عزّ وجل. وبلغت تلك القالةُ الظالمةُ مسامعَ الرسول الكريم فشقّ ذلك عليه، وتغيّر وجهُه، وغضب، ثم قال: «قَدْ أُوذِيَ موسى بأكثَرَ مِنْ ذلكَ فَصَبَرَ».

بهذه الكلمات القليلة سكت عن الرسول الكريم الغضب، وانقشع الغيظ، وهدأت النفسُ الكريمةُ السمحةُ الصَّفوحُ.

إنه خلق الأنبياء والدعاة الصادقين في كل زمان ومكان، وهو الصبر على أذى الناس وتخرّصاتهم وأقاويلهم، وبدونه لا تستمر دعوة، ولا يثبت دعاة.

والمرأة المسلمة الداعية الحصيفة لا تنقصها اللباقة ولا يعوزها الذكاء في تقدير نفسيّات المخاطبات ومداركهنّ ومستوياتهنّ الفكرية والاجتماعية، ومخاطبة كل صنف بالأسلوب الذي يناسبه، ويجدي في جذبه والتأثير فيه.

تُقَدِّرُ المَعْروفَ وتَشْكُرُ عَلَيْهِ:

ومن سجايا المرأة المسلمة الصادقة أنها وفيّة، تقدّر المعروف، وتشكر مَنْ أَسْدَتْهُ إليها، وتشجّع عليه، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«منْ صُنِعَ إليهِ مَعْروفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزاكَ اللَّهُ خيراً، فقد أبلغَ في الثّناءِ»(١).

وقوله: «مَنِ اسْتَعاذَ باللَّهِ فأَعيذوهُ. . . ومَنْ أَتَى إليكمْ مَعْروفاً فَكافِئوهُ»(٢).

إن الشكر على المعروف في تصوّر المرأة المسلمة النابهة دينٌ حضّ عليه الهَدْي النبوي الكريم، وليس خليقة اجتماعية متقلّبة، تتحكّم فيها الأمزجة والأهواء والمصالح.

فصاحبة المعروف في اعتقاد المرأة المسلمة جديرة بالشكر، وإن لم تتحقق المنافع والمصالح على يديها؛ فحسبها أنها استجابت لداعي الخير والبرّ والنبل والمروءة، وأقبلت على فعل المعروف، فاستحقت عليه الشكر النابع من القلب، وهذا ما يريده الإسلام من المسلمين والمسلمات: الشكر على التوجّه النبيل، والاستجابة لداعي المروءة، والمبادرة إلى صنع المعروف، بصرف النظر عن النتائج وما تسفر عنه من تحقق المصالح والمنافع والرغبات.

ولقد بلغ من حرص الإسلام على تأصيل خليقة تقدير المعروف والشكر عليه في نفس المسلم أنه جعل شكر الله لا يتم على الوجه الأكمل إلاَّ بشكر الناس على ما قدّموه من معروف؛ فالنفسية التي لم تألف شكر مَنْ أسدى إليها معروفاً من الناس؛ هي نفسيةٌ جحودٌ كَنودٌ كَفورٌ، لا تقدّر النِّعم والفضائل وصنيعة الخير، ولا تشكر عليها، فهي غير مؤهَّلة لشكر الله تعالى، واهب النِّعم والفضائل والخيرات. وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ:

---

(١) حديث حسن جيد غريب، رواه الترمذي ٤/ ٣٨٠ كتاب البر والصلة: ٨٧.

(٢) رواه أبو داود ٢/ ١٧٢ كتاب الزكاة: ٥٤٨، وأحمد ٢/ ٦٨، وإسناده صحيح.

«لا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النّاسَ»[(١)].

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة النبيهة أن في شكر مَنْ أسدت إليها معروفاً إشاعةً لفعل الخير، وتشجيعاً عليه، وترغيباً فيه، وفيه أيضاً تعويدٌ للإنسان على حفظ اليد، وتقدير المعروف، والاعتراف بالجميل. وهذا كله من شمائل الشخصية المسلمة الراقية التي يحرص الإسلام على صياغتها وتكوينها في المجتمع الإسلامي.

تَعـودُ المَرْضَـى:

عيادة المرضى من العادات الاجتماعية الإسلامية المستحسنة التي أرسى قواعدها الرسول ﷺ، وجعلها واجباً على المسلمين والمسلمات، وحقّاً لكل مسلم على أخيه، إن قصّر فيه أو غفل عنه، فهو آثم مفرّط ظالم لنفسه، كما بين رسول الله ﷺ بقوله:

«حَقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلامِ، وعِيادَةُ المَرِيضِ، واتّباعُ الجَنائِزِ، وإجابةُ الدَّعْوةِ، وتَشْميتُ العاطِسِ»[(٢)].

وفي رواية قال رسول الله ﷺ:

«حَقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ سِتٌّ: قيلَ: ما هُنَّ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «إذا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عليهِ، وإذا دَعاكَ فَأَجِبْهُ، وإذا اسْتَنْصَحَكَ فانْصَحْ لَهُ، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإذا ماتَ فَاتَّبِعْهُ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٣١٠ باب من لم يشكر الناس.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٥٢ باب عيادة المريض.

(٣) صحيح مسلم ١٤/ ١٤٣ كتاب السلام: باب من حق المسلم للمسلم رد السلام.

فالمرأة المسلمة الراشدة إذ تعود المريض لا تعدّ عملها تفضّلاً أو تطوعاً أو مجاملة، وإنما تعدّه قياماً بواجب إسلامي، حضّ عليه الدين الحنيف بأمر من رسول الله ﷺ القائل:

«أَطْعِموا الجائِعَ، وعُودوا المَريضَ، وفُكُّوا العَاني[1]»[2].

والقائل أيضاً فيما يروي البراء بن عازب رضي الله عنه:

«أَمَرَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ بِعِيادَةِ المَريضِ، واتّباعِ الجَنازةِ، وتَشْميتِ العاطِسِ، وإِبْرارِ المُقْسِمِ، ونَصْرِ المظلومِ، وإجابَةِ الدّاعي، وإفْشاءِ السَّلامِ»[3].

والمرأة المسلمة المستنيرة بتعاليم دينها إذ تعود المريض لا تجد في عيادتها هذه ثقلاً أو تبرماً أو تضجّراً، لما يكتنف جو المرضى من كآبة وسُقْم وأحزان وهمّ وكَرْب، وإنما تحسّ في زيارتها للمرضى انتعاشاً روحياً ممتعاً، ونشوة نفسية غامرة، لا يحسّهما إلاّ مَنْ تدبّر معاني الحديث الشريف الرائع الذي يصوّر جلالة هذه العيادة وما تشتمل عليه من خير وثواب وبركات:

قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ يقولُ يومَ القِيامَةِ: يا بنَ آدمَ مَرِضْتُ فلَم تَعُدْني! قالَ: يا ربِّ كيفَ أَعودُكَ وأنتَ ربُّ العالمينَ؟! قالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدي فُلاناً مَرِضَ فلَمْ تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنّكَ لو عُدْتَهُ لَوجَدْتَني عندَه؟! يا ابنَ آدمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فلَمْ تُطْعِمْني! قالَ: يا ربِّ كيفَ أُطْعِمُكَ وأنتَ

---

(١) أي الأسير.

(٢) فتح الباري ٩/٥١٧ كتاب الأطعمة: باب كلوا من طيبات ما رزقناكم.

(٣) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٥١ كتاب عيادة المريض: باب عيادة المريض.

ربُّ العالمينَ؟! قالَ: أَما علمتَ أنهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدي فلانٌ فلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَما عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي؟ يا ابنَ آدمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فلَمْ تَسْقِني! قالَ: يا ربِّ كيفَ أَسْقيكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قالَ: اسْتسقاكَ عَبْدي فُلانٌ فلَمْ تَسْقِهِ، أَما عَلِمْتَ أنّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي؟»(١).

فما أَبْرَكَها من عيادة! وما أَجَلَّها من زيارة! وما أَعْظَمهُ من عمل! تقوم به المرأة المسلمة تجاه أخواتها المستضعفات المريضات، فإذا هي في حضرة ربّ العزّة، يشهد عملها الجليل، ويثيبها عليه الثواب الجزيل، وهل هناك أجلّ وأعظم وأبرك من زيارة يشرّفها ويباركها ويحضّ عليها ربّ السماوات والأرض؟

وما أكبرَها من شقوة! تحيق بالمرأة المتقاعسة عن هذه العيادة، وما أشدَّها من خسارة تحلّ بها! وما أبشَعَها من مؤاخذة يعلنها ربّ العزة على رؤوس الأشهاد:

يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني! أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدي فُلاناً مَرِضَ فلَمْ تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَني عِنْدَهُ؟!

وندع الخيال يتصور مرارة الندم والخيبة والخجلة التي تحزّ في نفس المقصّرة المتقاعسة عن عيادة أختها المريضة، ولاتَ ساعةَ مَنْدَم.

إن المريض في المجتمع الإسلامي ليحسّ في ساعة الشدّة والكرب أنه ليس وحده، وأن عواطف العُوّاد من حوله ودعواتهم تغمره وتخفف من بلواه، وهذه ذروة الرقي الإنساني، وقمة سموّ المشاعر الإنسانية. ولم تعرف

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ١٢٥ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل عيادة المريض.

أمة في التاريخ هذا الريّ العاطفيّ، وهذا التجاوب الاجتماعي كما عرفتهما أمة الإسلام.

إن الإنسان المريض في الغرب قد يجد المستشفى الذي يضمه، والطبيب الذي يسعفه ويداويه، ولكنه قلما يجد اللمسة الحانية، والكلمة الشافية، والبسمة المنعشة، والدعوة المخلصة، والمشاركة الوجدانية الصادقة.

ذلك أن الفلسفة المادية التي غشيت حياة الغربيين، أطفأت فيها نورانية العاطفة الإنسانية، وغطّت شفافية الشعور الأخوي، وحجبت الإنسان عن الدوافع غير المادية لفعل الخير.

إنَّ الإنسان الغربي ـ في الأعمّ الأغلب ـ لا يحسّ بأي دافع يدفعه لعيادة المريض، إذا لم تربطه به مصلحة تعود عليه بالنفع المادي العاجل أو الآجل، في حين نجد الإنسان المسلم مندفعاً لِعيادة المريض ابتغاء الثواب الذي أعدّه الله لِمنْ غبّر قدمه في هذا السبيل.

والنصوص في ذلك كثيرة، تفجّر في النفس ينابيع الشعور الأخوي، وتدفع الإنسان لزيارة المريض دفعاً من أعماق الوجدان. ومن هذه النصوص قولُ الرسول ﷺ:

«إنَّ المُسْلِمَ إذا عـاد أخَاهُ المُسْلِـمَ لَمْ يَـزَلْ في خُرْفَـةِ الجَنَّـةِ[1] حتّى يَرْجِعَ»[2].

---

(١) أي جناها.

(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٢٥ كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل عيادة المريض.

وقولُه:

«ما مِنْ مُسْلِمٍ يَعودُ مُسْلِماً غُدْوَةً[(١)] إلاّ صَلَّى عليهِ سَبْعونَ أَلْفَ مَلَكٍ حتّى يُمْسي، وإنْ عادَهُ عَشِيَّةً إلاَّ صَلَّى عليهِ سَبْعونَ أَلْفَ مَلَكٍ حتّى يُصْبِحَ، وكانَ لَهُ خَرِيفٌ في الجَنَّةِ[(٢)]»[(٣)].

ولقد كان رسول الله ﷺ يدرك ببصيرته النافذة الخبيرة بالنفس الإنسانية ما لعيادة المريض من أثر نفسي في المريض وفي آله، ومن هنا كان لا يتوانَى في عيادة المرضَى، وإسماعهم أرقَّ عبارات الدعاء والمواساة، حتى إن نفسَه الشريفةَ لَتَسْمو فتقود خَطْوَهُ لعيادة غلام يهودي كان يخدمه، وفي ذلك يقول أنس رضي الله عنه:

«كان غُلامٌ يَهودِيٌّ يخدم النبيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتاهُ النبي ﷺ يعودُهُ، فَقَعَدَ عِندَ رَأْسِهِ، فقالَ لهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إلى أبيهِ وهُوَ عندَهُ، فقالَ: أَطِعْ أَبا القاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النبيُّ ﷺ، وهُوَ يقولُ: الحمدُ للّهِ الذي أَنْقَذَهُ مِنَ النّارِ»[(٤)].

لم يفت النبي ﷺ، وهو يعود هذا الغلامَ اليهودي المريض، أن يدعوه إلى الإسلام، إذ كان يدرك وقع زيارته الشريفة في نفس الغلام وأبيه اللّذين غمرهما الرسول بكرمه وفضله ولطفه وحسن تأتّيه، فإذا هما يستجيبان لأمر الرسول الكريم، وإذا العيادة تثمر هداية، ويخرج الرسول الكريم منها،

---

(١) أي صباحاً.

(٢) الخريف: الثمر المَخْروف، أي المجتَنَى.

(٣) رواه الترمذي ٣/ ٢٩٢ في كتاب الجنائز: ٢، وقال: حديث حسن.

(٤) فتح الباري ٣/ ٢١٩ كتاب الجنائز: باب هل يعرض على الصبيّ الإسلام؟

ولسانه يلهج بحمد الله أن انقذ به نفساً من النار، فيا لَلرّسولِ الإنسان العظيم! ويا لَلدّاعية الهادي اللّبِق الحكيم!

ومن حفاوة الرسول الكريم بعيادة المريض واهتمامه بشأنها أنه وضع لها أُصولاً وسَنَناً، حفظها عنه الصحابة الكرام، وسجّلَتْها السُّنّةُ المطهَّرةُ.

ومنها الجلوسُ عند رأس المريض كما رأينا في عيادته الغلامَ اليهوديّ، وكما أخبر بذلك ابن عباس رضي الله عنه بقوله:

«كانَ النبيُّ ﷺ إذا عادَ المريضَ جَلَسَ عندَ رَأسِهِ، ثم قالَ سبعَ مِرارٍ: أَسْأَلُ اللّهَ العَظيمَ، رَبَّ العَرْشِ العظيم، أنْ يَشْفِيَكَ»[١].

ومنها مسحُه جسمَ المريض بيده اليمنى والدعاء للمريض، كما تروي السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة:

كانَ النبيُّ ﷺ يَعودُ بعضَ أَهْلِه، فَيَمْسَحُ بِيَدِهِ اليُمْنَى ويقولُ: اللَّهُمَّ رَبَّ النّاسِ، أَذْهِبِ البَأْسَ، اِشْفِ، أنتَ الشّافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، وكانَ إذا دخل على مَنْ يعوده قال:

«لا بأسَ، طَهورٌ[٣] إنْ شاءَ اللّهُ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٦٣٣ باب أين يقعد العائد.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين: ٤٥٤ كتاب عيادة المريض: باب فيما يدعى به للمريض.

(٣) أي مرضك مُطَهِّر لذنبك.

(٤) فتح الباري ١٠/ ١١٨ كتاب المرضى: باب عيادة الأعراب.

إن المرأة المسلمة التي أرهف الإسلام مشاعرها، وفجر في قلبها ينابيع الإنسانية النبيلة، لَتسارع إلى عيادة المريض متى سمعت به، غير متباطئة ولا متثاقلة ولا مُتَلَكِّئَة، لما لهذه العيادة من معنى نبيل تحسّه في أعماقها، صوّرته النصوص الصحيحة من حديث رسول الله ﷺ، وترجَمتْه النساءُ الفضليات في صدرالإسلام، سلوكاً عملياً إنسانياً حميداً، لم يقتصر على عيادة النساء فحسب، بل تعدّاه إلى عيادة الرجال أيضاً في إطار من التسترّ والحشمة وأمن الفتنة.

ففي صحيح البخاي أن أم الدرداء عادت رجلاً من أهل المسجد من الأنصار.

وفيه أيضاً: حدثنا قتيبة، عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، قالت: فدخلتُ عليهما. قلت: يا أبتِ كيفَ تَجِدُكَ؟ ويا بِلالُ كيف تَجِدُكَ؟»[١]

لقد أدركت المرأة المسلمة في صدر الإسلام معنى عيادة المريض، وما تحمل في طيّاتها من تواصل وتوادّ وتراحم وتعاطف وتكافل، فسارعت إلى القيام بهذا الواجب النبيل، تجبر كسر المَهيض، وتكفكف عبرة المحزون، وتجلو غاشية الكرب، وتوثّق عرى الأخوّة، وتفجّر نبع المودّة، وتواسي نفس المكروب. وخليق بالمرأة المسلمة المعاصرة أن تتأسّى بها في إحياء هذه السنّة الإسلامية الإنسانية الحميدة.

---

(١) فتح الباري ١٠/١١٧ كتاب المرضى: باب عيادة النساء الرجال.

لا تَنوحُ على المَيِّتِ:

والمرأة المسلمة الواعية أحكام دينها، المستنيرة بهَدْيه الحكيم، بصيرةٌ متّزنة متماسكة، إذا فُجِعَتْ بموت أحد أحبّائها لا يستلب الحزن صوابها، ولا يفقدها السيطرة على نفسها، كما هو حال النساء الجاهلات الخفيفات الجَزِعات، بل تصبر وتحتسب، وتأخذ بهَدْي الإسلام في تصرّفاتها كلّها في تلك الساعات العصيبة.

إنها لا تنوح على الميت البتة؛ لأن النياحة ليست من أعمال المسلمين، وإنما هي من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. وقد اشتدت النصوص في تغليظ تحريم النياحة، حتى عدَّتْها كفراً:

«اثْنَتانِ في النّاسِ هُما بهمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ في النَّسَبِ، والنِّياحَةُ على المَيِّتِ»[1].

ولقد أخرج الرسول ﷺ النائحين والنائحات والنادبين والنادبات من زمرة المسلمين في قوله: «ليس منّا مَنْ ضَرَبَ الخُدود، أو شَقَّ الجُيوب[2]، أو دَعا بِدَعْوَى الجاهِلِيَّة»[3].

إن المسلمة البصيرة بأحكام دينها لَتُؤْمِنُ أن الموتَ حقٌّ. وأن كلَّ مَنْ عليها فانٍ، وأن الحياة ممرٌّ إلى الآخرة، حيثُ الخُلُودُ في جوار ربِّ

---

(١) صحيح مسلم ٢/٥٧ كتاب الإيمان: باب إطلاق الكفر على الطعن في النسب والنياحة.

(٢) الجيب: فتحة الصدر.

(٣) متفق عليه. انظر شرح السنة ٥/٤٣٦ كتاب الجنائز: باب النهي عن النياحة والندب.

العالمين. ومن هنا لا معنى لهذا الجزع الأهوج الذي يفقِد فيه الإنسانُ توازنَه، ويطيش صوابه، فإذا هو يضرب وجهه، ويمزّق ثيابه، ويصيح بالويل والندب والتهويل.

وقد فقه الصحابة هذا الحكم الشرعي، وهم حديثو عهد بجاهلية، فكانوا ينهون نساءهم عن الندب ورفع الصوت والعويل وشقّ الثياب، مما كانت تفعله النساء في الجاهلية، مبينين أن الإسلام لا يقبل أعمال الجاهلية، ولا يرضى أبداً أن تذرّ قرنها بين الحين والحين، وكانوا يتبرّأون منها كما تبرّأ رسول الله ﷺ:

فعن أبي بُرْدَة بن أبي موسى قال: وَجِع أبو موسى وَجَعاً، فغُشِيَ عليه، ورأسُهُ في حَجْر امرأةٍ من أهله، فصاحت امرأةٌ من أهله، فلم يستطع أن يردّ عليها شيئاً. فلما أفاقَ قال: «أنا بريءٌ مما برىء منه رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ بَرِيءَ من الصّالِقَة[١] والحالِقَة[٢] والشّاقّة[٣]»[٤].

على أن الإسلام الذي حرّم أفعال الجاهلية الهوجاء، كلطم الخدود وشقّ الثياب والنياحة والندب، أقرّ الحزن يعتلج في القلب، والدمع الهتون ينسكب من العين، على الميت الحبيب الراحل؛ فهذا كله من العاطفة الإنسانية المشروعة المركوزة في النفوس، والرحمة الربّانية الشّفيفة التي غرسها الله في القلوب. وقد عبّر عن هذا كله رسول الله ﷺ بقوله وفعله.

---

(١) أي التي ترفع صوتها عند المصيبة.

(٢) أي التي تحلق شعرها عند المصيبة.

(٣) أي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١١٠ كتاب الإيمان: باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب..

فعن أسامة بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً لها أو ابناً لها في الموت، فقال الرسول: اِرْجِعْ إليها فأخبرْها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلّ شيء عنده بأجل مسمى، فمُرْها فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ. فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمَتْ لتأتينَّها، قال: فقام رسول الله ﷺ، وقام معه سعدُ بن عبادة ومُعاذ بن جَبَل، وانطلقت معهم، فَرُفِعَ إليه الصبيُّ، ونفسُه تَقَعْقَعُ كأنّها في شَنَّةٍ[(١)]، ففاضتْ عيناهُ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قالَ: «هذهِ رَحْمَةٌ جَعَلَها اللّهُ في قُلوبِ عِبادِهِ، وإنّما يَرْحَمُ اللّهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماء»[(٢)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتى رسولُ الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود. فلما دخل عليه وجده في غَشِيَّةٍ[(٣)]، فقال «أَقَدْ قَضَى؟» قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ. فلما رأى القومُ بكاءَ رسولِ اللّهِ ﷺ بَكَوْا، فقال: «ألا تَسْمَعونَ؟ إنَّ اللّهَ لا يُعَذِّبُ بدمعِ العينِ ولا بحزنِ القلبِ، ولكنْ يُعَذِّبُ بهذا ــ وأشارَ إلى لسانِهِ ــ أو يَرْحَمُ»[(٤)].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم، وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال:

---

(١) أي لها صوت وحشرجة كصوت الماء إذا أُلقِيَ في القربة البالية.

(٢) صحيح مسلم ٦/ ٢٢٤، ٢٢٥ كتاب الجنائز: باب البكاء على الميت.

(٣) أي ما يغشاه من كرب الموت، ويروى: غَشِيَّة وغَشْيَة وغاشية.

(٤) متفق عليه. انظر شرح السنة ٥/ ٤٢٩ كتاب الجنائز: باب البكاء على الميت.

«يا ابنَ عَوْفٍ، إنَّها رَحْمَةٌ» ثم أَتْبَعَها بأُخْرَى، فقالَ: «إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرْضي رَبَّنا، وإنَّا لِفِراقِكَ يا إبْراهيمُ لَمحْزونون»[١].

لقد أقرّ رسولُ الله ﷺ التعبير عن الحزن بانسياب دمع العين، إذ لا قِبَلَ للإنسان بحبسه عند المصيبة، ونهى عن كل فعل يزيد نار الحزن اشتعالاً؛ ذلك أن انسكاب الدمع بعفوية واعتدال يساعد على إطفاء جمرة الحزن، ويعين على التخفيف من توهّج وَقْدَة الألم، ويسعف في التهوين من وقع المصيبة، أما النَّدْب والنِّياحة والعويل والتصويت، وما إلى ذلك من أعمال الجاهلية، فكلّ ذلك يزيد في ضرام الحزن، ويؤجج نيران الألم، ويزيد في شيوع الهلع والجزع والانهيار في النفوس، وهذا ما كانت تفعله العرب في الجاهلية؛ إذ كانوا يوصون به، فينوحون على الميت، ويندبونه بتعداد شمائله ومحاسنه، ويهوّلون من وقع المصيبة، ومنه قولُ طَرَفَة بن العَبْد[٢]:

فَإنْ مُتُّ فانْعَيْني بِما أنا أَهْلُهُ ... وشُقّي عَلَيَّ الجَيْبَ يابْنَةَ مَعْبَدِ

ولا تَجْعليني كَامْرِئٍ ليسَ هَمُّهُ ... كَهَمّي، ولا يُغْني غَنائي ومَشْهَدي

وهذا كله مما حرّمه الإسلامُ واشتدّ في تحريمه؛ إذ فيه تبديدٌ لطاقة الإنسان، ومخالفةٌ للتسليم بقضاء الرحمن، وفتحٌ لباب الغَواية والفتنة للشيطان، وقد أشار إلى هذا الرسول ﷺ في الحديث الذي روته أم سَلَمة

---

(١) رواه الشيخان. انظر رياض الصالحين: ٤٦٣ كتاب عيادة المريض: باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة.

(٢) معلّقة طرفة: ٩٣، ٩٤، وانظر كتاب طرفة بن العبد: حياته وشعره لمؤلف هذا الكتاب ص ١٢٦.

رضي الله عنها، قالت: لما مات أبو سَلَمة قلت: غريبٌ، وفي أرض غربة، لأَبْكِيَنَّهُ بكاءً يُتَحَدَّثُ عنه، فكنتُ قد تَهَيَّأْتُ للبكاء عليه، إذ أقبلت امرأةٌ من الصعيد(١)، تريد أن تُسْعِدَني(٢)، فاستقبلها رسول الله ﷺ، وقال: أتريدين أن تدخلي الشيطان بيتاً أخرجه الله منه مرتين(٣)؟ فكففتُ عن البكاء، فلم أَبْكِ»(٤).

ولقد بلغ من اهتمام رسول الله ﷺ في تحريم النياحة في أوساط النساء خاصّةً أنه كان حين يأخذ البيعة من النساء يطلب منهنّ أن يعاهدنه على تحريم النوح وتجنّبه، وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن أمّ عطيّة، قالت:

«أَخَذَ علَيْنا رسولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ البَيْعَةِ أَلاّ نَنوحَ»(٥).

وفي رواية أخرى لمسلم عن أم عطيّة أيضاً، قالت: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا... وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قالَتْ: كانَ مِنْهُ النِّياحَةُ»(٦).

(١) أي من عوالي المدينة.

(٢) أي تساعدني في البكاء والنوح.

(٣) المرة الأولى: حينما أسلم أبو سَلَمة روحه ضجّ ناسٌ من أهله، فقال لهم رسول الله ﷺ: لا تدعوا على أنفسكم إلاّ بخير، فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون، ثم دعا لأبي سلمة. والمرة الثانية: عندما حدَّثتْ نفسُ أم سلمة أن تبالغ في البكاء عليه، ثم كفّت عن ذلك.

(٤) صحيح مسلم ٦/ ٢٢٤ كتاب الجنائز: باب البكاء على الميت.

(٥) فتح الباري ٣/ ١٧٦ كتاب الجنائز: باب ما يُنْهَى من النوح والبكاء، وصحيح مسلم ٦/ ٢٣٧ كتاب الجنائز: باب تحريم النياحة.

(٦) صحيح مسلم ٦/ ٢٣٨ كتاب الجنائز: باب تحريم النياحة.

وتوعّد النائحةَ إذا لم تَتُبْ قبلَ موتها أن تُبعَثَ يوم القيامة في صورة بشعة مزرية مخيفة، وقد ارتدت سربالاً أسود من قَطِران، ودرعاً من جَرَب:

«النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قبلَ مَوْتِها تُقامُ يومَ القِيامَةِ وعَلَيْها سِرْبالٌ من قَطِرانٍ، ودِرْعٌ من جَرَبٍ»[1].

وأنذرها باحتجابها عن ملائكة الرحمة وحرمانها من دعائها لها، ما دامت مصرّةً على النِّياحة وتهييج الأحزان، وذلك في الحديث الذي رواه أحمد:

«لا تُصَلّي المَلائِكَةُ على نائِحَةٍ ولا مُرِنَّةٍ[2]».

وإزاء هذا الهَدْي الصريح القاطع بتحريم النِّياحة والعويل والندب وشقّ الجيوب، وما إلى ذلك من أعمال الجاهلية، لا يسع المرأة المسلمة التقيّة إلاّ الامتثال والإذعان لأمر الله ورسوله، والابتعاد عن كل ما يخدش حسنَ إسلامها ونقاءَ إيمانها بقضاء الله وقدره، ولا تكتفي بهذا، بل تدعو النساء الجاهلات أيضاً إلى الالتزام بشرع الله وأمره في تجنّب النِّياحة، بعد تبيان حكمِ الله ورسوله فيها

لا تَتْبَعُ الجِنازَةَ:

لا تتبع المرأة المسلمة المستنيرة بهَدْي دينها الجنازة، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ كما أخبرت أم عطيّة رضي الله عنها بقولها:

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٢٣٥ كتاب الجنائز: باب تحريم النياحة.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٦٢، ورجاله ثقات.

«نُهينا عَن اتِّباعِ الجَنائزِ، ولَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنا»[١].

فهي في هذه المسألة على النقيض من الرجل؛ فقد حضّ الإسلام الرجل على شهود الجِنازة وتشييعها حتى دفنها، على حين كره ذلك للمرأة، لما قد يترتّب على حضورها الجِنازة من مآخذ أو أوضاع غير لائقة بجلال الموت، وتشييع الميت، وما يصاحب التشييع حتى الدفن من عبرة وعظة للمُشَيِّعين، واستغفار للميت، واستحضار لمعنى الموت الذي يدرك كلَّ حيّ:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[٢].

وإذا كان الرسول ﷺ قد نهى النساء عن اتباع الجنائز نهي كراهة، ولم يعزم عليهنّ عزم تحريم، فإن نهيَه ﷺ كافٍ للمرأة المسلمة العاقلة الحصيفة، كي تأخذ به، وتمتثله وتسير عليه، مقدّمةً الدليل على حسن إسلامها، وصدق طاعتها لله ولرسوله وأخذها بالأَوْلَى من المواقف والأحكام.

❑ ❑ ❑

(١) فتح الباري ٣/ ١٤٤ كتاب الجنائز: باب اتباع النساء الجنائز، وصحيح مسلم ٢/٧ كتاب الجنائز: باب نهي النساء عن اتباع الجنائز.

(٢) النساء: ٧٨.

١١
خاتمة وتعْقيب

لقد تجسّدت في الصفحات السابقة شخصية المرأة المسلمة كما أراد لها الإسلام أن تكون، طبقاً لتوجيهاته لها في شتى جوانب الحياة، ووِفاقاً لهَدْيه الحكيم في صياغة عقلها وروحها ونفسيتها وأخلاقها وسلوكها. وقد نطقت بذلك كله الآيات البينات والأحاديث الصحيحة، محقّقة التوازن المحكم الدقيق في شخصيتها، بحيث لا يطغى جانب منها على جانب، وراسمة السلوك الأمثل في التعامل مع الوالدين والأقربين والزوج والأولاد والجيران والأخوات والصديقات، وغيرهنّ ممن تلقاهنّ في المجتمع الذي تعيش فيه.

وأظهرت الفصول السابقة أن المرأة المسلمة ليست مجرد قعيدة بيت، وحاضنة أطفال، ومدبّرة منزل فحسب، وإنما هي، بالإضافة إلى هذا كله، مربية أجيال، وصانعة أبطال، ورائدة دعوة، وعنصر وعي ونهضة وبناء في شتى شؤون الحياة، تقف إلى جانب الرجل في إعمار الكون، وإثراء الحياة، وإسعاد الوجود، وترطيب جفاف العيش.

وبدا جلياً لا غَبَشَ فيه أن المرأة المسلمة التي استنارت بهَدْي دينها امرأةٌ راقيةٌ مهذبة واعية نابهة منتجة بنّاءة طاهرة سامية، تعرف عن وعي

وبصيرة وإدراك واجباتها نحو ربّها، ونحو نفسها، ونحو والديها، ونحو زوجها وأولادها، ونحو أقربائها وذوي رَحِمها، ونحو جيرانها، ونحو أخواتها وصديقاتها، ونحو مجتمعها كله، بكل ما يضطرب فيه من أناس وأحداث ومعاملات.

فهي مؤمنةٌ بالله واليوم الآخر، متيقّظةٌ متنبّهةٌ لِفتَن الدنيا وأحابيل الشيطان، عابدةٌ ربَّها، مطيعةٌ أمرَه، مجتنبةٌ نهيَه، راضيةٌ بقضائه وقَدَره، أوّابةٌ إلى حمى ربّها، مستغفرةٌ إياه، إن زلّت بها القدم، أو غشيتها غاشية من غفلة أو تراخٍ أو تقصير. تشعر بمسؤوليتها أمام ربها عن أفراد أسرتها، حريصةٌ على مرضاة الله عز وجل في أي عمل تقوم به، متمثّلةٌ معنى العبودية لله والنصرة لدينه الحق، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في حدود استطاعتها وإمكاناتها.

وهي واعيةٌ واجبها نحو نفسها، مدركةٌ أنها إنسان مكوَّن من جسم وعقل وروح، وأن للجسم مكوّناته ومتطلّباته، وأن للعقل وللروح كذلك مكوّناتهما ومتطلباتهما، ولذا فهي تحرص على التوازن المحكَم بين جسمها وعقلها وروحها، فلا تنصرف إلى العناية بجانب من هذه الجوانب على حساب الجانب الآخر، بل تُعنَى بكل جانب من هذه الجوانب العناية المطلوبةَ لتحقيق الشخصية الإنسانية المتوازنة، مستهديةً في ذلك كله بهَدْي دينها الحكيم، من كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة السلف الصالح السائر على خطا الرسول الكريم بإحسان.

إنها لَتُعْنَى بمظهرها من غير إسراف ولا مبالغة ولا مَخِيلَة[١] ولا شَطَط،

(١) أي كِبرْ.

وتُعْنَى بمخبرها العناية اللائقة بالإنسان الذي كرّمه الله، وأسجد له ملائكته، وسخّر له ما في السموات والأرض، بحيث تبدو شخصيتها متّزنة معتدلة مُحبَّبة مستحسَنة، في شكلها وهيئتها، وفي عقلها وتفكيرها وسلوكها وتصرّفاتها وردود أفعالها.

ولا تصرفها عنايتها بجسمها وعقلها عن التفكير في شؤونها الروحية، بل تقبل على التربية الروحية إقبالها على التربية الجسمية والعقلية، فتصقل روحها بالعبادة والذكر وتلاوة القرآن، ومِلاك أمرها في ذلك كله التوازن المحكم الدقيق في جوانب شخصيتها جميعاً.

وهي بَرَّةٌ بوالديها، عارفةٌ قدرهما، وما يجب عليها نحوهما، شديدة الحساسية والخوف من عقوقهما، لا تدّخر وسعاً في اختيار أمثل الطرق وأرقى الأساليب في الإحسان إليهما، وإحاطتهما بكل ضروب الرعاية والتكريم والإجلال.

وهي مع زوجها مثال الزوجة العاقلة الحصيفة البارّة المطيعة المتسامحة الوَدود، الحريصة على رضاه، وعلى احترام أهله وإكرامهم، تكتم سرّه، وتعينه على البر والتقوى والعمل الصالح، وتملأ نفسه، وتشعره بالسعادة والسكن والطمأنينة.

وهي مع أولادها الأم الحانية الرَّؤوم، الواعية الحكيمة المدركة ضخامة رسالتها التربوية، المقدّرة مسؤولية الأمومة، وهي إذ تشعرهم بحبها وحنانها ورحمتها، لا تضنّ عليهم بالتوجيه السديد، ولا تُغْفِل تقويمهم إن احتاجوا إلى شيء من تقويم، لينشأوا النشأة الإسلامية المثلى التي تزرع في نفوسهم مكارم الأخلاق، وتغرس فيها حب المعالي من الأمور.

وهي مع كنائنها وأصهارها برّة عادلة حكيمة ناصحة، لا تتدخّل في الخصوصيات، تحسن التصرّف، وتعمل على توثيق عرى الودّ، ودفع غائلة الشرّ والخصومات.

وهي مع أقربائها وذوي رحمها واصلةٌ حبل الودّ، لا تَغفُل عن صلتهم والإحسان إليهم، وتحرص على دوام تلك الصلة وإن لم يصلوها، عملاً بهَدْي الإسلام الحنيف في توطيد أواصر القربى، وتفجير ينابيع المحبة والوداد.

وهي محسنةٌ إلى جيرانها، مُهْتَمَّةٌ بأمرهم، تعرف حقهم الكبير الذي أصّله جبريل الروح الأمين لرسول الله ﷺ حتى ظنّ الرسول الكريم أنه سيورّثهم. ولذا فهي تحب لهم ما تحب لنفسها، وتحسن معاملتهم، وتراعي مشاعرهم، وتتحمّل أذاهم، وتتغاضى عن هفَواتهم وأخطائهم، وتتحرّز من الإساءة إليهم، أو التقصير في حسن معاملتهم والإحسان إليهم.

وهي مع أخواتها وصديقاتها متميّزةٌ عن غيرها من النساء في بناء صِلاتها وعلاقاتها بهنّ على أساس من الحبّ في الله، وهو الحب الأسمى والأطهر والأنقى في حياة البشر؛ لأنه الحب المجرد عن كل منفعة، البريء من أي غرض، النقيّ من كل شائبة، المستمدّ صفاءه ونقاءه وشفافيته من مشكاة الوحي وهَدْي النبوة، ومن هنا كانت المرأة المسلمة في محبتها ومؤاخاتها لأخواتها صادقة مخلصة ناصحة متسامحة، حريصة على بقاء حبل الأخوّة والودّ موصولاً بينها وبينهنّ، لا تقاطعهنّ، ولا تهجرهنّ، ولا تغتابهنّ، ولا تجرح مشاعرهنّ بِلَدَدِ من الخصام والجدل والمشاحنة، ولا تحقد عليهنّ، ولا تمسك يدها عن معروف يمكن أن تسديه إليهنّ، وتلقاهنّ دوماً بوجه متهلّل متألق طليق.

وهي في صِلاتها وعلاقاتها الاجتماعية امرأةٌ اجتماعية راقية من الطراز الأول، بما لَقِنَتْ من تعاليم دينها، وما استوعبت من أحكامه الغزيرة السمحة في فقه التعامل وسموّ الصِّلات ورفعة الأخلاق. فمن هذا النبع الثرّ الكبير تمتاح المرأة المسلمة أعرافها وعاداتها وسلوكياتها ومعاملاتها، ومن هذا المعين الصافي والمورد العذب تنهل القِيَم والأخلاق التي تزكّي نفسها وتكوّن شخصيتها الاجتماعية المتميّزة.

إنهـا حسنـة الخلـق، صـادقـة مستقيمـة مـع النـاس جميعـاً، لا تغشّ ولا تخدع ولا تغدر ولا تنافق ولا تشهد الزُّور، وهي ناصحة تدل على الخير، وتفي بالوعد، وهي متصفة بالحياء وعفة النفس، لا تتدخل فيما لا يعنيها، وتبتعد عن الخوض في الأعراض وتتبع العورات، بعيدة عن الرياء، عادلة في حكمها، لا تظلم، تنصف مَنْ لا تحبّ، لا تشمت بأحد، تجتنب ظن السوء، تمسك لسانها عن الغِيبة والنميمة، تجتنب السِّباب والكلام البذيء، لا تسخر من أحد، رفيقة بالناس، رحيمة، تعمل على نفع الناس ودفع الضرّ عنهم، تُنَفِّس عن المعسرة، كريمة سخيّة، لا تمنّ على مَنْ تعطيهم، حليمة، متسامحة لا تحقد ولا تضطغن، ميسِّرة غير معسِّرة، لا تحسُد، بعيدة عن المباهاة وحب الظهور، تجتنب التنطّع والتكلّف، شخصيتها محبَّبة للناس، آلفة مألوفة، تحفظ السرّ، طلقة الوجه، خفيفة الظلّ، تدخل السرور على القلوب، غير متزمّتة، لا تتكبّر، متواضعة، معتدلة في لباسها ومظهرها، تهتم بمعالي الأمور، تهتم بأمر المسلمين، تكرم الضيف، تؤثر على نفسها، تخضع عاداتها لمقاييس الإسلام، تلتزم بتحية الإسلام، لا تدخل غير بيتها إلا باستئذان، تجلس حيث ينتهي بها المجلس، لا تناجي امرأة ثانية إذا كنّ ثلاثاً، تجلّ الكبيرة وصاحبة الفضل، لا تحدّ

نظرها في بيت غيرها، تختار العمل المناسب لأنوثتها، لا تتشبّه بالرجال، تدعو إلى الحق، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لبقة حكيمة في دعوتها، تعاشر النساء الصالحات، تسعى بالصلح بين المسلمات، تخالط النساء وتصبر على أذاهنّ، تقدّر المعروف وتشكر عليه، تعود المرضى ولا تتبع الجنازة.

هذه هي شخصية المرأة المسلمة التي صاغها الإسلام بهَدْيه الحكيم، وأضاء قلبها وبصيرتها بنوره اللألاء.

ولعمري إنها النموذج الأرقى لأي امرأة عرفتها المجتمعات البشرية؛ إذ جمعت إلى مكارم الأخلاق السالف ذكرها، رجاحة العقل، ونقاء النفس، وسموّ الروح، وسلامة التصوّر للكون والحياة والإنسان، وعمق الوعي لرسالتها الخطيرة في الحياة.

ولا ريب أن الوصول بالمرأة إلى هذا المستوى الراقي من التكوين الخلقي والروحي والنفسي والفكري، نعمةٌ إنسانيةٌ كبرى، لا تعدلها نعمة من النعم الكثيرة التي يتقلب في أعطافها البشر، وإنجازٌ حضاريٌّ أكبر من كل إنجاز توصلت إليه الإنسانية في عمرها الطويل؛ ذلك أن بلوغ المرأة ذلك المستوى العالي من التكوين، يعني نموّ إنسانيتها، ونضج شخصيتها، وأهليتها الكاملة لأداء رسالتها الكبرى في الحياة.

إن ما نشهده اليوم من تخلف المرأة المسلمة عن المستوى العالي الذي أراده لها الإسلام في كثير من بقاع العالم الإسلامي، مَرَدُّهُ إلى بعد المسلمين عامة عن مناهل دينهم الصافية، وتيههم في مضارب الجاهلية أو التبعية الفكرية والنفسية لغيرهم. وما كان شيء من هذا ليكون في حياة المسلمين

بعامة، والمرأة المسلمة بخاصة، لو سلمت للمسلمين مناهلهم الفكرية والروحية، وأقبل الرجال والنساء على العبّ منها، والتزوّد بزادها النقي الصافي الذي يكسبهم المناعة والأصالة والتميّز.

وإذا كانت الغارة على العالم الإسلامي قد استهدفت شخصية المسلم بعامة، سواء أكان رجلاً أم امرأة، لهزّها وزحزحتها عن أصالتها وتلويث مناهلها الفكرية، فإن مما لا شك فيه أنها استهدفت شخصية المرأة بخاصة في كثير من حملاتها، بغية تَعْرِيتها من ثوب الفضيلة الذي عُرِفَتْ به عبرَ تاريخها الطويل، وإلباسِها الثوبَ المستعارَ الضيقَ المزيَّفَ الذي يجعل منها صورة من المرأة الأجنبية، في شكلها وتفكيرها وسلوكها.

ولقد بُذِلَتْ في سبيل ذلك جهود جبارة، تبنّت الدعوةَ إلى تغريب المرأة المسلمة فيها جمعياتٌ وهيئاتٌ وحركاتٌ، باءت كلّها بحمد الله بالإخفاق أمام صحوة المرأة المسلمة المثقفة الواعية هَدْيَ دينها، وبدا التراجعُ في كثير من تصريحات أنصار التغريب من رجال ونساء، والاعترافُ بعمقِ عقيدة المرأة المسلمة، وأصالةِ الإسلام في تفكيرها ونفسيتها ومشاعرها.

والآمال الكبار المعلّقة على المرأة المسلمة الواعية في أداء رسالتها السامية، تتطلّب منها مزيداً من إثبات شخصيتها، في أي مكان كانت، وفي أي ظرف عاشت؛ ففي إثبات شخصيتها المسلمة برهان ساطع على وعيها وسموّها وصدق انتمائها إلى الإسلام الخالد وحضارته الإنسانية المتميّزة، وفي ذلك أيضاً دليل واضح على جدارتها بالنهوض بأمتها التي تنتسب إليها، وترقية الوطن الذي تعيش فيه.

❑ ❑ ❑

أهم المصادر والمراجع

١ ــ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢.

٢ ــ أحكام النساء لابن الجوزي. المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٤٠٥.

٣ ــ الأدب المفرد: فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري.

٤ ــ الأذكار للنووي. دار القبلة، جدة ١٤١٣.

٥ ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر. دار نهضة مصر، بدون تاريخ.

٦ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزريّ. مصر، بدون تاريخ.

٧ ــ الإصابة في تمييز الصحابة. دار نهضة مصر، بدون تاريخ.

٨ ــ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. المصورة عن دار الكتب بمصر، بدون تاريخ.

٩ ــ أنساب الأشراف للبلاذري. دار المعارف بمصر بدون تاريخ.

١٠ ــ البداية والنهاية لابن كثير. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٩.

١١ ــ تاريخ الإسلام للذهبي. دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧.

١٢ ــ تاريخ الطبري. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧.

١٣ ــ تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي. إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر بدون تاريخ.

١٤ ـ تراجم سيدات بيت النبوة للدكتورة بنت الشاطىء. دار الكتاب العربي، بيروت بدون تاريخ.

١٥ ـ الترغيب والترهيب للمنذري. قطر، بدون تاريخ.

١٦ ـ جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت. المكتبة العلمية، بيروت بدون تاريخ.

١٧ ـ الحماسة لأبي تمام. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠١.

١٨ ـ حياة الصحابة للكاندهلوي. دار القلم ١٤٠٣.

١٩ ـ دلائل النبوة للبيهقي. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥.

٢٠ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين. بيروت، بدون تاريخ.

٢١ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية. مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية ١٤٠١.

٢٢ ـ سنن أبي داود. مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٩، ودار الحديث، سورية ١٣٨٨.

٢٣ ـ سنن ابن ماجه. دار إحياء الكتب العربية، مصر، بدون تاريخ.

٢٤ ـ سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح. دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٢٥ ـ السنن الكبرى للنسائي. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١.

٢٦ ـ سنن النسائي. دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٦، والبابي الحلبي مصر ١٣٩٨.

٢٧ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١.

٢٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام. دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

٢٩ ـ شرح السنة للبغوي. المكتب الإسلامي ١٣٩٠.

٣٠ ـ الشمائل المحمدية للترمذي. دار الحديث، بيروت ١٤٠٥.

٣١ ــ صحيح مسلم بشرح النووي. دار الفكر، بيروت ١٤٠١.

٣٢ ــ صفة الصفوة لابن الجوزي. دار الوعي بحلب ١٣٨٩.

٣٣ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد. دار بيروت ١٣٩٨.

٣٤ ــ طرفة بن العبد: حياته وشعره للدكتور الهاشمي. دار البشائر الإسلامية ١٤٠٠.

٣٥ ــ عشرة النساء للنسائي. مكتبة السنة بمصر ١٤٠٨.

٣٦ ــ العقد الفريد لابن عبد ربه. دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٤.

٣٧ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر. دار المعرفة، بدون تاريخ.

٣٨ ــ فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري، فضل الله الجيلاني، المكتبة السلفية ١٤٠٧.

٣٩ ــ كشف الأستار للهيثمي. مؤسسة الرسالة ١٤٠٤.

٤٠ ــ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لحسام الدين الهندي. مؤسسة الرسالة ١٣٩٩.

٤١ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

٤٢ ــ مختصر تفسير ابن كثير. دار القرآن الكريم ١٤٠٢.

٤٣ ــ المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي ١٤٠٤.

٤٤ ــ المرأة في الإسلام للدكتور معروف الدواليبي. دار النفائس ١٤٠٩.

٤٥ ــ المستدرك للحاكم النيسابوري. مكتبة النصر الحديثة، الرياض بدون تاريخ.

٤٦ ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل. دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

٤٧ ــ المعجم الكبير للطبراني. مطبعة الزهراء، الموصل ١٤٠٦.

٤٨ ـ المغازي للواقدي. عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
٤٩ ـ المغني لابن قدامة. مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١.
٥٠ ـ المقاصد الحسنة للسخاوي. مكتبة الخانجي بمصر ١٣٧٥.
٥١ ـ من الرق إلى السيادة تأليف سامحة آي ويردي. نشر DAMLA.
٥٢ ـ الموطّأ للإمام مالك. دار إحياء الكتب العربية بمصر، بدون تاريخ.
٥٣ ـ ميزان الاعتدال للذهبي. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٨٢.

● ● ●

المحتويات

مقدمة الطبعة الثالثة .... (أ) ـ (ب)
مقدمة الطبعة الأولى .... ٥ ـ ١٠
١ ـ المرأة المسلمة مع ربّها .... ١١ ـ ١٠١

مؤمنة يقظة: ١١. عابدة ربّها: ١٥. تقيم الصلوات الخمس: ١٥. قد تشهد الجماعة في المسجد: ١٧. تحضر صلاة العيدين: ٢٧. تصلّي السنن الرواتب والنوافل: ٣١. تحسن أداء الصلاة: ٣٤. تؤدي زكاة مالها: ٣٥. تصوم شهر رمضان وتقوم ليله: ٣٧. تصوم النافلة: ٤١. تحج بيت الله الحرام: ٤٣. تعتمر: ٤٣. مطيعة أمر ربّها: ٤٤. لا تخلو بأجنبي: ٥٠. تلتزم الحجاب الشرعي: ٥١. تتجنّب الاختلاط المطلق: ٥٨. لا تصافح الرجال من غير المحارم: ٥٩. لا تسافر إلاَّ ومعها ذو محرم: ٦٠. راضية بقضاء الله وقدره: ٦١. أوَّابة: ٦٣. تشعر بمسؤوليتها عن أفراد أسرتها: ٦٣. همّها مرضاة الله تعالى: ٦٤. متمثّلة معنى العبودية لله: ٦٥. تعمل على نصرة دين الله: ٦٧. معتزة بشخصيتها الإسلامية ودينها الحق: ٨٦. ولاؤها لله وحده: ٩٤. تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٩٧. كثيرة التلاوة للقرآن: ٩٩.

٢ ــ **المرأة المسلمة مع نفسها** .... ١٠٢ ــ ١٣٥

تمهيد ١٠٢

(أ) **جسمها**: معتدلة في طعامها وشرابها: ١٠٣. تزاول الرياضة البدنية: ١٠٥. نظيفة الجسم والثياب: ١٠٥. تعتني بفمها وأسنانها: ١٠٩. تهتم بتحسين شعرها: ١١١. حسنة الهيئة: ١١٢. لا تنزلق إلى التبرّج والإفراط في الزينة: ١١٦.

(ب) **عقلها**: تتعهد عقلها بالعلم: ١١٨. ما ينبغي للمرأة المسلمة تعلّمه وإتقانه: ١٢٣. نبوغ المرأة المسلمة في العلم: ١٢٤. بعيدة عن الخرافات: ١٢٩. لا تنقطع عن المطالعة: ١٣٠.

(ج) **روحها**: تلزم العبادة وتزكية النفس: ١٣١. تختار الرفيقة الصالحة وتلزم مجالس الإيمان: ١٣٢. تكثر من ترديد الصيغ والأدعية المأثورة: ١٣٤.

٣ ــ **المرأة المسلمة مع والديها** .... ١٣٦ ــ ١٤٨

برّة بهما: ١٣٦. عارفة قدرهما وما يجب عليها نحوهما: ١٣٦. تبرّ والديها ولو كانا غير مسلمين: ١٤١. شديدة الخوف من عقوقهما: ١٤١. تبرّ أمها ثم أباها: ١٤٢. تحسن أسلوب برّهما: ١٤٥.

٤ ــ **المرأة المسلمة مع زوجها** .... ١٤٩ ــ ٢٠٩

الزواج في الإسلام: ١٤٩. تحسن اختيار الزوج: ١٥٠. مطيعة زوجها بارّة به: ١٥٧. تبرّ أمه وتكرم أهله: ١٧٦. تتودّد إلى زوجها وتحرص على رضاه: ١٧٧. لا تفشي له

سرّاً: ١٨٢. تقف إلى جانبه وتشاركه الرأي: ١٨٥. تشجّعه على الإنفاق في سبيل الله: ١٩٣. تعينه على طاعة الله: ١٩٣. تملأ نفسه: ١٩٤. تتزيّن له: ١٩٦. تلقاه مرحة مؤنسة شاكرة: ١٩٧. تشاركه أفراحه وأتراحه: ١٩٨. غضيضة الطرف عن غيره: ١٩٩. لا تصف له امرأة: ١٩٩. تحقّق له الهدوء والراحة والسَّكَن: ٢٠٠. متسامحة صفوح: ٢٠١. قويّة الشخصية حكيمة: ٢٠١. من أنجح الزوجات: ٢٠٨.

■ ــ المرأة المسلمة مع أولادها .... ٢١٠ ــ ٢٢٧

تمهيد: ٢١٠. تدرك مسؤوليتها الكبرى تجاه أولادها: ٢١١. تسلك في تربيتهم أنجع الأساليب: ٢١٥. تشعرهم بحبها وحنانها: ٢١٦. تسوّي بين أولادها وبناتها: ٢١٩. لا تفرّق في حنوّها ورعايتها بين البنين والبنات: ٢٢٠. لا تدعو على أولادها: ٢٢٣. متنبّهة إلى كل ما يؤثّر في تكوينهم وتوجيههم: ٢٢٤. تغرس فيهم مكارم الأخلاق: ٢٢٧.

٦ ــ المرأة المسلمة مع كنائنها وأصهارها .... ٢٢٨ ــ ٢٣٧

(أ) مع كنائنها: نظرتها إلى كنتها: ٢٢٨. تحسن اختيارها: ٢٢٨. تقدر حقيقة وجودها في بيت الزوجية: ٢٢٩. تنصح ولا تتدخل في الخصوصيات: ٢٣٠. تبرها وتحسن معاملتها: ٢٣١. حكيمة عادلة في حكمها على كنتها: ٢٣٢.

(ب) مع أصهارها: نظرتها إلى الصهر: ٢٣٣. تحسن

اختياره: ٢٣٣. تكرمه وتبرّه: ٢٣٤. تعين ابنتها على حسن تبعلها زوجها: ٢٣٤. عادلة لا تتحيز لابنتها: ٢٣٥. حكيمة لبقة في مواجهة المشكلات: ٢٣٦.

٧ ـ المرأة المسلمة مع أقربائها وذوي رحمها .... ٢٣٨ ـ ٢٥٣

المرأة المسلمة والأرحام: ٢٣٨. حفاوة الإسلام بالرَّحِم: ٢٣٨. المرأة المسلمة تصل رحمها حسب هَدْي الإسلام: ٢٤٥. تصل أرحامها ولو كانوا غير مسلمين: ٢٤٨. تفهم صلة الرحم بمعناها الواسع: ٢٥٠. تَصِل رحمها وإن لم يَصِلوها: ٢٥١.

٨ ـ المرأة المسلمة مع جيرانها .... ٢٥٤ ـ ٢٦٨

المسلمة محسنة وَدود لجيرانها: ٢٥٤. متمثّلة هَدْي الإسلام في الوصية بالجيران ٢٥٤. تحب لجيرانها ما تحب لنفسها: ٢٥٧. تحسن إلى جيرانها على قدر طاقتها: ٢٥٨. تخصّ بإحسانها جيرانها ولو كانوا من غير المسلمين: ٢٦٠. تقدّم في إحسانها لجيرانها الأقرب فالأقرب: ٢٦١. المسلمة الصادقة خير جارة: ٢٦١. جارة السُّوء وصفحتها السوداء: ٢٦٢. جارة السُّوء عُرِّيَتْ من نعمة الإيمان: ٢٦٣. جارة السُّوء امرأة حَبِطَ عملُها: ٢٦٤. لا تقصّر المسلمة في إسداء المعروف إلى جيرانها: ٢٦٥. تصبر على هنات جاراتها وأذاهنّ: ٢٦٧.

٩ ـ المرأة المسلمة مع أخواتها وصديقاتها .... ٢٦٩ ـ ٢٩٦

تحبهنّ وتؤاخيهنّ في الله: ٢٦٩. منزلة المتحابّات

في الله: ٢٧٠. تأثير الحب في الله في حياة المسلمين والمسلمات: ٢٧٣. لا تقاطع أخواتها ولا تهجرهنَّ: ٢٧٥. متسامحة عفوّ عنهنّ: ٢٨٠. تلقى أخواتها بوجه طليق: ٢٨٢. ناصحة لهنّ: ٢٨٣. برّة وفيّة لهنَّ: ٢٨٥. رفيقة بهنَّ: ٢٨٧. لا تغتابهنّ: ٢٨٨. تجتنب معهنّ المخاصمة والمُزاح المؤذي والإخلاف بالوعد: ٢٩٠. جواد سخيّة تكرم أخواتها: ٢٩١. تدعو لأخواتها بظهر الغيب: ٢٩٤.

١٠ ــ المرأة المسلمة مع مجتمعها .... ٢٩٧ ــ ٤٨٧

تمهيد: ٢٩٧. حسنة الخلق: ٢٩٨. صادقة: ٣٠٣. لا تشهد الزور: ٣٠٤. ناصحة: ٣٠٥. تدلّ على الخير: ٣٠٧. لا تغشّ ولا تخدع ولا تغدر: ٣٠٨. موفية بالوعد: ٣١٠. تجتنب النفاق: ٣١٣. متَّصفة بالحياء: ٣١٦. عفيفة عزيزة النفس: ٣١٨. لا تتدخَّل فيما لا يعنيها: ٣١٩. تبتعد عن الخوض في الأعراض وتتبع العورات: ٣٢٠. بعيدة عن الرياء: ٣٢٢. عادلة في حكمها: ٣٢٦. لا تظلم: ٣٢٨. تُنْصِف مَنْ لا تحبّ: ٣٢٩. لا تشمت بأحد: ٣٣٣. تجتنب ظن السوء: ٣٣٤. تمسك لسانها عن الغيبة والنميمة: ٣٣٧. تجتنب السِّباب والكلام البذيء: ٣٤٠. لا تسخر من أحد: ٣٤٢. رفيقة بالناس: ٣٤٣. رحيمة: ٣٤٧. تعمل على نفع الناس ودفع الضرّ عنهم: ٣٥١. تُنَفِّس عن المعسرة: ٣٥٦. كريمة سخيّة: ٣٥٨. لا تمنّ على مَنْ تعطيهم: ٣٦٨. حليمة: ٣٦٩. متسامحة لا تحقد

ولا تضطغن: ٣٧٢. ميسّرة غير معسرة: ٣٧٨. لا تحسُدُ: ٣٧٩. بعيدة عن المباهاة وحب الظهور: ٣٨٢. تجتنب التنطّع والتكلّف: ٣٨٣. شخصيتها مُحبَّبة للناس: ٣٨٤. آلفة مألوفة: ٣٨٥. تحفظ السرّ: ٣٨٨. طلقة الوجه: ٣٩١. خفيفة الظلّ: ٣٩٢. تدخل السرور على القلوب: ٣٩٥. غير متزمتة: ٣٩٦. لا تتكبّر: ٤٠٠. متواضعة: ٤٠٢. معتدلة في لباسها ومظهرها: ٤٠٤. تهتم بمعالي الأمور: ٤٠٧. تهتم بأمر المسلمين: ٤٠٧. تكرم الضيف: ٤٠٩. تؤثر على نفسها: ٤١٣. تخضع عاداتها لمقاييس الإسلام: ٤١٥. تأخذ بأدب الإسلام في الطَّعام والشَّراب: ٤١٩. تلتزم بتحية الإسلام: ٤٢٧. لا تدخل غير بيتها إلاّ باستئذان: ٤٣٢. تجلس حيث ينتهي بها المجلس: ٤٣٧. لا تناجي امرأة ثانية إذا كنَّ ثلاثاً: ٤٣٩. تجل الكبيرة وصاحبة الفضل: ٤٤١. لا تحدّ نظرها في بيت غيرها: ٤٤٣. تجتنب التثاؤب في المجلس ما استطاعت: ٤٤٣. تأخذ بأدب الإسلام عند العطاس: ٤٤٤. لا تتطلّع إلى طلاق غيرها لتحلّ محلّها: ٤٤٧. تختار العمل المناسب لأنوثتها: ٤٤٩. لا تتشبّه بالرجال: ٤٥٤. تدعو إلى الحق: ٤٥٧. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر: ٤٥٩. لبقة حكيمة في دعوتها: ٤٦٢. تعاشر النساء الصالحات: ٤٦٦. تسعى بالصلح بين المسلمات: ٤٦٩. تخالط النساء وتصبر على أذاهنّ: ٤٧١. تقدّر المعروف وتشكر عليه: ٤٧٢. تعود

المرضى: ٤٧٤. لا تنوح على الميت: ٤٨١. لا تتبع الجنازة: ٤٨٦.

١١ ــ خاتمة وتعقيب .... **٤٨٨ ــ ٤٩٤**

المصادر والمراجع .... **٤٩٥ ــ ٤٩٨**

محتويات الكتاب .... **٤٩٩ ــ ٥٠٥**

● ● ●

كتب للمؤلف

١ ــ جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق ودراسة.

٢ ــ عَدِيّ بن زيد العِباديّ: الشاعر المبتكر ــ حياته وشعره.

٣ ــ طَرَفَة بن العبد: حياته وشعره.

٤ ــ كعب بن مالك الأنصاري: الصحابي الشاعر الأديب.

٥ ــ عمر بهاء الدين الأميري: شاعر الأبوّة الحانية والبنوّة البارّة والفن الأصيل.

٦ ــ المنهل العذب في الدراسة الأدبية والإعراب والبلاغة والعروض والقوافي.

٧ ــ العروض الواضح وعلم القافية.

٨ ــ شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم.

٩ ــ شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنّة.

١٠ــ شخصيّة المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنّة.

١١ــ ومضات الخاطر: بحوث ودراسات إسلامية، اجتماعية، أدبية.

١٢ــ سلبيّات يجب أن تختفي من حياة الإسلاميّين.

١٣ ــ المجتمع المسلم كما يبْنيه الإسلام في الكتاب والسُّنَّة.

• • •

تُرجِم كتاب شخصية المسلم إلى اللغات الأجنبية التالية :

١ ـ الإنكليزية.

٢ ـ الفرنسية.

٣ ـ الروسية.

٤ ـ التركية.

٥ ـ المَلايِيَّة (لغة ماليزيا الرسمية).

٦ ـ الأوردية.

* * *

تُرجِم كتاب شخصية المرأة المسلمة إلى اللغات الأجنبية التالية :

١ ـ الإنكليزية.

٢ ـ الفرنسية.

٣ ـ الروسية.

٤ ـ التركية.

٥ ـ المَلايِيَّة (لغة ماليزيا الرسمية).

هذا الكتاب

- يبرز شخصية المرأة المسلمة كما أراد لها الإسلام أن تكون، طبقاً لتوجيهاته لها في شتى جوانب الحياة، ووفاقاً لهَدْيه الحكيم في صياغة عقلها وروحها ونفسيتها وأخلاقها وسلوكها.
- يبيّن النقلة الهائلة التي نقل بها الإسلامُ المرأةَ من وهدة التخلف والذل والضياع والحاجة، إلى علياء التقدم والعزة والأمن والكفاية.
- يجلّي العناية البالغة التي أولاها الإسلامُ المرأةَ في تكوين شخصيتها تكويناً كاملاً شاملاً كلَّ جانب من جوانب شخصيتها الفردية والأسرية والاجتماعية، حتى بلغت في تكوينها الشأْوَ الرفيع الذي لم تبلغه المرأة في تاريخها إلّا في هذا الدين.
- يوضّح من خلال النصوص الصحيحة القاطعة من كتاب الله وسنة رسوله التوازنَ المحكَمَ الدقيقَ الذي حققه الإسلام في صياغة شخصيتها، بحيث لا يطغى جانب منها على جانب، كما يقع في المجتمعات التي تربّي المرأةَ فيها مناهجُ البشر القاصرة التي كثيراً ما تتحكّم في وضعها الأهواء والبدع والمفاهيم المنحرفة والشهوات.
- يُظْهِرُ دورَ المرأة المسلمة الحقيقي في الحياة؛ فهي ليست مجرّد قعيدة بيت، وحاضنة أطفال، ومدبّرة منزل فحسب، وإنما هي، بالإضافة إلى هذا كله، مربية أجيال، وصانعة أبطال، ورائدة دعوة، وعنصر وعي ونهضة وبناء في شتى شؤونِ الحياة، تقف إلى جانب الرجل في إعمار الكون، وإثراء الحياة، وإسعاد الوجود، وترطيب جفاف العيش.
- يقيم الدليل على أن المرأة المسلمة التي استنارت بهَدْي دينها امرأةٌ راقيةٌ مهذّبةٌ واعيةٌ نابهةٌ منتجةٌ بنّاءةٌ طاهرةٌ ساميةٌ، تعرف عن وعي وبصيرة وإدراك واجباتها نحو ربها، ونحو نفسها، ونحو والديها، ونحو زوجها وأولادها، ونحو كنائنها وأصهارها، ونحو أقربائها وذوي رَحِمها، ونحو جيرانها، ونحو أخواتها وصديقاتها، وغيرهنّ ممن تلقاهنّ في المجتمع الذي تعيش فيه.
- وقد صاغ المؤلف هذا كلّه بأسلوب مشرق متين، يجمع بين أصالة الفكرة وعمقها، وجمال العرض وقوته.

فلا غنى للمرأة المسلمة عن هذا الكتاب، للتعرّف على شخصيتها الأصيلة.

الناشر

دار التدمرية
SR 30
82174